جورج أورويل

العالم
عام
ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين

نقلها للعربية
عزيز ضياء

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م
جدة - المملكة العربية السعودية





الغلاف للفنان : ضياء عزيز ضياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

تهامة

جدة - المملكة العربية السعودية

ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

العالم

عام

ألف وتسعمائة وأربعة وثمانين

تقديم

تضطلع شركة تهامة بنشر هذه القصة في نفس العام الذي اختاره كاتبها جورج اورو يل زمانا لأحداثها التي اختار أيضا أن تقع في مدينة لندن. وحين أفرغ لكتابة هذه المقدمة، في الخامس عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٨٣، أي قبيل حلول عام ١٩٨٤ بخمسة عشر يوما فقط، أجد نفسي في مواجهة متغيّرات عاصفة تهب على العالم من جهاته الأ ربع، على جهاته الأ ربع، بحيث لم يعد ميسورا أن تجد فيه بقعة لا تعصف باستقرارها هذه المتغيرات التي تتلاحق، و يتزايد عنفها، و بسرعة مشبعة بعنصر المفاجأة، الذي يكاد يتجاوز كل قدرات الكمبيوتر المتطور، على التقدير الدقيق، لما يمكن أن تتمخّض عنه تطورات الأحداث في اللحظة التالية من الساعة الواحدة في اليوم المعاش.

في البيت الأ بيض، كما في الكريملين، أزرار لا يستغرق ضغطها لحظة من الزمن، لتنطلق الصواريخ عابرة القارات، أو متوسّطة المدى، أو ذوات أي نوع من الأمداء، من قواعدها، برؤوسها النوو ية المتعددة، إلى حيث يراد لها من أقطار الأ رض، ليزاح الستار عن مشاهد فيلم (اليوم التالي) الذي يكاد يكون من المشكوك فيه أن يجد من يشهدونها، كما شهدتها عشرات الملايين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث عرضته جميع شاشات التليفزيون، رغم معارضة الرئيس رونالد ريجان، و بلغ من هول مشاهده، أن هرع الألوف إلى الشوارع خلال الدقائق الأ ولى من العرض.

اللحظة التالية من الساعة الواحدة في اليوم المعاش — أي يوم — هى التي لا يوجد إطلاقا ما يمنع أن يتم فيها ضغط تلك الأ زرار في البيت الأ بيض أوالكريملين، والمتغيّرات العاصفة التي ما تزال تتلاحق، و بهذه السرعة التي تسبق حسابات أي عقل الكتروني، تبرق في الواقع بما يرجّح أن العالم، إذا لم يكن يقترب من لحظة الدمار الشامل هذه، فهو لا يبتعد عن نتيجة أو نتائج لابد أن ينتهي إليها هذا الصراع الشرس بين الشرق والغرب، يتعذّر قطعا استكناه نوعها وحجمها وحدود انتشارها من سطح هذا الكوكب، ولكن لا يتعذّر أن نتصوّر أن العالم لن ينتهي إليها بأقل من كثير من الخراب والدمار ونزيف الدماء، والأ كثر من انهيار القيم وضمور، أو حتى اهتراء المثل والمفاهيم الحضارية، وضياع المذخور من سجايا ومعاني إنسانية الإنسان.

ومنذ بداية هذا الشهر، (ديسمبر)، وقبل أن أشرع في كتابة هذه المقدمة عن رواية ألف وتسعمئة وأربعة وثمانين لهذا الكاتب، كان مما استرعى انتباهي، أن جورج اورو يل أخذ يحتل مساحات من كبريات الصحف والمجلات الانجليزية والأمريكية، وكان الجامع بينه و بين هذه

البادرة ليس فقط، أننا نستقبل هذا العام الذي اختاره اورو يل زمنا لروايته، وإنما أيضا هذه المتغيرات العاصفة، التي ربما بدا للبعض، أنها تنذر بأن العالم مقبل، إن لم يكن في هذا العام، ففي عام ما قد لا يطول انتظاره، على عالم لا تختلف الحياة فيه كثيرا عن هذا العالم الذي يصوّره جورج اورو يل، إن لم يكن تحت مظلة الحكم الشمولي أو الشيوعي الذي لا أدري لِمَ أفترض الكاتب أنه يسيطر على العالم في هذا العام، وإنما في قبضة اليد الحديدية وتحت نظرات عيني (الأخ الكبير) (THE BIG BROTHER)، وكلتاهما تسيطر على حياة البشر، نوعا من السيطرة والتحكم عمادهما فنون من الارهاب، وأساليب في مصادرة حرية الإنسان، مع رمي القيم والمثل، في صندوق نفايات مصيرها الحرق، والحاح على الاجهاز على العدالة والحق والجمال، يصفه اورو يل بمستوى من الدقة والابداع يخيّل للقارىء معه، أن الكاتب قد عاش هذا الجحيم الذي يقف له شعر الرأس والبدن... وليس مما يستبعد على أية حال، أن اورو يل قد انتزع خامات الصورة البشعة مما كان يملأ سمع العالم من أخبار الاتحاد السوفيتي في عهد الطاغية جوزيف ستالين، منذ تعيينه سكرتيرا للحزب الشيوعي في ابريل عام ١٩٢٢. فقد تجاوز الملايين عدد الذين قضى عليهم بالموت ذلك الوحش، ابن العامل السكير في مصنع للأحذية في جورجيا بعد أبشع أعمال التعذيب، في معسكرات الاعتقال، ومجاهل سيبيريا وفي السجون، ومن مختلف الأعمار، بل ومن الجنسين، وفي كل بقعة من المدن أو الريف، وعلى الأخص في القسم الآسيوي من أراضي روسيا، حيث الجمهوريات الإسلامية التي استهدفها ستالين لسحق مقاومة سكانها الطويلة من جهة، وللقضاء على الدين الإسلامي فيها من جهة أخرى.

لقد افترض جورج اورو يل، أن هذه الصورة من جحيم الحكم الشمولي، سوف تظهر في عامنا هذا (١٩٨٤) حيث لن تكون في العالم سوى ثلاث دول هى (أوشينيا) و(واوريشيا) و(ايستيشيا). فإذا علمنا أنه قد فرغ من كتابة هذه القصة في نوفمبر عام ١٩٤٨ فإننا نرى أنه قد قدّر فترة تزيد قليلا عن ثلاثين عاما، ليتم في العالم أخطر تحوّل يمكن أن يخطر بالبال في الأنظمة التي تحكم العالم، حيث يسود في الدول الثلاث كلها هذا الحكم الشمولي، بكل ما يستغرق البشر فيه من نظام حياة، سحقت فيه جميع مقومات وقيم ومثل الإنسانية، كما عرفها وعاشها الإنسان طوال أحقاب التاريخ.

وهنا، يحسن أن نحاول، اكتشاف الدوافع التي جعلته يقدّر هذه الفترة القصيرة من الزمن لحدوث هذا التحول أو التطور الخطير. ولتقديره هذا، ما يمكن أن أسميه (علاقة) بين ما تخيّل أنه سوف يكون في هذا العام، و بين الواقع الذي يعيشه الإنسان فعلا، ليس فقط في هذا العام، وإنما منذ العقد الذي انتهت فيه الحرب العالمية الثانية، وحتى اليوم.

ولا أستطيع أن أحدد الزمن الذي (بدأ) يرى فيه ملامح قصّته، ولاشك طبعا في أنه أطال التفكير في موضوعها، قبل أن يشرع في كتابتها، ثم لاشك أيضا في أنه قضى فترة يعالج التخطيط

لمسارها، وأحكام الترابط بين مساوىء النظام الذي استهدف نقده و بين أحداث القصة التي مَحْورَها على العلاقة بين بطليها. ولاشك أنه كان يستهدي بردود الفعل التي كانت قد تراكمت في نفسه طوال سنوات وأحداث الحرب العالمية الثانية، وقبلها، الحرب الأهلية الأسبانية التي تطوع للاشتراك فيها، إلى جانب الثوار، وخرج منها، ليس فقط برصاصة أصابته في حنجرته كادت تقضي عليه، وإنما باكتشاف تآمر أو تواطؤ الحزب الشيوعي على الثورة والثوار، دعما لديكتاتورية فرانكو واذعاناً لتعليمات ستالين التي حثّت على سحق أنصار تروتسكي في الثورة، و باكتشاف ربما كان لا يقل أهمية، وهو أن المذهب الكاثوليكي في المسيحية، لا يختلف عن المذهب الشيوعي، إذ كل منهما يحارب حرية الفرد وحقه في التفكير المستقل.

لقد بدأ جورج اورو يل كتابة قصته في عام ١٩٤٦، ومع أنه كان لا يجهل أنه مريض بالسل الرئوي، فقد ظل يهمل عرض نفسه على الأطباء للعلاج، وحين استطاع بعض أصدقائه حمله على استشارة طبيب في لندن، متخصص في أمراض الصدر، كان مما أثار الطبيب أن مريضه لا يلقى بالا إلى ضرورة الركون إلى الراحة من أي عمل، لأنه ــ كما قال ــ حريص على أن يفرغ من كتابة قصته... ولقد بدا لهذا الطبيب أن اورو يل بمسلكه هذا، ربما كان يحاول الانتحار.

وتوهم اورو يل أنه يحتاج إلى حياة أكثر هدوءاً وعزلة عن الناس، ليكرّس كل وقته لكتابة القصة، وفي الساحل الغربي من اسكوتلاندا، توجد جزيرة (جورا) لا يدري أحد لم اختارها وغادر لندن إليها، حيث توفر له الهدوء والعزلة فعلا، ولكن صحته تدهورت، لأن الكثير من الجزر الصغيرة، ومثلها المدن، بعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن قد استعادت طبيعتها، من حيث وفرة الفحم للمدافىء واستمرار تواجد التيار الكهربائي، وغير ذلك من ضروريات الحياة، وكان لذلك تأثيره السيىء على مريض بالسل، ظل يصر على أن يواصل الكتابة، لأن أشد ما كان يخشاه أن يموت قبل أن يتمكن من إنهاء قصته. وقد استطاع على أي حال، و بجهد استنفد كل طاقته، أن يفرغ منها في نوفمبر عام ١٩٤٨.

ونحن نرى، أنه ظل يعالج كتابة القصة خلال الفترة من عام ١٩٤٦، إلى نوفمبر عام ١٩٤٨. فإذا تذكرنا أن الحرب العالمية الثانية قد انتهت باستسلام اليابان في أغسطس عام ١٩٤٥ فإننا نستطيع أن نتصوّر المشاعر والأفكار، ــ ولنقل المخاوف ــ التي كانت تعصف بذهن جورج اورو يل، وقد استوعب دون شك تلك التطورات السياسية المصيرية التي تمخضت عنها تلك الحرب، ومنها، ميثاق الأمم المتحدة، الذي وقّعته إحدى وخمسون دولة في ٢٤ أكتوبر عام ١٩٤٥ بعد صياغة مواده، والاتفاق على أهدافه في مؤتمر سان فرانسيسكو الذي انعقد في الفترة من أوائل ابريل إلى ٢٦ يونية عام ١٩٤٥، وذلك على أساس المبادىء والمقترحات الرئيسية التي سبق أن اتفقت عليها ست وعشرون دولة في مؤتمر عقد في دومبارتن أوكس (من ضواحي واشنطن) في أول يناير عام ١٩٤٢. وكان من هذه التطورات، التي يتعذر أن نتصور أن جورج اورو يل، لم يلحظْها

(الاعلان العالمي لحقوق الإنسان) في ١٠ ديسمبر عام ١٩٤٨، وعلى التحديد بعد أن فرغ من كتابة القصة بشهر واحد فقط وكانت الصحافة تلاحق بالطبع أخبار الأمم المتحدة وما تصدره من قرارات، منها هذا الاعلان.

فهو ـ من هذا المنظور ـ واع تماما، ومدرك أن عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية يتطلّع إلى تحقيق هذه المبادىء التي بدا أن الإنسان قد صمّم على أن يعيشها ممارسةً ومنهجَ حياة، رسمه ميثاق الأمم المتحدة وقد التزمت به هذه المجموعة من الدول، وفي مقدمتها، الدول الكبرى التي استطاعت أن تهزم دول المحور (ألمانيا ـ إيطاليا ـ اليابان) على حساب دماء وأرواح الملايين من البشر، طحنتهم آلة الحرب، وطحنت معهم من الموارد والأموال، ما لو توفر وأنفق لخير البشر، في مختلف بقاع الأرض، لجعل الحياة فردوسا، هو حلم الإنسان منذ كان... والاعلان العالمي لحقوق الإنسان بالذات، ومن أهم ما قرره باتفاق المجتمع الدولي كله: تمكين الإنسان من أن يطمئن إلى عيش مستقر لا يهدده الخوف والعوز والفاقة بعيدا عن سيف التنكيل، وعن سياط التعذيب، والارهاب والانتقام. وقد قيل إن هذه الحقوق قد استنبطت واعتمدت على ما سمّي «روح العصر» وتجارب الماضي ومطالب الحاضر، وهى ضمان العيش للفرد ووقايته من شبح البطالة، والاضطهاد، مع الاعتراف (الدولي) له بالكرامة والحقوق المتساوية والثابتة، باعتبار كل ذلك هو الأساس للحرية والعدل والسلام في العالم. ولذلك فقد نصّت المادة الخامسة من هذا الإعلان على أنه (لا يعرّض أي إنسان للتعذيب، ولا للعقوبات، أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو المُحِطة بالكرامة) كما نصت المادة السابعة على أن (كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز وضد أي تحريض على التمييز). ولعل أهم ما نص عليه الاعلان هو ما جاء في المادة التاسعة التي قالت (لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفا)... هذا الاعلان هو الذي ربما استهدفه جورج اورويل في قصته ليقول لنا: إن هذه الحقوق هي التي سوف تظل تنتهك، طوال الفترة من عام ١٩٤٨ الذي فرغ فيه من كتابة قصته إلى عامنا هذا (١٩٨٤)، حيث يتخيّل سيادة الحكم الشمولي وعموده الفقري.، حكم الحزب الواحد، الذي لا ينتهك هذه الحقوق فقط، وإنما هو يستأصل كل أثر لوجودها حتى في تاريخ الإنسان وفي ماضيه الطويل.

كأني به، يرفض أن يصدّق حرفا واحدا مما كانت تتصايح به دول العالم (الحر) بعد الحرب العالمية الثانية... يرفض أن يصدق أن المبادىء والمثل والأهداف التي التزم بها الذين صاغوا، ثم وقّعوا ميثاق الأمم المتحدة، ثم الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، يمكن فعلاً أن تحتضن حياة هذا الإنسان، بعد كل الذي اكتوى وشقي به في الحربين الأولى والثانية، فكان من طبيعة منطق هذا الرفض، أن يرى اورويل حياة الإنسان، بعد أكثر من ثلاثين عاما من طرح هذه المثل والمبادىء والأهداف، كما يصوّرها في قصته، في عامنا هذا... عام (١٩٨٤).

يذهب بعض الذين درسوا وحلّلوا أعماله من النقاد ــ و يزيد عددهم عن خمسين ــ إلى أن اورو يل أراد أن يوجّه إلى العالم (إنذارا)، بما يتربص به، وما يمكن أن يؤول إليه حاله فيما لو قدّر لأنظمة حكم (الحزب الواحد)، تحت مظلة النظام الشمولي أو (الشيوعي)، أن تنتصر فتسود العالم.

ومع أن المعروف عن اورو يل، أنه كان ــ في عقد الثلاثينات ــ يميل إلى الاشتراكية وربّما انتصر في هذه الفترة، لحركة اليسار في بريطانيا، وقد بدا حينئذ كأن حزب العمال فيها يروج للمبادىء الشيوعية، فإنه يتصدّى لها، ولمساوىء نظامها في الاتحاد السوفيتي، وعلى الأخص في عهد جوزيف ستالين، حيث كان قد ظهر للعالم بأبشع ما فيه من القسوة والتوحّش، والطغيان بلا حدود ولاسبيل إلى الشك في أنه كتب، كتابه الآخر: (مزرعة الحيوان) من منطلق تصدّيه ورفضه لهذا النظام. ومع أن هذا الكتاب قد نشر في عام ١٩٤٥، وفي نفس الشهر الذي أسقطت فيه القنبلة الذريّة ــ لأ ول مرة في تاريخ العالم ــ على هيروشيما ثم على ناجازاكي في اليابان، فإن من النقاد من يقول إن جورج أورو يل، أمضى وقتا طو يلا في تأليفه، مما يدل على أن رفضه للشيوعية ولنظام حكم (الحزب الواحد)، قد بدأ وظل يلازمه، و يستثير مشاعره، منذ وقت طو يل أيضا. و يسجّل النقاد، لهذا الكتاب، مصادفتين عجيبتين، هما، أنه نشر في أغسطس عام ١٩٤٥، وهو كما قلنا نفس الشهر الذي أسقطت فيه القنبلتان الذريّتان على المدينتين اليابانيتين. والثانية أن اورو يل قد ذيّل النص، بتاريخ (نوفمبر ١٩٤٣ ــ فبراير ١٩٤٤)، والفترة بين التاريخين إذا كانت تحدد فترة التأليف فإنها، هى نفسها الفترة التي كان فيها مشروع القنبلة الذريّة والاعداد لإسقاطها، على المدينتين، يأخذ طريقه إلى القمة التي انتهى إليها. و يعلّق هنا (سي. ام، وودهاوس) في الملحق الأدبي لجريدة التايمز في ٦ أغسطس عام ١٩٥٤، على المصادفتين بأن هناك من يرى أن للقنبلة الذّرية هدفاً سياسيا لا علاقة له بالحرب اليابانية، وأن لكتاب (مزرعة الحيوان) الذي ألّفه جورج اورو يل، وصادف أن نشر في نفس الشهر الذي ألقيت فيه القنبلتان على اليابان، نفس الهدف الذي للقنبلة.. بعبارة أخرى... القنبلة الذرية، وكتاب (مزرعة الحيوان)، وقد ظهرا في وقت واحد، يستهدفان عدوا واحدا، هو نظام الحكم الشيوعي في العالم.

وقد واجه جورج اورو يل صعوبة في نشر (مزرعة الحيوان) في عام ١٩٤٥... واجه هذه الصعوبة في بريطانيا، بذريعة أن ستالين أو الاتحاد السوفيتي، كان حليفا لانجلترا ودول العالم الحر، وهذا إلى جانب أن الاعجاب بذلك السفاح في بريطانيا قد بلغ حد النظر إليه كبطل أسطوري في تاريخ الإنسان... ومما يذكر بهذه المناسبة أن بعض موظفي وزارة الخارجية البريطانية حين عرض الناشر (ووربرج) الكتاب عليهم، قد نصحوا بأن يختار المؤلف حيوانات غير الخنازير لتمثيل البلاشفة.. ولكنه أصرّ على ألاّ يمثل البلاشفة في كتابه إلا، الخنازير، لأنه لا ينسى أن الناس قد ألفوا كراهية هذا الحيوان بالذات، وأن الإنجيل أشار إليه بعبارات تثير الاشمئزاز... وعلى أية

حال فقد أقدم الناشر (وور برج) على نشر الكتاب، لأنه كان على عداء سافر للسوفيت، و يكره ستالين على وجه الخصوص... أما في أميركا، فقد واجه أورو يل صعوبة في نشر الكتاب أيضا، ولكن بذريعة تجارية مضحكة، وهي أن قصص الحيوانات، لا تلقى رواجا في الولايات المتحدة.

وكتاب (مزرعة الحيوان)، يمكن أن يوصف باختصار، بأنه قصة تصور الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧.. وصاحب المزرعة التي ثارت عليه حيواناتها (بقيادة الخنازير) هو نيقولا الثاني، آخر قياصرة الروس... والنشيد أو أغنية وحوش انجلترا التي تراءت للخنزير، (ميجر) وهو نائم وزعم أنه كان يحفظ لحنها منذ أيام طفولته... هي في الواقع النشيد الشيوعي الدولي الذي يعرف باسم (انترناسيونال) أما العلم الجديد، الذي رسم عليه الخنازير (الحافر والقرن)، فهو صورة كاريكاتورية عميقة السخرية بالعَلَم السوفيتي برمزيه المعروفين (المنجل والمطرقة)... أما نابليون الذي جعله اورو يل يتزعم الحيوانات، فهو (ستالين).

فنحن، من هذا الموقف، مع جورج اورو يل، نواجه في كتابه (ألف وتسعمئة وأربعة وثمانين)، ما يمكن ــ دون تجاوز كبير ــ أن يوصف بأنه امتداد لنفس مشاعر الكراهية والسخط التي جعلته يكتب (مزرعة الحيوان)، أو أنه، تطوير لهذه المشاعر، إذ ينتقل من مرحلة السخط والسخرية، إلى مرحلة تصوير وحشية النظام بما في القصة من وصف لأعمال التعذيب التي مارسها هذا النظام، على و ينستن سميث. وطبيعي أن يكون هدفه في العملين، إظهار مساوىء هذا الحكم، من جهة، وإنذار العالم بما سوف يواجهه البشر فيما لو قدر لهذا النظام أن ينتصر فيسود العالم في عام ١٩٨٤.

ولكن، يبدو أن من حق القارىء العربي، كالقارىء في أكثر من ستين لغة ترجم إليها هذا الكتاب أن يواجه نفسه بسؤال يطرحه عليه، ما يتلاحق يوميا تقريبا، وطوال سنين خلت من أخبار الحياة في بلدان كثيرة من العالم، أخضعتها الانقلابات، إما لحكم الحزب الواحد، إذا كان المدبّرون للانقلاب ينتمون إلى حزب في الظلام، وإما لحكم عسكري، يتصرف فيه قائد الانقلاب وعصابته من العسكريين في مقدرات الشعب كما يشاءون، وتحت مظلة الشعارات المألوفة المستهلكة. والسؤال هو: إذا كان أهم ما ينفّر القارىء من النظام الذي يُطبِقُ على الحياة في مدينة لندن في عام ١٩٨٤ هو اقتحام حياة الناس بالتجسّس، وأعمال التعذيب، التي يمارسها النظام على و ينستن سميث، فما هو الجديد في ذلك، والعالم يتفجّر اليوم، ليس فقط بالعنف والقسوة والعدوان، وإنما أيضا وعلى نحو يكاد يكون شاملا، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ما يسمّى العالم الثالث، يستوعب معظم سكان الأرض، بأشد أنواع أعمال التعذيب والقهر قسوة، و باقتحام حياة الناس بالتجسّس، تقوم به أجهزة الاستخبارات لصالح العصبة الحاكمة... بل قد يعتبر النموذج الذي خضع له و ينستن سميث في القصة، أرحم بمراحل من نماذج الأعمال التي تمارسها أنظمة الحكم العسكري، أو حكم الحزب الواحد، على مواطني أكثر بلدان هذا العالم. وحتى جهاز

(التيليسكرين) الذي تضعه السلطة في كل بيت (في القصة) وهو مجهّز بقدرة تقنية على الارسال المتبادل (بمعنى أنه كما يعطيك ما تراه على الشاشة، فإنه يأخذ ليرسل إلى الجهاز المكلف بالمراقبة المستمرة، ـــ بالصورة والصوت ـــ كل ما يحدث أو يقال أو يوجد في الغرفة التي يوضع فيها، وهذا مع استحالة إطفائه أو إبطال عمله بأي شكل من الأشكال)... حتى هذا الجهاز يقول تحقيق نشر في مجلة (يو. اس نيوز اندوورلد ريبورت) عن عالم اورو يل في عام ١٩٨٤، إنه قد أصبح اليوم شيئا بدائيا، بالنسبة للمتوفّر من أجهزة الرقابة والتصنت عن بعد وللأجهزة المتطورة من الكومبيوتر والتي ماتزال تتطور، ومنها بنك المعلومات، والتليفزيون السلكي وقد انتشر في أمريكا، وفي طريقه إلى الانتشار في بريطانيا وأوروبا، وهو يرسل للمشترك شحنة من البرامج والتمثيليات والأفلام السينمائية، والندوات، الخ... ويمكن ـــ عند اللزوم ـــ أن يزوّد بكاميرا ترسل إلى المحطة ما تراه عدسة هذه الكاميرا تماما كما يفعل (التيليسكرين). وفي هذا التحقيق يقول أحد مديري شركات الأليكترونيات في نيو يورك، إنه يستطيع أن يسمع أي محادثة بين شخصين، في أي وقت... وفي أي مكان، وذلك بمايكروفونات بالغة الدقة والصغر، و بأجهزة (الاستشعار والتحسّس «بالحاء» عن بعد)، التي تستخدم أشعة ليزر... و يعقّب أحد خبراء (الخصوصية الشخصية) في جامعة أيلينو يز قائلا: (إن هيكل عالم جورج اورو يل في سنة ١٩٨٤ موجود هنا، وكل ما ينقصه الآن، هو (الأخ الكبير) (THE BIG BROTHER). ومع أن الكثيرين من الأمريكيين يعتبرون الحكومة هي (الأخ الكبير) في رواية جورج اورو يل، فإن التطور المتنامي في التكنولوجيا أصبح يلمح إلى أن (الأخ الكبير) هذا، يحتمل أن يظهر في أي وقت متنكرا في شكل اتحاد، أو شركة كبيرة. و يعلق أحد رجال القانون فيقول: (إن المعلومات قد أصبحت اليوم سلعة يمكن تداولها بالبيع والشراء بغرض الحصول على الربح، وتكنولوجيا الاتصالات، قد جعلت الحصول عليها أسهل كثيرا من أي وقت مضى). و يقول خبير آخر في جامعة أونتاريو الغربية: (ليس من قبيل الخيال الجامح أن نتصور شخصا ما يجلس أمام لوحة أزار، و يعرف بأي بنك للمعلومات يجب أن يتصل ليحصل على معلومات تهمه عن شخص ما، فيحصل على الكثيرمن هذه المعلومات، وفي لحظات). ثم يقول التحقيق: (لم يعد متعذرا على الحكومات ـــ أو الشركات الكبرى ـــ أن تراقب تحركات شخص ما، أو أن تسمع كلامه مع شخص أو أشخاص آخرين عندما تشاء، وذلك بجهاز إرسال صغير بمايكروفون بحجم رأس عود الكبريت ـــ يمكن شراؤه بمبلغ لا يزيد عن ٢٥ دولارا ـــ ومايكروفون موجّه يمكن أن يسلّط سرا، فينقل محادثة بين شخصين، حتى في الشوارع المزدحمة... وأجهزة الليزر للتصنت تستطيع أن تقتحم المكاتب المغلقة عبر النوافذ الزجاجية بفضل الذبذبة التي يحدثها الصوت على الزجاج)... و يضيف التحقيق: إن وكالة الأمن القومي في أمريكا، تستعمل هوائيات على شكل أطباق للتصنت «عالميا» على البرقيات، ورسائل التلكس، والمحادثات الهاتفية بغرض جمع معلومات تهم الأمن القومي، ولكن هذه الأجهزة الاليكترونية تجمع في نفس الوقت وترصد المحادثات أو المخابرات التي تدور بين المواطنين.

وفيما يبدو كمحاولة للتخفيف من انزعاج الأمريكيين من خطر هذه الأجهزة على حرّيتهم الشخصية، يعقد التحقيق مقارنة بين الحرية الشخصية التي يتمتع به الأمريكي، و بين هذه الحرية في بلدان أخرى من العالم، فيقول بعد كل الذي ذكره عن وسائل اقتحام الحرية الشخصية التي وصل إليها تطور التكنولوجيا: إن على الأمريكيين أن يلقوا نظرة على بقية الناس في العالم، ليشعروا بمقدار ما يتمتعون به من الحرية الشخصية. ثم يقول: إن مركزاً لأبحاث الحقوق السياسية والمدنية في العالم، يقدّر أن ثلث سكان العالم فقط، يتمتعون بالحرية الشخصية، بينما ٤٤٪ أوما يقرب من ألفي مليون من البشر، يعيشون تحت سلطان القمع والظلم والإرهاب... و يضرب مثلا على مدى حرية الأمريكيين، فيقول إنهم يستطيعون أن يسخروا بالرئيس، و بالمسز ريجان، بينما في (هاييتي) من يجرؤ على إهانة الرئيس (المنصّب رئيسا مدى الحياة)، أو إهانة أي فرد من أسرته، يحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات... وأما في الاتحاد السوفيتي فجميع أنواع المعارضة مكبوحة، والنظام يقضي على المعارض بالسجن، أو بالايداع في أحد مصحّات الأمراض النفسية، أو بالنفي إلى سيبيريا... و بينما نجد في الولايات المتحدة، زعيم الحقوق المدنية للسود، يرشّح نفسه لمنصب الرئيس، فإن السجن هو مصير زعماء المطالبة بهذه الحقوق في جنوب افريقيا... وجميع السود هناك محرومون من حق التصو يت في أي انتخاب، رغم أنهم ثلاثة أرباع السكان.

أما عن حكومات الانقلابات العسكرية في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، فيكفي أن نعلم ــ على سبيل المثال، أن عدد الذين أمر بإطلاق سراحهم رئيس «كينيا» بمرسوم العفو قد بلغ (٧٠٠٠ سبعة آلاف إنسان)، لا يدري أحد كم هي المدة التي قضوها في السجون. ومنذ أسابيع تناقلت وكالات الأنباء خبرا يقول إن (الجنرال ارشاد) قد نصّب نفسه رئيسا لجمهورية بنجلاديش، فأمر بإطلاق سراح سبعين سجينا سياسيا من عدد غير معروف من السجناء وعد بإطلاق سراحهم (قريبا!!!). وبمناسبة عام جورج اورو يل (١٩٨٤)، نشرت جريدة التايمز اللندنية، أن في العالم أربعين حاكما، كالجنرال ارشاد، نصّبوا أنفسهم حكاما على ربع بلدان العالم، من تشيلي في أميركا الوسطى إلى بولاندة في أورو با الشرقية، ومن أندونيسيا، إلى نصف بلدان افريقيا. وفي تقرير للجنة العفو الدولية نشر في السانديه تايمز، يوم ٤ ديسمبر عام ١٩٨٣، حقائق عن أعمال التعذيب، التي تقشعر لها الأ بدان يمارسها أحد أنظمة الحكم العسكري في بلد من بلدان العالم الثالث. منها: جلد المتهم الضحية إلى أن يغمى عليه، وليس الجلد بالعصا أو بالسوط وإنما بجديلة من السلك الصلب، والتعليق منكسا لمدة ساعتين مع استمرار الجلد بهذه الجديلة، ثم الصعق الكهربائي، أثناء التعليق المنكّس، ونتف الشعر من المواقع الحسّاسة في الجسم، واطفاء سجاير المحقق على لحم الجسد العاري... ثم يصف التقرير غرفة التعذيب، قد تكون أبشع كثيرا والتعذيب فيها أفظع، من الغرفة رقم (١٠١) في رواية اورو يل. فهي غرفة، داخل غرفة أخرى مصمتة الجدران، فيها منضدتان لجلوس المحققين، وسرير تخزن تحته أجهزة ومعدات التعذيب. وعلى هذا السرير توضع ملابس المتهم الضحية، حين يجرّد منها تماما لتمارس عليه عمليات التعذيب

ليعترف للمحقق، بجريمة أتهم بأنه ارتكبها ضد النظام. ومن أجهزة ومعدات التعذيب (المصنوعة في روسيا) جهاز للصعق الكهربائي، وآخر لانتزاع أظافر اليدين، وزرادية ومقص لتمزيق جلد الجسد... ولكن الأشد لعنةً من كل هذه الأجهزة، ذلك الجهاز الذي يسمّونه (العبد الأسود)، الذي يرغم المتهم على الجلوس عليه، فما يكاد يفتح المحققُ الدائرة الكهربائية فيه، حتى يشرع سيخ معدني ساخن في الولوج إلى الأحشاء، حيث يَشوي و يكْوي طريقَ ولوجه في المستقيم إلى الأمعاء، ثم يخرج آليا ليعاود الولوج مرة أخرى. ولا سبيل في هذا النظام الحاكم، إلى حصر عمليات القتل أو الإعدام دون محاكمة أو حكم، لأنها تتم في الزنزانات، أو في عنابر السجن، ليس بالعشرات وإنما بالمئات ولا يدري أحد أين تختفي جثث القتلى، بالدفن أو ربما بالحرق، إذ لم يعد يبحث عنها أحد من ذو يهم، لأن هؤلاء لا يدرون أصلا شيئا عن مصيرهم، منذ ألقي القبض عليهم، ذات يوم، أو ذات ليلة... منذ زمن طو يل.

وقد لا يستغرب القارىء العربي شيئا من هذا الذي يذكره تقرير لجنة العفو الدولية، و ينشر في كبريات صحف العالم، إذ ليس بعيدا عن الأذهان تلك المئات من دراما الارهاب والتعذيب التي عاشها في مصر، المتهمون بمعارضة النظام في العهد الناصري، أو في ذلك العهد الذي أصبح يعرف بعهد (صلاح نصر). لقد تحدث الكاتب الصحفي المصري الأستاذ مصطفى أمين طو يلا عن الكثير من العذاب الذي كان يعيشه هو، و يعيشه معه السجناء خلال السنوات الخمس التي قضاها في السجن، ولكن ما يمكن أن يغني عن قراءة كل ما كتبه، هذا الكاتب، هو ما سجّلته محكمة الجنايات في الحكم الذي أصدرته فيما يعرف بقضية (كمشيش)... إنه صورة من إجرام النظام الحاكم في مصر، في ذلك العهد، يصعب تصديقها، بل يصعب أن نتصور لها مثيلا، في كل تاريخ الارهاب —إن كان له تاريخ— إذ يقول الحكم ما نصّه: (تسجّل المحكمة، وللتاريخ، أن هذه الفترة التي جرت فيها أحداث هذه القضية، هى أسوأ فترة مرت بها مصر طوال تاريخها القديم والحديث.. فهي فترة قد ذبحت فيها الحريات، وديست فيها كرامة الإنسان المصري، ووطئت أجساد الناس فيها بالنعال، وأمر الرجال بالتسمي بأسماء النساء، ووضعت ألجمة الخيل في فم رب العائلة وكبير الأسرة، ولطمت الوجوه والرؤوس بالأ يدي، كما ركلت بالأقدام، كما هتكت أعراض الرجال أمام بعضهم الآخر... وجيء بنسائهم أمامهم، وهددن بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم... ودرّبت الكلاب على مواطأة الرجال، ووطأتهم، و بأمر من المتهم الأ ول وهو رب العائلة وإخوته... وهو أبشع ما وقع في هذه القضية من تعذيب في نظر المحكمة، إخراج جثة والدتهم من مدفنها— وكانت حديثة الدفن— للتمثيل بها أمام الناس، والتشهير بهم وإذلالهم أمام ذو يهم... وإن المحكمة لتسجل بأن المخلوق الذي نسى ربّه ونبيّه و يأمر الابن بأن يصفع وجه أبيه أمام الناس، فهو مخلوق وضيع وتافه ومهين وإن المحكمة وهى تسجّل هذه الفظائع ينتابها الأسى العميق والألم الشديد، لكثرة ما أصاب الإنسان المصري في هذه الحقبة من الزمان من إهدار لحريته، وذبح لإنسانيته، وقتل لكافة مقوماته (حريته ورجولته وأمنه وأمانه وآماله وعرضه).. وإن

المحكمة لتسجّل أيضا للتاريخ وقلبها يقطر دما، أن ما حدث في هذه القضية، لم يحدث مثله حتى في شريعة الغاب ولا البربرية الأولى)... وهذا الحكم، من محكمة الجنايات، في قضية واحدة، وبالنسبة لما لقيته أسرة واحدة فقط، ومعلوم أن سجون مصر، في العهد الناصري، قد أطبقت على المئات والألوف من الرجال، بل والنساء... بل الأكثر من ذلك، من النساء من هنَّ في أعمار الجدات، تتواتر الروايات عن اغتصابهن على مشهد من أبنائهن أو أحفادهن. أما عن اغتصاب الزوجة، والأخت، والابنة أو الأم، أمام المتهمين من رجالهن، فقصص متداولة ومتواترة، يرويها الذين سمعوها من أبطالها بالذات رغم صعوبة أن تهون الرواية على النفس، حتى وإن كانت حقيقية.

يبقى أن يتساءل القارىء، ما الذي يحمل (صلاح نصر) وزبانيته، على جرائم من هذا الوزن الثقيل والقذر، وفي سبيل ماذا؟ فلا نجد إلاّ أن هذه كانت خصيصة الحكم وطبيعة التركيب في هيكله القائم أساسا على القرصنة والسلب والاغتصاب، والقفز على الأعراف والقوانين، وحتى على زواجر ونواهي العقيدة والإيمان. ونحن لا ننسى أن ٩٩٪ من عناصر النظام مسلمون، في بلد إسلامي يكفيه، أن عمر الأزهر فيه قد تجاوز الألف عام، كان لابد لصلاح نصر واضرابه من الذين تميّز العهد الناصري في مصر بوجودهم في معماره، أن يلتمسوا مبررات من أي نوع لأعمال البطش والارهاب، وكان أهم المبررات وأقدرها على الاقتناع والإقناع، معارضة النظام، أو انتقاده، بوهم الانتفاض عليه، مع أن الانتفاض بأي شكل من أشكاله كان أملا أبعد من النجوم، وكان لابد لا ثبات وجود النية على هذا الانتفاض ــ من دليل، والاعتراف سيد الأدلة، فكانت كل هذه الجرائم القذرة ترتكب لاستلال هذا الاعتراف.. وهذا الاعتراف، هو الذي يثبت (للرئيس) ما كانوا يوهمونه به من وجود المنتفضين عليه، وعلى الثورة، وأنهم هم الذين يحمونه ويحمونها من أعدائها... وهؤلاء الذين تزدحم بهم السجون والمعتقلات، هم أعداؤها الألداء.

ومع أن الرئيس الراحل محمد أنور السادات، قد بدأ عهده بالقضاء على من سمّاهم مراكز القوى، وأنذر بصوته الجهوري العريض يقول: (حافرمهم).. وقد شفى غليل الذين تنفسوا الصعداء وهم يسمعون و يرون تسلّله إلى الديموقراطية ــ (بمفهومها عنده) ــ فإن هجمته العاصفة الشرسة على المعارضة، بفتح أبواب السجون والمعتقلات لتغلق على أكثر من ألف وخمسمئة إنسان مصري، بينهم ذلك العدد الكبير من رجال الصحافة والسياسة والفكر، ودون محاكمة أو حكم، سوى اقتناعه شخصيا واقتناع أجهزة الأمن في نظامه بتورّطهم في معارضة نظامه وانتقاد سياسته.. إن هذه الهجمة أكّدت من جديد، أن (الحال من بعضه)، وما كان يحدث في عهد عبدالناصر، يمكن أن يحدث ــ بصورة أو أخرى ــ في عهد السادات... ولعل اغتياله، في حادث المنصة التاريخي، مع ذكرى أعظم يوم من أيام مجده، وهو يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣، كان حافة الكأس التي طفحت بالعذاب طوال عهود آخرها العهد الملكي، وعهد الثورة عليه، ثم عهد السادات.

وبمواجهة هذا الواقع في عالم اليوم، وهو نفسه الواقع الذي مازال الإنسان يعيشه طوال الثلاثين عاما، منذ نشر جورج اورو يل قصته في عام ١٩٤٨، نجد أن تنبؤ اورو يل، إن لم يكن قد صدق بالنسبة لانتصار الشيوعية، بحيث تقع، حتى مدينة لندن بين براثنها في هذا العام، فقد صدق، وعلى نحو أكثر بشاعة، وأقسى ارهابا، وأشرس اقتحاما للقيم والمثل، بالنسبة لنظام حكم الحزب الواحد، أو الرجل الواحد، أو العصابة الواحدة، وكذلك بالنسبة للايغال والاسراف في الظلم، والاستعباد، وانتهاك الحرية الشخصية، والاستهتار الصريح والسافر بالميثاق العالمي لحقوق الإنسان، بل وبجميع المبادىء التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة.

أما بالنسبة لانتصار الشيوعية، أو (الحكم الشمولي) بالصورة التي نجدها في هذه القصة، أو فلنقل ــ على ضوء الهدف الذي توخّى اورو يل أن يحققه بكتابه ــ وهو إنذار العالم بما سوف يعانيه الإنسان لو انتصر هذا الحكم، في عام ١٩٨٤، أو في أي عام بعده حتى ولو بعد عقود من السنين فإن أغرب ما يواجهنا به الواقع، وما لا نجد له أثرا، بأي إشارة أو لمحة في قصة أورو يل هو اقتسام، أو انقسام العالم، بين الدول الفقيرة، والدول الغنية، وانقسام البشر تبعا لذلك، إلى شعوب فقيرة إلى حد موت المئات أو الألوف جوعا، وفي مشاهد تسجلها كاميرات التليفزيون، وتعرض على شاشاته على مئات الملايين في أمريكا وأوروبا... وإلى شعوب متخمة بوفرة الغذاء، إلى ذلك الحد الذي يجعل دولة كبرى، كالولايات المتحدة الأمريكية تعمد إلى حرق فائض إنتاجها من الحبوب ــ ومنها القمح على الأخص ــ لغرض الحيلولة دون تدهور السعر الدولي، مع أن هذا الفائض، في محصول العام الواحد يمكن أن يدرأ عن الملايين من جياع افريقيا مثلا، غائلة الموت جوعا، عاما بطوله، بل ربما أكثر من عام... ولا تختلف الصورة، في دول السوق الأوروبية المشتركة، إذ أنها، بدلا من أن تعاني من أزمة نقص، أو قلة إنتاج، فإنها تواجه أزمة الوفرة أو التخمة إلى حد الانفجار، بحيث يقف أساطين الاقتصاد في دول هذه السوق حائرين لا يدرون، ماذا ينبغي عليهم أن يفعلوا، بما اتخمت به مخازن التبريد من اللحوم والألبان والزبد، وعلى مستوى مئات الألوف أو ملايينها من الأطنان، وبعشرات الملايين من أطنان الحبوب، الفائضة، ليس عن حاجة الاستهلاك المحلي، وإنما عن طاقة الأسواق التي تشتري بالعملة الصعبة، وليس بينها جياع العالم، لأنهم لا يشترون، فليس مهما بعد ذلك، أن يحصدهم الموت وأن تعرض مشاهد موتهم شاشات التليفزيون. وحتى هذا الاتحاد السوفيتي الذي ما يزال يغزو بلدان العالم الثالث بوعود الخلاص من تسلط رأس المال، ومن ظلم الامبريالية، والقضاء على عبادة الفرد، وتطوير الطبقة العاملة (البروليتاريا) لتكون هي طليعة النظام الحاكم في الاتحاد السوفيتي وطليعة النضال لتحقيق مصالح البروليتاريا العالمية، حتى هذه الدولة العظمى التي تتفاخر بأن ألف مليون من شعوب العالم يدور في فلكها، لا ينسى أحد أنها كانت في وقت ما تحرق جبالا من محصول القمح، الفائض عن حاجة الاستهلاك، وعن طاقة أسواقها القادرة على دفع الثمن بالعملة الصعبة، دون أن يدخل في حساب أساطين التنظير الأيديولوجي، وأساتذة ابتكار الشعارات وخبراء زرعها في عقول الألف مليون من البشر الدائرين

في فلكها ، التنازل عن بعض الثمن ، فضلا عن الثمن كله ، لنجدة ملايين الجياع ، إن لم يكن في العالم ، فعلى الأقل في الدول التي نجحت فيها زراعة الشعارات ، فأصبحت تتصدى ـ بالثورات المسلّحة بأسلحة من إنتاج الترسانة الروسية ـ للرأسمالية ، والبورجوازية ، والامبريالية ، وفي العالم العربي ، للمرجعية المتمسّكة بعفن الفكر الديني .

والفقر والغنى هنا كما نرى ، على مستوى الدول والشعوب ، أما على مستوى الأفراد في المجتمعات ، فإن الواقع التقليدي ، الذي لم يتغيّر طوال عشرات القرون ، وحتى في الاتحاد السوفيتي وفي دول أوروبا الشرقية ، هو أن تجد الفرد الغني إلى حد الانفجار بالتخمة ، ينطلق بعربته المترفة ، في الشارع الذي يسكنه وقد ازدحم بأرتال المتسوّلين الجياع . . . نجد ذلك في جميع مجتمعات العالم ، ودون أي استثناء . والذين أتيح لهم أن يقضوا في أمريكا وقتا أطول من الفترة المعتادة للّهو والاستجمام ، يذكرون و يتحدثون ، عن أبشع مشاهد الفقر ، ودراما سقوط كرامة الإنسان ـ بجنسيه «الذكر والأنثى» ـ وذله وهوانه وتمزّق آدميته ، وليس ذلك في المدن الصغيرة ، أو الولايات النائية عن واشنطن ، أو نيوانجلند ، وإنما في مدينة نيو يورك نفسها ، وهي التي ما تزال تعد كبرى عواصم التقدم الحاضري والتكنولوجي في العالم ، بل هي التي ما يزال تمثال الحرية قائما فيها ، يذكّر ـ مجرد تذكير ـ بالمضامين السامية التي كان يرمز إليها ، والتي لم يسبق قط أن ديست وألقيت في حاويات القاذورات ، كما ظلت تداس وتمتهن ، منذ تلك الأيام التي خرجت فيها أمريكا بأكاليل الغار من الحرب العالمية الثانية وحتى هذا اليوم من عام ١٩٨٤ ، اذي لم يبق لها فيه من تلك القيم والمثل الحضارية التي كانت تنفرد بها يوما ، إلاّ أنها إحدى القوتين الأعظم ، وكل منهما تنافس الأخرى في القدرة الطاغية الحاسمة ، على تدمير العالم ـ عدة مرات ـ في ساعات أو أيام .

وبعد ، فتلك لقطات ، أو ملامح من عالم جورج اورويل في رواية ألف وتسعمئة وأربعة وثمانين ، لا ينقصها للتطابق التام ، إلا حكومة الحزب الواحد ، تحت مظلة الحكم الشمولي ، على مستوى العالم ، فكأن التنبؤ الانذار الذي قال إنه يوجّهه إلى العالم ، لم يتجاوز الواقع في شيء ، سوى أن الحكم الشمولي ، الذي توقّع أن تقع أحداث القصة في ظلّه ، لم تكفه ست وثلاثون سنة ، للزحف ، والانتصار ثم الانتشار ، بحيث تقع مدينة لندن في قبضته . فإذا كانت رسالته ، قد توخّت أن تؤكّد خواء الميثاق العالمي لحقوق الإنسان ، ومعه ميثاق الأمم المتحدة ، وقد ظهرا ، وامتلأت صحف العالم بالطنين لهما ، والرنين عنهما قبل نشر هذه القصة ، فإن لنا أن نقول ـ من هذا المنظور ـ إنه قد أدى الرسالة أفضل أداء يستطيعه كاتب سياسي بمزاج وخيال فنّان ، استثارت موهبته الخلاّقة جرائم ومظالم وقسوة الشيوعية السوفيتية .

يبقى ـ فيما يبدو ـ أن القارىء يطالبنا بشيء من التفصيل عن سيرة جورج اورويل ، أو عن حياته كشخصية كاتب أديب ، استطاع أن يرفع صوته فوق دقّات أجراس رأس السنة هذا العام في

جميع أنحاء العالم ــ ربما باستثناء الاتحاد السوفيتي والدول الدائرة في فلكه ــ . ولعل أهم ما استرعى انتباهي شخصيا أنه يكاد يكون مجهولا لدى شريحة كبيرة من مثقفي العالم العربي . وهذا مع أن هذا العالم ، قد أخذ وأعطى الكثير عن الشيوعية السوفيتية والماو ية وجميع ولائدها ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم . بل إن بعض بلدانه ربما فتح أبوابه للاتحاد السوفيتي حينا من الدهر، ثم عاد فأغلقها ، ومن هذه البلدان من استطاب التغني بالشعارات المستوردة من ابتكار خبرائها في موسكو، بل بلغ الأمر ببعضها أن يذهب إلى حد الحرب في صفّها والتزام خطها السياسي في علاقاته مع الدول العربية « الشقيقة » . ولعل حركة الفكر في أواسط الخمسينات إلى أوائل السبعينات في مصر وفي غيرها ، كانت في حالة انهماك بلغ حد الهوس في استيعاب ، ونشر الفكر الشيوعي تحت مظلّة (حرية الفكر) . ويمكن في الواقع تفسير غياب اورو يل عن ساحة الفكر السياسي العربي ، بأنه (النوع غير المرغوب فيه) لأنه الكاتب الذي تخصّص في استنكار الشيوعية وادانتها واظهار مساوئها . وهذه حقيقة عرف بها اورو يل ، ليس فقط بكتابيه : (مزرعة الحيوان) و(ألف وتسعمئة وأر بعة وثمانون) وإنما قبل ذلك بكتابه الذي صدر في أعقاب عودته مصابا برصاصة في عنقه من الحرب الأهلية الأسبانية وهو كتابه (تحية تقدير لكاتالونيا) ، الذي قال بعض نقّاده إنه أكثر ما كتب عن الشيوعيين في تلك الحرب ، جرأة ، وصراحة ، وتنديدا وإدانة . وقد لا نتجاوز واقع الحياة الفكرية في عالمنا العربي ، أو في بعض بلدانه ، إذا تجنّبنا الاطلاق والتعميم ، إذا قلنا إن هذه الحياة تعاني نوعين من ضغوط التوجيه الفكري : أحدهما ، المعروف والمسلّم به نمطا تقليديا ، وهو التوجيه (الرسمي) الذي يدخل في إطار المصلحة العامة كما تراها الدولة ، والآخر ، هو المجهول الخفي والمتفق عليه ضمنيا ، بين بعض شرائح المثقفين ، وهو اهمال وتجاهل الأعمال الفكرية التي تميل إلى مكافحة أو استنكار، أو حتى تحليل أو نقد ما يسمّى (الفكر اليساري) . وهذا في نفس الوقت الذي تهتم فيه بترجمة ونشر كتب الشعر، والقصص ، وسير الحياة ، إلى جانب البحوث المطوّلة عن أعلام الفكر اليساري . فلذلك ــ من هذا المنظور ــ ليس غريبا أن يظل أورو يل مجهولا ، حتى في هذا العام الذي امتلأت فيه صحف العالم واذاعاته وشاشات التليفزيون فيه بالحديث عنه .

وربما كانت جريدة الرياض من صحف المملكة ، هى التي استرعى الكاتب انتباهها ، إذ قرأت فيها مقالا قصيرا للدكتور نصر عباس بعنوان (اورو يل وأدب السياسة) توخّى فيه إظهار علاقة الأدب بالسياسة ، ولكن دون أن يذكر شيئا عن كتاب (ألف وتسعمئة وأر بعة وثمانون) مع أنه محور الاهتمام باورو يل في هذا العام . وفي ١٤ يناير ١٩٨٤ نشرت الرياض أيضا خبرا بعنوان (الكل يسعى للربح من وراء رواية « اورو يل ») وكانت صيغة الخبر تدل على أن محرره على المام بالقصة وفكرتها ، وإن لم يقل الكثير عن الكاتب ، إذ عني بموضوعه ، وهوسرد الأنشطة الكثيرة التي ظهرت في مدينة لندن ، وهى مسرح القصة ، بمناسبة حلول عام ١٩٨٤ .

من هذه الأنشطة في الخبر، أن متحف (مدام توسّو) قد أضاف تمثال جورج اورو يل إلى تماثيل

المشاهير من رجال السياسة والاعلام والقادة والأ بطال. وذلك مع عرض سينمائي لمجموعة من صوره، في مناسبات مختلفة، إلى جانب تسجيل صوتي يبث فقرات من الصفحتين الأ ولى والثانية من قصة (ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون). وأن هيئة الاذاعة البريطانية قد عرضت فيلما وثائقيا عن حياة جورج اورو يل في جزيرة (جورا ــ بالجيم العربية) في الساحل الغربي لاسكوتلاندة، حيث تفرّغ لكتابة القصة. و يعدُّ هذا واحدا من البرامج التليفزيونية العديدة التي بثّتها الاذاعة البريطانية، ومنافستها التجارية (اى. تي. في.). وأن ناشري الكتب سارعوا إلى اغتنام الفرصة لتحقيق أرباح، وكان أكبر جهد في هذا المجال، هو الذي بذلته دار (سيكر وور برج) وهى التي كانت أول دار تنشر القصة حين عرضها للنشر، إذ نشرت بهذه المناسبة المجموعة الكاملة لأعمال جورج اورو يل في سبعة عشر مجلّدا. و يضيف الخبر أن جامعة لندن ستفتتح دراسات صيفية عن اورو يل، وأن بلدة (ويجان بير) ستقيم له في ساحتها تمثالا ... الخ.

و بلدة (ويجان بير) التي يقول الخبر إنها ستقيم للكاتب تمثالا في ساحتها هى إحدى المدن الصناعية في منطقة الشمال في انجلترا، وقد قام بجولة فيها جورج اورو يل نزولا عند رغبة الناشر (اليساري) فيكتور جولانز، الذي كان قد نشر له مجموعة مقالا ته عن (حياة الإملاق في باريس ولندن)، وكان الناشر يطمع في أن يكتب اورو يل عن حياة وأحوال العمّال في المنطقة ما يدعم اتجاهه اليساري ورغبته في إظهار معاناتهم، وقد كتب اورو يل مؤلفه بعنوان (الطريق إلى ويجان بير) ــ اسم البلدة التي ستقيم له التمثال هذا العام ــ ولكن ما جاء في الكتاب لم يحقق رغبة الناشر، وإن كان أحد النقاد، قد قال عنه: (إن اورو يل قد أظهر في هذا الكتاب اتجاها اشتراكيا، ولكنه اتجاه الانفعال العاطفي الذاتي، وليس اتجاه الاشتراكي المنتمي أو الدارس للاشتراكية).

وفي الولايات المتحدة، ربما، لا تقل الضجة التي أثارها ــ وما يزال يثيرها اورو يل عن تلك التي عاشها الأمريكيون مع فيلم (E.T) وأخيرا مع فيلم (اليوم التالي)، إذ لم تبق صحيفة يومية، أو مجلة أسبوعية، أو فصْلية، لم تفسح مساحات من صفحاتها، لمقال، أو تحقيق أو بحث عن عالم اورو يل في عام ١٩٨٤. ولقد بدأ، ما يصح أن يسمّى «حملة» منذ أواخر شهر نوفمبر ١٩٨٣. أي قبل شهر من حلول السنة الجديدة، والعديد من محطات الاذاعة، كالعديد من محطات وقنوات التليفزيون في أمريكا، ندر أن خلا من برامج متلاحقة عن اورو يل، بحيث أصبح هذا العام يوصف بأنه (العام الا ورو يلي). وفي التحقيق الموسّع الذي نشرته مجلة (نيوزو يك) في ٢٨ نوفمبر ــ وصــورة اورو يل و(عين الأخ الكبــير) تحتل غلاف العــدد ــ، أن قرب حلــول (السنة الا ورو يلية)، قد جمّع جيشا، من الأساتذة، والنقّاد، والكتّاب، والصحفيين، ومحترفي التنبّؤ، بل من كل من يتقاضى أجرا على التفكير بصوت مرتفع، بحيث كاد يتعذّر على الجميع أن يقاوموا إغراء لعبة أرقام اورو يل (١٩٨٤)... و يقول التحقيق إن اللعبة قد بدأت في يناير من العام الماضي ويمكن أن تمتد إلى عام ١٩٨٥، وهى تأخذ أشكالا متنوعة كالندوات، وحفلات البحث

الأكاديمي، التي تتلاحق من كلية مانهاتان إلى ستانفورد، إلى جانب سيل من المقالات في المجلات عن «شفير» عام ١٩٨٤، ومن الكتب، بعنوان (الحكم الشمولي في بلادنا)، إلى جانب أولئك المتخصصين في أفكار وعالم اورو يل، وهم يتنقلون من مهرجان عنه إلى آخر، و يتاح للجميع أن يتابعوا الأحداث في عام ١٩٨٤ من خلال «تقو يم» قيمته أحد عشر دولارا، بمقاس ١٧×٢٤ بوصة، يحمل عنوانا يقول (تاريخ يومي لتفتت أو اهتراء الحريات المدنية في الولايات المتحدة الأمريكية)، و يقدم صورا فوتوغرافية لمباني حكومة الولايات المتحدة ومنها مبنى الاستخبارات الأمريكية، ومكتب الشؤون الهندية، وفرق شرطة الشغب، وزنزانات السجون، وتأريخ كل يوم في التقو يم يحمل تعليقاً تافها، أو شرساً عن ضياع أو افتقاد الحرية. ويمتاز هذا التحقيق في مجلة نيوزو يك، الذي أعدّه بول جريه، وكتب مادّته الاخبارية جون سار من لندن، وآن هو بكينس من نيو يورك، بميله الواضح إلى استهجان هذا الإندفاع أو الاسراف في التنو يه باورو يل وقصّته وعالمه المظلم الرهيب.

فمن هو بعد ذلك جورج اورو يل؟؟؟

ولد اورو يل، باسم (أريك آرثر بلير) في عام ١٩٠٣، في (تلك) الهند التي كانت جزءا من الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس قط. حيث كان أبوه (ريتشارد) موظفا في خدمة الامبراطورية البريطانية. وقد عادت به أمه، ومعه أخته (مارجوري) إلى انجلترا، كجاري عادة الذين يعملون في الامبراطورية من الانجليز تلك الأ يام... إذ لا بأس بالهند مكانا يعمل فيه الزوج، أما الأطفال فلابد أن ينشأوا في أرض الوطن. وكان ريتشارد، يلحق بأسرته، خلال الاجازات. وعندما بلغ أريك الخامسة من العمر ولدت أخته الصغرى (آفريل). و يقول اورو يل، فيما كتبه عن ذركيات طفولته: (جميع دخل الأسرة كان يذهب للاحتفاظ بالمظهر). ولذلك فقد الحق، بمعهد سنت سيبريانس، برسوم مخفضة، وهو معهد عرف عنه أنه يعد تلامذته للالتحاق بالمدارس الكبيرة.. و يذكر أريك، أنه عندما كان في الثامنة من عمره عوقب لبلّةٍ في فراشه. وقد ظل شعوره يتزايد بأنه تافه وحقير، فيقول: (لم تكن لدي نقود... وكنت هزيلاً، بشع السمات، منطو يا على نفسي، مصابا بسعلة مزمنة، جبانا، كريه الرائحة... لقد كنت صبيا غير محبوب). ومع ذلك فإن صديقا له في الثمانين من عمره اليوم، قال عن الصورة التي يرسمها أريك لنفسه: (في قوله، إنه كان منطو يا على نفسه، كثير من المبالغة... بل إن ذلك محض خيال، إذ كان يمارس صيد السمك و يتجوّل في المنطقة الريفية من أوكسفوردشير) بينما يقول زميل دراسته في ذلك المعهد: (إن قبوله في المعهد برسوم مخفّضة، خلق عنده شعوراً بالمرارة، إذ كان يرى في ذلك هوانا وإذلالا، مع أن الواقع كان العكس تماما، إذ أن قبوله برسوم مخفّضة، وقد أسفر عن حصوله على منحة دراسية في مدرسة (ايتن) فاستحق هو، كما استحق المعهد، الكثير من الثناء والتقدير.)... ومع ذلك فإن تعليقه على انتقاله من معهد سنت سيبر يانس، إلى ايتن، خلا من فرحته بالفوز والانتصار... على العكس من

ذلك، كتب عن هذه الذكرى يقول: (الفشل... الفشل... الفشل خلفي، والفشل أمامي.. كان ذلك هو الإيمان العميق الذي خرجت به.) وخلال السنوات الأربع التي قضاها في ايتن، ــ وهي المدرسة التي تزدحم بأبناء الأريستوقراطية البريطانية ــ لم يتواءم مع مشاعر النجاح إذ أخذ يتباطأ في تسنم قمة التعليم الثانوي الانجليزي، وقد طالت قامته بحيث بلغ طوله ستة أقدام وثلاث بوصات، فكان مضطرب الحركة في مشيته، وانهمك في قراءة أعمال الكتاب الذين أحبّهم، وهم ديكنز وذاكري ورديارد كيبلينج، وهـ. ج. و يلز... وشارك في منشورات المدرسة بمقطوعات من الشعر، واشترك في المباريات الرياضية كارها.

ولم يستطع أبوه أن يلحقه بجامعة أوكسفورد أو كامبريدج دون أن يفوز بمنحة دراسية، وذلك ما لم يستطع أريك، أن يحققه بجهده... وافتقاره إلى التعليم الجامعي قذف به إلى النهاية الميتة في انجلترا، فلم يستطع أن يشق الطريق التي كانت ممهودة لزملائه من خريجي ايتن، فاضطر إلى أن يتجه إلى المجال الذي اتخذه أبوه، فالتحق بخدمة الشرطة الامبراطورية الهندية، وأرسل إلى بورما شرطيا للمحافظة على النظام بين سكانها.

و يقول تحقيق مجلة «نيوزو يك»: (ومن تجربة السنوات الخمس التي قضاها في خدمة شرطة الامبراطورية في بورما، اعتصر أعظم مقالين، نشر أحدهما في عام ١٩٣١، بعنوان (الشنق) يسجّل فيه مشهد تنفيذ حكم (الشنق) على أحد الهندوكيين، والثاني نشر في عام ١٩٣٦ بعنوان (قتل فيل بالرصاص)، و يقول فيه: (لقد أدركتُ ساعتها، أن الرجل الأبيض، حين يغدو ظالما، إنما يدمّر حرّيته الذاتية).

وقد عاد أريك، إلى انجلترا، واستقال من عمله، و يقول صديق له (عاد أريك من بورما وقد تغيّر، إذ بدا منطو ياً على نفسه متبرماً) و يقول هو عن نفسه: (ما رجعت به إلى الوطن هو الاحساس بالذنب). وخلال السنوات العشر بعد عودته من بورما، ظل يمارس الترحال الدونكيشوتي سعيا وراء الشهرة وتقرير شخصيته ككاتب باسم جديد، وكانت الخطوة الأولى تغيير هذا الاسم، ثم كانت الخطوة الثانية، حين استأجر لنفسه غرفة رخيصة في لندن، يقضي فيها ساعات يومه جالسا إلى الآلة الكاتبة يكتب القصص، وكثيرا ما كان يخرج في الليل ليتسكّع في الأحياء الفقيرة، وقد يستريح من التجوال الطو يل، على سرير في أحد الأنزال الشعبية، ليعيش الاملاق والفاقة، متوخّياً ألا يرفض أو يطرد، إذا ما نمّت عليه في حديثه لهجة (ايتُن). و يقول في تفسيره لذلك: (كان ما أحرص عليه في ذلك الوقت، هو أن أجد سبيلا للخروج من عالم اللياقة والاحترام).

وفي عام ١٩٢٠ رحل إلى باريس، حيث وجد المدينة تعج، بأرتال من الفنانين، والكتّاب والطلاّب، وهواة الفنون، وعشّاق الملذات، والكسالى المتسكّعين، بحيث وجد عدد هؤلاء، في بعض الأحياء، يفوق عدد الذين يعملون، فالتحق بعمل في أحد الفنادق، ليصبح واحدا من «الطبقة العاملة»، فيغسل الأطباق طوال ثلاث عشرة ساعة في اليوم. وإذ كان يتطلّع إلى أن يصبح

كاتبا روائيا، فقد كتب تجربته، في الأعمال التي مارسها في الفنادق الرخيصة، في كتاب بعنوان (حياة التشرد والفاقة في باريس ولندن).. و يبدو أنه كان يتحاشى اثارة مشاعر والديه، إذا نشر الكتاب باسمه (اريك آرثر بلير)، ولذلك فقد أخبر الناشر أنه يود ألا ينشر الكتاب تحت هذا الاسم، و يفضّل أن ينشر تحت اسم مستعار، وقال له إنه (يستعمل دائما اسم (ب. اس. بارتُن) «فإذا لاح لك أنه لا يبدو اسما ملائما.. فما رأيك في أسماء مثل ــ وذكر أكثر من اسمين ــ ثم «جورج اورو يل» ؟!، وفسّر تفضيله لهذا الاسم بأن «جورج» هو اسم راعي الكنيسة الانجليزية وأن «اورو يل» هو اسم نهر يتذكّر أنه عرفه في أيام صباه، وكان يقع بالقرب من بيت أسرته في منطقة سافوك، وقد علّل بعضهم تغير اسمه، بأنه لا يبدو اسما انجليزياً وإنما هو اسكوتلاندي، وقد كان يكره اسكوتلاندة، لأن زملاءه الأثرياء، في مرحلة تعليمه الأولى، كانوا ينتجعون غاباتها الجميلة في أيام عطلاتهم، و يتحدثون إليه عن الأوقات الحافلة بالمرح والمتعة، وعن المناظر الرائعة التي تتعانق وتزدهي بها هذه الغابات، بينما لم يتح له هو شيء من ذلك بطبيعة الظروف القاسية التي كان يعيشها في تلك الفترة من أيام طفولته وصباه الباكر.

وحياة التشرد والفاقة والإملاق، التي عاشها مختارا في لندن و باريس، أتاحت له أن يرى نماذج تلك الشخصيات التي حفلت بها أعمال تشارلز ديكنز، بكل تناقضاتها وغرابة تصرفاتها وأطوارها، كما زوّدته بما اختزنه من مشاهد الكآبة والشحوب والعفاء، التي لاشك في أنه استفاد منها، في تصوير مشاهد الحياة في لندن في روايته ١٩٨٤.

ومن تجاربه مع حياة الفقر والتشرد، انتقل اورو يل إلى العمل مدرّسا «خصوصيا» فترة من الوقت في باريس، ثم عمل مدرسا في مدرسة صغيرة في لندن. وقدخرج من تجربة التدريس برواية (ابنة الكاهن)، التي تناولها النقاد بالتحليل، وتتبع علاقة الأحداث فيها بتجاربه، ثم الأحداث التي مرّت به في أيام طفولته وصباه. و يذهب أحد نقاد القصة، إلى أن بعض أحداثها والأسلوب الذي عرض به اورو يل هذه الأحداث، مسرف في المبالغة والتهو يل إلى حد يصعب تصديقه.

وخلاصة القصة باختصار شديد أن (دوروثي هير)، فتاة عانس، وأبوها رجل كسول بخيل يعمل قسيسا في كنيسة. وقد نشأت الفتاة متديّنة منطو ية على نفسها، يغلب عليها الخجل في الوقت الذي تعاني فيه من غليان رغبتها الجنسية المكبوتة. ويحدث، أن تتورط في علاقة برجل مستهتر، تودّد إليها، واستطاع في النهاية أن يغتصبها، فبلغ من فجيعتها وهول الحادث في نفسها أن أصيبت بانهيار عصبي، أفقدها الذاكرة، فانفلتت تهيم على وجهها في شوارع لندن وأزقتها، ومن هذا المدخل في القصة، يتوسّع اورو يل في تصوير واقع الحياة في هذه الشوارع والأزقّة من بؤس وتشرد ومآس ومفاسد، كما يستفيد من صدمة الاغتصاب التي منيت بها الفتاة للانطلاق في الافضاء بآرائه في الدين والايمان والعقيدة المسيحية ككل؛ وتنتهي قصة (ابنة الكاهن)، بأن تتعلّم الفتاة من الكارثة ــ وقد عادت إلى صوابها ــ كيف تعايش قسوة الحياة والدنيا على ما هي عليه دون (أوهام) أو تعلّق

بآمال، علّمتها التجربة المريرة، أنها ليست إلا هباء يلتف على التمزّق والضياع.

ومع أن القصة قد استرعت انتباه واهتمام عدد من النقاد، فعكفوا على تحليلها ونقدها بحيث وجد من قال إن اورو يل قد تأثّر في موضوعها بخلفيات قصة (أوليسس ــ OLYSSES) لجيمس جو يس، مما قد يعني نوعا من التقدير غير المباشر، بالنسبة لكاتب ما يزال في بداية مسيرته الأدبية. فقد كان مما أثار الدهشة أنه أصرّ على رفض إعادة طبعها، و بلغ به السخط عليها، أن أخذ يجمع نسخها من المكتبات، باندفاع وتوتّر. والسبب ــ كما قيل ــ هو أن القصة قد كشفت عمّا كان ينطوي عليه من أفكار عن الحضارة والعقيدة المسيحية التي يرى أنها قد انهارت، وإلى الأ بد... وذلك ما لعلّه خشي أن يعرف عنه و يسجّل عليه، ولكن بعد فوات الأ وان.

ومن عمله مدرّسا في تلك المدرسة الصغيرة، انتقل إلى عمل آخر، هو بيع الكتب في إحدى المكتبات، وفي هذه الفترة تزوّج للمرة الأ ولى من فتاة جامعية من أوكسفورد، وفي مرحلة الحصول على مؤهّل عال في علم النفس في جامعة لندن. وأخذ يتنقّل بين أعمال مختلفة متباينة، منها حانة لشرب الخمور، ومتجر صغير افتتحه لحسابه، وحين وجد أنه لا يجدي عليه شيئا ذا بال تخلّى عنه، و بطبيعة تطلّعه إلى أن يكون ذلك الكاتب الروائي الذي يحلم به، لم ينقطع عن الكتابة. والسبعة عشر مجلّدا التي استوعبت أعماله الكاملة، حافلة، إلى جانب أعماله القصصية المعروفة، بالكثير من المقالات عالج فيها مختلف الشؤون العامة، ومختلف المواضيع التافهة والهامة، ومن التافهة على سبيل المثال، تعليقاته على ما يصدر من القصص البوليسية، وما ينشر في الصحف والمجلاّت من أخبار عابرة، ومن الهامة، نقده أعمال بعض أعلام الأدب الانجليزي، بجرأة لا تؤهّله لها ــ كما قيل ــ ثقافته الأ كاديمية... وكل هذا الذي كان يعكف على كتابته ونشره في الصحف، لم يكن يدر عليه ما يسد حاجته إلى المال، ليس لينعم بشيء من رغد العيش، وإنما ليعيش في حدود بالغة الضيق، وأقل كثيرا من الكفاف.

وفي هذه الفترة، أصدر كتابه عن تجاربه في أجواء الأعمال التي مارسها وهو قصة شاب في التاسعة والعشرين من عمره نجد في السطور الأ ولى من القصة، أنه يعيش في مكان خلف محل لبيع الكتب والمشكلة التي يعيشها في الساعة الثانية والنصف أنه يكاد يتمزّق لهفة على سيجارة... سيجارة واحدة. عنده في جيبه أر بع سجاير فقط، ولكن المشكلة، أنه لا يتوقع الحصول على نقود قبل يوم الجمعة، واليوم الأ ربعاء، فسيكون أمرا مدمّرا، أن يظل دون سجاير هذه الليلة، وطوال يوم غد، وهو لا يملك، إلاّ خمسة بنسات ونصف... واختار اورو يل للقصة عنوان: (احتفظ بنبات الأسبيد يسترا نامياً)، ونبات الاسبيد يسترا هذا، نوع من نباتات الظل، كانت بيوت الطبقة الغنية، والمتوسطة، تقوم منذ العهد الفيكتوري، بتزيين غرف الجلوس به، و يتعذّر وجوده في بيوت الطبقة الفقيرة، لأن العناية به تكلف أكثر مما تطيقه هذه الطبقة، وهو نبات يكاد لا يعرف إلا في انجلترا، وفي أيام الحرب العالمية الثانية، انتشرت أغنية بلغ من نجاحها، أن يتغنّى بها حتى الجنود والبحارة،

وهي تبدأ بكلمات تقول: (عندها ــ أعظم أسبيد يسترا في العالم). والقصة في مجملها أقرب إلى أن تكون تسجيلا لسيرة حياته وتجاربه مع الفقر، وبيع الكتب، والعمل في حانة شرب الخمور، ومن مشاهدها، مشهد لقاء بطل القصة (جوردون) وحبيبته، في منطقة خلوية، تحت الأشجار، بعيدة عن أعين الرقباء، ويكاد يكون هو نفسه المشهد الذي نراه بين ونستن وجوليا في قصة (١٩٨٤). وهي تتفجر بمشاهد الرعب والكراهية وعناء الجماهير، بحيث كان من رأي نقاده، بل وأصدقائه أيضا، أن اورويل يستمتع بتخيّل وتصوير مشاهد الخوف والارهاب التي تقشعرّ لها الأبدان... وعلّلوا ذلك بأنه يصور مشاهد الخراب والدمار، الذي يتوقّع هو أن يصيب العالم الحديث في يوما ما.

وبعد زواجه، وصدور هذه القصة في عام ١٩٣٦ لأول مرة في بريطانيا، سافر اورويل مع زوجته إلى أسبانيا كمراسل صحفي، ولكن ما كاد يصل إلى برشلونة في نهاية عام ١٩٣٦، حتى اختار طريقا آخر. إذ وجد المدينة في قبضة الثوار والمنتفضين على النظام، من العمّال والحرفيين وأنصارهم؛ ويقول في كتابه (تحية ولاء إلى كاتالونيا) عن هذه اللحظة في برشلونة: (إنها المرة الأولى التي وجدت نفسي فيها في بلدة، كانت الطبقة العاملة فيها على «الصهوة»). فقد أسعده أن يستنشق هواء المساواة. ويذكر أن مدير الفندق، الذي نزل فيه، قد انتهره لأنه نفح عامل المصعد مصانعة([1])، وأن الحلاّقين، علّقوا لافتات بجانب الكراسي، تقول: (لم نعد منذ اليوم عبيدا...).. ويضيف اورويل: (لقد اختفت هنا تلك الاشارات التي تميّز بين الطبقات في بلادي)... ثم يقول: (باستثناء القلة من السيدات، والأجانب، لم يكن هناك من يبدو حسن البزة إطلاقا.. الجميع يرتدون ملابس الطبقة العاملة، أو الرداء الأزرق، أو بذلة قوات الميليشيا... وفي ذلك كثير مما لم أفهمه، بل مما لا يعجبني.. ولكني أدركت على الفور، أنها قضية تستحق أن يقاتل المرء في سبيلها).

واضح أنه انضم إلى صفوف قوات الميليشيا التي تقاوم قوات فرانكو.. ولم يمض وقت طويل حتى أصابته هذه القوات برصاصة في عنقه. ولكن خلال الفترة التي قضاها تحت العلاج من الإصابة، علم أن الشيوعيين في الحكومة الأسبانية، قد استخونوا المتطرفين الذين انضم مقاتلا إلى صفوفهم ضد فرانكو، ومعاقل العمّال المستقلّين، في برشلونة، لم تكن فيما يبدو، على الصورة القائمة، في تقدير مدريد وموسكو. وسرعان ما أصبح اورويل ورفاق السلاح معه يتهمون في صحف الشيوعيين في أسبانيا وأوروبا بأنهم الفاشيّون الذين يعملون لحساب فرانكو، وعلى الفور بدأت في برشلونة حملات الانتقام والتطهير.. فلم يسع اورويل إلاّ أن يختبىء، ثم يخرج من البلاد هاربا...

وكان لتجربة اشتراكه في الحرب الأهلية الأسبانية أثرها البعيد في اتجاهه الفكري وفي شخصيته. وكان أعجب المتناقضات، التي كشفت له حقيقة الشعارات التي ترفعها الشيوعية أن العمال الذين يحاربون قوات فرانكو دعما لهذه الشيوعية وانتصارا لها، في برشلونة، هم الذين وقعوا

---

(١) المصانعة هي ما تمنحه عاملاً أحسن عمله أو قدّم خدمة ــ البخشيش.

تحت طائلة نقمة الشيوعيين وجرائمهم الانتقامية، والجريمة التي استحقوا عليها هذا العقاب، بتوجيه من ستالين نفسه، هى عدم الاخلاص للمبدأ، ولذلك فقد أصبحوا في نظر موسكو أشد خطرا وعداء للشيوعية والشيوعيين من فرانكو نفسه.

و بعودته إلى بريطانيا، وحين أخذ يقرأ في الصحف، ما ينشر عن تفاصيل الأحداث في الحرب الأهلية الأسبانية طوال مدة غيابه، أدرك اورو يل كم كان مخدوعا، فكتب يقول: (قرأت تفاصيل لمعارك كبرى، في مواقع، لم يكن فيها قتال أصلا... و وجدت تجاهلا وصمتا مطبقا، عن المعارك التي سقط فيها مئات الرجال... بل قرأت عن القوات، التي حاربت قوات فرانكو بشجاعة وإخلاص تتهم وتدان بالجبن والخيانة، وأولئك الذين لم يصابوا بطلقة واحدة، تغدق عليهم عبارات الاطراء والثناء والاعجاب، ويمجّدون كأبطال في معارك لم تقع أصلا). ثم أضاف يقول: (كانت ظاهرة ملأ تني رعبا واشمئزازا، وجعلتني أوقن أن الحقائق الموضوعية... الحقيقة تطمس، وتتلاشى في هذا العالم.

ومن هنا.. بدأ مسيرته نحو هدف لاشك أنه أصبح يراه بوضوح شديد، بحيث التزم بأن يكرّس بقية حياته وعمره، لمواجهة هذه القضية والتصدي لها ضد خصوم مردة، فلم يقتصر وقوفه على إدانة واستنكار النازين والاستالينيين فقط، بل على أدب وفلسفة (الذاتيين) الذين تحكمهم نظرية (الأنا)، فلا يرون وجودا لغيرهم والحقيقة عندهم ليست أكثر من بيت عنكبوت خيوط نسيجه كلمات جوفاء، هى التي مثّل لها في قصته ١٩٨٤، بتلك الشعارات التي تنتشر في كل مكان في لندن ــ من بلدان أوشينيا ــ بكل ما تتفجر به من حقد يدمّر و ينسف جميع القيم في معاني الحرية، والحب والسلام والقوة، إذ تقول:

الحرب هى السلام.
الحرية هى العبودية.
الجهل قوّة.

كما تنعكس تماما، هذه المعاني في الوزارات الأ ربع التي تحكم دولة أوشينيا، فتكون مسؤولية وزارة الصدق، تزييف كل حقائق التاريخ، وإعدام كل وثيقة أو كتاب أو خبر في جريدة يمكن أن يذكّر الناس بهذا التاريخ من حيث هو... ووزارة السلام، هى المسؤولة عن إعداد الناس والاستعداد بمختلف أجهزة وأسلحة الحرب، التي لا تنتهي، إلاّ لتبدأ من جديد. و وزارة الرخاء ولا عمل لها إلا ابتكار الوسائل واختلاق الأسباب التي تبرر تخفيض نصيب الفرد من مواد التمو ين... أما وزارة الحب... فهي أخطر أجهزة الدولة إطلاقا، إذ هى المسؤولة عن الأمن وهذا يستتبع بالضرورة، أعمال التجسّس والتعذيب والارهاب، وهى التي تنفّذ قوانين الحكم المطلق بقدرة طاغية على تطو يق حرية الفرد واحتواء مسيرة حياته كلّها ومنذ سني الطفولة دون أي فرصة للافلات إلى أن يموت.

وكان كتاب (تحية ولاء إلى كاتالونيا) هو الثمرة الأولى التي خرج بها من اشتراكه في الحرب الأهلية الأسبانية، وعلى ضوء ما عايشه وسجّله من الأحداث فيه، يمكن القول إنه مهّد لأعظم عملين من أعماله، هما قصة (مزرعة الحيوان) وقصة: (ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون)... والكتاب لا يختلف كثيرا عن سابقيه في أنه يستكمل جانبا من مسيرة حياته. وحين صدر في عام ١٩٣٨، تضاربت حوله آراء النقاد، من منظور موقفه من اليسار البريطاني، ومن الشيوعية، إلى جانب تلك النظرة الغريبة إلى هذا المذهب الكاثوليكي في المسيحية، إذ يصمه بأنه كالشيوعية، يقضي على حرية الفرد و يلغي حقه في التفكير الحر المستقل، و بينما لا يرى فيه بعض النقاد أكثر من تسجيل وثائقي لمشاهداته في الحرب الأهلية الأسبانية، يذهب بعضهم الأخر إلى أنه عمل أدبي يمتاز باشراق العبارة و بلاغة الأسلوب، بحيث يفضلونه من هذه الزاوية حتى على رواية ١٩٨٤، وهذا إلى جانب أن وصف الأهوال ومشاهد الرعب فيه تمتاز عن تلك التي في ١٩٨٤، بأنها تسجيل لواقع شاهده فعلا، فهي حقائق، بينما هي في تلك القصة من نسج الخيال. وفي سنة ١٩٣٩، نشرت له رواية بعنوان (فلنستنشق الهواء). ومع أنها لا ترتبط بحادث معيّن في مسيرة حياته، كما كان الحال في أعماله السابقة، فإنها لا تختلف عن هذه الأعمال، في أن اورويل ظل ينتح من نفس البئر، وهي تجاربه وانذاره باخطار أنظمة الحكم التي تطبق على حرية الفرد، وتتسلّط على مصير الإنسان بالديكتاتورية الغاشمة التي جسّدها في تلك الفترة، ستالين، طاغية روسيا، وفرانكو في أسبانيا، وهتلر في ألمانيا، وقد سجّلوا له في هذا الكتاب أنه توقع أو تنبّأ بنشوب الحرب العالمية الثانية في فترة تتراوح بين شهور، وأعوام قليلة، وقد اندلعت فعلا، بعد شهور من صدور الكتاب. ولكن ليس في ذلك ما يستغرب في الواقع، إذ هو كاتب سياسي قبل كل شيء، ولذلك فهو معني بالأحداث التي كانت تتلاحق في هذا العام بالذات، وهي مفعمة بالنذر، التي لا يدري أحد كيف غابت عن تقدير مستر تشمبرلين، —رئيس وزراء بريطانيا— فانطلت عليه خدعة هتلر، فتردد طويلا في الوصول إلى قرار إعلان الحرب في الأول من سبتمبر عام ١٩٣٩.

وخلال سنوات الحرب، كان من المفارقات في نشاطه الفكري، أنه كان يجد، بين التزاماته بالتعليق على أحداث الحرب في الصحف وعمله مذيعا في الاذاعة البريطانية الموجّهة إلى الهند وجنوب شرق آسيا، وقتا لكتابة مقالات تنشرها له الصحف، عن ديكنز وميلّر، وعن النشاط الأدبي والاجتماعي في مجلات الشباب.

وقد ظل طوال سنوات الحرب، يعيش مع زوجته في لندن، في حالة توافق أو انسجام مع أجواء وظروف الحرب في العاصمة البريطانية، بما فيها من القصف الجوي، بقنابل الغارات الألمانية تقابل بشجاعة الناس و بطولات صمودهم، بين الدمار والأنقاض، إلى جانب شح المواد الغذائية، وتشرد الذين يفقدون مساكنهم، أو الذين يهجرونها خوفا على حياة الأطفال. وقد فسّروا ما بدا عليه من الانتعاش مع هذه الظروف، بأنه كان مهووسا بالنضال، ينتعش، وتتوفّر حيويته، و يزداد نشاطه

في أجواء المعارك والحروب.

وفي الفترة من نوفمبر عام ١٩٤٣، إلى فبراير عام ١٩٤٤، عكف اورو يل على كتابة قصة (مزرعة الحيوان) وقد قيل إنه قضى وقتا طو يلا، بل ربما أطول وقت، في التفكير فيها قبل الشروع في كتابتها. وكما سبق أن قلنا لم يجد، في بادىء الأمر من ينشرها له، لأن ستالين كان حليفا لبريطانيا والحلفاء، ولأن الناشرين في أمريكا رأوا، أن قصص الأطفال لا تجد رواجا عندهم. ولكن القصة صدرت مع ذلك في بريطانيا لأ ول مرة في عام ١٩٤٥ وقد نشرها (سيكر و ور برج) الذي سبق أن نشر له (تحية ولاء إلى كاتالونيا)، وذلك بدافع كراهيته للشيوعية، وعدائه لستالين بالذات، والخنزير الذي قام بالثورة على صاحب المزرعة (مستر جونز) وظل يقودها في جميع مراحلها، ويحقق في مسيرتها انتصارات دمو ية على خصمه، يكاد يكون هو ستالين، بطغيانه وبما سفح من دماء الملايين، في حركة التطهير، و بعدائه المشهور لتروتسكي، وتنكيله بالتروتسكيين أينما وجدوا. ولم يندم الناشر (سيكر و ور برج) على نشر القصة في ذلك العام، نظرا لما لقيته من رواج، قيل إن ر بحه منها قد أنقذ الدار من الضيق المالي الذي كانت تعانيه. والقصة بعد ذلك، ظلت تجد الإقبال في جميع اللغات التي ترجمت إليها وما تزال منذ ما يقرب من أر بعين سنة حتى اليوم.

وفي هذا العام ــ ١٩٤٥ ــ توفيت زوجة اورو يل، على إثر إجراء عملية جراحية لها من سرطان الرحم، وكان عمره يومئذ ٤١ سنة، وهو مصاب بالسل الرئوي، وقد تركته زوجته، مع الطفل ريتشارد، الذي كان قد تبنّياه منذ فترة. والعجيب أنه في هذه الظروف، أخذ يفكّر في الزواج مرة أخرى، بل أخذ يخطب لنفسه من يحدث أن يقابلهن من النساء اللائي يذهلهن العرض فيرفضنه بطبيعة الحال.

وكان رواج قصة (مزرعة الحيوان) قد خفّف من ضائقته الملحة وحاجته إلى المال، وأتاح له، أن يتخفّف من التزاماته الصحفية، فيكرّس جهده للانتهاء من كتابه قصته التالية، (ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون)، فارتحل كما سبق أن أشرنا إلى جزيرة (جورا ــ بالجيم العربية)، واستطاع ــ بجهد، ضاعف من ثقله عليه، تطور مرض السل الذي أصبح ينذر بالنهاية ــ أن يكمل كتابتها، وعاد إلى لندن، وقد أنهكته العلة، كما أنهكه الجهد، بحيث كانت حالته تزداد سوءا يوما بعد يوم.

وصدرت القصة في عام ١٩٤٩، وكان الناشر بطبيعة الحال هو (سيكر و ور برج)، الذي أصبح متخصصا في نشر أعمال اورو يل ــ وما يزال حتى اليوم ــ وكان النجاح والرواج اللذان لقيتهما أعظم كثيرا مما كان يتوقّع الكاتب والناشر على السواء. إذ أن ما حجز من نسخها، قبل النشر قد بلغ أكثر من عشرة آلاف نسخة.

أما التفات النقاد إليها واهتمامهم بموضوعها، يوم نشرت، ثم بعد ذلك، وربما حتى اليوم، فقد كان أشبه بظاهرة قلّ نظيرها بالنسبة لأي قصة لأي كاتب في هذا القرن. ولعلّ ما كتبه النقاد عنها، بين ساخط على الصورة البشعة التي تقدمها القصة للحكم الشمولي، و بين مستنكر للصورة من

حيث هى ، تقو يض لمعالم الجنة التي يعد بها المذهب الشيوعي جماهير العالم ، أو هم عمال العالم ، و بين من لا تعنيه المسألة السياسية ، بقدر ما تعنيه (فنّية) العمل ، فهو وراء الهفوات ، في افتعال الأحداث ، والحبكة ، والبناء الدرامي وقوة أو ضعف الأسلوب ، ما كتبه هؤلاء النقاد ، وهم عشرات ، منهم اعلام كبار معروفون ، يملأ ـ لو جمع ـ عددا من المجلّدات أكثر من أن يحصى . وكل ذلك قبل هذا العام ، الذي رأينا كيف كاد يفوق ما أحدثه من ضجّة ، في طول العالم وعرضه ، جميع ما يعيشه هذا العالم من أحداث .

وحين يتساءل البعض ـ ربما ـ عن السبب الذي جعل اورو يل يختار عام ١٩٨٤ بالذات لأحداث قصّته ، فقد سبق أن طرح السؤال نفسه بعض النقاد ، فقالوا إن المسألة مجرد صدفة أو لعبة بالرقمين الأخيرين ، فالكاتب قد فرغ من كتابتها في عام ١٩٤٨ ، فخطر له أن يجعل الأحداث تقع في مقلوب ٤٨ وهو ٨٤ . ولكن قد يكون مثل هذا التعليل بعيدا عن الصواب تماما ، لأن توقع سقوط لندن تحت قبضة الحكم الشمولي ، كان لابد أن يطالب الكاتب بمحاولة تحديد الزمن الذي يستغرقه هذا التحول الخطير ، فهو هنا أمام مشكلة تقدير ، تعتمد على درجة من التفاؤل والتشاؤم . . أو درجة من حسن الظن أو سوء الظن ، بتطورات الأحداث ، وهو معروف بأنه كاتب تغلب عليه روح متشائمة ، وفي هذه الرواية التي أراد بها (الإنذار) ، رجّح كفّة سوء الظن ، فحدّ لزحف الشيوعية ، أو الحكم الشمولي على العالم ، وانتصارهما بالتالي هذه الفترة القصيرة من عام ١٩٤٨ ، إلى عامنا هذا ١٩٨٤ .

ومع أنه كان رجلاً على حافة القبر بعد أن انتهى من كتابة هذه القصة ، وكانت علة السل تتطور فتنذره بهذه النهاية المحتومة ، فقد روى عنه أحد أصدقائه ، أنه في هذه المرحلة قال : (عندي كتب أخرى عليّ أن أكتبها) . والأعجب من ذلك ، أنه سرعان ما تزوّج من فتاة جميلة تصغره بخمسة عشر عاما ، وهو على سرير مرضه في المستشفى ، و يقول صديق آخر إنه بعد هذا الزواج قال : (عندما يكون المرء متزوّجا ، فإن لديه ما يبرر أن يعيش) . ولكنه مات بعد ثلا ثة شهور في ٢١ يناير من عام ١٩٥٠ .

والذين قرأوا القصة في اللغة الانجليزية ، لا يستطيعون أن ينسوا ، أن من الأعمال التي كان يبذل الحزب جهداً طائلاً في القيام بها ، استحداث ما سمّاه الكاتب (اللغة الجديدة) التي وضع مثالا لمفرداتها ومعاني هذه المفردات في آخر الكتاب ، وقدّم للبيان أو قائمة المفردات في اللغة الجديدة ، بمقدّمة طو يلة نسبيا ، توضّح الأهداف التي يتوخاها الحزب من وضعها ، وهى باختصار مواجهة الحاجات الأ يديولوجية للاشتراكية الانجليزية التي وضعت لها كلمة (اينجسوك INGSOC) ثم مصادرة القدرة على جميع أنواع التفكير الذي يطرأ ، أو يمكن أن يطرأ ، على فكر سكان أوشينيا ، والنظرية هى (بقدر ما يقل رصيد الإنسان من مفردات اللغة بقدر ما يزداد عجزه عن التفكير أو عن التعبير عن الفكرة في ذهنه) ، و يبدو لي أنه ربما انتهى إلى هذه النظرية ، من مقولة ، إن لغات بعض شعوب جنوب شرق آسيا ، تفتقر إلى مفردات مثل : العاطفة . . . الحب . . . الحنان . . .

الابداع ... الخيال الخ ، وهذا هو السبب في أن تاريخها يكاد يكون خاليا من الأعمال الأدبية ، والتراث الفكري ، الذي نجده في لغات شعوب الشرق الأوسط ، وشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط .

على أية حال ، لم أجد ما يبرر نقل هذه القائمة من مفردات اللغة الجديدة ، ومعانيها إلى اللغة العربية ، لأنها لا تفيد القارىء العربي بشيء ذي بال ، ولكن الذين يتطلّعون إلى الاطلاع عليها كنموذج للمحاولة ، يستطيعون ، أن يعودوا إلى القصة في نصّها الانجليزي ، الذي أعتقد أنه متواجد في المكتبات .

و بعد ، فها هى القصة ، تنشرها شركة تهامة ، مترجمةً إلى اللغة العربية ، ولأول مرة في العالم العربي ، وفي مطلع عام (ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون) ، وتتداولها أيدي القراء في هذا العالم الذي عاش الأعوام الثلاثة الأخيرة ، أخطر تطورات قضيته الكبرى التي أسمّيها قضية حرب الثلاثين عاما ، بكل ما أفرزته ، وما لا تزال تفرزه في حياة الإنسان العربي من أنظمة حكم في أكثر من بلد عربي ، إن لم تكن هى الحكم الشمولي ، أو الشيوعي ، وحزبه الواحد بمساوئه وأوضاره من بطش وارهاب وتنكيل وتعذيب ، فهي بلا جدال ولا مراء ، الأنظمة التي حقّقت ــ وماتزال ــ أعلى مستويات التفوق ــ حتى على النظام الشيوعي في بلدانه ــ في فنون البطش والارهاب والتعذيب ، لغرض وضعته هذه الأنظمة هدفاً أعظم لا سبيل إلى التساهل اطلاقا في الاستمرار في الوصول إليه ، وهو القضاء على الحرية ، بكل صورها ، ومضامينها ، وحقوق الفرد فيها ، قضاء مبرما شاملا ، تحوّلت نتيجة له جماهير الشعب ، إلى قطيع كبير تسلخ ظهور أفراده سياط من الحديد المجدول ، وتمتاز قطعان الماشية والأنعام ، بل وحتى الكلاب ، بأن لا أحد يمنعها الثغاء ، أو النباح ، بينما هو محرّم في قوانين هذه الأنظمة على الانسان .

وإني لأعلم كيف سوف يستقبل الكتاب من شريحة كبيرة من حملة شعارات اليسار بأنواعها المختلفة ، وتطلّعاتها المكبوتة الثائرة ، ونضالها ــ تحت الأرض ــ أو على سطحها في سبيل الحرية التي اعتقلتها تلك الأنظمة الطاغية ، وفي سبيل الخلاص من الظلم والاضطهاد تحت ظلال شعارات الزيف والتضليل والخداع . ولا أطمع أن يستطيع اورويل بكتابه ، أو أي كاتب بأي عمل فكري أن يزحزح حملة هذه الشعارات عن موقفهم ، الذي أعلم ــ وتعلم الأنظمة نفسها أيضا ــ أنه يزداد صلابة ، كما يزداد انتشارا في الخفاء ، كنتيجة حتمية ، لاستمرار الغباء الأمريكي وتحت مظلّته جميع الدول التي تسمّي نفسها : (العالم الحر) ، في العبث الرخيص بقضايانا المصيرية الكبرى إرضاءً ودعما بلا حدود ، لهذا العدو الذي نعيش حروبنا ، ومآسينا الدامية معه طوال مازاد عن ثلاثة عقود من السنين ... أعلم هذا كله ، ولا أطمع ، بل قد لا ينبغي أن أطمع ، في أي أثر إيجابي يحدثه هذا الكتاب ، في نفوس هذه الشريحة الكبيرة من حملة مشاعر اليسار وشعارات اليسار ، ولكني أطمع ــ رغم ذلك ــ في شيء واحد ، هو أن تتخلّص هذه الشريحة في عالمنا العربي من هوس الانتماء

العشوائي لما ترفعه أنظمة الحكم الشيوعي من دعاوى الحرية والعدالة والمساواة، في إطار المبادىء والمثل والمذاهب التي لم تعد هذه الأنظمة قادرة على إخفاء ما تنطوي عليه من كذب وزور و بهتان، وتضليل، وعلى الأخص بعد أن عاش التجربة، ومايزال يعيشها للأسف أكثر من بلد عربي. والبديل الذي أتطلع إلى أن تستهدفه جميع شرائح المثقفين، وأن تناضل في سبيل الوصول إليه، هو الهدف الأعظم والأكثر قدرة على التحدي، بل وعلى الحسم الحاسم، وهو تلك الحرية التي استوعبتها منذ ألف وأربعمئة عام كلمة واحدة، ارتفع بها داعيا إلى الإيمان بها من وادي ابراهيم بمكة، صوت محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

تلك الحرية التي لم يستطع قط ــ ولن يستطيع إلى الأبد ــ أي دستور موضوع، أن يجيء بأفضل منها شمولا للمضامين في عمق، واستيعابا للهدف في إيجاز.

تلك الحرية التي غاب مضمونها العميق عن ضمير الإنسان المسلم، رغم أنه ظل يرددها عبر قرون وقرون فكان واقعه هذا الواقع المرير.

الحرية، التي لن تقوم للمسلمين قائمة، إلاّ إذا أشرقت في الضمير، وتأججت في الدماء.

الحرية، التي لن تجدها ولن تشعر بحوافز النضال في سبيلها، إلاّ إذا وعيت تلك الكلمة الواحدة... تلك الكلمة الخالدة..

لا إلاله إلا الله..

عزيز ضياء

الفصل الأول

اليوم هو أحد ايام ابريل المشرقة والباردة . والساعات تدق الواحدة ظهرا . حين مرق وينستون سميث ، وقد أحنى رأسه ، وغرس ذقنه فى صدره ليتفادى قسوة الريح . مرق مسرعا عبر المدخل الزجاجى لـ « بنايات النصر » وانفلتت برغم سرعته دوامة من حبيبات الرمل صاحبت دخوله .

أفضى به المدخل الى صالة فاحت فيها رائحة الكرنب المسلوق ، ورائحة ما يغطيها من حصير قديم مصنوع من القماش . فى احد اركان الصالة علقت صورة ضخمة ملونة ، حجمها اكبر من ان يحتمله مدخل احد المبانى . صورة لا تحمل الا ملامح وجه ضخم عرضه يربو على المتر ، لرجل فى حوالى الخامسة والأربعين ، له شارب أسود كث وملامح وسيمة فى صلابة . اتجه ونستون صوب سلم المبنى ، وكان من العبث انتظار المصعد فهو فى احسن الأحوال نادرا ما يعمل ، كما ان التيار الكهربائى مقطوع فى هذا الوقت من ساعات النهار ، كجزء من حملة الدولة استعدادا لـ « اسبوع الحقد » . كانت شقة وينستون فى الدور السابع ، مما اضطره وقد بلغ التاسعة والثلاثين من العمر ويعانى من التهاب حاد فى عروق مفصل قدمه اليسرى ان يصعد السلم فى تؤدة مع التوقف عدة مرات فى الطريق ليلتقط انفاسه ... وفى كل دورة على الحائط المواجه للمصعد ، كانت تقابله تلك الصورة لذلك الوجه الضخم الذى ينظر اليه محملقاً . صورة مصممة بحيث تتبعك عينا صاحبها ... مطاردة .. اينما ذهبت ، وكانت تعلو عنوانا تقول حروفه الكبيرة : « الزعيم . عيناه ترقبانك دوما » .

حين دلف وينستون الى شقته ، استقبله صوت نسوى ناعم يقرأ قائمة من الأرقام لها علاقة بانتاج الحديد المدرفل ، والصوت صادر من شاشة معدنية مستطيلة مثبتة الى الحائط الأيمن تشبه مرآة معتمة . أدار وينستون احد مفاتيح الجهاز ليخفض من صوته الى حد ما ، وان ظل صوت المذيعة واضحا يقتحم اذن الجالس فى الغرفة . وهو جهاز سمى « السينما

التليفزيونية » ، من الممكن ان تنخفض قوة استقباله لكن دون ان يغلق على الاطلاق .

اتجه وينستون بجسمه الضئيل الحجم الى النافذة وقد زاد من ابراز ضآلته « لباس العمل » الأزرق الذى يحتويه ، وهو الزى الموحد للحزب . وجهه بطبيعته قانى اللون يعلوه شعر اشقر ... وجه تكسوه بشرة خشنة لكثرة ما مر عليها من صابون ردىء ... وأمواس حلاقة متثلمة ... وبرودة شتاء مضى .

حتى فى الخارج ، عبر النوافذ المغلقة ، بدا العالم يكسوه الصقيع ، والريح الصاخبة تكنس الطرقات ... تلطم الأتربة وقصاصات الورق وتدفعها الى أعلى فى دوامات هوائية ، ورغم زرقة السماء وآشعة الشمس التى لم تغرب بعد فقد بدا الكون وكأنما هو بلا لّون ..

اللهم إلا الوان تلك الصورة التى تواجه الانسان فى كل مكان : صورة هذا الوجه بالشارب الأسود الكث محملقا ايضا فى كل ركن ... وأمام واجهة المبنى المقابل بالضبط اطل واحد منها .. وترعد الكلمات تحت الصورة : الزعيم عيناه . ترقبانك .. دوما .

وكانت عينا رجل الصورة تتفرسان وجه وينستون .. وصورة اخرى ترتفع ياردات قليلة من الشارع الذى يطل عليه المنزل وقد مزقت من أحد جوانبها ، أخذت الريح تعصف بالجزء الممزق منها وتتلاعب به .. وجزء من الورق ظل يختفى ثم يظهر ليؤكد اسم « الحزب الشيوعى الانجليزى » ، وقد كتب إلى جوار الصورة على الحائط بحروف بارزة .

وعلى مرمى البصر كانت طائرة هليوكوبتر تقوم بعملية مسح جوى عبر اسطح المنازل .. حامت فوق المنازل للحظات ثم مرقت كالسهم فى مسار شبه دائرى .. احدى طائرات قوات البوليس تتلصص على ما يجرى داخل البيوت ... ولكن هذه الدوريات البوليسية لم تكن لتهم مهما كان .

إنما كان الذى يهم ، هو مجرد التفكير ... فى البوليس العقائدى (السياسى) .

ظل الصوت الصادر من جهاز السينما التليفزيونية يلقى خلف ظهر وينستون بكلام عن الحديد المدرفل .. وتجاوز الخطة الثالثة بعد التسعين للحزب . ومن خصائص السينما التليفزيونية هذه ان (ترسل) و (تستقبل) فى آن واحد ... فكان أى صوت يصدر عن وينستون ويتجاوز نطاق الهمس المخنوق .. يلتقطه الجهاز على الفور . زد على ذلك انه مادام الانسان فى مدى « رؤية الجهاز» .. فمن الممكن ارسال صورة ما يقوم به بل وما

يقوله ايضا .. وبالطبع ليس هناك ما يضمن ان لا تكون مراقبا فى أى وقت . فبصورة عشوائية يمكن للبوليس السياسى ان يضغط احد الأزرار ليسجل بالصوت والصورة ما تقوم به انت وغيرك ... وفى أى وقت يشاء ، ومن ثم سرى الاعتقاد انهم يراقبون كل انسان طول الوقت وبغض النظر عن مدى صحة هذا الزعم ... فالثابت ان باستطاعتهم بالفعل ان « يفتحوا » الجهاز عليك فى أى وقت يحلو لهم .

ما بقى عليك كانسان هو ان « تعيش » ... أو انك بالفعل تعيش وقد ولَّد لديك التعود على هذا الوضع غريزة جديدة ، وهى افتراض ان كل صوت صادر منك ، وكل حركة تقوم بها - اللهم الا فى حالات الاظلام - كله مسموع ومسجل وعرضة للتحرى والمتابعة والمساءلة عند اللزوم .

ظل وينستون فى وقفته ... ظهره إلى الجهاز ، اذ هذا الوضع اكثر أمنا على الرغم من أنه حتى صورة الانسان الخلفية - كما كان يعلم - من الممكن ان تنبىء عن حالته .

فى مواجهته على مدى كليو متر تقريبا انتصب شامخا أمام ناظريه ذلك البناء الذى يعمل هو فيه « كموظف » ... مبنى (وزارة الحقيقة) بلونه الأبيض المتعارض مع ما يحيط به من خلفية كئيبة .

وكأن الواقع الآن يقول : ان هذه هى « لندن » ، المدينة الرئيسية فى القطاع الجوى رقم (١) ، ثالث اقاليم « اوشانيا » من حيث كثافة السكان ... ردد وينستون لنفسه هذا الواقع بنبرة مخنوقة من الاستياء .

ثم حاول ان يعتصر ذاكرته ليرتد إلى ايام الطفولة متسائلا : هل كانت لندن بالفعل كما وصلت اليه الآن ؟

هل كانت قط هى تلك الصفوف المتراصة من منازل القرن التاسع عشر المتهالكة . جدرانها من عواميد خشبية غير منسقة ... نوافذها تم ترقيعها بقطع الأبلكاش ... اسقفها الحديدية هرمية الشكل كأسقف المعسكرات ... أسوار حدائقها كأن بها مسا من الجنون ... مفتوحة لجميع الاتجاهات بمواقع المدينة التى اصيبت بقنابل الحرب حيث ذرات التراب المخلوط بالجبس ترتفع فى صورة حلزونية الشكل ، تجاور تلالا من « الأنقاض » .. مستعمرات من أكواخ خشبية بائسة تماثل عشش تربية الدجاج .

هل كانت لندن قط هكذا ؟...

حاول جاهدا ان يتذكر دون جدوى ... لم تبق ذاكرته من أيام الطفولة إلا على سلسلة من صور مشرقة ... صور معلقة بلا خلفية تربطها ... صور فى غالبيتها لا تعطى معنى واضحا .

أمامه الآن تنتصب بناية « وزارة الحقيقة أو « وزحق » وفق اللغة الجديدة . مختلفة فى مظهرها بصورة مذهلة عما يحيط بها ... بناء ضخم من الأسمنت المسلح ، ذو لون ابيض وارتفاع شاهق يكاد يناطح السحاب بشرفاته الهرمية المتدرجة الواحدة تلو الأخرى ... ارتفاع يصل الى الثلاثمائة متر .

حتى من هذا البعد الذى يقف ونستون فيه ، كان بإمكان المرء أن يقرأ بوضوح الشعارات الرئيسية الثلاثة للحزب ... كتبت بأحرف كبيرة ، وبخط أنيق بارز على الواجهة البيضاء للبناء :

« الحرب ... هي السلام »

« فى العبودية ... حرية »

« فى الجهل ... قوة »

كانت وزارة الحقيقة ـ كما يقال ـ تضم ثلاثة آلاف غرفة فى مبناها البارز فوق سطح الأرض ، بالاضافة الى امتدادات مماثلة فى الحجم اخطبوطية الشكل تحت سطح الأرض . وفى لندن كلها كانت هناك بالاضافة الى مبنى هذه الوزارة ثلاث فقط من البنايات الشاهقة المماثلة ... سواء فى المظهر الخارجى او الحجم . يبلغ من ضخامة هذه البنايات الأربع ان بدا ما يحيط بها من مبان متناهيا فى الضآلة . فكان بمقدور ونستون حتى من نافذة مسكنه فى « بنايات النصر » ان يستوعب بنظرة واحدة شاملة ، البنايات الأربع كلها نظرا لتفردها . وكانت هذه البنايات الأربع هى مقر الوزارات الأربع التى تشكل جهاز الدولة كله بأقسامه الرئيسية ، حيث اختصت « وزارة الحقيقة » بالاعلام والترفيه والثقافة والفنون الجميلة ... واختصت « وزارة السلام » بشئون الحرب ... « ووزارة الحب » بسيادة القانون وتوطيد النظام . أما وزارة « الوفرة » فمسئوليتها الشئون الاقتصادية .

وأسماء هذه الوزارات باللغة الجديدة هى : (وزحق) ... و (وزسلم) ... و (وزحب) ... و (وزوف) .

كانت وزارة الحب هى حقيقة اكثر تلك الوزارات اثارة للرعب ... مقرها مبنى اصم بلا نوافذ على الاطلاق . ولم يقدر لوينستون قط ان تطأ قدماه هذا المبنى ، بل ولم يحدث أن اقترب منه لمسافة تتجاوز الخمسمائة متر ... فهو مكان من المستحيل ان تطرق بابه إلا فى مهمة رسمية . عندئذ يتعين عليك لكى تصل إلى داخله أن تمر عبر غابة من حواجز الأسلاك الشائكة وعدة أبواب مصنوعة من الصلب عبر عدة كمائن من البنادق الأوتوماتيكية سريعة الطلقات ... حتى الشوارع المؤدية الى المتاريس الخارجية للمبنى تزدحم بأعداد غفيرة من رجال الحرس متجهمى الوجوه بملامح أشبه بغوريلا متوحشة فى زى أسود وقد تمنطقوا بهراوات غليظة .

استدار وينستون فى وقفته فجأة داخل غرفته ، وقد اصطنع محياه تعبير البشر والتفاؤل .. وهى سمات من الأفضل ان يتصنعها الانسان فى مواجهة شاشة السينما التليفزيونية . اتجه من غرفته الى مطبخ الشقة الضيق وهو يعلم أن فى تركه عمله فى مثل هذا الوقت المبكر تضحية بحقه فى وجبة الغذاء ، برغم علمه مسبقا بأن كل المتبقى لديه هو كسرة من خبز اسود يجب استبقاؤها لافطار الغد .

تناول من احد ارفف المطبخ زجاجة تحوى سائلا فقد لونه ، وان أكدت قصاصة الورق على الزجاجة انه « جين النصر ... » سائل له رائحة مقبضة ، كما لو كان قد صنع من خلاصة ارز صينى ... صب وينستون لنفسه ملء ملعقة شاى منه ، وأعد نفسه للصدمة المصاحبة لعملية شربه ... ثم دلق بمحتوى الملعقة داخل فمه بسرعة كمن يتعاطى دواء مرا .

وعلى الفور احمر وجهه ، وطفرت عيناه بالدمع . كان السائل فى قوة حامض النتريك ... زد على ذلك ما يتنابه من احساس مزعج عند ابتلاعه ... كما لو كان قد تعرض لضربة هراوة على ام رأسه ... ولكن رويدا رويدا على أية حال ، بدأت النار التى اكتوت بها معدته يخبو أوارها ، ليبدو شكله العام اقل اكتئابا .

تناول لفافة تبغ من صندوق تبغه « ماركة سجائر النصر » ولم يكن حريصا بما فيه الكفاية فى امساكه بها لتتساقط وريقات التبغ على الأرض ، ولكن فى لفافته التالية كان اكثر توفيقا . وبلفافة التبغ فى يده عاد مرة اخرى الى حجرة المعيشة وجلس الى منضدة صغيرة تستند إلى الحائط على يسار جهاز السينما التليفزيونية . أخرج ريشة من درج

المنضدة وزجاجة حبر ودفترا سميكا من القطع المتوسط احد غلافيه أحمر وغلافه الآخر ابيض مشوب بزرقة هادئة .

ولسبب ما ، كان وضع الجهاز فى غرفة المعيشة وضعا مغايرا للمألوف . فبدلا من الوضع العادى فى نهاية الغرفة بحيث يكشف تحركات من بالغرفة كاملة ، وضع هذه المرة فى الحائط المواجه للنافذة ... إلى جانب الجهاز كان هناك تجويف فى الجدار ، صمم اصلا على الأرجح لأرفف كتب ، جلس وينستون داخل هذا التجويف متفاديا بذلك مدى رؤية الجهاز ، وان كان ما يصدره من اصوات خاضعا للرقابة .

ان جغرافية الحجرة هى ما حفزه إلى ما هو مقدم عليه من تصرف . لكن الدافع لما سيقوم به هو ايضا ، دفتر جميل الشكل بصورة ملفتة . صفحاته من ورق فضى ناعم يميل إلى الصفرة عند حوافيه ، تشير حالته إلى انه يرجع الى ما قبل اربعين عاما مضت . وخمن وينستون ان تاريخه ربما يرجع إلى ما هو أبعد من ذلك . كان قد وجد هذا الدفتر فى حانوت صغير من حوانيت البحارة فى أحد الأحياء الشعبية بأطراف لندن ، وان لم يكن يتذكر الآن أين على وجه التحديد . اعترته عند رؤيته هذا الدفتر رغبة فى اقتنائه . لم يكن مسموحا لوينستون كأحد اعضاء الحزب ان يتعامل مع أحد حوانيت « السوق الحرة » ، كما كان يطلق على الحوانيت العادية . ولكن تعليمات الحزب فى هذا الخصوص لم تكن تلتزم بدقة ،لأن عدة سلع كأربطة الأحذية وشفرات الحلاقة وغيرها لم يكن من المستطاع الحصول عليها الا من مثل هذه الحوانيت ، حين اشتراه التفت وينستون يمينا ويسارا ومسح بناظريه الشارع الذى يقع فيه الحانوت ، ثم دلف بسرعة الى داخله ... وابتاع الدفتر بدولارين ونصف ... للوهلة الأولى لم يدرك وينستون انه فى حاجة لهذا الدفتر لغرض بذاته ، لكنه حمله فى حقيبته وقد انتابه احساس بالذنب . لكن حتى على فرض ان مضمونه لا يحوى شيئا خاصا ، فهو لم يخسر كثيرا أيا كان .

ما أوشك أن يهم به الآن ، هو ان يكتب مذكراته . وكان هذا تصرفا غير قانونى (وصفة غير قانونى هنا تقال تجاوزا إذ لم تعد هناك قوانين سارية المفعول ...) واقتراف جريمة (كتابة المذكرات) عقوبتها قد تصل إلى الاعدام ، أو قد تخفف الى الأشغال الشاقة مدى الحياة فى أحد معسكرات العمل الاجبارى . غمس وينستون ريشته فى المحبرة . كانت الريشة وسيلة عتيقة للغاية فى الكتابة نادرا ما تستخدم حتى ولا فى

التوقيع ... ولكن وينستون اقتناها ... خلسة وبصعوبة ليس إلا لاحساسه ان ورقا ناعم الملمس بهذا الجمال ، يستحق ان يكتب عليه بسن ريشة حقيقية لا أن يحفر عليه بقلم حبر ... لم يكن معتادا على الكتابة بخط اليد عدا كتابة حاشية أو تعليق . كان يستخدم جهاز الكتابة الصوتى الآلى الذى لم يكن ليصلح بالطبع لغرضه الآن ... غمس سن الريشة فى المحبرة ثم توقف للحظة مترددا ... سرت فى جسده رعشة ..؟ أن يخط حرفا على الورقة أمامه ، كان هو الخطوة الحاسمة التى يجب ان يفكر كثيرا قبل ان يقدم عليها ... ولكنه اخيرا وبخط متردد ردئ سطر على الورق .

٤ أبريــــــل سنة ١٩٨٤

وأسند ظهره الى مقعده وقد اعتراه احساس جارف بقلة الحيلة ... وبأن لا شيء يهم الآن ... احساس بانتظار أى مصير ... بادىء ذى بدء ... لم يكن متأكدا ان السنة التى يعيش فيها هى سنة ١٩٨٤ فعلا ... لكن لابد أنها حول هذا الرقم ... إذ انه متأكدٌ بالفعل انه فى التاسعة والثلاثين ويعتقد من ناحية اخرى انه بالفعل قد ولد فى عام ١٩٤٥ أو ١٩٤٤ . لكن ليس فى الامكان على الاطلاق فى هذا العهد ان تسطر على الورق تاريخا الى ما يزيد على العام او العامين .

توقف وينستون متسائلا وهو فى دهشة من أمر نفسه : لمن يا ترى تكتب مذكراتك ؟...

لأجيال الغد ... لمن لم يولدوا بعد ... وعادت ذاكرته مرة اخرى تحوم حول تاريخ السنة الحالية المشكوك فيه والمكتوب بأعلى الصفحة ، ثم قفز ذهنه إلى ذلك التعريف المنصوص عليه فى اللغة الدولية الجديدة . « ازدواجية الفكر » : ولأول مرة بدأ يواجه خطورة وجسامة ما هو مقدم عليه ؟؟..

كيف ؟ كيف تستطيع ان تقيم حوارا مع المستقبل ... ان المحاولة بطبيعتها مستحيلة ... فالمستقبل حين يجىء أما أن يكون صورة من الحاضر وفى هذه الحالة لن يفتح له صدره وإما ان يجىء ... على صورة مخالفة للحاضر ... ومن ثم ستكون معاناته بلا معنى .

ومر وقت جلس فيه محملقا ... بغباء ... فى الورق ... وكان الجهاز القريب منه فى الغرفة قد تحول الى اذاعة الموسيقى العسكرية .

وبدا حائرا فى أمر نفسه ... اذ كان غريبا ، الا يفقد فقط القدرة على أن يعبر عن نفسه على الورق ، بل أن يجد نفسه غير قادر على ان يتذكر ما كان قد انتوى ان يكتبه فى مذكراته اصلا ... لأسابيع مضت كان يعد نفسه لهذه اللحظة بالذات ... لم يدر بخلده قط أن ما سيحتاجه لكى يكتب يزيد عن شىء من شجاعة ... ظن أن عملية الكتابة فى حد

ذاتها ستكون امرا سهلا .. ظن ان المطلوب منه ليس سوى ان ينقل الى الورق ذلك الفيض المتدفق من هذا الحوار الداخلى القلق والحائر مع نفسه ، والذى يعتمل فى داخله - منذ سنوات - نقلا حرفيا ..

الآن يشعر أنه حتى هذا التيار المتدفق من الفكر الحائر قد نضب معينه . وعاوده الألم فى منطقة البواسير ... وهو يعرف ان محاولة حك مكان الألم سيؤدى الى تزايد التهابه ... ومرت اللحظات متثاقلة وقد توقف تيار وعيه عند الصفحة البيضاء أمامه ، وعند نبضات الألم الزاحفة الى مفصله ... ومع هدير الموسيقى العسكرية المنبعث من الجهاز احس بدوار خفيف سببه الشراب الذى احتساه .

ثم فجأة بدأ يكتب بدافع الخوف لا غير ، وليس بوعى كامل لما يسطره على الورقة المنبسطة امامه ... كتب بخط منمنم وبحروف طفولية الشكل ... لم يستطع ان يحافظ على مستوى افقى واحد فى الكتابة بل ظل خطه صاعدا هابطا دون استواء . بادئا بالحروف الرئيسية ومنتهيا الى النقاط التى انهى بها جمله ...

٤ أبريل سنة ١٩٨٤ . ذهبت الليلة الماضية الى السينما . كل الأفلام حربية .. كان أحد الأفلام الممتازة عن اصابة احدى سفن المهاجرين المبحرة ، فى البحر الأبيض المتوسط بقنبلة . بدأ المتفرجون فى غاية الاستمتاع بلقطات تصور رجلا بدينا يحاول ان يهرب سباحة بعيدا عن مكان القصف ... وطائرة هيليوكوبتر تطارده . لقطة تصوره وهو يتخبط فى الماء كعجل البحر . ثم لقطة تالية تصوره وقد اصبح فى مرمى نيران المدافع الرشاشة للهيلوكوبتر . ثم صورته وقد امتلأ جسده بالثقوب التى احدثتها الطلقات ... المياه حوله اصطبغت باللون الأحمر . جسده يغطس فجأة الى القاع كسفينة نفذت المياه الى ثقوبها فأغرقتها ... صرخات الجمهور المرحة تصاحب عملية اختفائه فى الماء . لقطة تالية لقارب نجاة مثقل بالأطفال وطائرة هيلوكوبتر اخرى تحوم حوله ... فى القارب امرأة فى منتصف العمر تحمل طفلا فى حوالى الثالثة .

الطفل يصرخ رعبا ، ويخفى رأسه فى حضن امه ملتصقا بها كما لو كان يحاول ان ينفذ الى داخل جسدها . المرأة تحيطه بذراعيها تطمئنه وان كانت هى نفسها صورة للهلع . تحاول طول الوقت ان تغطى جسمه ... كأن ذراعيها ستمنعان الرصاص من النفاذ اليه . اسقطت الهليلوكوبتر على القارب قنبلة زنة ٢٠ رطلا . بريق الانفجار الخاطف ... ثم فى لمحة تحول القارب الى ذرات من قطع متناثرة لا يزيد اكبرها عن عود الكبريت . ثم لقطة

رائعة لذراع طفل تعلو فى الهواء اثر الانفجار ... تعلو ... تعلو فى الهواء ... لابد انهم قد ثبتوا كاميرا فى مقدمة الهيلوكوبتر ليتمكنوا من متابعة صورة الذراع وهى تعلـو فى الهـواء ... صاحب المنظر تصفيق حاد من جمهور اعضاء الحزب ... لكن امرأة فى الصف المتقدم بدأت فجأة تصيح وتثير لغطا معترضة بصوت حاد وبلهجة اقليمية مميزة « ما كان ينبغى ان يعرض هذا امام الأطفال ... غير صحيح عرض هذا امام الأولاد ... لا يجوزانه ... » الى ان ازاحها البوليس ... ازاحها البوليس ... الى الخارج ... لا أعتقد انه قد حدث لها مكروه ... لا أحد يهمه ما يقوله الجمهور ... كان سلوكها رد فعل نمطيا انهم ابدا لا ...

***

توقف وينستون عن الكتابة توقفا مرده الى حد ما الى ما اصابه من شد عضلى .

لا يدرى ما الذى دفعه ان يصب على الورق كل هذا القدر من الهراء ... لكن الشىء العجيب انه اثناء الكتابة بدأ يتذكر حادثة مختلفة تماما عما يكتب ، لدرجة انه يكاد يشعر بدافع قوى لتسجيلها .

بسبب هذه الحادثة كان ـ كما ادرك الآن ـ قد قرر ترك مكان عمله فجأة ، والحضور الى منزله ليبدأ تسجيل ذكرياته اليوم .

جرت هذه الحادثة صباح اليوم فى الوزارة ... وان كانت تبدو غائمة فى ذهنه بعض الشىء .

الوقت حوالى الحادية عشرة حيث بدأوا فى سحب المقاعد ـ فى قسم التسجيل حيث يعمل وينستون ـ خارج العنابر وتجميعها فى وسط الصالة فى مواجهة الشاشة الكبيرة ... استعدادا لجلسة (حقد لمدة دقيقتين) ؟!! كان وينستون على وشك ان يتخذ لنفسه مكانا فى أحد الصفوف الوسطى ، حين دخل فجأة الى الحجرة شخصان لم تكن ملامحهما غريبة عليه ، وان لم تربطه بهما معرفة مسبقة . أحد الشخصين فتاة اعتاد ان يراها فى ممرات المبنى . لا يعرف اسمها . وإن كان يعلم انها تعمل فى « قسم الأدب الروائى » واعتاد ان يراها مرارا بيدين متسختين بالشحم وتحمل مفكا ، فافترض انها تقوم بعمل ميكانيكى على احدى آلات طباعة الروايات ... فتاة جريئة العينين فى حوالى السابعة والعشرين ،ذات شعر غزير فاحم ووجه يكسوه النمش ، تتميز بحركات سريعـة رياضية . التف حول خصرها شعار جمعية (الشباب ضد الجنس) ؟! شريط من الشاش الأحمر ، مضموم على

وسطها بقوة ، مما ابرز ساقين ممتلئتين يفتقران الى الأنوثة ... كرهها وينستون من اللحظة الأولى التى رآها فيها . وهو يعلم السبب ... ان الطابع الذى تبرزه الفتاة ... طابع عمليات غسيل المخ ، وساحات لعب الهوكى ، والمعسكرات الجماعية ... والاستحمام بالماء البارد شتاء ... فى الواقع كان قد كره كل النساء تقريبا ... خاصة الجميلات صغيرات السن منهن ... لقد كانت النساء بالذات ... سيما الشابات منهن ... يبدين ولاء كاملا للحزب . كائنات تبتلع شعارات الحزب ابتلاعا ... وتتطوع عن طيب خاطر للعمل جاسوسات على كل من لا يتمشى مع تعليماته . الا ان هذه الفتاة التى تشابه الرجل فى المظهر ، أثارت لديه احساسا بأنها اكثر خطورة من بنات جنسها ... فى احدى المرات اثناء مروره بها حدجته بنظرة جانبية سريعة ... واحدة من تلك النظرات التى تنفذ الى داخلك فتحس انها تقطر سما ... فيجتاحك للوهلة خوف حقيقى ... حتى لقد جال بذهنه ان تكون احدى عميلات البوليس السياسى ، وان كان الافتراض فى الواقع - بعيد الاحتمال . ومع ذلك فقد استمر فى احساسه بالضيق منها ... كلما وجدها قريبة منه فى أى مكان ... احساس امتزج بالخوف وبالعداء .

كانت هذه الفتاة هى أحد شخصين دخلا الحجرة ، الشخص الآخر رجل يدعى اوبرايان ، عضو التنظيم الداخلى للحزب ... يشغل منصبا بلغ من اهميته وعلو شأنه ان وينستون لم يصل الا إلى فكرة باهتة غير محددة عن طبيعة عمله ... ساد جمهور الحاضرين صمت حين صافحت عيونهم زيا اسود ... الزى المميز لأحد اعضاء التنظيم الداخلى وهو يقترب من مجلسهم . كان أوبريان رجلا ضخما قوى البنية ، يتميز برقبة غليظة ، ووجه خشن صلب الملامح لكنه مرح الطابع ... فبرغم صلابة قسماته لم يخل من جاذبية من نوع ما . كانت له « لازمة » ، هى اعادة تثبيت نظارته على انفه ، تخفف من جدية مظهره ، وبدت - على ما فى ذلك من غرابة - كما لو كانت تضفى عليه نوعا من سراوة المظهر . حركة تعيد الى الذاكرة - اذا كان هناك من يشغل نفسه بهذه الأمور - صورة احد نبلاء القرن الثامن عشر ، وكيف يسلك حين يقدم صندوق النشوق لأحد ضيوفه : لسنوات عدة لم يكن وجه اوبريان غريبا على وينستون ، رآه خلالها عشرات المرات وكان يشعر بجاذبية غريبة نحوه ... ليس فقط بسبب طرافة التناقض بين مظهر الملاكم فى قسماته والطابع المتحضر فى سلوكه ، لكن جاذبيته مردها اعتقاد ... ليس اعتقادا على وجه الدقة ... انما امل فى ان يكون ولاء اوبريان السياسى للحزب ... ليس

الخضوع الكامل ... شيء ما فى وجهه أوحى اليه بهذا الخاطر ... بل ربما كان ما يثيره مرآه ليس مجرد إحساس الانفلات من الخضوع الكامل للحزب ، ربما كان ما يطالعك به وجهه هو مجرد الذكاء . لكن أيا كان السبب فهو انسان يوحى اليك بأن من الممكن ان تفضى اليه بمكنون نفسك ، اذا قدر لك بطريقة او بأخرى ان تخدع جهاز « السينما التليفزيونية » وتنفرد به فى منزلك . الا أن وينستون لم يبذل أى محاولة من أى نوع ليتحقق من صحة هذا الافتراض . لأنه فى الواقع لم تكن هناك وسيلة متاحة لوينستون ان يتحقق أو لا يتحقق ... والآن اوبريان داخل الحجرة التى تضمهم ... ينظر الى ساعته ... يلاحظ انها قاربت الحادية عشرة ... فظهر واضحا انه يبقى معهم فى قسم التسجيل حتى تنتهى فترة الـ « دقيقتان حقد » . اتخذ لنفسه مقعدا فى نفس الصف الذى يجلس فيه وينستون ، وبعده بعدة اماكن ، تفصل بعضها امرأة قليلة الحجم ، شعرها اصفر باهت تعمل فى التقسيم التالى للقسم الذى يعمل فيه وينستون . أما الفتاة الأخرى ذات الشعر الفاحم فقد جلست خلفه مباشرة .

فى اللحظة التالية ، طرق اذن الجميع صرير صرخة كريهة مدوية كصوت آلة حديدية ضخمة تعمل دون تزييت ... صوت صادر من شاشة « السينما التليفزيونية » فى نهاية الحجرة التى تضمهم . صرخة ينجم عنها نوع من صرير الأسنان ، وكفيلة بأن توقف شعر رأسك ان لم تنتبه لها ... وبدأت « دقيقتان حقد » .

كالعادة ... صحب الصوت على الشاشة ظهور وجه ايمانويل جولد شتين (عدو الشعب) ... مماثل لتروتسكى ... صاحبته همسات هنا وهناك بين الجمهور ، وصدر من الفتاة المجاورة لوينستون صوت هو مزيج من الخوف والقرف ... كان جولد شتين هو « المرتد » وصاحب الفكر المنحرف ، الذى كان فيما مضى (فى أى وقت مضى لا أحد عاد يفكر الآن بالضبط) أحد القيادات البارزة فى الحزب ، بل يكاد يصل الى مرتبة الزعيم نفسه ، ثم انغمس فى نشاطات رجعية مضادة للثورة فحكم عليه بالاعدام ، لكنه فر بطريقة سرية واختفى منذئذ .

كان برنامج « الدقيقتين حقد » يتغير كل يوم ، لكن لم يحدث ان وجد برنامج واحد لم يكن جولد شتين هو المحور فيه ، كان هو الخائن الأول ... الشرخ الأول فى البناء الطاهر للحزب ... كل الجرائم التالية ... كل الخيانات ... كل أعمال التخريب ... كل

دعاوى الهرطقة ... كل الانحرافات ... كلها نبتت اساسا ... من تعاليمه هو .

وفى مكان ما زال يعيش ليدير مؤامراته ... ربما يقيم فيما وراء البحار ... تحت حماية سادته ومواليه . بل ربما كان ـ يشاع عنه بين حين وآخر ـ فى مخبأ له فى « اوشـانيا » نفسها .

وجد وينستون نفسه وقد تقلصت عضلات وجهه ... فما من مرة شاهد فيها وجه جولد شتين دون ان يشعر بخليط من الانفعالات المتضاربة ... كان وجها نحيفا يهوديا تعلوه هالة من شعر أبيض كثيف . وتذيله ذقن مسحوبة ماعزية الشعر والشكل قليلة الشعـر ... ملامحه تدل على حنكة ومهارة لكنها بوجه ما تنضح بالشر ، يتوسطه انف طويل مسحوب تعلوه نظارة منزلقة الى ارنبته . الوجه ، ككل ، فيه شبه من وجه الماعز ... حتى الصوت ... فيه نفس النبرة . ظهر جولد شتين على الشاشة ليشن نفس الهجوم الذى يقطر سما ضد تعاليم الحزب ـ هجوما بلغ حدا من التهويل (من وجهة نظر النظارة) ومن الاصرار على الضلال يتيح لأى طفل أن يكشف خطأه ... لكن خطورته فى انه متقن العرض لدرجة ان هناك خوفا حقيقيا على مواطنين غير مسلحين بما يتمتع به الحاضرون من مستوى عال من الوعى ـ ان ينقادوا الى مثل هذه التعاليم المضللة . بلغ من جرأة عدو الشعب ان يتهجم على الزعيم نفسه ... ويدين دكتاتورية الحزب ، ويطالب بتحقيق السلام بأسرع وقت ممكن مع « اوراشيا » مدافعا عن حرية القول ... حرية الصحافة ... حرية الاجتماع ... حرية الفكر ... وينادى بأعلى صوته ، بشكل هستيرى ، ان القائمين على الحكم قد خانوا الثورة ، مستخدما كلمات ضخمة ... ومصطلحات سياسية مبهرة ... متعددة المقاطع ... معقدة التركيب ... وبأسلوب حاول ان يقلد فيه اسلوب خطباء الحرب فى استخدامهم لشعارات ذات بريق . بل ان جولد شتين استفاد اللغة الدولية الجديدة ذاتها ، بمعدل اكثر مما يستخدمه اعضاء الحزب انفسهم فى حياتهم العادية . لكن طوال الوقت ، وفى خلفية الشاشة وراء صورة جولد شتين وهو يخطب سارت صفوف متراصـة من لواءات جيش « اوراشيا » ، طابورا يتقدم الطابور التالى من رجال قساة الملامح ، ذاب اى انفعال فى وجوههم الآسيوية ، ساروا بخطواتهم العسكرية المنتظمة فى اتجاه المشاهد ... ثم يختفى المنظر ليتكرر من جديد ... كتذكير بألا يساور الشك أيا من النظارة فى حقيقة كلام جولد شتين المبهر والمعسول فصار الوقع المكرور لأحذية الجند فى جيش « اوراشيا » هو الخلفية لصرير صوت جولد شتين الحاد .

وقبل ان تمضى نصف دقيقة من هذا العرض الذى يقدمه برنامج « دقيقتين حقد » انفجرت صيحات الغضب والاستنكار الحاد من نصف الموجودين تقريبا ... فقد كان التناقض بين الوجه الذى يملأ الشاشة ، وقد بدت عليه الثقة بما يقول ، وبين تلك القوة المخيفة التى تطل من خلفية الصورة لجيش « اوراشيا » ... كان اكثر مما يحتمل ... هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فقد اصبح مجرد النظر الى ... بل وحتى التفكير فى جولدشتين ـ مثيرا لأحاسيس الغضب والخوف بشكل تلقائى .

لقد اصبح هذا الوجه الماعزى فى الواقع موضوعا دائما لكراهية الشعب ... اكثر من كراهيته « لأوراشيا » و « ايستاشيا » لأن « اوشانيا » عندما تكون فى حالة حرب مع احدى هاتين القوتين فهى تكون عادة فى حالة سلام مع الأخرى . لكن الغريب حقيقة فى الموضوع هو انه برغم حملات الحقد والكراهية من الكل ... بالرغم من النشاط اليومى المتشعب ضده ... والمتعدد الجوانب ، آلاف الصور من فوق منابر الخطباء على شاشة « السينما التليفزيونية » ... على صفحات الجرائد ... فى الكتب ... هجوم وادانة وسحق كامل لنظرياته ... سخرية مريرة ومقنعة من شخصيته ... تعريض به كحالة بشر تثير رؤيتهم التقزز والرثاء .

على الرغم من هذا كله فلا يبدو ان نفوذه قد بدأ يتقلّص ... دائما تجد مخدوعين جددا فى انتظار غواية كلامه ... ولا يمر يوم دون ان يكشف البوليس السياسى عن خلايا لعملاء مجندين لخدمة توجيهاته ... فبدا كقائد لجيش كبير من « جيوش القتل » ... كموجه لشبكة من النشاط السرى لعملاء يعملون بنشاط لقلب نظام الحكم . كان هناك اعتقاد ان اسم حركتهم هو « الاخوة » وسرت بين الشعب شائعات تهمس بأن هناك كتابا وهميا يتم توزيعه سرا ، يضم معظم تعاليم جولد شتين ... كتاب بلا عنوان . يشير اليه الناس ـ اذا قدر لهم ان يخوضوا فى سيرته ـ على انه « الكتاب » . لكن كل ما يتردد على أى حال لا يتجاوز مستوى الشائعات فلا حركة « الاخوة » ولا « الكتاب » من المواضيع التى يسمح لأى عضو من اعضاء الحزب أن يخوض فيها طالما كان بوسعه ان يتفادى التطرق لموضوع كهذا اصلا .

فى الدقيقة التالية من جلسة الحقد ، ارتفعت درجة غليان النظارة الى ما يشبه الهياج العصبى ... اهتزت اركان المكان بالحركة الثائرة للمشاهدين ... وعلت اصواتهم إلى اقصى ما يمكن لحناجرهم ان تطلق من صراخ لتغطى على صوت جولدشتين المشابه لصوت الماعز

وهو يصدر من الجهاز ... وجد وينستون ان الفتاة ذات الشعر الأصفر القريبة منه قد اصطبغ وجهها بلون الدم ... وفمها انتابته حركة من الفتح والاغلاق الذاتيتين كسمكة خرجت الى الشاطى . حتى ملامح اوبرايان الضخمة كستها حمرة الانفعال ، وان كان قد جلس منتصب الظهر فى مقعده ، صدره يعلو ويهبط فيما يشبه الانتفاضة ، كما لو كان فى حالة تأهب لصد موجة عاتية ستطبق عليه . أما الفتاة فاحمة الشعر خلفه فقد بدأت تصرخ فى وجه عدو الشعب المطل عليهم : « يا حلوف ... يا حلوف ... يا حلوف » ، ثم فجأة تناولت قاموسا كبير الحجم للغة الدولية الجديدة وقذفت به الى الشاشة ، فاصطدم بأنف جولدشستين وارتد الى الصالة ... ولكن لم يتوقف الصوت العتيد العنيد .

ثم فى لحظة تأمل عابرة .. يكتشف الانسان تصرفاته هو نفسه ... فقد لاحظ وينستون انه صرخ مع الآخرين ... ومع الآخرين يدق الأرض بكعب حذائه بعنف ... ان أفظع ما فى جلسة الحقد ليس فى أن كل انسان منوط به دور معين عليه ان يؤديه ، بل فى حقيقة انه ليس بوسع أحد أن يمنع نفسه من الانغماس فيما يقوم به الجميع . اذ لا تكاد تمضى ثلاثون ثانية الا وتجد نفسك مستغنيا عن أن « تفتعل » سلوكا أو انفعالا . ستجد نفسك منساقا تلقائيا دون وعى .

اجتاح الجميع تيار عارم من عواطف جامحة ، سوداء الطابع ، تمزج الكراهية بالعنف ، بالرغبة فى الانتقام ... تسلطت عليهم الرغبة فى ان يقتلوا ... ان يعذبوا ... ان يمزقوا وجوها بمطرقة ... كانوا كمن اصابهم مس من تيار كهربائى سرى بينهم فوحَّد درجة غليانهم محولا أى فرد فى هذا التجمع الى كائن صارخ ، مكشر عن انيابه يشارف حافة الجنون ... لكن من طبيعة الهياج الذى ينتاب الانسان فى جلسة الحقد ، انه انفعال حاد مطلق ليس مقصورا على اتجاه معين ، بل من الممكن ان يغير وجهته من موضوع للحقد إلى موضوع آخر ... تماما كالشعلة فى موقد متعدد المنافذ .

ومن ثم فى لحظة واحدة ، تحولت مشاعر الكراهية لدى وينستون وانحرف مسارها فى اتجاه عكسى ، وبدلا من ان تنصب على جولدشستين ... اتجهت الى الزعيم نفسه والى الحزب ... والى البوليس السياسى ... مرت لحظات وجد نفسه وقلبه يهفو الى هذا الرجل الذى يخاطبه على الشاشة ... هذا الوجه الوحيد ... موضوع السخرية من الجميع ... الكافر بالتعاليم ... وجد فيه الحارس الأوحد للحقيقة وللتعقل ... فى عالم يموج بالكذب .

ثم فى لحظات تالية عاد وينستون ليختلط عليه الموقف مرة اخرى ... لم يعد يدرى

كنه كل ما يحدث له ... عادت مشاعره تتسابق مع مشاعر الجميع ... وبدا له ان كل ما قيل ضد جولدشستين ... عدو الشعب ... صحيح وحقيقى تماما . وعندما انتابته هذه الحالة ... تحولت كراهيته للزعيم الى انبهار ... وبدا له مقام الزعيم يطاول عنان السماء ... حامى الأمة ... الصامد ... الصلد ... القاهر لأعدائه ... ذو القلب الحديدى ... منتصبا كصخرة ضد جحافل آسيا ، وبدا له جولدشستين برغم وجهه الضامر ... وبرغم عزلته ... برغم الشك فى وجوده نفسه ... بدا برغم كل ذلك كساحر شرير ... قادر بقوة صوته فقط ان يقوض بناء الحضارة كلها .

بل لقد بدا لوينستون فى لحظة من اللحظات انه بامكان المرء أن يحول تيار الحقد فى هذا الاتجاه أو ذاك بإرادته . فجأة وبنفس المجهود الضئيل الذى ينتزع به الانسان رأسه من فوق وسادته لينهى كابوسا يهاجمه ، نجح وينستون فى أن يزيح فيض كراهيته الموجه للوجه المطل من الشاشة ، الى الفتاة فاحمة الشعر خلفه ؟! فى ثوان التمع فى مخيلته هذيان عن صور عارمة مجنونة . سوف يلهب جسدها بهراوة جلدية ، حتى الموت ؟! سوف يقيدها الى وتد يطلق عليها مئات السهام ؟! كما حدث للقديس سابا ستيان ... سوف يغتصبها ثم عند قمة اللذة ... سيقطع رقبتها ؟؟!

لكن كان أهم من كل تخيلاته هذه انه ادرك « لماذا » يكرهها .

انه يكرهها لأنها شابة ... ولأنها جميلة ... ولأنها بلا انوثة ... ولأنه يشتهيها لنفسه ... لكن ليس بوسعه ان يمارس الجنس معها ، ولأنه قد التف حول خصرها المرن النحيل الذى يغريك بأن تضمه الى جسدك ... التف ذلك الشعار الكريه للحزب ... شعار « الطهر والعفة » .

ووصلت جلسة « دقيقتى الحقد » الى ذروتها ، وتحول صوت جولدشستين الى صوت ماعز فعلا ... وفى لمحة تحول وجه جولد شتين الى رأس ماعز ... ثم بدأت الصورة فى الشاشة تخبو لتفسح مكانا لجندى من اوراشيا يتقدم كمارد ضخم مخيف ومدفعه سريع الطلقات فى يديه ... كما لو كان سيقفز من الشاشة ليهاجم الجمهور ... لدرجة ان بعض الجالسين فى الصفوف الأولى اجفلوا وتراجعوا للخلف فى مقاعدهم ... ثم فى نفس اللحظة ... تنفس الجميع الصعداء ... اذ ذاب وجه الجندى المعادى من الشاشة لتطل عليهم ملامح الزعيم بشعره الأسود ، وشاربه الأسود الكث ... يفيض قوة وحيوية ... ويكسوه هدوء وثبات ... وجه ملأ اتساع الشاشة كلها . لم يستمع أى من الحاضرين لما

كان يقوله الزعيم فى الواقع ... لم تكن سوى كلمات تشجيع ... نفس نوعية الألفاظ التى تستخدم مع الجنود فى قلب المعركة ... لا تميز قائلها ، لكن هدفها اعادة الثقة عن طريق ترديدها . ثم بدا وجه الزعيم يخبو قليلا من الشاشة لتظهر بعده شعارات الحزب الثلاثة بأحرف بارزة كبيرة :

الحرب ... هى السلام

فى الحرية ... عبودية

فى الجهل ... قوة

لكن وجه الزعيم لا يضمحل أو يختفى تماما ، بل يظل خافتا لمدة ثوان يملأ الشاشة كما لو كان الأثر الذى خلفه الوجه على مآقى العيون اكثر عمقا وقوة من أن يمحى على التو ... دفعت الفتاة ذات الشعر الأصفر الباهت بجسدها الى ظهر المقعد المواجه لها بذراعيها الممدودتين تجاه الوجه المختفى من الشاشة ... وبحركة عصبية أخذت تهمهم بكلمات مثل : « يا منقذنا » « يا أملنا » ... ثم دكت وجهها بين يديها ... كان من الواضح انها فى غشية صلاة ...

عندئذ بدأت المجموعة كلها تردد منشدة فى ايقاع رتيب بطىء « عميق النبرة » : « ز ... م » « اختصار » « زعيم الأمة » « ز ... م ... ز ... م » المرة تلو المرة . ببطء شديد مع فترة صمت بين الزاى والميم . كما لو كان المرء يسمع فى خلفية الأحرف التى يرددونها بهذه الطريقة ... وقع الأقدام العارية لمقاتلى الهنود الحمر وقرع طبولهم فى البرارى .

استمر الجميع يرددون نشيدهم لفترة طالت ربما لثلاثين ثانية . مقاطع اعتاد اعضاء الحزب استخدامها فى لحظات انفلات النشوة العارمة ... الى حد ما كانت نوعا من الترتيل لتشيد بحكمة وجلال ... الزعيم . لكن تأثيرها الأكبر يرجع الى كونها نوعا من التنويم المغناطيسى الجماعى ... حركة سلوك موحد مقصود غرضها اسقاط الوعى فى براثن الضوضاء المنغومة .

شعر وينستون بالبرودة تتسرب الى احشائه اثناء « دقيقتى الحقد » ... لم يكن بمقدوره ان يقاوم الانغماس فى حالة الهذيان الجماعى التى تنتاب الجميع ... لكن الاعتداء على آدميته بأن يجد نفسه مجبرا على ان يردد معهم هذه الـ (ز ... م .... ز ... م ...) كان كفيلا باثارة ضيق مرعب فى داخله . طبعا هو يردد معهم عندما يرددون ... كان من المستحيل الا يفعل ، اذ المطلوب منك ان تعزل احاسيسك جانبا ... ان تسيطر على

تعبيرات وجهك ... ان تمارس نفس السلوك الذى يمارسه الآخرون ... كل هذا اصبح رد فعل داخلى غريزى لديه . لكن مشكلته انه يمر بفترة ـ قد لا تزيد على ثانيتين ـ تصبح فيها ملامح وجهه عرضة لأن تفضح ما يجول بخاطره .

فى ثانيتين على وجه الدقة ، من تلك الثوانى النادرة وجد مغزى ما حدث ... اذا كانت هذه الواقعة قد حدثت بالفعل ... وليست من نتاج مخيلته المنطوية .

كان اوبريان قد وقف فى نفس الصف الذى يجلس فيه وينستون ... وقد خلع نظارته ... وكان سيهم باعادة تثبيتها على أرنبة أنفه بنفس الحركة التى اصبحت احدى لازماته .

لكن ... فى لحظة ... فى جزء من الثانية ... حين التقت عيناهما ... وبنفس السرعة تأكد وينستون ... نعم تأكد ان اوبريان يفكر فى نفس ما يفكر هو فيه .. رسالة خفية لا يمكن ان تخطئها افئدة ذكية ... تبادلتها العيون ... كما لو أزيح سد يفصل بين خزانين من الأفكار فانسابت افكار أحدهما الى الآخر ... عبر العيون . احس كما لو كان اوبرايان يقول بالحرف الواحد : « أنا اؤيدك » أو : « انا اعلم على وجه الدقة كل شىء عما تشعر به من احتقار ... من كراهية ... ومن قرف . لكن لا تقلق . أنا فى صفك » ثم ... مرة ثانية ... خبا بريق الذكاء فى الأعين وارتد وجه اوابرايان مرة اخرى لنفس الطابع النمطى ... المنفذ للتعليمات ... مثله مثل أى انسان آخر .

كان هذا هو كل ما حدث ... بل ان وينستون ليس واثقا تماما انه حدث ... ومثل هذه اللحظات الشفافة بطبيعتها لا تحمل احداثا متتالية . كل ما تركته فى نفس وينستون انها احيت فى نفسه الايمان من جديد بأن هناك آخرين سواه يشعرون بنفس ما يشعر به من كراهية لما يمثله الحزب . ربما كان ما يشاع عن مؤامرات سرية متشعبة ... ربما كان حقيقيا بالفعل ... بل وربما كان لحركة « الاخوة » وجود فعلى حقا ... لكن من المستحيل بالطبع بعد هذه السلسلة اللانهائية من الاعتقالات . والاعترافات والتعذيب ... ان تتأكد على وجه اليقين مما اذا كانت حركة « الاخوة » حقيقية أم مجرد اسطورة يعتقد فى وجودها يوما ... وفى اليوم التالى يشعر بما يزلزل هذا اليقين . فلم يكن امامه شواهد مادية ملموسة تدل على وجودها . مجرد لمحات وايماءات لا أكثر ... قد تعنى الكثير ... وقد لا تعنى شيئا على الاطلاق ... احاديث خاطفة لا تزيد عن همسات تطرق اذنيه مصادفة ... وكلمات غير واضحة المعالم تهاجم الحزب ... مخطوطة على جدران دورات المياه ، بل يحدث احيانا

عندما يلتقى غريبان ان يبدو فى حركات ايديهما ما قد يشتم منه انها اشارات معينة متفق عليها للتعارف .

لكن ذلك كله ضرب من التخمين .

فمن المحتمل جدا ان كل هذه الاستنتاجات ... كل هذه المعانى التى يصطنعها لملاحظاته ... كلها من صنع خياله .

عاد وينستون الى مكان عمله دون ان ينظر فى عينى اوبرايان ثانية . بل أن فكرة متابعة ما حدث بينهما من لقاء صامت عابر ، بالكاد طرقت ذهنه . مجرد متابعة الفكرة تحمل فى طياتها اخطارا لا حد لها ... لكن بتفرده وسط الخواء الفكرى الخانق الذى يعيش فيه ، كان مجرد حدوث ما يومض ببريق أمل ... حتى ولو كان لمحة خاطفة فى عين رجل يشتم منه الرفض ... مجرد شىء كهذا كان بمثابة حدث بارز فى مسار وعيه بما حوله .

ارتد به شريط ما حدث الى جلسته امام اوراق مذكراته . اعتدل فى جلسته . اطلق زفرة .... بدأ مفعول الـ « الجين » يعمل فى داخله ... ركز نظرته الى الصفحة امامه ... دهش من امر نفسه حين اكتشف انه اثناء استغراقه فى التفكير ، كانت اصابعه تسطر جملا تلقائيا على الصفحة كرد فعل ذاتى لما يضطرم فى داخله . لم تكن حروفا خائفة مرتعشة التى كتبها هذه المرة . كانت اصابعه قد تملكتها رغبة جامحة فى الوثوب على سطح الورق الناعم فكتبت فى خط منسق كبير الحروف :

فليسقط ... الزعيم

فليسقط ... الزعيم

فليسقط ... الزعيم

فليسقط ... الزعيم

فليسقط ... الزعيم

السطر تلو السطر لمساحة شغلت نصف الصفحة .

لم يكن بوسعه ان يمنع احساسا بالذعر اعتراه . احساسا لا معنى له ، لأن كتابة هذا اكثر خطورة مما قد اقترفه منذ البداية فى الشروع فى كتابة المذكرات ذاتها ... للحظة راودته نفسه ان ينتزع ما سطرته يداه ... تلقائيا على الورق ... ويتخلى نهائيا عن مشروع الكتابة ... لكنه لم يفعل ... لأنه ادرك ان نزع الأوراق لن تدفع عنه الخطر . فسواء كتب بخط كبير :

أو أحجم عن كتابة مثل هذه الألفاظ . فالنتيجة واحدة . سواء استمر فى كتابة مذكراته أو توقف ... نفس الشيء ... ستطبق عليه قبضة البوليس السياسى فى كلتا الحالتين . لقد اقترف ـ حتى لو لم تخط يداه حرفا واحدا على الصفحة البيضـاء ـ اقتـرف الجريمة الأساسية التى تجب كل ما تلاها من افعال ... « جريمة الفكر » ... هو الاسم الـذى اطلقوه على مثل هذا الفعل . وجرائم التفكير بطبيعتها لا يمكن اخفاؤها للأبد . تستطيع التخفى بنجاح لمدة تقصر او قد تطول لفترة تمتد سنوات ، لكن مصيرك أن تقع فى قبضتهم على كل حال .

ودائما ما كان يحدث هذا ليلا ... عمليات الاعتقال كانت تتم دومـا تحـت ستـار الليل ... انتفاضة مذعورة من النوم على أيد غريبة تهزك ... ضوء الغرفة مسلـط على عينيك وطوق من الوجوه القاسية يحيط بك . فى معظم الحالات لم تكن هناك محاكمات . بل ولا أى بلاغ عن عملية الاعتقال . الناس ـ ببساطة ـ كانت تختفـى ... ودائما اثنـاء الليل . اسمك ... يزال من سجلات الدولة . كل سجل عنك فى أى نشاط من نشاطات الحياة يمحى تماما فلا يبقى له أثر . تتم عملية استلاب سهلة وبارعة لوجـودك الـذى (كان) ... بل إنكار انه كان اصلا ... ثم يطويك النسيان ... تلغـى من الوجـود ... تفنى ... أو حسب التعبير السائد عندئذ ... « تتبخر » .

وللحظات انتابت وينستون حالة هيستيرية من الكتابة فأخذ يكتب بسرعة وبحروف غير منتظمة اقرب الى الخربشة . افرغ قلقه سطورا محمومة :

« سيطلقون النار على ... انا لا يهمنى ... سيطلقون النار على رقبتى من الخلف ... أنا لا يهمنى شيء ... فليسقط الزعيم ... انهم دائما يطلقون النار على الرقبة من الخلف أنا ... أنا لا يهمنى أنا ... وليسقط الزعيم و ... . »

ثم توقف واسند ظهره الى ظهر مقعده ، وقد اعتراه الخجل من تصرفاته ... وضع الريشة على المنضدة ... ثم جفل بعنف ... فقد سمع طرقات تدق بابه ... تجمّد الدم فى عروقه وبقى ساكنا كفأر فى مصيدة ... على أمل ، انه أيا كان الطارق فسيمضى ان لم يتلق ردا لطرقاته الأولى . لكن الطرقات الملحة عادت مرة اخرى . اكبر خطأ ان تتأخر فى الرد على من يطرق الباب ... قلبه يدق بعنف . لكن وجهه ربما من كثرة التعود على مثل هذا الحادث كان لا يحمل أى تعبير على الاطلاق . نهض وتحرك فى تثاقل الى الباب ليفتحه لم يكن هناك مفر ...

* * *

(٢)

ادرك وينستون وهو يمد يده لقبضة الباب انه قد ترك دفتر مذكراته مفتوح الصفحات ، وكلمات « فليسقط الزعيم » مكتوبة بخط واضح على صفحاته ، وبحروف ربما كانت كبيرة لدرجة تسمح لمن يدخل الحجرة ان يلمحها ، فزاد اعتقاده أن ما قام به عمل غبى غير منطقى على الاطلاق . لكنه أدرك ايضا ـ حتى برغم ما يشعر به من رعب ـ ان قلبه لا يطاوعه أن يغلق الدفتر فتتسخ الصفحات بأثر الحبر الذى لم يجف .

أخذ نفسا عميقا يمتص به انفعاله ... وفتح الباب ثم تنفس الصعداء بمجرد فتحه ... سرى فيه احساس بالأمان ... لم يكن الطارق سوى جارته ... امرأة من الصعب ان تحدد لون بشرتها ... ملامحها مجهدة ، وجهها ناحل ، وشعرها مجعد . وقفت قبالته وبادرته بصوت ضعيف فيه رنة اعياء : « لو سمحت يا رفيق ... لقد شعرت بك تعود الى شقتك . هل من الممكن أن تلقى نظرة على بالوعة الحوض ؟ أعتقد انها مسدودة ... »

اسمها « مسز بارسونز » ، زوجة جاره فى نفس الدور (لقب « مسز » لا يقر استعماله الحزب لأن المفروض أن ينادى كل انسان الآخر بالـ « رفيق » لكن مع بعض النساء بالرغم من ذلك يجد المرء نفسه وقد استخدم هذا اللقب تلقائيا) .

امرأة فى الثلاثين ، تبدو اكبر من سنها . كما يبدو كأن هناك ترابا مترسبا فى تجاعيد وجهها . تبع وينستون خطواتها عبر الممر الموصل لشقتها . كانت اعمال الصيانة المعتادة هذه تكاد تشكل منغصا يوميا للساكن . فقد كانت « بنايات النصر » قديمة يرجع تاريخها تقريبا الى سنة ١٩٣٠ فبدأت تتداعى ... الجير بدأ يتساقط من الأسقف والجدران ... والمواسير تتقلص وتتفجر عندما يشتد الصقيع ... المياه تتسرب من الأسقف عندما يسقط الجليد ... جهاز التدفئة المركزية ... اما أن يعمل بنصف قوته أو يوقف تشغيله بدعوى توفير الطاقة . أما اعمال الصيانة ففيما عدا ما يمكن أن تنجزه بنفسك ، يجب ان تقرها لجان مقرها بعيد جدا عن مسكنك ... لجان من الممكن أن تصنع جدولا زمنيا لاصلاح « شيش نافذتك » ليتم اصلاحه بعد سنتين ...

عادت مسز بارسوتر تردد :

« بالطبع أنا أضطررت لاستدعائك لأن زوجى لم يعد بعد من عمله . »

« كانت شقة آل بارسونز أكبر من شقته ، لكن الوان حجراتها كئيبة بشكل ما . شقة تفتقر الى الترتيب ... محتوياتها متناثرة بلا نظام وبلا ذوق ... شقة تعطيك انطباعا كأن حيوانا عنيف الحركة قد غادرها للتو ، فتناثرت هنا وهناك أدوات العاب رياضية مختلفة من عصى هوكى ، إلى قفازات ملاكمة ، إلى كرات قدم ، تلى بنطلونات قصيرة مقلوبة الجيوب تنضح بالعرق ، ملقاة كلها باهمال على الأرض ، وعلى المائدة اطباق متسخة ، تجاور مجموعة من كراسات التمارين المدرسية ، وعلى الجدران الصقت شعارات منظمة الشباب ومنظمة « اشبال المخابرات » ، وصور بالحجم الطبيعى للزعيم . وبالطبع ، ستصادفك الرائحة المعتادة للكرنب المسلوق التى تفوح من ارجاء المبنى كله ، تختلط بها هنا رائحة عرق نفاذه ... ما أن تهب عليك رائحة الشقة عند دخولها ، حتى تشعر انها رائحة عرق شخص غير موجود بها ، وان كان المرء لا يعلم كيف يشعر بهذا بالضبط . فى احدى الغرف الجانبية كان هناك من يمسك بأحد الأمشاط وقطعة من ورق « التواليت » ملوحة بيديه مع الأنغام المنبعثة من جهاز السينما التليفزيونية ... نفس الموسيقى العسكرية مازالت تصدح ، أو على الأصح (ترعد) .

قالت مسز بارسونز موضحة وهى تلقى بنظرة جانبية على الحجرة : « انهم الأطفال » لم يخرجوا اليوم ... وطبعا أنت تعلم انه ... (من عادة مسز بارسونز أن تقطم الجمل ... تتركها معلقة دون أن تتمها) ... حوض المطبخ ممتلئ يكاد الماء القذر يصل إلى حافته . ماء لونه أخضر متخلف عن طهو الكرنب ... رائحته اكثر قسوة من أى كرنب ... ركع وينستون على ركبتيه ليفحص الـ « كوع » المعدنى لماسورة الحوض . كان يكره استخدام يديه فى اعمال السباكة ، ويكره الانحناء لما يسببه له من ألم ومن نوبات سعال ، بجواره وقفت مسز بارسونز لا حيلة لها تتابع عمله ... وتقول فى شبه اعتذار :

« فى الحقيقة لو أن توم هنا لقام باصلاحها بسرعة فهو يهوى مثل هذه الأعمال كما تعلم ... ماهر جدا فى أى عمل يدوى ... زوجى ... »

كان توم بار سونز زميل وينستون فى « وزارة الحقيقة » ... رجلا سمينا ، لكنه دائب الحركة ، يتميز بغباء مذهل ... صورة مثلى لانسان بليد الحس ... لكنه جم النشاط ... واحد من تلك الأنماط من خلق الله التى لا تسأل ولا تتساءل عن أى شيء ... حمار شغل بمعنى الكلمة ... نفس الأنماط التى يقوم على اكتافها ـ أكثر مما يقوم على مجهود البوليس السياسى ـ استقرار الحزب وثباته ... جين بلغ الخامسة والثلاثين اخرجوه من منظمة

الشباب . وسجل خدمته حافل فى منظمة المخابرات . أما فى الوزارة فقد اوكلوا اليه عملا ثانويا لا يحتاج فى ادائه إلى ذكاء . لكنه من ناحية اخرى ، شخصية بارزة فى لجنة النشاط الرياضى ، وما يماثلها من لجان تختص باعداد المعسكرات الخلوية أو تنظيم المظاهـرات « التلقائية » أو حملات التوفير أو أية اعمال تطوعية بوجه عام . وفى نبرة خيلاء اعتاد أن يردد عليك انه لم يفته اجتماع ليلى واحد فى المركز الرئيسى للجان الحزب طوال أربع سنوات متواصلة . تفوح منه دوما رائحة عرق نفاذة . شهادة ضمنية لا شعورية لمدى الجهد الذى يبذله طوال يومه ... رائحة تصاحبه أينما ذهب وأحيانا تبقى فى المكان بعد ان يغادره .

« هل لديك مفك ؟ » قالها وينستون وهو يفحص مفتاح البالوعة السفلى »

« لا أعلم بالضبط ... أنا متأكدة انه فى الواقع الأولاد ممكن يبحثوا عن ... »

ثم صوت دبيب أقدام مندفعة من اولادها وهم يقتحمون غرفة المعيشة . وعادت مسز بارسونز بالمفك . وانسابت المياه مندفعة فى البالوعة بينما أزال وينستون بقرف شديد خصلة من الشعر كانت تسدها ، غسل يديه محاولا تنظيفها قدر المستطاع بالماء البارد ثم اتجه للغرفة المجاورة للمطبخ . فاجأه صوت زاعق فى قسوة :

« ارفع يديك ... »

وخرج طفل وسيم ، قوى البنية فى حوالى التاسعة من خلف المنضدة مهددا اياه بلعبة على هيئة مسدس سريع الطلقات ، تتبعه اخته التى تصغره بعامين ، وقد امسكت هى الأخرى بمسدس خشبى . الاثنان يرتديان زى « منظمة الأشبـال » : بنطلـون أزرق وقميص رمادى وحول الرقبة منديل أحمر اللون مشابه لما يرتديه الكشافة .

رفع وينستون يديه إلى اعلى ، ولكن فى ضيق ... طريقة الطفل فى الكلام تحمل من الشر اكثر مما تحمل من الرغبة فى اللعب ، واستمر الطفل فى زعيقه « انـت خائـن ؟! جاسوس للعدو ؟! أنا سأطلق النار عليك !! أنا سأمحوك من الوجود !! سأقذف بك إلى مناجم الملح !! » ثم بدأ الطفلان يتقافزان حوله صارخين « خائن » « مرتد » والطفلـة الصغيرة تقلد اخاها فى كل ما يقوله ويفعل ... ولكن المسألة كلها مخيفة إلى حد ما ... فسلوكهما مشابه لقفزات النمور التى لن تلبث أن تنمو لتصبح آكلة للحوم البشر . هناك نوع من الوحشية فى أعين الولد ورغبة واضحة فى أن يضرب أو يرفس وينستون برجله ، مع ما يشبه الادراك أن جسمه قد قارب ان يصل إلى الحد الذى يسمح له بأن يضرب من هم أكبر منه ... »

شيء طيب أن المنظمة لم تسلح هؤلاء الأشبال بمسدسات حقيقية ...

كان ذلك هو الخاطر الذى مر بذهن وينستون وهو واقف .

دخلت امهم ، ووقفت حائرة تنقل بصرها ما بين اطفالها ووينستون . لاحظ وينستون عندما اقتربت أن هناك بالفعل خيوطا من التراب المتراكم بين تجاعيد وجهها . « يا للضوضاء التى يسببها هؤلاء الأطفال بالفعل ! لكن اعذرهم . انهم فى غاية الضيق ، لعدم تمكنهم من الخروج لمشاهدة عملية الشنق . تمنعنى اعبائى المنزلية من مصاحبتهم لحضور الشنق ... وأبوهم سيتأخر فى عمله كما تعلم ولن يستطيع اصطحابهم ... هذا كل ما فى الأمر » ... وهنا زمجر الولد « لكن ... لماذا ... تحرموننا من مشاهدة الشنق » بينما استمرت الفتاة الصغيرة تتقافز حولها منشدة « نريد أن نشاهد الشنق ... نريد أن نشاهد الشنق » .

أما الذين سيشنقون ، فقد كانوا بعض مساجين اوراشيا ... ارتكبوا جرائم حرب ... وسيتم شنقهم علنا فى الحديقة المجاورة هذا المساء ... وكما تذكر وينستون الآن ، كانت هذه العملية تتم شهريا تقريبا ... واصبحت مثل عرض شعبى ممتع . وأصبح الأطفال يلحون على آبائهم لمصاحبتهم لحضور العرض .

استأذن وينستون من مسز بارسونز ، وبينما هو يتقدم لعدة خطوات فى ممر الصالة المؤدى إلى باب الخروج لم يشعر الا ولسعة تصيبه فى قفاه ... آلمته غاية الألم ... استدار بسرعة ليجد الأم تجر ابنها إلى داخل الغرفة ، وهو يحاول أن يخفى « نبلة » كبيرة فى جيبه . وبينما هو يغلق الباب الخارجى للشقة خلفه ، كان صوت الولد الصارخ يرن فى اذنه « يا جولد شستين ... » لكن أكثر ما آلم وينستون هو نظرة قلة الحيلة الباقية والخوف المرتسم على محيا الأم .

دخل شقته ، واتجه صوب نفس مكانه الى المنضدة وهو مازال يدعك مكان الألم . كانت الموسيقى الصادرة من الجهاز قد توقفت ليحل محلها صوت مذيع عسكرى متصلب النبرة يصف مستمتعا فيما يبدو بالقسوة التى ينضح بها صوته ـ نوعية الأسلحة المدمرة التى تزودت بها « القلعة العائمة » التى انضمت إلى الأسطول فى المنطقة ما بين ايسلندة وجزر الفارو .

عاد يفكر فى أمر مسز بارسونز . ان حالتها ليست فردية مع مثل هؤلاء الأطفال ، لابد وان هذه المرأة البائسة تحيا حياة الرعب نفسه فلن يمضى عام أو عامان الا ويتحول هؤلاء

الأطفال عملاء حقيقيين للبوليس السياسى ، يرصدون أى حركة منها لا تنطبق مع الالتزام التام للحزب . تقريبا معظم الأطفال الآن اصبحوا احد مصادر الرعب ... لكن المحزن حقا هو انه بواسطة مثل هذه المنظمات ، كمنظمة اشبال المخابرات تحول الأطفال اوتوماتيكيا إلى مخلوقات قاسية لا يمكن للأب أو الأم أن يسيطر عليها . لكن هذا الاندفاع نحو القسوة لدى الأطفال لم يولد لديهم أى اتجاه ما للثورة ضد نظام الحزب نفسه . بل على العكس تحولوا إلى مخلوقات تعبد الحزب ... وكل ما يتصل به من أفكار ... من مواكب ... من اعلام ، من بيارق ... من معسكرات للتدريبات العسكرية بلعب الاسلحة ... من ترديد لشعارات الحزب بصوت صارخ ... من تدريب على عبادة الصنم فى صورة الزعيم ... والأمر كله بالنسبة لهم لعبة مبهرة ... كل نزعاتهم العدوانية حول الحزب اتجاهها الى مجال يتجاوز دائرة الطفولة ... وجهت ضد اعداء الدولة ... ضد الأجانب ... ضد الخونة ... والمخربين ... ومجرمى الفكر ، بحيث اصبحت ظاهرة شبه عادية أن يخشى الآباء والأمهات فوق سن الثلاثين ... أن يخشوا اطفالهم هم . خوف حقيقى مستند لأسباب واقعية . إذ لا يمضى يوم إلا وتنشر جريدة « التايمز » كيف استطاع أحد الأطفال ممن يسترقون السمع (يطلقون عليه فى الجريدة لقب « الطفل البطل ») ان يلتقط حديثا لأبيه أو أمه يكشف عن اتجاهات رجعية ضد تعاليم الحزب ، وكيف ابلغ الطفل البطل الذكى السلطات عنه أو عنها .

بدأ الألم فى رقبته يتلاشى ... التقط ريشته بلا حماس حقيقى للكتابة ، متسائلا عما اذا كان سيجد ما سيضيفه لمذكراته اليوم . فجأة عادت صورة اوبرايان تطوف بمخيلته مرة اخرى ...

منذ سنوات مضت ـ كم سنة يا ترى ؟... سبع سنوات ؟ ... لابد انها سبع سنوات ... حلم انه يسير فى غرفة ، ارضيتها من حجر صلد ، واذ بأحد الموجودين إلى جانبه فى الغرفة يقول له وهو يمر به « سنلتقى حيث لن تكون ظلمة » كلمات قالها بصوت هادىء ... اقرب للهمس ، ليست فى صيغة امر ، بل كتقرير لما سيكون . واستمر هو يمشى فى الغرفة دون توقف . الشىء الغريب انه فى الحلم لم يتأثر كثيرا بهذه الكلمات . لكن جاء التأثير فيما تتالى من سنين ... حينما بدأت هذه الكلمات ـ بالتدريج ـ تكتسب اهميتها ... لا يذكر الآن على وجه الدقة ، هل التقى بأوبرايان لأول مرة ـ قبل أو بعد ـ الحلم ؟ لم يستطع ايضا ان يتذكر متى استطاع ان يدرك ان الصوت الذى سمعه فى الحلم هو صوت

اوبرايان ... لكن أيا كان الزمان فقد شعر أن الصوتين متطابقان ... صوت اوبرايان ... وصوت الانسان الذى سمعه فى الحلم وهو قابع فى الظلام ... لم يقدر لوينستون حتى الآن أن يصل الى اليقين - حتى بعد لمحة الحوار السريع الصامت بين عينيهما صباح اليوم - هل اوبرايان صديق ؟... أم عدو ... ؟ من المستحيل أن يقطع برأى ... حتى ولو بدا الموضوع على هذا القدر من الأهمية بحيث يشغله إلى هذه الدرجة ... لكن هناك رباطا من الفهم قد ربط بينهما ، أكثر من العاطفة أو الحزبية « سنلتقى حيث لن تكون ظلمة » ... كانت الكلمات التى قالها ... لم يدرك وينستون مغزاها بالضبط ... لكنه احس انه بطريقة أو بأخرى ... سيكتب لهذه الكلمات ان تتحقق .

توقف صوت المذيع العسكرى من جهاز السينما التليفزيونية ، ثم صوت موسيقى واضحة وجميلة انساب فى جو الغرفة إلا أن المذيع عاد يطلق صوتا كالصرير :

« انتبهوا ... انتبهوا من فضلكم ... وصلتنا الآن لقطات جريدتنا الاخبارية فى جبهة مالابار » .

استطاعت قوتنا العسكرية فى جنوب الهند ان تحرز انتصارا مجيدا . وقد كلفت بإبلاغكم ان ما انجزناه من عمل عسكرى سيقترب بالحرب من نهايتها ... واليكم لقطات جريدتنا السينمائية ... »

قال وينستون لنفسه « اذن هناك انباء سيئة فى الطريق ... بالتأكيد » ، وحدث كما توقع . فبعد وصف دموى لكيفية ابادة الجيش الكامل من جيوش « اوراشيا » مع ارقام هائلة لعدد القتلى والأسرى صدر بيان يعلن انه - ابتداء من الأسبوع المقبل - قررت سلطات التموين تخفيض نصيب الفرد من الكاكاو من ثلاثين إلى عشرين جراما .

زفر وينستون زفرة حارة ... بدأ تأثير الـ « جين » الذى احتساه يتلاشى ، مخلفا احساسا بالتهاب خفت حدته . ثم انطلق من الشاشة ، ربما للاحتفال بالنصر أو ربما لكى يتناسى الناس العشرة جرامات التى خفضت ، نشيد الحزب « أوشانيا ... نحن فداؤك » ... كان من المفروض ان ينتصب وينستون واقفا عند سماعه هذا النشيد الجليل ... لكن استغل بعده عن شاشة الجهاز وبقى كما هو .

وتبع النشيد موسيقى خفيفة ... ترك وينستون مكانه واتجه صوب النافذة حيث وقف وظهره للشاشة ... مازال الجو باردا وصافيا . فى وقفته رأى على البعد قذيفة صاروخية

تتفجر مخلفة دويا مكتوما وصلت ذبذباته إلى المبنى ، عدد ما يتساقط على لندن اسبوعيا الآن يتراوح ما بين العشرين والثلاثين قذيفة .

وعاد ينظر اسفل المنزل حيث الريح تعصف بطرف احدى الملصقات ليخفى ثم يظهر اسم « الحزب الاشتراكى الانجليزى » المختصر فى اللغة الدولية الجديدة إلى « انجاشاك » .

يا للتعاليم المقدسة لهذا الحزب العظيم . النفاق فى الفكر ... أن يكون لك أكثر من وجه ... أن تجير لغتك الأم إلى اللغة الدولية الجديدة ... ثم ان تضع ساترا حديديا على ماضى امتنا ... شعر كما لو كان يجوس فى شعاب قاع البحر ... انسان ضلت قدماه فانزلق إلى عالم وحشى ... حيث شعر انه هو نفسه قد اصبح الضحية ... والوحش . ولكم أحس بالوحدة فى وقفته . الماضى قد دفن المستقبل ... من بوسعه أن يتخيل ما سيكون عليه المستقبل ؟ من أين يأتى بالثقة فى أن هناك مخلوقا واحدا ... انسانا واحدا ... يقف فى صفه فى هذا العالم ؟ وأين له أن يعرف ان سيطرة حكم الحزب ، لن تبقى أبد الدهر ؟ ولكى تكون الاجابة على تساؤلاته سريعة اصطدمت عيناه مرة اخرى بالشعارات الثلاثة المكتوبة فوق مبنى وزارة الحقيقة أبيض اللون :

الحرب ... هى السلام

فى الحرية ... عبودية

فى الجهل ... قوة

اخرج من جيبه قطعة من ذات الخمسة وعشرين سنتا . حتى على قطعة النقود الصغيرة نقشت فى خط صغير الشعارات الثلاثة للحزب .. وحمل الوجه الآخر من العملة صورة للزعيم . حتى من فوق العملة الصغيرة عينا الزعيم تتبعانك ... تتبعانك اينما ذهبت حتى فوق النقود المعدنية ... تطل عليك من طوابع البريد ... من اغلفة الكتب ... من فوق الرايات .... من فوق الاعلانات المعلقة .... من فوق علب السجائر ... من أى مكان دائما تتبعك العينان .... وصوت الجهاز يغلف وجودك كله ، فى اليقظة أو فى المنام ... وأنت تأكل ، وأنت تعمل ، داخل جدران بيتك الأربعة ، أو خارج بيتك . سواء كنت فى الحمام أو فى فراشك ...

اين المفر وانت لاتملك من هذا العالم الواسع الذى يحتويك شيئا خاصا بك وانت وحدك الا تلك السنتيمترات المكعبة داخل جمجمتك .

قاربت الشمس وقت مغيبها ، فبدت تلك الشبكة الهائلة من نوافذ وزارة الحقيقة وقد انحسر عنها الضوء كئيبة المنظر ... انقبض صدره للمنظر الهرمى للمبنى فى هذا الضوء ، المبنى يبدو أصلب من ان ينسف ... لن تقوى عليه الف قذيفة صاروخية .

عاد يسأل نفسه لمن ترى يكتب مذكراته ؟ المستقبل ؟ .. الماضى ؟ ... لعصر قد لايوجد ؟ ان ماينتظره ليس الموت ، بل الفناء سيحولون مذكراتك ياوينستون الى ذرات رماد ... وانت نفسك الى بخار ... ليس أكثر من بخار ... ستتبخر من الوجود كله . رجال البوليس السياسى فقط هم الذين سوف يتاح لهم الاطلاع على مذكراتك قبل ازالتها من الوجود ومن الذاكرة ... ومن الذكرى تماما .

كيف يسعك ان تقدم دعواك للمستقبل ، وقد انتفى تماما أى اثر مادى لوجودك . حتى ولاكلمة واحدة مجهولة الكاتب على أى قصاصة ورق ... لاشىء على الاطلاق .

الساعة فى جهاز السينما التليفزيونية تدق الثانية بعد الظهر . يجب عليه ان يتجه الآن الى مقر عمله ليكون هناك قبل الثانية والنصف .

لكن الغريب ان دقات الساعة كما لو كانت تدفع باحساس جديد من الحماس فى داخله . صحيح انه وقف ككائن وحيد لا حول له ولا قوة ، يحاول ان يتفوه كتابة بالحقيقة التى قد لايسمعها احد ...

لكن مجرد ذكر الحقيقة فى حد ذاته فيه كسر لحلقة الصمت المفرغة التى تعزل الماضى عن الحاضر عن المستقبل ... ليس مطلوبا منك ككائن ... ان تنقل دعواك الى الآخرين ... ان مجرد صمودك فى وجه التيار القوى القادر على ان يطويك . مجرد التمسك بعقلك ... فيه استمرار لتراث البشرية من الفكر .

عاد الى المنضدة ... غمس ريشته فى المحبرة وكتب :

« الى المستقبل » ... أو الى الماضى .... الى زمن سيكون الفكر فيه حرا .... حين يصبح الناس كائنات منفردة ، يختلف الانسان منهم كل عن الآخر ... الى زمن لن يعيش فيه الانسان كجزيرة معزولة . الى زمن من الممكن ان تحيا فيه الحقيقة ... الى زمن لايمحى فيه الماضى من سجل الزمن .

أكتب اليكم من زمن آخر فيه كل الناس نسخ بالكربون من اصل واحد ... زمن

الاحساس بالعزلة ... ومن الزعيم الواحد ... زمن خيانة العقل ...من زمنى احبيكم ...

لابد ان يكون قد طواه الثرى عندئذ ... قال لنفسه ... اتضح له انه الآن فقط وقد استطاع ان يبلور افكاره فى اتجاه محدد ... انه قد اتخذ الخطوة الحاسمة ... ان نتيجة اى سلوك نابعة من طبيعة السلوك نفسه . ومضى يكتب :

« ان اقتراف جريمة الفكر فى العصر الذى اعيش فيه ليست جريمة تستوجب الموت فقط ... بل ان التفكير هو موت بصورة اخرى .... »

والآن وقد اتضحت فى مخيلته صورة الموقف مستقبلا ـ انه رجل ميت ـ ادرك اهمية ان يستمر فى الحياة أطول فترة ممكنة . لاحظ ان اصبعين من اصابعه قد اتسختا بالحبر بشكل واضح . لايجب ان يغفل مثل هذه الهفوات البسيطة . فمن الممكن ان تفضحه فلا شك ان احد المتلصصين المتهوسين من اعضاء الحزب ـ ولتكن تلك الفتاة الصفراء الشعر التى زاملته فى جلسة الحقد ، أو تلك الاخرى فاحمة الشعر فى قسم الروايات ـ لابد وان تتساءل بماذا يكتب هذا الرفيق خلال فترة استراحة الغذاء ؟ ولماذا يستخدم وسيلة عفى عليها الزمان فى الكتابة كالريشة ؟ ثم لابد ان ينتقل التساؤل بالطبع الى : ماذا كان يكتب ؟ يتلو ذلك التساؤل بالطبع .. سطران أو ثلاثة فى تقرير عنه للسلطات .

ذهب الى الحمام وغسل اصبعيه بعناية من اثر الحبر العالق بصابونة داكنة اللون رملية الملمس ، تشعر بها عند الاستحمام كما لو كانت « صنفرة » تمشط جسمك ، وبالتالى ادت غرضها فى ازالة الحبر بكفاءة .

قبل خروجه وضع دفتر المذكرات فى الدرج ، كان من العبث طبعا ان يفكر فيى جدوى اخفائه لكن على الأقل عليه ان يجد طريقة يتأكد مما اذا كان امره قد افتضح ، ومما اذا كانت الايدى الغريبة قد وصلت اليه ام لا . التقط بطرف اصبعه حبة رمل بيضاء مميزة ووضعها برفق على احد اركان الغلاف الخارجى ... حيث من الممكن اكتشاف يد ، امتدت الى الدفتر وحركته من مكانه ...

* * *

(٣)

كان وينستون يحلم ... بأمه . لابد انه كان فى حوالى العاشرة أو الحادية عشرة حين اختفت امه ، كانت امرأة طويلة القامة ، ممتلئة الجسم ، بطيئة الحركة ، قليلة الكلام ، يتوج رأسها شعر أشقر جميل . أما والده - على قدر ماعلق بذاكرته ومن صورته التى بدأت تبهت .... فقد كان رجلا نحيل الجسم ، اسمر اللون يميل الى ارتداء الثياب الداكنة اللون (يتذكر وينستون بصفة خاصة حذاء والده ذا النعل غير السميك) ... يرتدى منظارا طبيا ... لابد ان والديه ، كليهما ، قد ابتلعتهما احدى موجات التطهير فى الخمسينات .

يرى الآن فيما يرى النائم امه فى مكان من سفينة على عمق بعيد ، اسفل المكان الذى يجلس هو فيه تحمل اخته الصغرى بين ذراعيها ... انه لايذكر اخته على الاطلاق ، اللهم الا كرضيع ضئيل الحجم ، صامتة دائما ، وذات عينين واسعتين ، ترقب المحيطين بها مستطلعة دائما ... الأم وطفلتها ترنوان اليه فى الحلم من مكانهما السحيق ... من اسفل تلك الهوة العميقة أو ما يشبه قاع احد القبور ... ثم إذا بالارض التى يقفان عليها فى الحلم تتحرك الى اسفل ... تغوص بهما ، كما لو كانتا فى وسط سفينة أخذت تغرق ويغمرها الماء . عيناهما ترنوان اليه من تحت الماء الذى بدأ يكتسب مع العمق لونا داكنا ... ماتزال هناك بقية من هواء فى صالون السفينة وباستطاعتهما ان يرياه وكذلك هو لكن استمر القاع فى الهبوط يشدهم معه الى العمق والماء يزداد زرقة وقتامة ... لابد انهما سيختفيان عن ناظريه بين لحظة واخرى . هو فى مكانه المرتفع حيث الضوء بينما امه التى تحتضن ابنتها تجذبهما معا قبضة الموت القوية الى الهاوية ... نعم تنزلقان الى العمق بسبب وجوده هو فى هذا المكان المرتفع وحيث يقف . هو يعلم هذه الحقيقة وهما تعلمانها . باستطاعته ان يقرأ ادراكهما لهذه الحقيقة مرتسما على وجهيهما لكن ليس هناك أى اثر للوم ، لا فى محياهما ولا فى شعورهما نحوه . فقط ادراكهما انه ينبغى ان يموتا ... ليهباه الحياة . وان هذا جزء من ناموس الحياة الطبيعى الذى لايمكن تغييره أو الفرار منه .

لم يستطع ان يتذكر ماذا حدث . لكنه فى حلمه علم انه بطريقة أو بأخرى قد تمت التضحية بحياة امه واخته ليعيش هو . احد تلك الاحلام ، التى تعتبر امتدادا لما يجيش فى

عقلك الواعى أو غير الواعى من افكار برغم ظهورها على شكل حلم واكتسابها سمة الصور الغامضة ... كان حلما من ذلك النوع الكفيل بان يكشف لك الستار عن افكار وعن حقائق تحتفظ بجدتها وقيمتها حتى بعد ان تستيقظ ، كأنها نوع غامض من المعرفة ، لكن الشيء الذى يهز مشاعر وينستون بشكل يخافه الآن ، هو ان موت امه ، الذى حدث منذ حوالى الثلاثين عاما ، قد تم بشكل مأساوى ومحزن .... لايمكن ان يحدث فى الزمن الذى يعيش هو فيه . شعر انه المأساة ... حتى المأساة قد اصبحت تنتمى الى عصر مضى ... الى عصر كانت لاتزال فيه اشياء يقال عنها « الفردية » ... « والذاتية » واشياء عفى عليها الزمن اسمها « الحب » .. و «الصداقة » حين كان افراد العائلة يساعد بعضهم البعض دون بحث عن سر هذه العاطفة . ذكرى امه تكاد تمزق قلبه لأنها ماتت ـ تحبه . وقد كان مايزال حدثا . لايدرك بانانيته كطفل صغير ، كيف يبادلها الحب ولأنها قد ضحت ـ وان كان لايذكر كيف ضحت ـ بنفسها ـ من اجل مثل اعلى كالاخلاص ... قيمة غير قابلة للتغير ... قيمة خالصة وخاصة بها ... ادرك وينستون ، ان مثل هذه الاشياء لايمكن ان توجد فى عالم اليوم .

هذا زمن الحقد والكراهية ، والخوف والالم ... ومن جف فيه نبل الاحساس ... انقرضت فيه مشاعر « كالاسى » ، النبيل عميق الجذور الدافق والمتجدد . وكان هذا هو ما رآه مرتسما فى عينى امه الواسعتين ، وعينى اخته فى الحلم ، تنظران فى اتجاهه عبر المياه الداكنة الزرقاء ... تبتعدان عنه فراسخ واميالا ... وهما تهبطان الى قاع بعيد بعيد ...

وفجأة وجد نفسه فى الحلم واقفا وسط احد المروج اليانعة ، فى مغيب احدى ليالى الصيف واشعة الشمس المشوبة بالحمرة تمسح الارض فى انحدارها نحو الافق ... هذا المنظر الطبيعى ، الذى يراه امامه فى الحلم . دائم التكرار فى احلامه لدرجة لم يعد معها موقنا ممَّا اذا كان قد صادف هذا المكان فى حياته الصاحية فعلا ام لا ؟ فى نزوة كان يطلق اسم « البلاد الساحرة » على هذا المنظر . احد مراعى الارانب يخترق نفقاً متعرجاً كأنه حواجز هنا وهناك . فى الجانب الآخر من الحقل سور تبدو منه اغصان شجرة الدردار مدلاة تتأرجح اطرافها برفق مع الريح الخفيفة ، واوراقها الكثيفة تتحرك متكتلة كشعر امرأة ... فى مكان قريب وان كان مختفيا عن الاعين يفيض نهر مياهه بطيئة الحركة تطفو فوقها أوراق نباتات تسبح فى اتجاه الماء تحت شجر الصفصاف المزدهر على الجانبين .

رأى فى الحلم ـ عبر الحقل ـ ... الفتاة ... ذات الشعر الفاحم تتجه اليه ، ربما بدا من حركة واحدة نزعت ملابسها كلها عن جسدها والقتها جانبا فى تيه وخيلاء لتكشف عن جسد بض املس ناعم ، ولكنها لم تثر فى نفسه شهوة ... بل بالكاد كان ينظر اليها ... ماسيطر عليه فى هذا الموقف كان اعجابه البالغ بحركة التيه والخيلاء التى القت بها ملابسها جانبا . حركة فيها من سحر الرشاقة وعفوية التصرف مايكفى للقضاء على حضارة بأكملها .. بل وللقضاء على كنز ثمين كامل من الافكار . احس ان بمقدورها ان تحيل الزعيم والحزب والبوليس السياسى الى لاشىء ... بحركة واحدة رائعة من هذه الذراع العبلة ... حتى هذه الحركة ايضا كانت تنتمى لزمن غابر .... و ....

واستيقظ وينستون ، وهو يردد اسم « شكسبير » ....

من الجهاز كانت تصدر صفارة تصم الآذان ... استمرت على نفس الحدة لمدة ثلاثين ثانية ـ حان وقت استيقاظ موظفى الحكومة . انتزع وينستون جسده من السرير ـ ووقف عاريا (كوبون الملابس المقرر قيمته ٣ الاف وحدة فى السنة والبيجامة فقط بستمائة وحدة) ، ادخل جسمه فى فانلة داخلية مهلهلة ، وبنطلون قصير كان ملقى على ظهر مقعد ، ليستعد للتمارين البدنية التى ستبدأ خلال ثلاث دقائق . لم تمض دقيقة حتى اصيب بنوبة سعال اعتاد ان تلازمه بعد استيقاظه . نوبة سعال يبلغ من حدتها ان يشعر معها بصدره مفرغا من الهواء لايستطيع ان يسترد انفاسه الا بالاستلقاء على ظهره فوق السرير ليأخذ فى الشهيق بقوة . شعيباته الهوائية التهبت من اثر السعال ، وآلام التهاب عرق الساق بدأت تعاوده .

انتزعه من معاناته صوت انثوى صارخ وآمر من جهاز السينما « التليفزيونية » المجموعة من ٣٠ الى ٤٠ ... تأخذ مكانها لو سمحتم ... أكرر : المجموعة من ٣٠ الى ٤٠ استعد . المجموعة من ٣٠ الى ٤٠ ... هيا ... مستعد ؟ « قفز وينستون ووقف وقفة « انتباه » امام الجهاز الذى ظهرت على شاشته فتاة عجفاء لها عضلات بارزة ترتدى زيا رياضيا لتبدأ تمرينات الصباح « ثنى ... مد ... ثنى ... مد ... اضبط حركاتك معى ... واحد ... اثنين ... ثلاثة ... اربعة ... هيا يارفاق ... شيئا من الهمة لااريد تراخيا ... ننشط جميعا ... هيا ... واحد ... اثنين ... ثلاثة ... »

حتى الم السعال لم يستطع ان يبعده عن خواطره ... وعن خيالات الحلم الذى مر به ... بل ان الحركات الايقاعية للتمرينات الرياضية التى يقوم بها بدأت تساعده على

استعادة تفاصيل الحلم . وبينما هو يعد ويثنى ذراعيه بصورة اتوماتيكية امام شاشة الجهاز وابتسامة الاستمتاع المرسومة (والمطلوبة) على شفتيه ، كان يجاهد للوصول عبر سراديب وانفاق ذاكرته الى سنى طفولته الاولى ... ولكنها عملية بالغة الصعوبة ، فذاكرته لاتستطيع ان تتجاوز اواخر الخمسينات ... ونظرا لغياب اى سجلات عادية يمكن ان يرجع اليها المرء فإن الاحداث الهامة فى حياتك تبدو غير واضحة المعالم . انت قد تعى احداثا ضخمة من المحتمل جدا الا تكون قد حدثت ، وقد تتذكر تفاصيل احداث ، دون ان تلم بالسياق العام الذى حدثت من خلاله ، مع وجود ثغرات متعددة لاتستطيع ذاكرتك ان تملأ فجواتها بما يربط تلاحق السلسلة فى وقوعها ... لأن كل شىء ، قد تغير ... حتى اسماء البلاد وحدودها على الخريطة مثلا : القطاع الجوى رقم (١) لم يكن هذا اسمه فيما مضى من قديم الزمان . كان اسمه ... « انجلترا » أو « بريطانيا » لكن اسم لندن - كما تسعفه ذاكرته - كما هو نفسه « لندن » دائما .

غير ان وينستون ليس بمقدوره ان يتذكر سنة لم تكن بلاده فيها فى حرب مستمرة . عدا فترة طويلة واحدة نسبيا ساد فيها السلام خلال سنوات طفولته ... وذلك بعد حدث معين يذكره ، وهو غارة جوية فاجأت الجميع من بعيد . اسقط فيها الاعداء أول قنبلة ذرية على منطقة كولشتر . انه لايذكر الغارة نفسها ، لكن يذكر يد والده وقد قبضت بقوة على يده الصغيرة ، والجميع يهرولون على درجات السلم المتجه الى اسفل .... ثم اسفل الى مكان على بعد عميق جدا من سطح الارض ... خطواتهم السريعة تطرق السلم الحلزونى فى هلع ، ويتذكر وقع اقدامه المتعبة الصغيرة ، حتى بدأ يتذكر ويشكو تعبه لوالده ، بينما امه بحركتها الهادئة الشاعرية الطابع ، كانت متخلفة عنهما تحمل على ذراعيها اخته الصغيرة ، أو ربما كان ماتحمله ليس سوى عدة بطانيات ، وليس اخته فهو غير متأكد ان اخته كانت قد ولدت انذاك - ثم وجدوا انفسهم فى النهاية يصلون الى مكان مزدحم يعج بضوضاء اللاجئين اليه ... ادرك انه إحدى محطات مترو الأنفاق .

الآلاف افترشوا أرض النفق الحجرية . والاف غيرهم متلاصقون الواحد لصف الآخر فوق أسرة حديدية صغيرة ... وقد وجد والده وامه لنفسهما مكانا على الارض ، وبالقرب منهما جلس رجل عجوز مع امرأة مسنة فوق احد الاسرة ... عينا الرجل منتفخة وملأى بالدموع ... تفوح منه رائحة الـ « جين » ... بل بدت ذرات الخمر بدلا من العرق

تتفصد من مسام وجهه . بدا كما لو كان يذرف بدلا من الدمع خمرا . لكن برغم حالة السكر الخفيفة التى انتابته ... كان يعانى من حزن حقيقى بلغ درجة لايمكن تحملها ..

تخيل وينستون من منظره ، انه لابد ان يكون شيء رهيب ... شيء أكبر من ان يعالج أو ينساه الانسان ، قد حدث ... بل لقد بدا لوينستون حتى وهو فى هذه السن الصغيرة انه يعرف ماذا حدث . مثلا : لابد ان حفيدة هذا الرجل ، طفلة جميلة كان يحبها حبا شديدا قد ماتت ... أو ... أو ... لكن لم تمض دقائق الا وأخذ الرجل يهمهم :

« ما كان ينبغى ان نثق بهم ... هذا كان رأيى منذ البداية ... يا مامى ... الم انبه الناس الى ذلك ؟ هه ... ؟ الم انبههم ... وها هى النتيجة ... هذه هى نتيجة الثقة بهم ... انا نبهت الناس طول الوقت ... ما كان ينبغى ان نثق مطلقا بهؤلاء - السفلة ... هاهى النتيجة .... »

لكن من هم هؤلاء السفلة الذين ماكان ينبغى ان نثق بهم ؟!! لم يستطع وينستون ان يتذكر الآن . ومنذ الفترة التى توقفت الحرب بعدها ... منذ تلك الفترة ظلت البلاد فى حالة حرب مستمرة ، وان لم تكن على وجه الدقة نفس النوع السابق من الحروب . فلعدة شهور من فترات طفولته كانت تحدث اشتباكات وتداخل بين القوات المتحاربة فى شوارع لندن نفسها ، وبعض هذه الاشتباكات مازالت حية فى ذاكرته ، لكنه لم يعد قادرا على ان يتذكر تفاصيل من كان يحارب من وفى لحظة معينة ، أو موقعة بذاتها . لأنه لم تدون سجلات لهذه الفترة ، وغير مسموح ان تقال ، أو تكتب كلمة واحدة عنها . المسموح به فقط هو ذكر مزايا العهد الحالى ولاشيء سواها .

عاد صوت مذيعة التمرينات الرياضية ينبح فى وجهه « استرخ ... » وان كان صوتها اقل حدة منه فى بداية التمرين ....

ارخى وينستون ذراعيه الى جانبيه وبدأ يأخذ نفسا عميقا بهدوء . عاد يتأمل ثنايا ذلك العالم معقد المتاهات .. عالم « ازدواجية الفكر » (ان تعلم وان لاتعلم فى آن واحد)... ان تعيش الحقيقة الكاملة وان تردد الاكاذيب منمقة متقنة الصياغة ... ان تؤمن فى نفس الوقت بالأفكار التى يشجب احدها الآخر ... ان تتوسل بالمنطق فى ادراك أو استيعاب قضية لا منطقية كليا ... ان تتنكر لاخلاقياتك فى نفس الوقت الذى تشيد فيه بها ... ان تعتقد باستحالة الديمقراطية وان توقن فى نفس الوقت بان الحزب هو حارس

الديمقراطية وحاميها .. ان تنسى مايجب ان تنساه .. ثم فى وقت ملائم اخر تجد نفسك وقد نسيت مرة اخرى .... ثم ان تطبق مبدأ النسيان ... على عملية النسيان نفسها . هذه هى قمة المهارة .. ذروة التحكم فى الفكر ... بعملية واعية تسلب اللاوعى ، ثم تعود مرة اخرى غير مدرك لعملية الاستلاب التى تعرضت لها ، بل ان مجرد محاولة فهم « ازدواجية الفكر » تتضمن نفسها تفكيرا ازدواجيا فى ادراكك نفسه .

عادت المذيعة تدعو للانتباه مرة اخرى .... مرددة بحماس .... « والآن دعونا نر من منا القادر على ان يلمس طرف قدمه بيديه .. هيا يارفاق .. ارفع يديك الى اعلى ثم انحن ... هيا .... واحد ... اثنين ...

وكان وينستون لايطيق هذا التمرين بالذات ... تمرين يطلق صواريخ الالم من كعبه الى اردافه ، وينتهى عادة بنوبة سعال تجتاح صدره . نغص هذا الامر عليه استمتاعه باسترسال افكاره . لكنه مازال منساقا مع خواطره حتى وهو يؤديه : هم لم يغيروا الماضى فقط ياونستون ... ان ماتم هو عملية تغيير .. محو كامل للماضى ... اذ كيف بامكانك ان تصل الى حقيقة ما ؟ اى حقيقة حدثت فيما مضى ؟ ... حين ينعدم كل تسجيل لهذه الحقيقة الا ذاكرتك انت وحدك ؟ لعل محاولة ان يتذكر فى اى سنة سمع لأول مرة اسم الزعيم ... « لابد أنها إحدى سنوات الستينات » ... لكن القطع بهذا .. ضرب من المستحيل . فى تاريخ الحزب (طبعا) كان الزعيم هو قائد الثورة ، وحارس مسارها ... منذ فجر بزوغها .. محاولاته للتذكر بدأت تتراجع تدريجيا الى تلك الحقيقة الخرافية ... عالم الاربعينات والثلاثينات حين كان اولئك الرأسماليون ، بقبعاتهم المرتفعة غريبة الشكل يقودون عرباتهم الفخمة اللامعة ذات النوافذ الزجاجية عبر شوارع لندن . ليّس هناك يقين .. كم من الخرافة ؟! كم من الحقيقة فيما يقال عن اولئك الناس وعن الزمن الذى عاشوا فيه ؟! ان وينستون لايستطيع ان يحدد بالضبط تاريخ ظهور الحزب للوجود . انه لايعتقد انه قد سمع كلمة « انجشاك » ... قبل عام ١٩٦٠ ، ربمّا كان الاسم قد تردد فى صيغة اللغة القديمة أى « الحزب الاشتراكى الانجليزى » ، ربما يكون قد تردد قبل هذا التاريخ . لكن الضباب يلف كل ذكرياته . بحيث اختلطت معالم كل الاحداث . حقيقى أنه احيانا ، كان بالإمكان ان يكتشف كذبة محددة واضحة . مثلا جاء فى كتب تاريخ الحزب : « ان الحزب هو الذى اخترع الطائرات » . كذبة مكشوفة فهو يذكر منظر

الطائرات منذ طفولته المبكرة . لكن كونك تتذكر .. فلتتذكر ... لنفسك ... ليس بمقدورك ان تثبت أى شيء . لم يبق أى دليل يا وينستون .. لم يبقوا على أى دليل .. مرة واحدة فقط تمكن من ان يمسك بين يديه دليلا لايمكن الطعن فى صحته ، يثبت تزييف واقعة تاريخية . وفى هذه اللحظة .

استيقظ من تيار افكاره على صوت صاروخ السينما التليفزيونية .. « سميث » .. « انت يا وينستون سميث .. رقم ٦٠٧٩ .. نعم انت .. احن جسمك الى اسفل بقوة قليلا .. ولتؤد التمرين بصورة افضل لو سمحت .. انت لاتبذل جهدا على الاطلاق ... احن جسمك الى اسفل ... نعم ... قفوا مسترخين كلكم انظروا إلى ..

العرق البارد بدأ يتفصد ويسيل من جسده فجأة . لكن وجهه ظل يحمل تعبيرا واحدا معلقا منذ زمن كانه قد مات على ملامحه . لايجب ان تظهر أى ضيق . لاتبد اى استنكار . اى مظهر تأفف حتى فى عينيك قد يفضحك ... وقف يراقب الشاشة بينما الفتاة ترفع ذراعيها فوق رأسها بحركة فيها من الدقة أكثر مما فيها من الجمال ، ثم عادت تنثنى لتلمس اطراف اصابع قدميها باطراف اصابع يديها .

« هذه هى الطريقة التى يجب ان يتم بها التمرين ... بهذا الشكل .. يارفاق .... ركزوا مرة اخرى على حركات ذراعى .. وللعلم انا فى التاسعة والثلاثين ... ولدى اربعة اطفال . الآن انتبهوا جيدا للطريقة ... هيا ... انحنت مرة اخرى وعادت تردد وهى تنتصب واقفة .... « بإمكان كل واحد منكم ان يؤدى نفس الحركة بكفاءة لو اراد .. أى واحد تحت سن الخامسة والاربعين ، يستطيع ان يلمس طرف قدميه بأصابعه نحن لم ننعم بفرصة التواجد فى الصفوف الاولى فى المعركة ، لكن من واجبنا ـ على الاقل ـ ان نحافظ على لياقتنا البدنية . تذكروا اولادكم على خطوط جبهة مالابار ... واولادنا البحارة على سطح « القلعة العائمة » .. تذكروا المهام الجليلة المنوطة بهم . والآن فلنحاول مرة اخرى ... افضل ... هكذا افضل يارفاق ... اداؤكم الآن أحسن كثيرا ...

« قالتها ووينستون يلمس باطراف اصابعه قدميه باذلا جهدا جبارا دون ان يحنى ركبته وهو انجاز رائع لم يستطيع ان يحققه منذ سنوات عدة .

* * *

(٤)

لم يمنعه وجوده بالقرب من شاشة الجهاز فى مكتبه بوزارة الحقيقة ـ ان يطلق زفرة حارة ـ وهو يبدأ عمله اليومى . جذب جهاز الكاتب الصوتى نحوه ، ونظف ميكرفونه من تراب عالق به ، ووضع نظارته على عينيه ، وجذب أربعة ملفات من الورق الملفوف على هيئة اسطوانة ، صغيرة الحجم ، وضمها الى بعضها بمشبك حديدى . وكانت قد اندفعت منذ لحظات من انبوبة جهاز يعمل بنظام تفريغ الهواء ـ لنقل الرسائل والمكتوبة بين مختلف الاقسام . يقع الى يمين مكتبه .

فى جدران التقاسيم التى تضم مكاتب العاملين ، توجد ثلاث فتحات . فواحدة لطرف انبوبة جهاز توصيل المكاتبات ، الثانية الى اليسار للجرائد ، والثالثة فى جانب الجدار وفى متناول يد وينستون ، قطوع طولى يكسوه ستار من الاسلاك المعدنية متسعة الفتحات . هذا القطوع الاخير مخصص للتخلص من الاوراق « المهملة » . مثل هذا النظام من الفتحات مطبق فى الآف او عشرات الالاف من غرف المبنى . لكن على مسافات متفاوته ليس فقط فى الغرف وانما ايضا فى الممرات التى تفصل بين التقاسيم . ولسبب ما ، سميت هذه الفتحات « جحور الذاكرة » . فعندما يجد أى موظف ان قطعة من الورق انتهى منها أو وثيقة معينة يجب عليه اعدامها ، ماعليه الا ان يرفع غطاء أى من تلك الفتحات ويقذف فيها بما يريد ان يتخلص منه ليمتصه تيار من هواء ساخن ، فتأخذ الورقة أو الوثيقة مسارا مشابها للدوامة ينتهى بها الى افران ضخمة تقبع فى مكان ما اسفل المبنى .

اخذ وينستون يتفحص الوثائق الاربع التى بدأ ينشرها امامه ، كل واحد تضمنت رسالة من سطر أو سطرين ، اختصرت مفرداتها الى لغة اصطلاحية ، ليست قاصرة على مفردات لغة الشيوعية الدولية فقط (أو مايسمى باللغة الجديدة) . وانما ايضا فى اللغة التى تستخدم فى وزارة الحقيقة للاغراض الداخلية مثلا كلمات الملفات تقول :

الزمن : ١٧ ـ ١٣ ـ ١٤ ب ب خطاب نقل بصورة خاطئة ـ يصحح .

الزمن : ١٩ ـ ١٢ ـ ٨٣ تنبؤات ٣ ى ب جزء رقم ٤ طبعه سىء الطباعة ـ صحح النسخة الحالية .

الزمن : ١٤ ـ ٣ ـ ٨٤ مصدر « وزواف » أسيىء تأويل تصريحه عن الكاكاو ـ صحح تصريحه .

الزمن : ١٣ ـ ١٢ ـ ٨٣ الأمر اليومى . الصياغة خاطئة ـ صحح

نحى وينستون الملف الرابع جانبا مع احساسه بشىء من الرضى ، فالموضوع المطروق فيه موضوع حساس ، على جانب من الأهمية ، ويستحسن استبقاؤه لما بعد . أما المواضيع التى تشملها البنود الثلاثة الاولى ، فقد كانت امورا روتينية ، وان احتاج البند الثانى منها ربما الى الرجوع الى قوائم متعددة من أرقام كثيرة .

ادار وينستون مايشبه قرص التليفون مثبتا الى جوار شاشة جهاز السينما التليفزيونية الخاصة بالمكتب وطلب اعدادا معينة من جريدة « التايمز » فسرعان ماوصلت منسابة عبر الانبوبة المجاورة له فى دقائق .

كانت الملفات التى امامه تشير الى مقالات وانباء ، ترى السلطات المعنية ، لسبب أو لآخر انه يجب تعديلها ، أو على حد التسمية الرسمية لعملية التغيير هذه يجب « تصحيحها » . مثلا : نشر فى جريدة التايمز فى ٣/١٧ أو السابع عشر من مارس ان الزعيم ، فى خطابه الذى القاه فى اليوم السابق ... قد تنبأ ان جبهة جنوب الهند ستحتفظ بهدوئها ، وان عدوانا من قبل اوراشيا وشيك الوقوع فى جبهة شمال افريقيا . لكن ما حدث بالفعل كان عكس ذلك . فقد رأت القيادة العليا لقوات اوراشيا ان الانسب شن هجوم فى جبهة جنوب الهند ، ووقع الهجوم بالفعل ، دون ان تشن أى هجوم فى شمال افريقيا . كان من الضرورى ـ تبعا لذلك ـ ان تعاد كتابة تلك الفقرة من خطاب الزعيم التى يتنبأ فيها بالهجوم على جنوب الهند ويصاغ الخطاب بما يفيد تنبؤ الزعيم بما حدث بالفعل ... فالزعيم لايخطىء .

مثال اخر : « نشرت التايمز » فى ١٢/١٩ أو التاسع عشر من ديسمبر التوقعات الرسمية لمحصلة مختلف نوعيات استهلاك السلع عن الربع الاخير من سنة ١٩٨٣ ، والتى تواكب الجزء السادس من خطة التنمية الثالثه بعد التسعين ، لكن فى عدد ١٩ ديسمبر من « التايمز » الذى امامه دون الرقم الحقيقى للاستهلاك . رقم يوضح بما لايدع مجالا للشك ان التوقعات المذكورة سابقا كانت خطأ مزريا ... جملة وتفصيلا ... مهمة وينستون ان يصحح الارقام التى ذكرت اصلا فى التوقعات بحيث تتفق مع ماتحقق بالفعل فيما بعد .

أما الفقرة التالية ، فهى تشير الى خطأ غاية فى البساطة لم يكن يستغرق اصلاحه أكثر من دقيقتين . فمنذ فترة وجيزة فى شهر فبراير الماضى صرحت وزارة الوفرة (وزواف) بما يشبه الوعد (أو على حد تعبير الاصطلاح الرسمى « عهدا مقلوبا ») بان نصيب الفرد من الكاكاو لن يمس طوال سنة ١٩٨٤ . لكن الواقع كما لايزال يذكر وينستون وكما اعلن منذ ايام ان هناك تخفيضا سيجرى فى نصيب الفرد من ٣٠ الى ٢٠ جرام ، ابتداء من الاسبوع الحالى . كل ما احتاج اليه وينستون هو استبدال الفقرة التى تشمل « العهد بفقرة اخرى تقول ان الظروف ربما تقتضى تخفيض حصة الفرد من الكاكاو فى غضون ابريل المقبل .

عندما انتهى وينستون من كل بند من البنود الثلاثة الماضية كان يثبت تصحيحاته لنسخ « التايمز » عن طريق جهاز الكاتب الصوتى الآلى . ويدفع بالنسخة المصححة فى الانبوبة الموصلة ، ثم بحركة ـ تكاد تكون من فرط التعود عليها حركة لاشعورية ، يضغط بيده على الورقة المتضمنة الخبر الصحيح أو الحقيقى « ملقيا بها فى واحد من جحور الذاكرة ، تلك الفتحه المفضية بما يلقى فيها الى اتون النار المنتظرة .

أما مايحدث فى تلك الشبكة المعقدة من المسارات غير المرئية اسفل المبنى فلايعلمه وينستون بالتفصيل ، وان كانت لديه فكرة عامة منه . فما ان يتم الـ « تصحيح » لأى من اعداد التايمز حتى يعاد تجميع حروف مقالات العدد مرة اخرى ، ويعاد طبع هذا العدد المعين من الجريدة ... يعاد طبعه من جديد ... أما النسخة الاصلية التى نشرت الخبر الصحيح ... فتعدم . ثم يعاد وضع النسخة المعدلة مكان النسخة الاصلية .

هذه العملية من التغيير والتبديل المستمر ... ليست قاصرة على الجرائد فقط ... بل تتم بالنسبة للكتب ، المجلات الدورية ، النشرات والاعلانات المعلقة والملصقات ، التسجيلات الصوتية ، افلام الكارتون والصور الفوتوغرافية .. وتتم ايضا بالنسبة لأى نوع من انواع الانتاج الادبى او الوثائق يشتم منه أى مغزى سياسى أو فكرى . يوميا ، بل دقيقة بدقيقة يتم بشكل مستمر « تجديد » الماضى أو تصحيحه بمعنى اخر ... بهذه الطريقة يمكن تأييد واثبات تنبؤات الحزب ، وسلامة خط الدولة . حتى بالرجوع الى وثائق وسجلات الماضى الذى تم تصحيحه » وبديهى انه غير مسموح على الاطلاق ابقاء خبر ، ايا كان ،

أو أى صورة من صور التعبير ، تتعارض مع سلامة هذا الخط ومتانة البنيان الفكرى للدولة ... غير مسموح ان يبقى لها أى اثر فى وثائق الدولة .

وهكذا تعاد كتابة التاريخ ، بأن « ينظف » مما قد يعلق به من شوائب ليبقى « نظيفا » كما يجب ، مشرقا وبراقا كما ينبغى له ان يكون .

بل يحدث احيانا ان يعاد « تنظيفه » أكثر من مرة وفق ماتقضي به الضرورة ... أى ان يعدل ، ثم يعاد التعديل . لكن بانتهاء سلسلة التغيير هذه ، فمن المستحيل ان تثبت اى عملية تزييف قد تمت لذلك الخبر أو هذا النبأ ، أو تلك الوثيقة . فالقسم الرئيسى من هيئة الوثائق والسجلات ، والذى يفوق القسم الذى يعمل فيه وينستون حجما وعددا ، يضم الاف الموظفين المتفرغين تماما لتتبع وجمع نسخ الكتب ، والمجلات ، والجرائد ، وكافة الوثائق أو المطبوعات التى تم تعديلها ، والاخرى المهيأة للاعدام ... ومن ثم فعدد من اعداد التايمز مثلا ، يتكرر تعديل فقراته ، وليكن عشر مرات ، ليتطابق دوما مع تنبؤات الحزب أو ليؤكد حصانة اراء الزعيم ، ستجده فى سجلات اعداد التايمز يحمل نفس تاريخه القديم لاتوجد على الاطلاق اية نسخة ؛ ايا كانت ، من نفس العدد ، تخالف النسخة الأخيرة المعدلة أو المصححة ، ونفس الشيىء بالنسبة للكتب التى اعيدت كتابتها اكثر من مرة ، والتى كان يعاد اصدارها بعد جمع كل نسخها الموزعة من قبل دون اية اشارة لما طرأ عليها من تعديل فى الوقائع أو الأفكار ..... الأدهى من ذلك .... أن الأوامر الرسمية التى كان وينستون يتلقاها لتغيير أى مادة صحفية أو مكتوبة لم تكن لتشير الى ان المطلوب منه ان يقوم بأية عملية تزييف أو استبدال للحقائق ... ابدا . دائما المطلوب منك هو « تصحيح هفوات » أو اخطاء فى الصياغة أو « اخطاء اعلانية » أو « تحريف فى نشر الخبر » .... جميعها يجب ان « تصوب » بهدف الوصول للدقة ليس غير .... الا انه احيانا كان يجد ان مايقوم به ـ من وجهة نظره ـ ليس تزييفا .. كان يجد نفسه احيانا يستبدل نوعا من الهراء بنوع اخر من نفس الهراء كتلك الارقام التى نشرتها وزارة الوفرة . اصبح يدرك تماما ان الارقام التى يتعامل معها قبل التعديل ، وبعد التعديل ، لا علاقة لها مطلقا بما يتم انجازه على ارض الواقع .... لم تصل حتى الى مستوى العلاقة المكتبية المباشرة بين الكذب والحقيقة ... ان ماكان ينشر من احصائيات لاينتمى الا الى عالم الخيال ، سواء فى صورتها الاصلية أو فى صورتها التى طلبوا منه ان يعد لها . بل فى مرات كثيرة يكون عليك ان تخترع ارقاما من عندياتك . مثلا توقعات « وزواف » لانتاج الأحذية للثلاثة

شهور الأولى من العام ١٤٥ مليون زوج . النتاج الفعلى كما ورد اليه كان ٦٢ مليون زوج احذية . ووينستون بدوره استبدل الرقم الذى توقعته وزارة الوفرة من ١٤٥ الى ٥٧ مليون فقط ، وذلك ليبدو ان الوزارة قد تجاوزت متطلبات الخطة . لكن المهم ان الارقام الثلاثة ، سواء ١٤٥ أو ٥٧ أو ٦٢ لاعلاقة لها حقيقة بما انتج اصلا ، هناك احتمال فعلا انه لم ينتج زوج واحد من الاحذية هذا العام . فلا احد يعلم على وجه الدقة ماانتج فعلا ... بل الادق .... لا احد يعنيه ان يعلم الرقم الحقيقى .... الشىء المؤكد ان كل ثلاثة شهور تعلن ارقام فلكية عما انتج من احذية ... على الورق ، بينما يصل عدد من يسيرون بلا حذاء يقى اقدامهم ، الى نصف سكان « اوشانيا » .

نفس الاسلوب بالنسبة لأى مستوى من مستويات البيانات المسجلة .... صغيرة أو كبيرة .

شعر وينستون ان الحقيقة بدأت تضيع فى عالم ضبابى ... تجد نفسك فيه فى النهاية لست متأكدا بالفعل حتى من الرقم الصحيح للسنة التى تعيش فيها ...

القى بنظرة عبر الصالة المواجهة له . فى التقسيم ، الذى يقع امامه من الصالة ... هناك جلس موظف ضئيل الحجم ، نظراته ثاقبة ، له ذقن داكنة يدعى فيلوتسوف ، يعمل بهمة وقد وضع جريدة مطوية على ركبتيه ، وقرب من فمه ميكروفون جهاز الكاتب الصوتى الآلى وشفتاه لاتكلان من العمل ... سيماؤه تدل على انه حريص على ان يبقى مايقوله فى الميكروفون سرا لايتجاوز نطاق الميكرفون . رفع نظره لفترة عن الجريدة التى يبدو انه يصححها ، ولسع وينستون بنظره ثاقبة عندما ضبطه متلبسا بالنظر اليه .

لم يكن وينستون بالكاد يعرف زميله فى العمل ... « نياوتسونى » ... وليس لديه اية فكرة عن طبيعة عمله بالضبط . فموظفو قسم التسجيلات والوثائق ليس لديهم استعداد لأن يتحدثوا عن تفاصيل عملهم مع اى انسان غريب عنهم . حوالى اثنا عشر موظفا قابعون فى حجرة مستطيلة بلا نوافذ تنقسم الى تقسيمين ، وكل تقسيم ينقسم الى صفين ، ينتشر فيها دوما صوت تقليب الصفحات ، وهمهمة الاصوات الهامسة الى الميكروفونات ، لايعرف وينستون حتى ولا اسماء بقيتهم ، برغم رؤيتهم صباح كل يوم مهرولين جيئة وذهابا فى ممرات الصالة ... أو اثناء الحركات الانفعالية التى تنطلق منهم فى جلسة « دقيقتى الحقد » لكنه يعرف ان المرأة شقراء الشعر فى التقسيم التالى له ، مهمتها اليومية هى رفع اسماء الذين قامت الدولة « بتبخيرهم » أو ازالتهم من الوجود .... سواء ذكرت

هذه الاسماء على صفحات الجرائد أو فى اية تسجيلات صوتية ... أى ان مهمتها نفى أى وجود مادى سابق لهم . وقد ابدت مهارة فائقة فى تأدية مثل هذا العمل ، بدليل ان زوجها نفسه كان قد تم تبخيره منذ سنين فقط ... يلى مكتب وينستون ، بعدة تقاسيم ، مكتب موظفة اسمها امبلفورت ، مخلوقة رقيقة ، حالمة لكن ذات وجه غير مؤثر . يميزها وجود شعر أكثر من العادى فى اذنيها . عملها نظرا لما تتمتع به من قدرة على اللعب بالقوافى والتفاعيل الشعرية ، هو اعادة صياغة نصوص شعرية معينة بتزييف بعض الابيات لقصائد تشعر السلطات ان مغزاها من الممكن ان يعتبر معاديا فكريا للنظام ، لكن لسبب لا يعلمه وينستون تقرر الاحتفاظ بالنصوص المشوهة فى مجموعتها الشعرية .. تسمى من الناحية الرسمية « النصوص النهائية » وفى الصالة التى تعمل فيها هذه الفتاة ، حوالى خمسين موظفا وموظفة « مجرد قسم فرعى » أو « خلية » فى كيان أكبر معقد هو ادارة التسجيلات والوثائق ... ثم فوق ، وتحت ، وحول هذا القسم اسراب من العاملين وزعوا على شبكة اخطبوطية من المهام المتعددة . هناك ايضا معامل تحميض وتصوير ضخمة ، بمشرفيها وخبراء التصوير العاملين بها ... بأقسامها من استديوهات معقدة الآلات والأجهزة ... لتغيير ملامح أى صورة . تجاورها اقسام البرامج التليفزيونية ، بمديرى الانتاج التابعين لها ، ومهندسيها ، ومجموعات الممثلين المتخصصين فى تقليد اى صوت وتزييف أى شريط تسجيل ... وقد تم اختيارهم بدقة لمهارتهم الفائقة فى هذا المجال .... تخدمهم جيوش من الموظفين الاداريين ، عملهم ببساطة هو تجميع وحصر قوائم بالكتب والمطبوعات والنشرات الدورية التى يجب اعادة صياغتها .... ثم صالات الايداع الضخمة الممتدة الى مسافات شاسعة تجمع فيها الصيغ المعدلة من كتب وجرائد ومجلات ... الخ ، واخيرا الافران الهائلة التى يجهل العاملون مكانها ، حيث يتم اعدام جميع النسخ الاصلية ...

والأهم من كل تلك الادارات والاقسام ، هو تلك الشخصيات الغامضة المجهولة فى مكان ما بالمبنى ، تلك العقول المخططة التى تنسق بتدبير محكم النتاج النهائى لكل المجندين فى ادارة التسجيلات ، والتى ترسم الخطوط الرئيسية للاستيراتيجية المستهدفة .. فتحدد مثلا « ضرورة الاحتفاظ بهذه الشريحة من الماضى ... وشريحة اخرى من الضرورى تزييف احداثها ... وشريحة ثالثة ترى من الواجب محوها من الوجود تماما .

وادارة التسجيلات والوثائق بعد كل هذا ، ليست سوى احد فروع وزارة الحقيقة ، وهى المسئولة فى النهاية ، ليس عن اعادة تركيب تفصيلات الماضى فقط ، بل ايضا عن

اعداد كل مايصدر فى « اوشانيا » من جرائد يومية ، ومجلات ، وكتب ، ومراجع ، وبرامج تليفزيونية ، ومسرحيات ، وروايات ، بكل ما يمكن ان يخطر على بالك من معلومات أو مادة علمية ، أو مادة ترفيهية أو توجيهات ، سواء كان العمل تمثالا ضخما ام مجرد صياغة شعار حزبى ، سواء كان النتاج كلمات اغنية أو تأليف مرجع فى علوم الاحياء . بدءاً بكتاب تعليم الف باء للاطفال حتى القاموس الشامخ الضخم للغة الدولية الجديدة لايقتصر عمل وزارة الحقيقة على المتطلبات المتشبعة للحزب ، بل عليها ان تكرر نفس العملية على مستوى اقل ، لتلبى متطلبات « البروليتاريا » ، فتوجد سلسلة من الادارات المنفصلة تخصصها هو الادب والموسيقى والمسرحيات والنشاط الترفيهى « للبروليتاريا ». ادارات تقوم بانتاج صحف شعبية رخيصة لاتنشر الا اخبار الرياضة والجريمة واعرف بختك ، كما تصدر الروايات القصيرة العاطفية الخفيفة الزهيدة الثمن ، وافلام سينمائية تنضح بالجنس ، واغانى شعبية رخيصة تؤلف بشكل روتينى عن طريق جهاز يشبه الفانوس السحرى يسمى بـ « ناظم الاغانى » . بل ان هناك قسما فرعيا خاصا فى احدى الادارات تخصصه الوحيد انتاج احد انواع الأفلام الاباحية الداعرة ، وله اسم خاص باللغة الجديدة وهو اصطلاح « قباح » غير مسموح على الاطلاق لأى من اعضاء الحزب تداول أو مشاهدة نتاج هذا القسم ، باستثناء العاملين فيه بالطبع .

انتهى وينستون من الملفات الثلاثة الاولى ، وهى مسائل بسيطة تعامل معها بسهولة ، وقذف بها فى انبوبة الجهاز المجاور له ، وقبل ان تبدأ « دقيقتا الحقد » توجه لحضور الجلسة اليومية ، وعاد الى مكانه وتناول قاموس اللغة الجديدة من الرف الخاص به ، ونحى جهاز الكتابة الآلى جانبا وتفرغ بعد ان لمع نظارته ـ لمهمته الرئيسية فى عمل اليوم .

كانت متعة وينستون الحقيقية فى الحياة هى العمل . صحيح أن معظمه كان روتينيا مرهقا ، لكن الأمر لم يكن ليخلو من مهام معقدة ، وعلى درجة من الصعوبة تستغرقه كليا ، كما لو كان يتصدى لمعضلة رياضية ، كتلك المهام الصعبة التى لايكلف فيها باستبدال بيانات محددة ، بل يطلب منه ـ كالملف المكلف به الآن ـ أن يعيد كتابة الموضوع بالكامل بشيء من التصرف ... وحرية التصرف مهمة خطرة يجب ان ينتبه فيها

جيدا لمواضع قدميه قبل ان يخطو، لاينير له الطريق الوعر الا ادراكه الذكى لتعاليم « انجاك » ، والجو السياسى العام فى أوشانيا إذ عليه ان يستشف ماتريد منه السلطة ان يقول .

وكان وينستون ماهرا فى مثل هذه المهام ، لأن فيها استثارة لذكائه وحسن تصرفه . بل لقد كان يسند لوينستون احيانا تصحيح المقالات الافتتاحية للتايمز كاملة ، والمكتوبة كلها بمصطلحات اللغة الجديدة .

ففى الرسالة الرابعة امامه ـ أنجازه الضخم اليوم ـ تقول كلماتها :

الزمن : **٣ ـ ١٢ ـ ٨٣** تقرر ز/ع عن أمر يومى مكرر زائد غ/ طيب يشير ال/ غ/ج . أعد صياغة (كم) الموضوع (ف/ع) قبل (م/رسم) باللغة القديمة ، أو اللغة الانجليزية العادية الدارجة .

ويكون تحويل هذه الرموز الى ما يلى :

ان اشارة الزعيم المتضمنة الامر اليومى فى عدد التايمز بتاريخ **٣** ديسمبر سنة **١٩٨٣** غير مرضية على الاطلاق .... وتشير الى اشخاص غير موجودين . أعد كتابة الموضوع بأكمله . أرفع مسودة الموضوع بعد كتابته الى السلطات العليا قبل ادخاله الملفات الرسمية .

اخذ وينستون يقرأ بامعان المقالة المقصودة ، وكان معظم الأمر اليومى المذكور فى العدد مخصصا للاشادة بجهد مؤسسة ملتزمة بامداد بحارة البارجة « القلعة العائمة » بالسجائر وكافة الاحتياجات الاخرى ، بل لقد اختص احد الرفاق ... الرفيق « ويذرز » بثناء خاص ومنح نوطا « ويذرزهذا أحد اعضاء التنظيم الداخلى) . اذ أهداه الزعيم نوط العمل البارز من الدرجة الثانية .

لكن لم تمض ثلاثة شهور ، حتى حلت هذه المؤسسة فجأة دون ابداء الاسباب والمفروض ـ طبعا ـ أن « ويذرز » ورفاقه قد لحق بهم العار نتيجة لحل المؤسسة التى كانوا يعملون بها . لكن لم يرد ذكر هذا الموضوع لا فى الصحافة ولا فى السينما التليفزيونية ، وكان هذا امرا متوقعا ، لأنه من غير المعتاد ان يقدم الى المحاكمة من وجهت اليه تهمة سياسية أو حتى ان يدان علنا . صحيح ان حركات التطهير التى ذهب ضحيتها الالوف من البشر كانت لاتخلو احيانا من محاكمات للمتهمين بالخيانة أو الجرائم المذهبية يعترفون فيها صراحة بجرائمهم ، ليتم أعدامهم بعد ذلك . لكن مثل هذه المحاكمات لم تزد عن

كونها حركات استعراضية للاستهلاك المحلى لايسمح بها الا مرة كل سنتين تقريبا . القاعدة العامة أن الاشخاص الذين يحل عليهم غضب الحزب ... كانوا ببساطة « يختفون » ... ولايسمع احد عنهم . فيما بعد . ليس بمقدور احد ان يتتبع أى أثر يقود الى المصير الذى انتهوا اليه . فى حالات قليلة لايكون مصيرهم الموت كقاعدة عامة . فما يزيد على ثلاثين شخصا يعرفهم وينستون شخصيا ، قد اختفوا لفترات تطول أو تقصر .

حك وينستون انفه بقطعة المعدن التى تشبك بها الملفات ... وفى التقسيم المقابل لمح الرفيق « تيلوتسون » منكبا ومخفيا حركاته قدر استطاعته عن الانظار ، وعلى ميكرفون جهاز الكاتب الصوتى الالى ... رفع تيلوتسون ، رأسه لحظة ... لمح وينستون ينظر تجاهه ، فحدجه مرة اخرى بنظرة سريعة غاضبة . تساءل وينستون بينه وبين نفسه ، عما اذا كان تيلوتسون مكلفا بنفس المهمة التى كلف هو بها ؟ لم لا .... احتمال جائز جدا . فمثل هذا العمل المطلوب تعديله يتناول موضوعا على قدر من الحساسية بحيث لايمكن ان يوكل الى شخص واحد بمفرده . من ناحية اخرى .... تكليف لجنة كاملة لاعادة صياغة أحاديث الزعيم ، مسألة تتنافى مع ضرورة السرية ، اذن هناك احتمال كبير جدا أن عشرة أو اثنى عشر شخصا قد كلفوا باداء نفس مهمة تزييف الحديث الصادر عن الزعيم ، ولابد انه يوجد حاليا عقل مدبر فى « التنظيم الداخلى » للحزب أنيط به اختيار هذه الصورة أو تلك من الحديث المعدل ، ليعيد صياغتها ثم يكلف موظفين آخرين بالعملية المعقدة لاستبدال تواريخ فى جرائد أو تزييف أحداث معينة تتطلبها وقائع الحديث المعدل ، ثم فى النهاية تحفظ الصيغة المثلى للكذب ، بعد اتمام عملية التزييف باتقان .... تحفظ فى قسم التسجيلات الدائمة ، وبهذا تكتسب شكل الحقيقة ... تتحول الى حقيقة .

وينستون يجهل سبب ادانة وطرد « ويذرز » من الحزب . ربما بسبب عدم الكفاءة ... أو بسبب الفساد . ربما يرجع سبب تنحيته الى مجرد رغبة الزعيم فى التخلص من أحد أتباعه . أكتشف انه يتمتع بشعبية أكبر مما ينبغى . ربما تأكد الزعيم أن « ويذرز » أو أحد المقربين لديه يتبنون مذاهب انحرافية فيها هرطقة . أو .... وهذا الاحتمال ربما كان اقرب للقبول - ان الامر لايتعدى ان حركات التطهير والتصفية كانت جزءا ضروريا من الاعمال الدورية للدولة .

تناول وينستون الملف الموضوع امامه . أحد المفاتيح الرئيسية لتناول الموضوع هو التعبير المكتوب باللغة الجديدة فى مصطلح : « اشخاص بلا وجود ... راجع » مثل هذه

المصطلحات ـ بالخبرة ـ تنبىء أن الشخص المعنى قد أعدم بالفعل ، إذ هي لا تستخدم هذه المصطلحات .... اذا كان الامر قاصرا على مجرد القبض عليه . فبعض الناس يلقى عليهم القبض .... ثم يطلق سراحهم ، ويسمح لهم بممارسة حياتهم العادية فى حرية لمدة عام او عامين قبل ان ينفذ فيهم حكم الاعدام . ويحدث فى احيان كثيرة ان بعض الاشخاص ممن يعتقد انهم ماتوا منذ فترة طويلة ، يعودون كالأشباح ، فى احدى المحاكم العلنية ليشهدوا ضد مئات من اشخاص آخرين ، وجهت ضدهم الدولة اتهامات معينة ، ثم يطويهم الضباب مرة اخرى ... أو وأخيرة ... والى الابد ... اذن ، فان « ويذرز » هذا قد أصبح « بلا وجود » . محى أسمه من سجل الاحياء . بل أنه لم يوجد « رسميا » من قبل ....

فكر وينستون فى ملابسات الموضوع ، ووجد أن الطريقة المثلى لتناوله ليس قلب المعانى والالفاظ التى قالها الزعيم فى خطابه .... هذا لايكفى ، الافضل هو ان يغير موضوع الخطبة برمته ، وان يختار موضوعا اخر بعيدا كل البعد عن الموضوع الاصلى ... يمكن مثلا أن يتغير الموضوع الى ادانة الخونة والمرتدين مذهبيا ، لكن .. ربما كان افتعال هذا الموضوع أمرا مكشوفا ... ماذا لو اخترع مثلا « أنتصاراً » ، أى « أنتصار » على الجبهة ، أو انجازا ضخما يتجاوز توقعات الخطة الثالثة بعد التسعين مثلا ... ؟ لكن لا .... هذا سيؤدى الى تعقيدات وتغييرات أكثر مما ينبغى فى السجلات .

ان المطلوب فعلا هو شىء من الخيال الصرف . وفجأة ... « وجدتها ؟ » ... طرأت الفكرة على ذهنه .. فكرة كاملة وجاهزة ... صورة رفيق يدعى « أوجيلفى » قيل أنه قد قضى نحبه مؤخرا فى أحدى المعارك ، بعد أن أظهر بطولة نادرة . وقد كان من عادة الزعيم أن يصدر أمرا يوميا على فترات متباعدة ، باحياء ذكرى من يختارهم من بسطاء الناس المغمورين ، ويقدمهم كصور لمن كانت حياته ومماته مثلا أعلى يحتذى . اذن فى العدد المطلوب تزويره من التايمز لهذا اليوم ، سيغير وينستون خطاب الزعيم الى وعده باحياء ذكرى « الرفيق » « أوجيلفى » . صحيح ان موضوع أوجيلفى برمته محض خيال ، وانه لم يوجد أصلا شخص بهذا الاسم ليحقق أو لا يحقق بطولة من أى نوع ، لكن المهم هو بضعة أسطر هنا ومثلها هناك فى هذه الصفحة من التايمز بعد تغييرها ... مع عدة صور يمكن لمعمل التصوير أن يزورها من الارشيف ، ثم تستدعى الى الوجود شخصية أوجيلفى البطل .

فكر وينستون للحظات ... ثم جذب ميكرفون الجهاز اليه ثم بدأ يملى مقلدا أسلوب الزعيم فى الخطابة ...

وهو يجمع بين الاسلوب العسكرى والتعليمى ، ويتميز ببعض اللازمات ، مثل : سؤاله الجماهير والاجابة فى الجملة التالية : (ما هى الدروس المستفادة من حقيقة ماحدث يارفاق ؟) نحن نتعلم من هذا الموقف . كما تنبئنا تعاليم « الانجشاك » ان ...... أسلوب من السهل تقليده .

وبدأ التزوير : « أوجيلفى يارفاق ، حتى وهو فى الثالثة كان يرفض كل الالعاب التافهة التى يلعب بها سائر الاطفال ، ولايقبل الا على لعب البنادق والطبول ولعب الطائرات الصغيرة . فى سن السادسة ، حصلوا له على اذن خاص ـ وهو أمر نادر ـ لينضم لمنظمة « أشبال المخابرات » . لم يبلغ التاسعة الا وكان قائد مجموعة للأشبال . فى الحادية عشرة ابلغ البوليس السياسى عن عمه ، بعد ان استرق السمع لمحادثة دارت بين عمه واحد الاشخاص ، اشتم منها أوجيلفى الصغير ميولا سياسية اجرامية ... فى السابعة عشرة اختير قائدا تنظيميا ، لأحد فروع « جمعية محاربة السلوك الجنسى » فى التاسعة عشرة توصل الى اختراع قنبلة يدوية جديدة ، حققت نتيجة مذهلة فى أول تجربة لها ، بعد أن اعتمدتها « وزارة السلم » اذ قتلت واحدا وثلاثين جنديا معاديا من « أوراشيا » . فى الثالثة والعشرين كان على موعد مع المجد .... فى ميدان القتال ... حين قضى نخبه ... طاردته طائرات نفاثة معادية ، وهو مكلف فى طائرته الهيلوكوبتر بتوصيل وثائق عسكرية هامة للجبهة ، فما كان منه الا أن تأبط مدفعه الرشاش والوثائق الهامة والقى بنفسه الى المحيط الذى كان يطير فوقه ... لتستقبله الاعماق ... ليذوب فيها هو والوثائق الهامة ... كوحدة واحدة « وعلى حد قول الزعيم » ... انتهى نهاية ... يحسدها عليها الزعيم نفسه . ثم اخذ وينستون يضيف كلمات عن طهارة ونقاء حياة أوجيلفى البطل ، وأمتياز عقليته التنظيمية المتفردة ـ على لسان الزعيم بالطبع ـ إذ كان « ذا اباء وشمم ... لا يدخن ... ليست له ميول ترفيهية الا ساعة واحدة كان يقضيها فى ملعب العاب القوى ... واخذ على نفسه عهدا بأن يحيا عازبا طول عمره ، لاعتقاده ان حياة الزواج والاطفال تتعارض مع ماعاهد النفس عليه ... بتكريس الاربع وعشرين ساعة من يومه فى سبيل الواجب

والحزب . لم يكن ليتطرق فى حديثه الا لمواضيع عن تعاليم ال « انجشاك » . كان أمل حياته ... هزيمة « أوراشيا » ، واصطياد الجواسيس والمخربين ، ومرتكبى الجرائم المذهبية ، والخونة عموما . »

هرش وينستون رأسه ... ترى هل نمنح أوجيلفى نوطا كنوط العمل البـارز ؟ قال لنفسه : « لا داعى لأن نمنحه نوطا أو خلافه لأن هذا سيحتاج إلى اعادة التقليب فى السجلات ويتطلب جهدا اضافيا لا داعى له .

ومرة اخرى راودته نفسه ان يلقى نظرة سريعة على من تخيل انه ينافسه فى عملية التزييف التى يقوم بها ... الرجل الجالس فى التقسيم المقابل ... شىء فى داخله أكد له ان تيلوتسون لابد منهمـك فى نفس المهمـة ، لكن لاتوجـد طريقـة يكتشف بهـا ايا من النسختين : النسخة التى قام بتأليفها هو ، أم الأخرى من صياغة تيلوتسون ـ سيجيزها المسئولون ؟!.

ساوره اعتقاد قوى ان نسخته هى التى ستشق طريقها الى الاجازة ... فالـرفيق « أوجيلفى » ... الذى لم يخطر له على بال منذ اقل من ساعة قد حوله هو ... الى حقيقة واقعة ... الى بطل قوى له وجود ... أدهشته فكرة أن بامكان موظف هنا أن يمنح وجودا لانسان لم يوجد قط ، ولكنه يعجز عن منحه لانسان موجود فعلا . فالرفيق (أوجيا) الذى لم يوجد قط فى الحاضر ... قد منحت له حياة فى الماضى . ومالم تظهر آثار التزوير أو يطويها النسيان ، فان أوجيلفى هذا باق فى التاريخ ... شخصية حقيقية حية ... مثل يوليوس قيصر أو شارلمان .

* * *

(٥)

فى الكانتين الخانق منخفض السقف ... والذى بنى على عمق بعيد عن سطح الارض ، زحفت صوانى الأكل ببطء فوق مسارها المعدنى ... كان المكان قد أزدحم بالفعل ، والضوضاء الصادرة من العاملين تصم الآذان ، ومن بين المواسير المعدنية فوق المنضدة المستطيلة ، تصاعد بخار اليخنى قويا نفاذا تكتنفه رائحة معدنية حامضة ، لم تتغلب على مايفوح من المكان من رائحة « جين النصر » .... فى أقصى المكان كان هناك حانوت صغير الحجم يشبه الجحر لفرط صغره محفور داخل الحائط ، حيث بامكانك أن تملأ كوبا كبيرا من الجين مقابل عشر سنتات .

سمع وينستون صوت رجل خلفه يقول : « ضبطتك » ... أنت الرجل الذى أبحث عنه » .. استدار ... كان صديقه سايم . وكلمة « صديق » هنا تقال تجاوزا ... فلا يوجد أصدقاء فى هذه الايام ... بل كلمة معارف أنسب . سايم يعمل فى ادارة الابحاث ... وعموما هناك بعض الرفاق صحبتهم أخف وطأة من غيرهم . أما دراسة سايم ، فهى اللغويات التى تخصص فيها حتى أصبح خبيرا فى اللغة الجديدة ، بل هو واحد من الجيش الكبير من اللغويين المكلفين باصدار الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة . رجل ضئيل الحجم ، أنحف من وينستون ، أسود الشعر ، عيناه واسعتان جاحظتان الى حد ما ، فيهما مزيج من الشجن والسخرية ، تتفحصانك بامعان عندما تخاطبه .

أردف قائلا لوينستون « كنت أبحث عنك لاسألك ان كانت لديك شفرة حلاقة » .. أجابه وينستون بسرعة كما لو كان ينفى تهمة : « أنا ؟.. ليس عندى حتى ولاشفرة واحدة » ثم أردف : « لقد مسحت السوق بحثا عن اية شفرة دون جدوى ... ليس للشفرات وجود الآن » .

الكل يبحث فى دأب عن شفرات الحلاقة . وينستون فى الواقع يخبىء شفرتين غير مستعملتين لوقت الحاجة . ففى متاجر الحزب مايشبه مجاعة شفرات منذ شهور . مثل هذه الازمات تطرأ على أية سلع ضرورية على فترات . فجأة تجد متاجر الحزب خالية منها : مرة : « الزراير » ... مرة أخرى « أربطة الاحذية » ... مرة ثالثة « أدوات رفو

الملابس » ... الخ ... حاليا الازمة فى شفرات الحلاقة . لكن بامكانك ان تجدها ، اذا صادفك الحظ ، وبحثت دون كلل مع شيء من الاصرار فى المتاجر الاخرى الخارجة عن اشراف الحزب ، والتى تسمى (السوق الحرة) .

عاد وينستون يقول كاذبا : « لقد كنت استعمل الشفرة الاخيرة لستة أسابيع فى الواقع ... » .

تقدم طابور الآكلين خطوة الى الامام . فتوقف وينستون مواجها سايم فى الناحية الاخرى وتناول كلاهما صينية معدنية من كومة الصوانى فى ركن المائدة المستطيلة . « ترى هل شاهدت شنق المسجونين الذين اعدموا امس ... ؟ » سأله سايم .

اجابه وينستون دون اهتمام « فى الحقيقة كنت مشغولا فى عملى ... سأرى الفيلم على شاشة الجهاز على أية حال » ... ثبت سايم عينيه الساخرتين على وجه وينستون واضاف : « لكن مشاهدة الفيلم لايمكن ان تعادل المشاهدة الحية ... » كما لو كانت عيناه تقول فى خبث : « أنا أعرفك .... وأعرف دخائلك ... أعرف تماما لماذا لم تذهب لتشاهد هؤلاء المسجونين أثناء شنقهم ... »

من وجهة نظر عقائدية ... كان سايم ملتزما بتعاليم الحزب بصورة تقليدية مقرفة . فبامكانه أن يحدثك باعجاب شديد عن غارات الطائرات الهيلوكوبتر على القرى المعادية ، وبحبور اشد ، عن محاكمات واعترافات المنشقين فكريا ، وعن تنفيذ احكام الاعدام فى أقبية « وزارة الحرب » . اعتاد وينستون ان يتطرق معه الى احداث الحياة اليومية لابعاده عن هذه المواضيع التى يعلم ان سايم يفضلها . وياحبذا لو دعاه مثلا للكلام عن قواعد وصياغة اللغة الجديدة التى يعتبر أحد ثقاتها . حديثه فيها لايخلو من متعة ..

ادار وينستون رأسه ، ليتفادى نظرات الرفيق سايم الفاحصة ... لكنه مالبث ان عاود التطرق للموضوع قائلا : « كانت عملية شنق ممتازة . لكنى أظن أن ربط ارجل المحكوم عليهم يقلل من درجة الامتاع فى العملية ... فأنا فى الواقع أفضل أن أرى أرجل المشنوقين وهى ترفس الهواء ... وأهم شيء عندى لسان المحكوم عليه بعد الشنق وهو مدلى ... أزرق اللون ... لون أزرق تماما ... هذه التفاصيل تثيرنى حقيقة ... »

أنقذ وينستون من أسترساله فى الموضوع .. صوت عاملة المطبخ بمغرفتها فى يدها ، وهى تستحثهم : « التالى .. يتقدم .. الطابور ينتظر .. تقدم » دفع وينستون وسايم كل

بصينيته على مسارها المعدنى . وفوق كل صينية كوز معدنى ملىء باليخنى ، لونه رمادى أميل الى الاحمرار ، وبقطعة خبز ، كوب من القهوة بدون حليب وقطعة من الجبن ، ثم قرص سكرين .

قال له سايم وهو يرفع صينيته : « توجد منضدة خاليه هناك تحت شاشة الجهاز ، فلنأخذ كوبين من الجين فى طريقنا اليها » .

أخذا يشقان طريقهما بصعوبة بين حشد الآكلين ، الى أن وصلا الى المنضدة المقصودة ، والمغطاه كغيرها بطبقة معدنية . فوجىء وينستون بسطح المنضدة الصغيرة المعدنى غارقا فى سائل اليخنى اللزج ، رجحا أن أحد الاكلين قبلهما لم يتحمله فتقيأه قبل وصولهما . رفع وينستون الصينية وعليها كوب الجين باحدى يديه ، وهو يسيطر على أعصابه بصعوبه حتى لايفلت منه أحساسه بالاشمئزاز ، وباليد الاخرى أزاح السائل اللزج . تسرب مايشبه الدموع من عينيه . قبل ان ينتبه اليها ، كان أحساسه بالجوع أسرع ، فجلس الى المائدة ليبدأ غذاءه الشهى ، وأمامه جلس رفيقه . تناول وينستون ملعقته وبدأ يقذف الى فمه فى صمت بسائل اليخنى الذى يحتويه الكوز ... سائل سميك يحوى بقايا أشياء تشبه اللحم مذابه فيه .. لم ينبس أيهما ببنت شفه ، حتى أنتهت الوجبة الشهية .. خلالها كان يجلس خلف وينستون أحد العاملين يتناول طعامه أيضا وصوته لايهدأ .. صوت لايعرف الملل .. ينطلق كمجموعة من القذائف .

صوت أقرب الى وقوقة بطة خائفة ، ونبرته العالية تعلو على ضجيج القاعة ..

ابتدر وينستون رفيقه قائلا وهو يرفع صوته قدر المستطاع : « ماهى أخبار القاموس ؟ » وسرعان ما أخذ سايم يتحدث باهتمام .. «نسير فيه ببطء مازلت فى جزء (الصفحات) ، لكن العمل فيه شيء رائع» ، ثم أشرق وجهه ابتهاجا بالحديث عن القاموس ، نحى صينيه الطعام جانبا .. تناول كسرة الخبز فى يده بحركة رشيقة وقطعة الجبن فى اليد الاخرى ، وأحنى صدره الى المائدة ليقرب رأسه من وينستون ليسمعه ، دون أن يلجأ الى الصوت الزاعق : « الطبعة الحادية عشرة .. هى الطبعة النهائية ، نحن الان نعطى اللغة الجديدة شكلها النهائى الثابت ، الشكل الذى ستكون عليه والتى سوف لايتحدث أى انسان فى المستقبل الا بها . وعندما ننتهى يتعين على أى رفيق مثلك أن يتعلمها منذ البداية .. ربما كان أعتقادك ، أن عملنا فى كتابة القاموس هو « أختراع »

كلمات جديده . أبدا ، على العكس ، نحن نهدم كلمات ، عشرات الكلمات .. بل مئات الكلمات .. يوميا . نحن نعيد معالجة اللغة بعملية جراحية قد تصل الى النخاع . الطبعة الحادية عشرة لن تحوى كلمة واحدة قابلة للالغاء حتى عام ٢٠٥٠ » .

قضم كسرة الخبز بنهم يفضح شدة جوعه ، وأبتلع ملعقتين من السائل ، ثم أستطرد فى حديثه بشىء من الخيلاء ... وجهه الضامر دبت فيه الحيوية .. نظرة عينيه الآن جادة لاتنم عن سخرية أو مرح .. بل هى أقرب الى العيون الحالمة .

« شىء باهر هو مانقوم به .. تحطيم الكلمات .. طبعا أكبر قدر من الكلمات الملغاه هى فى الافعال والصفات ، لكن الاسماء سنلغى أيضا مئات منها بالمثل . ليس فى « المرادفات » فقط ، بل سيمتد الالغاء الى الاضداد (أو نقيض الكلمة) » . لانه ـ بطبيعة الحال ـ لن تجد مبررا يمكن أن يشفع لبقاء كلمه ، هى فقط نقيض كلمة أخرى بامكاننا أن نضيف أحرفا للكلمة نفسها بما يدل على نقيضها . خذ مثلا كلمة « طيب » . ماحاجتنا لكلمة كاملة مثل كلمة « سىء » . لتدل على عكسها ؟ اليس فى أضافة حرفين أثنين للكلمة الاصلية مايؤدى نفس الغرض ، فتصبح « لا طيب » ؟ نفس الشىء بالنسبة لسائر الكلمات الشاردة التى يمكن التخلص منها مثلا . «ممتاز» و «رائع» كدرجات تبين قوة كلمة «طيب» يمكن ببساطة أضافة حرفين لتصبح « جد طيب » بدلا من ممتاز و « جد طيب جدا » بدلا من «رائع» كلها أضافات لنفس الكلمة « طيب » ، دون حاجة لشغل القاموس بجيش من الكلمات التى لامبرر لوجودها . طبعا نحن الان نستخدم هذه المصطلحات الجديدة الى حد ما . لكن مستقبلا ـ فى النسخة المعدله للقاموس لن تستخدم الا اللغة الجديدة . ستجد فى آخر طبعة أن نوازع «الخير» و «الشر» جميعا تغطيها ستة كلمات لا غير ، هى فى الواقع واحده أصليه تسبقها أو تعقبها اضافات .

ألا ترى الجمال فى خلق هذه الصيغ الجديدة ياونستون ؟ ... «ثم أضاف مستدركا بعد فترة تفكير قصيرة : «بالطبع الفكره كلها فى التغيير .. ترجع الى الزعيم .. طبعا» .

رسم وينستون على محياه سيماء التشوق لصورة الزعيم عند ذكر أسمه . لكن سايم مالبث بعينيه الثاقبتين أن أدرك أن وينستون يعوزه التحمس للموضوع برمته .

« لا أعتقد أنك تقدر اللغة الجديدة حق قدرها .. » ... وأضاف بشىء من الاسى «أنت حتى عندما تكتب بها ، كما اقرأ أحيانا لك مقالات جيدة فى « التايمز » ، تكتب كما لو كنت تترجم من اللغة القديمة . فى قراره نفسك حنين واضح للغة القديمة ، بكل عدم

الدقة التى تتسم بها ، وبكل مايكتنفها من ظلال المعانى والكلمات التى لامعنى لها . أنت لم تصل بعد الى استيعاب جمال عملية «تحطيم» الكلمات الزائده .. لعلك تعلم ان «اللغة الجديدة» .. هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تتناقص مفرداتها عاما بعد عام .

وينستون لم يكن يعلم بالطبع . فعاد يرسم شيئا قريبا من الابتسام على شفتيه حتى يعفى نفسه من التعليق . قضم سايم قطعة خبز أخرى .. مضغها بسرعة ليواصل كلامه :

ألا تدرك أن هدف اللغة الجديدة النهائى هو تضييق نطاق الفكر ؟! ... على المدى البعيد نسبيا سنتمكن من وضع حد نهائى «لجرائم الفكر» لأن من يفكر فى أرتكابها لن يجد كلمات يعبر بها ، فكل مفهوم فكرى نحتاج لاستعماله سيعبر عنه القاموس (بكلمة واحدة) بمدلولها محددا تحديدا قاطعا ، وكل الكلمات التى تحوم حول المعنى سيكون قد تم استئصالها ، وطواها النسيان . فى الطبعة الحادية عشرة أقتربنا جدا من هذا الهدف . كانت المهمة تحتاج لوقت أطول بالطبع ، ربما يتجاوز مدى أعمارنا نحن أنا وأنت . كل سنة ستجد كلمات أقل فأقل ، ونطاق الوعى ـ عاما بعد عام ـ سيضيق . حتى فى زمننا الحالى بالطبع لا يوجد مبرر ، وليس هناك عذر أيا كان لارتكاب جرائم الفكر .. ما نهدف اليه هو خلق نوع من الانضباط التعبيرى .. نوع من الرقابة على تحويل الواقع الى كلمات ... مع تحقيق الهدف النهائى وأستقرار اللغة الجديده ، لن تكون هناك حاجة لاى رقابة .. اذ ستتم الثورة التعبيرية باستكمال ابتكار مفردات اللغة الجديدة لن تكون هناك حاجة لأى رقابة ... «فاللغة الجديدة» هى تعبير عن الـ «أنجشاك» .. والـ «انجشاك» .. هو لغة جديدة .

قال التعبير الاخير بما ينم عن تشبع روحى .. قبل أن يضيف : (هل تخيلت قط يا وينستون ، أنه بحلول عام ٢٠٥٠ على أقصى تقدير لن يوجد مخلوق على قيد الحياة فوق أرض «أوشانيا» يستطيع أن يفهم نفس اللغة التى نتخاطب بها «أنا وأنت» الآن .

بدأ وينستون رده بكلمة توضح شكه فى كلام رفيقه . « باستثناء ... » قال وينستون . لكن لم يكمل . كان على طرف لسانه جمله تقول « باستثناء البروليتاريا » لكنه كبح جماح نفسه ، لانه كان غير متأكد تماما ، مما اذا كانت ملاحظة مثل هذه يمكن أن تفسر بأنها غير مطابقة لتعاليم الحزب . غير أن محدثه ، كان قد أستشف مايود أن يقوله ، فأكمل : (أفراد البروليتاريا ليسوا فى عداد الادميين الذين يُعْتَد بهم) قالها بلهجة من

يتكلم عن كم مهمل) . بحلول عام ٢٠٥٠ . ربما قبل هذا التاريخ ، سيكون قد اختفى أى ألمام باللغة القديمة . سيكون قد تم القضاء على كل أدب الماضى . تشوسر ، وشكسبير ، وملتون ، وبايرون .. سيوجدون فقط فى طبعات اللغة الجديدة بعد تحويل أعمالهم ، ليس الى أعمال مختلفة عما كتبوه باللغة القديمة ، بل فى الحقيقة الى شىء مناقض لما أعتاد الناس أن يدركوه من أدبهم . حتى أدب الحزب نفسه سيتغير .. الشعارات .. نفس الشعارات ستتغير ، اذ كيف لك أن تردد شعار : « فى الحرية .. عبودية» حين تكون الحرية نفسها ـ كمفهوم ـ قد أنتهت تماما . كل الجو الفكرى فى الدولة سيكون قد تغير . أو بمعنى أدق لن يكون هناك ثمة فكر أصلا .. كما تعارفنا على هذه الكلمة الآن . وماحاجتك كمواطن ـ فرد ـ لان تفكر ؟

ألا تحيد عن خط الحزب معادل لان تتخلى عن فكرك الواعى .

(أثناء كلام رفيقه كان وينستون قد سرح فى موضوع آخر .. محدثا نفسه : « فى يوم من الايام .. لاشك أن سايم هذا سيتبخر ، لانه أذكى مما ينبغى .. لديه وضوح الرؤيه ولديه شجاعة القصد ، وصراحة القول ، صراحة أكثر من المسموح به . الحزب لايرحب بهذه الانماط . أكيد .. يوما ما .. هذا الانسان الذى يتحدث أمامه فى حماس .. سيختفى . مصيره ... مكتوب على جبينه . »

كان قد انتهى من تناول طعامه فاستدار ليحتسى قهوته ، الرجل ذو صوت البطة ، الجالس الى المنضدة خلفه ، يسارا ، كان لايزال يطلق قذائفه الكلامية . قبالته جلست فتاه تبدو سكرتيرته ، تصغى باهتمام لاى هراء يردده .. ولسان حالها الموافقة على كل كلمة تنطلق من بين شفتيه ، اذ بين الفينة والفينة يلتقط وينستون بعض الجمل التى ترددها كأجابات لكلامه : « أعتقد أنك على صواب » أنا متفقة معك على طول الخط» .. ترددها بصوت نسائى شاب ، لكن دون حيويه . والرجل يسبقه صوته .. لايتوقف لحظة واحده ، حتى ولا ليلتقط أنفاسه أو ليسمع ما تجيب به الفتاه .. أبدا .

عندما أستدار وينستون ، تعرف على ملامح الرجل ، لايعرفه شخصيا ، لكنه يعرف أنه مدير قسم الادب الروائى . فى حوالى الثلاثين من عمره . رقبته الغليظة نافره العروق ، يميزه فم واسع ، لايهدأ ، رأسه مائل الى الخلف قليلا ، مما جعل الضوء الساقط على نظارته يعكس لمعة عدستيها دون أن يظهر عينيه . لكن الشىء المثير حقا .. هو أنه من بين سيل الالفاظ التى تتناثر من فمه .. من الصعب عليك أن تمسك بتلابيب واحده منها لتفهمها .

مرة واحدة ربما أستطاع فيها ونستون أن يكمل سماع جمله واحده : « القضاء الكامل والنهائى على الجولد شتيه» حتى هذه الجملة أطلقها المتحدث كما لو كان يكتبها بسرعة فى سطر واحد غير مفصول الكلمات على الالة الكاتبة .. ثم تبعتها كلمات أخرى أقرب الى الضوضاء المضوغة ، مع صوت البط أياه : «كواك .. كواك .. كواك ..» لكن العجيب هو أنك حتى وأنت بالكاد تعلم كلمات متفرقة مما يقول ، تستطيع أن تستشف طبيعة حديثه ككل ، فلا بد أنه يدين جولد شستين : ولابد انه يطالب باتخاذ تدابير أقسى للرد على فظائع جيش «أوراشيا» . والاشادة بحكمة الزعيم أو بطولات جنودنا الاشاوس على جبهة مالابار ـ لافرق بين هذا الموضوع او ذاك ـ الاتجاه واحد . كلماته كلها نمطية .. مجرد ترديد لشعارات الـ «انجشاك» . أحس وينستون وهو يراقب فمه الكبير أثناء العملية السريعة لفتحه واغلاقه ، أن صاحبه ليس انسانا حقيقيا من لحم ودم ، بل هو أقرب الى دميه تعمل بواسطة جهاز داخلى يحركها .. ان الكلمات هنا لاتصدر عن عقل بشرى ، لانه يبدو أن حنجرته قد أعلنت أستقلالها عن عقله .. تخرج الالفاظ منها أوتوماتيكيا دون المرور عليه .. صحيح أن ما كان يصدر عنها كلمات ، لكن ليس بالامكان تسميتها حديثا بالمعنى الصحيح ، الاصح أنها كانت ضوضاء تصدر عن لا وعى .. كزعيق بطه مروعة تماما .

ظل سايم صامتا لبرهة ، يعبث بملعقته فى بقايا اليخنى ، والصوت القريب منهم مضى بنفس الطريقة يعلو على كل ضجيج . ثم عاد سايم يقول : (هناك كلمة فى اللغة الجديدة أسمها «وقوقة» نسبة الى مايصدر عن البط من .. واق ... واق ... واق . وكلمة «وقوقة» فى القاموس على شىء من الطرافة ، لانها عندما تستخدم كصفة لعدو تعتبر سخرية منه . وعند نسبتها الى من يتفق معك فى الرأى تعطى معنى المديح » .

« بالتأكيد ... بالتأكيد ... سايم هذا سيتبخر ... » . عاد الخاطر يداعب فكر وينستون .. خاطر محزن ، برغم وعى وينستون ، ان سايم لايكن له ودا حقيقيا ، أو ربما أحتراما أقل ، بل أنه على استعداد ان يشهد ضده كأحد مقترفى جرائم الفكر ، اذا ما رأى داعيا لذلك . كان هناك شىء خاطىء فى شخصية سايم . صفات تنقصه : (التعقل ... العزله .. وقليل من الغباء ، المنقذ . لايمكن وصف سايم ، فى الحقيقة ، بأنه ليس نمطيا فى

تفكيره الحزبى ، فهو مؤمن بتعاليم الـ «أنجشاك» ، ... يجعل الزعيم ، يطرب لانتصاراته . يكره المهرطقين والمرتدين ، ليس فقط عن صدق ، بل بحماس فوار . معلوماته العقائدية وفق أحدث ما يصدره الحزب ، مستوى لايقترب منه عضو الحزب العادى .

لكن هناك ظلا خفيفا من ظلال الشك لابد أن تقال . يقرأ كتبا أكثر مما ينبغى . يتردد على «مقهى شجرة الكستناء» بكثرة ، مقهى يعتبر مقرا للفنانين التشكيليين والموسيقيين . صحيح .. ليس هناك ثمة قانون يمنع صراحة التردد عليه .. بل وحتى العرف لا يمنع ذلك .. لكن المكان بصفة عامة سيء الانطباع على من يدمن الذهاب اليه .. لكل أقطاب الحزب ممن أدينوا وسلخوا عن الحزب أعتادوا التجمع هناك قبل أن تشملهم حركة التطهير . جولد شستين نفسه كما قيل كان أحد زبائنه القدامى منذ عشرات السنين .. لم يكن يصعب اذن التنبؤ بالمصير الذى ينتظر سايم .

ومن ناحية أخرى فان وينستون يعلم عن يقين ، أنه لو قدر لسايم أن يلم بما يجول فى خاطره الان من افكار صامته ، لما تردد ثانية واحدة في أن يشى به للبوليس السياسى ، ومع أدراكه أن هذا أمر طبيعى ، متوقع من أى من أعضاء الحزب ، الا ان النزعة لخدمة الحزب لدى سايم نزعه حماسية أكثر من غيره . لكن أترى يكفى الحماس وحده ؟ ان هذا الحماس مع فكر نمطى متحجر .. يعادل اللا وعى .

أنتبه سايم لوجود شخص فى المقصف ، فقال «ها قد وصل بارسونز» قالها كمن يريد أن يقول «ها قد حل بنا النكد بقدوم هذا الغبى» . وبارسونز ، جار ونستون فى بنايات النصر ، كان بالفعل يشق طريقه بصعوبة فى الزحام ، رجل مرفوع القامة ، بدين دون أفراط ، أشقر الشعر ، ضفدعى الملامح ، فى الخامسة والثلاثين ، لكن السمنة واضحة فى رقبته المثقلة بالدهن وكذلك فى وسطه ، ومع ذلك فحركته سريعة ونشطه وعفوية أيضا . منظره ككل يشى بمنظر طفل كبير الحجم . فبرغم الزى المقرر من بذلة العمل الزرقاء وخلافه ، تشعر أنك أمام ولد فى مدرسة أبتدائية ، يرتدى البنطلون القصير والقميص الرمادى المميز للكشافة ، والمنديل الاحمر حول الرقبة كأشبال المخابرات . بل ان بارسونز يرتدى فعلا البنطلون القصير عندما يجد مبررا لذلك فى معسكرات الحزب الجماعية أو عند أنغماسه فى أى نشاط بدنى .

لمحهم .. فحياهم مرحبا «هالو .. هالو» وقصد اليهم وجلس الى نفس المائدة . بقدومه فاح المكان برائحة عرق نفاذة ، بينما كست وجهه المشرب بالحمرة حبيبات العرق

الصغيره . قدرة هذا الرجل على أفراز العرق رهيبة . فى غرفة الرياضة بمبنى المركز الاجتماعى ، اذا لمست مقبض مضرب البنج بونج ووجدته مبللا فليس لك ان تشك فى أن بارسونز كان يلعب منذ فترة .. عند جلوسه كان سايم يتفحص عامودا من الكلمات كتبها على قطعة من ورق امامه ، فابتدرهما بارسونز قائلا (يعمل .. حتى فى وقت الغذاء .. أنظر اليه .. منهمكا فى العمل حتى فى هذا المكان .. ما الذى يشغلك الآن .. ربما أشياء معقدة بالنسبة لنا .. هه ...» ثم زغد وينستون فى كتفه قائلا : « أين التبرع الذى وعدتنى به .. هه .. يارفيقى العزيز .. أما تعلم أنى أطاردك منذ مدة لاقتناصه منك ؟»

شعر وينستون أن المسألة ، مسألة فلوس . فأجاب بسرعة .. أى تبرع هذا ...؟»

(ان نصف المرتب يجب ان يدفع فى تبرعات أختيارية يبلغ من كثرتها أنه يصعب على المرء ان يتذكرها جميعا) .

تبرع «اسبوع الحقد» ياوينستون .. المبلغ الذى نجمعه من كل منزل فى منطقتنا لاقامة العرض الضخم . نحن نبذل أقصى ما فى جهدنا يارفيق .. وأنى أعدك أن بنايات النصر ، برغم قدمها ستحصل على أكبر كمية من الاعلام الفائزة فى العرض . الم تعدنى بدولارين لـ «أسبوع الحقد» ؟»

نقده وينستون ورقتين من فئة الدولار ، عليهما آثار شحم ، قذرتين ، قيدهما بارسونز فى دفتر صغير بخط يد رجل لايجيد الكتابة .

على فكرة يا صديقى ، سمعت عما أرتكبه الشيطان اللعين ابنى فى حقك .. مسأله النبله وقذيفة المطاط .. لقد ضربته ضربا مبرحا على سوء سلوكه ، وهددته اذا تكرر هذا منه ، فسأنتزع منه هذه النبلة اللعينة ...»

أجاب وينستون : « ربما كان الولد فى حالة ضيق لعدم أستطاعته الفرجه على عمليات الاعدام .

أبتهج بارسونز لهذه الاجابة ، فقال : فى الواقع هذا يوضح ، رغم ما بدر من الاولاد .. أن روحهم المعنوية عاليه . يالهم من اوغاد أشقياء بالفعل . ليس الولد الكبير ... انما الولد والبنت كل تفكيرهم مكرس للحزب «وأشبال المخابرات» .. هذا طبيعى فى الواقع ، أما عن ذكائهم ووعيهم .. فحدث ولا حرج . هل تعلم ماذا فعلت ابنتى الصغرى السبت الماضى ، عندما كانت فصيلتها من الاشبال فى رحلة خلوية ، تركت المعشر وأصطحبت بنتين معها وأنطلقن يطاردن رجلا غريبا لساعات طيلة بعد الظهر . لاحقنه لساعتين

كاملتين . من بيرهامستيد حتى قرية أمر شام . حيث أمسكوا به وسلموه للسلطات .

أخذ وينستون وسأل قلقا .. ! لكن لماذا لاحقنه ؟

استمر بارسونز مفاخرا .

«تأكدت طفلتى من أنه واحد من الاعداء بشكل ما ، ربما أسقط بالباراشوت ، مثلا .. لم لا ؟ لكن النقطة المهمة - ياعزيزى - هى كيف لفت أنتباهها هذا الرجل كعميل للاعداء . لاحظت أبنتى أنه يرتدى حذاء مخالفا للاحذية المعتادة للناس . فهى لم تر شخصا يرتدى مثله . اذن فالاحتمال انه عدو وأجنبى .

تصرف ذكى لطفلة فى السابعة .. أليس كذلك ؟

فسأل وينستون :

«لكن ماذا تم بالنسبة للرجل ؟»

« لا أدرى بالضبط لكنى لن أدهش اذا ....»

وقام بارسونز بتمثيل الاعدام رميا بالرصاص بيديه ولسانه .

جميل ... كان تعليق سايم وهو مازال ينظر الى أوراقه .. وكان لزاما على وينستون ان ينطق بتعليق ما فقال فى تثاقل «طبعا .. فنحن لسنا فى موقف يحتمل التأويلات ...» وعاد بارسونز ليوضح :

« نحن فى حالة حرب .. هذا ماقصدت أن أوضحه »

وكأنما استجاب جهاز السينما التليفزيونية لكلامه ، فانطلق على الفور صوت البوق من الشاشة التى يجلسون تحتها ... هذه المره لم يكن لاعلان نصر عسكرى ، بل مجرد بيان من « وزارة الوفره » .. اذ انطلق صوت شاب متحمس (أيها الرفاق .. أنتبهوا .. أيها الرفاق .. هناك أنباء عظيمة نعلنها عليكم .. لقد حققنا النصر فى معركة الانتاج . فبعد مراجعة كافة الاحصائيات لكافة أرقام الاستهلاك لجميع الفئات ، تحقق لنا أن مستوى المعيشة قد ارتفع بما لايقل عن ٢٠٪ عن العام الماضى).

فى جميع أرجاء «اوشانيا» أنطلقت مظاهرات تلقائية لم يكن بالمستطاع السيطرة عليها ، أنطلق مئات الالاف من العمال من مصانعهم وقاموا باستعراضات تلقائية عبر الشوارع حاملين أعلامهم ولافتات شعاراتهم معبرين عن أمتنانهم العميق للزعيم الكبير وعرفانا بالحياة المشرقة السعيدة التى هيأها لنا بقيادته الحكيمة .. والآن الى بعض الأرقام التى توضح ما نقول ....

فى مجال المنتجات الغذائية حققنا ....

وترددت جملة «حياتنا المشرقة السعيدة» عدة مرات أخرى كأنها أحدى الاغانى المفضلة لوزارة الوفرة .

وما أن شد صوت البوق أنتباه بارسونز حتى جلس مسمرا أمام الجهاز فاغرا فاه فى دهشة بالغة وأحترام عميق لما يسمع ، لكن الملل بدأ يصيبه عند تزويد تلك الأرقام المعقدة التى لايحب الغوص فيها ، لكنه مقتنع فى النهاية أن ما يقوله المذيع هو دليل على الرخاء الذى يحكى عنه ، وهو مبعث للاحساس بالرضى ، أخرج غليونا كبيرا يفتقر للنظافة نصف التبغ الموجود به محروق . فنصيب الفرد من التبغ أسبوعيا لايتجاوز مائة جرام ولاتكفى لأن تملأ الغليون الى حافته . بينما تابع وينستون البيان وهو ممسك أحدى سجائر «النصر» وهى فى وضع أفقى . إذ لن يتسلم نصيبه الجديد وفق بطاقته التموينية الا غدا ، ولم يبق معه الا أربع سجاير يجب أن يكون حريصا عليها . أصم أذنيه عن أى ضوضاء فى القاعة وركز أنتباهه لما يقال عبر شاشة الجهاز . فوجىء بان هناك ثمة مظاهرات فعلا لشكر الرئيس حتى على رفعه نصيب الفرد من الكاكاو الى عشرين جراما كاملة « ان اعلان الحكومة بتخفيض نصيب الفرد من ثلاثين الى عشرين جراما قد صدر أمس فقط » . حدث نفسه فى صمت .

حتى سايم ، بتلك العملية المعقدة التى يمر بها العقل البشرى من الايحاء بالشىء ونقيضه فى آن واحد بشىء من ثنائية العقيدة ، بدا أنه يهضم هذا الكلام الذى يذاع .. أترى قد كتب عليه .. هو وحده .. أن يتمسك بقدرته على التفكير .. وأن يتذكر ؟!

مضى الصوت الجهورى يصب سيلا من الارقام الخيالية للانتاج .. فبمقارنة أنتاج أوشانيا بانتاج العام الماضى .. يتضح أن هناك ملابس أكثر ... أثاثا منزليا أكثر ... أوانى منزلية أكثر ... وقودا أكثر ... سفنا أكثر .. طائرات هيلوكوبتر أكثر .. كتب أكثر .. أطفال أكثر ..

أكثر فى كل شىء الا الفقر والجريمة والجنون .. فمع كل سنة .. بل مع كل دقيقة .. كل شىء فى ارتفاع سريع باهر . كان وينستون يسلى نفسه وهو يسمع أخبار الوفره الغامره بملعقته التى التقطها من فوق المنضده وأخذ يقلب بها ما تبقى من يخنى أصبح منظره مقززا بعد أن برد ، بينما أنصرف عقله الى تأمل ـ دون رغبه منه ـ التفاصيل المادية التى تكون نسيج حياته . هل كانت الاشياء دوما بنفس هذه الصورة التى يراها هو عليها ؟

هل كان الطعام منذ القدم ، هو نفسه الطعام بلا طعم الذى أعتاد عليه ؟

تفحص فى تأن أرجاء المقصف الذى يجلس فيه ، كان ضيقا ، مزدحما خانقا ، بهت طلاء جدرانه من كثرة ما أحتكت الاجسام بها . موائد باليه متراصة بطريقة تجعلك تحتك بكوعك عند الحركة مع من حولك ، لشدة تلاصقها ، ملاعق معوجة غير مستقيمة الايدى ، صوانى طعام منبعجه ، أقداح شراب خشنة الملمس ، أفتقار للنظافة واضح فى كل شىء ، بقايا شحم الطعام اللزج ، يغطى الكثير من الموائد ، والصوانى والاقدام ، مكان يكتنفه خليط من روائح العرق النفاذه ، والقهوه الرديئة والخمر الاكثر رداءة ، واليخنى الاميل للحموضة ، يعتريك أحساس وأنت تغشى المكان ان معدتك تعاف كل شىء ، وتلح عليك الرغبة فى الخروج فى أسرع وقت ، وأحساس ما بأنك خدعت فى شىء سُلب منك لك كل الحق فيه . صحيح أن الانسان لايستطيع أن يتذكر انه مر بظروف أفضل . فعلى قدر ما تسعفه ذاكرته ، لايذكر ، انه قد حصل على مايكفيه من طعام ، ولا أرتدى يوما ملابس داخلية أو جوارب غير مهترئة ، ولا أستخدم يوما أثاثا الا وكان باليا تم اصلاحه أكثر من مره ، ولا أقام فى غرف الا ونظام التدفئة فيها أقل مما يحتاج اليه .. منازل أنهكها القدم ، القطارات مزدحمة ، الخبز أسمر داكن اللون .. الشاى نادرا ماتذوقه ، القهوه كريهة المذاق ، السجائر لاتكفيه ، لاشىء رخيص ومتوفر الا « جين النصر » .

كان يشعر أنه كلما تقدم به العمر ، كلما ازدادت هذه الاشياء رداءة وبشاعة . الم يكن هذا مؤشرا على ان مايحياه ليس كما يقال : « سنة الحياة الطبيعية » .

أليس طبيعيا أن يضيق صدره لما يلقاه من ندرة فى أحتياجاته ، لما يواجهه من معاناة وقذارة وقسوة ... من حياته التى أصبحت شتاء متصلا بلا دفء ، من التصاق جواربه بأقدامه ، من المصعد الذى لايعمل ، من قسوة الماء لاسع البرودة ، من خشونة الصابون .. من السجائر التى تخرج من صناديقها متقصفة ، من مذاق طعام بلا مذاق ..؟

لكن لماذا لاتسعفه ذاكرته بأن طبيعة الاشياء كانت تتمثل فيما هو أفضل مما يلقاه ؟ ثم لماذا هذا الاحساس بأن الحياه قد أصبحت غير محتملة .. اذا لم يكن قد مارس حياة أقل قسوه من قبل !

عاد يمسح أرجاء المقصف بناظريه مرة أخرى .. كل من فيه منظرهم قبيح . بل سيظل على ما به من قبح حتى لو أستبدلوا زى الحزب الموحد للجميع «الاوفرول الازرق» . وفى أقصى أركان المقصف جلس الى مائدة وحيدا رجل ملفت للنظر لشده

شبهه بالخنافس ، يحتسى قدحه من القهوة ، عيناه الباحثتان فى كل من حوله فيهما شك أكثر من مجرد الاستطلاع ، مقلتاه لاتستقران فى اتجاه واحد .

لو بدا أنه أمر سهل أن تتقبل صحة وسلامة النمط الجسمانى الذى يقرر الحزب أنه النمط الامثل ... فقط ... لايجب أن تنظر الى أجسام من حولك .. فالنمط الجسمانى الامثل

كما يراه الحزب : شباب مفتول العضلات ، فتيات رشيقات ممصوصات الصدور ، شقراوات ، يفضن بالحيوية ، خاليات البال ، بشرتهن برونزية من أثر الرياضة والشمس والانطلاق .

الحقيقة .. كما يراها وينستون .. فى خصام مع هذه الانماط . ما تراه عيناه فى معظم أرجاء « أوشانيا » : أجسام ضامرة الا فيما ندر ، خشنة المظهر ، شاحبة اللون من سوء التغذية . لذلك فقد بدا له غريبا أن تتكاثر الانماط الخنفسية الشكل فى المصالح الحكومية .

فهم أناس قصيرو القامة ، يميلون للبدانة المفرطة . بدانتهم ملازمة لهم منذ الصغر ، ذوو سوق قصيرة ، وحركات سريعة ، ووجوه أقرب للاستدارة والتفلطح نتيجة للسمنة ، تطل منها أعين صغيرة . نمط من الناس يبدو أنه يتكاثر فى ظل الحزب .

انتهى أخيرا بيان وزارة الوفرة .. بصوت البوق يزف للجماهير مرة أخرى ، انتصار الوزارة فى معركة الوفرة . أعقبته موسيقى شعبية . كان تعليق الاخ بارسونز ، وقد أنتابته حماسة مبهمة أثر ما أجتاحه من سيل الأرقام الفلكية ..

« لقد أنجزت وزارة الوفرة فى الحقيقة ـ انجازا بارزا هذا .. هذا العام .. » قالها وهو يهز رأسه هزة يبدو منها أنه قد فهم ماسمع . ثم أردف :

« على فكرة ـ ياوينستون ـ هل أجد عندك شفرة حلاقة . لا أدرى اذا كان بوسعك أن تستغنى عن واحدة منها ؟ »

بسرعة كرر وينستون أجابة سابقة :

« ولا شفرة واحدة .. أنا استعمل آخر شفرة طوال الأسابيع الستة الماضية كلها .. »

ـ : « هكذا لابأس على كل حال .. كل ما هنالك قلت لنفسى أسألك ربما أجد » .

ـ : « آسف يابارسونز »

غطى على صوتيهما وقوقة البط مرة أخرى ، فقد استأنف صاحبنا المجاور لهم ، بعد

أنتهاء البيان ، أستأنف نفس النمط من الحديث ، هذه المرة موضوع وفـرة الانتـاج ، وبصوت أعلى ، بعد أن أجبرته أذاعة البيان على أخذ هدنة . وبدون مقدمات ، سرح وينستون يفكر فى مصير « مسز بارسونز » .

هذه السيدة بشعرها الخفيف ، وحبيبات التراب المتراكمة بين تجاعيد وجهها ، لن يمضى عامان الا ويكون ولداها قد ابلغا البوليس السياسى عنها لأى شىء . قد يسترقان السمع لالتقاطه كدليل لعمل اقترفته ضد الحزب أو نظامه .. توقع أن يتم « تبخير » مسز بارسونز . وسايم أيضا سيختفى . وينستون نفسه سيتبخر . أوبرايان .. نفس المصير وهو متأكد ، وعلى النقيض ، أن إنسانا مثل بارسونز هذا لن يتبخر .. وكذلك الانماط الخنفسية التى لاتكل ولا تمل من الدوران فى دهاليز الوزارات .. هذه غير قابلة للتبخير أطلاقا ... أنماط باقيه ابد الدهر . أيضا تلك الفتاة فاحمة الشعر فى قسم الروايات لايمكن أن تختفى .. بدا له ان بامكانه أن يميز غريزيا من سيكتب له البقاء فى ظل النظام ، ومن سيطويه الموت ... فالنسيان . أما ما هو سر تحمسهم للبقاء ، فهو أمر ليس من السهل أن يجد له أجابة محددة .

فى لحظة ، قطعت سيل أفكاره الشارده . خبطة على كوعه ، اذ استدارت الفتاة فى المائدة المجاورة له لتلقى عليه نظره متفحصة ، كانت نفس الفتاة فاحمة الشعر . ما أن التقت عيناها حتى سارعت بتغيير أتجاه نظراتها .

لكنه متأكد أنها كانت تسلط عليه نظراتها الجانبية بتركيز ينم عن محاوله لاستطلاع أمره .

أرتعدت فرائصه فرقا ، وسرت فى جسده رعشة خوف ... لا ... ليس خوفا .. بل هو رعب .. حتى بعد أن تمكن من السيطرة على مشاعره .. تركت فى داخله أحساسا بالارهاق والفكر . لماذا تنظر اليه ... ؟ وهل نظراتها تتم وفق تخطيط سابق . ولماذا تتبعه ؟ ذاكرته لاتسعفه ـ لسوء الحظ ـ هل كانت هذه الفتاة موجوده قبل أن يدخل المقصف ، أم جاءت فى أثره ؟ لكنه يذكر أنها أمس ـ مهما كان ـ تعمدت أن تجلس خلفه بدون ما ضرورة ملحة لان تختار ذلك المكان بالذات فى جلسة «دقيقتى الحقد» . هل جلست خصيصا لتتلصص أو تتجسس عليه ؟ لتتأكد مما أذا كان يتحمس ويصرخ منفعلا بما فيه الكفاية أم أن نسبة حماسة فاتره ؟

عادت اليه فكرة كانت قد راودته من قبل .. ربما لاتنتمى هذه الفتاة للبوليس السياسى ، ربما كانت ـ وهذا خطر فادح فعلا ـ مجرد فتاة هاوية لاعمال المخابرات ، تخرجت من منظمة الاشبال وبدأت تمارس هوايتها بصورة عملية . أنه لايعلم على وجه الدقة منذ متى تراقبه ، ربما طيلة الدقائق الخمس الماضية كاملة ، ربما أفلتت منه بعض تعابير وجهه ، فتعبير الرضى المحايد الذى أدمن أصطناعه على وجهه يهتز منه أحيانا ، عندما تجتاحه أفكاره اللعينة ... امر بالغ الخطورة أن تندفع مع تيار افكارك فى مكان عام .. أو عندما تدرك انك فى مدى «رؤية» الجهاز .. أن أقل هفوة يمكن أن تكشفك . أى تقلص لا أرادى فى وجهك ينم عن شدة الضيق . نظرة لا مسؤولة عابرة تدل على التذمر .. امر بالغ الخطورة أن تستغرق فى الأفكار لدرجة تهمس لنفسك بكلمات ما .. أو أى أشارة يفهم منها خروجك على خط الحزب .. شذوذك الفكرى .. وإخفاؤك افكارا خطرة .. خطرة على الحزب .. وعليك .. أو أن تبدو شارد الذهن مثلا بينما المذيع يعلن أنتصارا باهرا .. هذا فى حد ذاته يعتبر جرما يستوجب العقاب . بل لقد تم نحت أصطلاح لمثل هذا السلوك فى اللغة الجديدة : أصلاح « جرماح » وهو أن تنبىء ملامحك بقصد أجرامى ضد الحزب .

أعتدلت الفتاة فى جلستها بحيث أصبح ظهرها له . لكن من الجائز أن الفتاة لا تلاحقه . أما جلوسها بالقرب منه مرتين متتاليتين خلال يومين ، فربما كان صدفة . كان قد نسى سيجارته مطفأة . فأبقى عليها لما بعد فترة العمل التالية . أفكاره تتلاعب به . اليس من المحتمل أيضا أن الشخص فى المائدة المقابلة له من الجانب الاخر أحد عملاء المخابرات .. وينتهى به الأمر الى قبو فى « وزارة الحب » ، فى غضون أيام على الاكثر .. كله جائز ... لكن لماذا يضحى بعقب سيجاره .

طوي سايم الورقة التى كان يطالع مافيها ووضعها فى جيبه ، بينما عاد بارسونز يطربهم بحديثه :

« نسيت أن أحكى ما فعله الاوغاد أبنائى فى تلك البائعة العجوز المسكينة فى السوق . شاهداها تلف قطعة سندوتش سجق فى ورقة تحمل صورة .. صورة من ؟ تحمل صورة الزعيم نفسه . فما كان منهما الا ان تسللا فى هدوء خلفها وأشعلا النار فى «ردائها»

من الخلف .. ذعرت المسكينة وأصيبت بحروق شديدة .. أطفالى الاعزاء الملاعين .. لقد دربوهم تدريبا حماسيا ممتازا فى « منظمة الاشبال » . ربما كان تدريبهم يفوق ماتلقيناه فى زماننا من تدريب . وتخيل أيضا بماذا زودتهم المنظمة لإتقان عملية المخابرات منذ الصغر ...؟ زودتهم بأبواق صغيره ، قادرة على تكبير الصوت الذى يراد التقاطه مرتين ليسهل الاستماع والتلصص . جربها أولادى أمس عبر ثقب باب غرفة الصالون ، اذ استمعوا الى كلامنا كله بوضوح . طبعا هى لعبة ة ليس أكثر .. لكنها فى الاتجاه الصحيح ... اليس كذلك ؟» .

أعفاه صوت صفارة حادة صادرة عن الشاشة من الاجابة . كان الصوت هو الاستدعاء المعتاد للجميع للتوجه فورا للعمل .. فقفز ثلاثتهم مسرعين لتبدأ معركة الكفاح من أجل مكان فى المصعد ، نظرا للازدحام المعهود .

وفقد وينستون ، عندما أنتصب واقفا ، عقب السيجارة الذى كان يدخره لفترة المساء ...

* * *

(٦)

فتح وينستون دفتر مذكراته وكتب :

«كان الوقت مساء ... منذ ثلاث سنوات .. فى أحد الشوارع الجانبية الضيقة قرب أحدى محطات السكة الحديدية الرئيسية . أمرأة تقف فى مدخل أحد المبانى تحت أحد المصابيح الذى يلقى بذبالة ضوء شاحب على الشارع ، وجهها فيه شباب . لكن يغطيه مكياج صارخ ، مكياج أحبه لانه كسى الوجه ببودره جعلته ناصع البياض ، وشفتين أصطبغت بالاحمر الوردى . نساء الحزب لايستعملن الماكياج أبدا . كان الشارع خاليا الا منهما ولا توجد شاشات أجهزة قريبة ترصد حركاته . أبتدرته قائلة : (٢ دولار) .

توقف عن الكتابة عندما وصل الى هذه النقطة من الحدث . أغمض عينيه ووضع كفيه على وجهه وضغط عليه بهما ، كأنما ليطرد عن ناظريه مايستعيده من صورة ماحدث بعد ذلك . أعترته رغبة جامحة فى أن يصرخ .. أن يطلق ما بداخل صدره الى الخارج .. أن يشتم .. أن يسب بكلمات مقذعة .. وبأعلى صوته .. أو أن يضرب رأسه فى الحائط حتى تدمى ، أن يقلب المنضدة التى يجلس اليها ، ان يلقى بالمحبره من النافذ .. ان يرتكب عملا صارخا مؤلما له أو لغيره .. حتى يطمس معالم تلك الذكرى التى تؤلمه .

ان أعدى أعدائك ياوينستون .. هو جهازك العصبى ، لأنه فى أى وقت معرض لأن يترجم ما تعانيه من توتر حاد فى داخلك الى أعراض ملموسة وظاهرة للعيان . تذكر منظر رجل مر به فى الشارع منذ اسابيع . مجرد رجل عادى المظهر ، عضو بالحزب ، عمره حوالى الخامسة والثلاثين أو الاربعين ، نحيف وأميل الى الطول يحمل حقيبة جلدية فى يده . كان يبعد عنه أمتارا قليلة . واذ كان على وشك أن يمر به ، لاحظ أن الرجل تنتابه حركة عصبية فى عضلات الجانب الايسر من وجهه ... كانت حركة سريعة تشبه الرعشة .. أستغرقت لحظة ، كأنك تضغط على ذراع آله تصوير ، ومن الواضح أنها احدى لازماته التى أعتاد عليها . تذكر الخاطر الذى أنتابه عند رؤيته هذا الرجل وقال لنفسه ، « هذا الرجل المسكين فى حكم المنتهى » . وشعر بالرهبة لأن حركة الرجل غالبا لا شعورية . بالمثل فأكثر الأعراض خطورة فى هذا الزمن ياوينستون ، أن تتكلم أثناء نومك ، عندما يضعف عقلك الواعى ويطفو الى السطح كل ما يخالجك من نوازع . أجهد نفسه ليجد ضمانا يحميه من هذا الاحتمال ... فلم يجد .

أخذ نفسا عميقا ثم واصل الكتابة : « مشيت معها عبر أحدى البوابات ، ثم عبر الفناء ونزلنا الى أحدى الغرف فى الطابق السفلى من المبنى تقود الى مطبخ فيه أحد الاسرة ، يستند الى الجدار بالقرب منه منضدة عليها أحد المصابيح وقد خفضت أضاءته الى ما يشبه التعتيم .. أما هى فـ .....»

توقف ، وكاد أن يبصق وأخذ يصر بأسنانه .. فى نفس الوقت الذى كان ملازما فيه للمرأة كان يفكر فى كاترين ... زوجته ، فهو متزوج أو كان متزوجا ، فى الماضى بمعنى أصح ، وربما مازال زوجا حتى الان ، لأن زوجته على قدر علمه ، لم تمت بعد .

استعاد رائحة المطبخ فى البدروم ، رائحة الدفء الناتج عن سوء التهوية ، مزيج من رائحة الملابس القديمة والحشرات ، والعطر الرخيص . لكنها رائحة تستثير أحاسيسه برغم ذلك فنساء الحزب لايتعطرن ، ولا حتى من المحتمل أنهن يحاولن الاقتراب من العطور .. فقط نساء البروليتاريا . وهو لايعلم لماذا لايستطيع أن يفصل فى مخيلته بين العطر وممارسة الجنس .

كانت هذه أول مرة يصاحب فيها أمرأة منذ سنتين تقريبا . فالاختلاط بالمومسات ممنوع تنظيما . لكنك تجد فى الغالب نفسك مدفوعا لعدم الالتزام بالمنع التنظيمى من حين الى حين . كانت مخالفة جسيمة الى حد ما ان تضبط .

لكن خطورتها لاتصل الى حد مسائل الحياة والموت . اذا ضبطت متلبسا ، فالعقوبة التى تنتظرك قد تصل الى خمس سنوات فى معسكر العمل الاجبارى . ولن تزيد العقوبة عن ذلك مالم تكن قد أرتكبت جرما أخطر .. وتلافى أحتمال القبض عليك متلبسا لم يكن صعبا . الاحياء الفقيرة كانت تزدحم بنساء يتاجرن بأجسادهن . بل بامكانك الحصول على أمرأة من هذا النوع لقاء زجاجة «جين» ، اذ المفروض ألا تحتسيه البروليتاريا . الحزب فى الواقع ـ كان يشجع البغاء ضمنيا كتفريغ لكل تلك النوازع التى لايمكن قمعها طول الوقت .

فالجنس فى حد ذاته ـ لم يكن أمرا ذا بال ، شريطة أن يكون مختلسا دون استمزاج يولد متعة حقيقية ، ومسموح به فقط لنساء الطبقات الدنيا أو النساء المغمورات . أما الجريمة التى لاتغتفر حقا فهو الاتصال الجنسى غير المشروع بين أعضاء وعضوات الحزب . وان كان فى محاكمات التطهير الحزبية ، لاينكر الأعضاء مثل هذا الاتصال ، غير أن الحزب يجد صعوبة فى مجرد تخيل حدوث هذا الامر .

ان هدف الحزب ـ فيما يتعلق بهذا الموضوع ـ ليس أن يمنع فقط الرجال والنساء من أقامة علاقة يكون انتماء كل طرف فيها للآخر أقوى من أنتمائه للحزب ، وهو أمر لايمكن ضبطه تنظيميا بل ان هدف الحزب يتجاوز ذلك الى تجريد الاتصال الجنسى من نشوة المتعة . فليس الحب عدوا حقيقيا للحزب .. العدو الحقيقى هو تلك المتعة فى الفعل الجنسى التى تتصاعد فى أحساس المرء لتصل الى النشوة الخالصة . فالحزب ضد هذه المتعة الحسية المجرده سواء فى علاقة الحب أو علاقة الزواج . فكل الزيجات التى تمت بين أعضاء وعضوات الحزب ، يجب أن تعرض قبل اتمامها على لجنة حزبية متخصصة ، تستبعد على الفور الموافقة على زواج عضوين ، من الواضح أن هناك تقاربا جنسيا بينهما . الهدف الوحيد المعترف به فى قانون الحزب للزواج هو انجاب الاطفال ليقوموا بخدمة أغراضه .

بالتالى كان ينظر الى الاتصال الجنسى كعملية مقززة يجب أن لاتختلف كثيرا عن أخذ حقنة شرجية ، كلاهما يتم من أجل هدف ، وليس هدفا فى حد ذاته . لكن هذه الفكرة لم يكن يعبر عنها حزبيا فى كلمات صريحة ، انما يتشربها الرجال والنساء من أعضاء الحزب منذ الصغر بشكل ضمنى غير مباشر . بل أن هناك منظمات مثل «منظمة الاشبال» لمقاومة السلوك الجنسى» تنادى بالعزوبية للجنسين طول العمر .

بالامكان ـ بالنسبة لانجاب الاطفال ـ كما تنادى تعاليم المنظمة ـ انتاجهم بواسطة التلقيح الصناعى ، حيث يسلمون بعد ذلك لمؤسسات الحزب التى يعهد اليها بتنشئتهم على المبادىء السليمة .

وكان وينستون يدرك بالطبع أن وجهة النظر هذه ، لم تكن لتؤخذ مأخذ الجد من قبل الدولة ، لكنها تتمشى مع الخط العام للحزب ، ومع مرحلة العمر التى يمر بها الاشبال . فالحزب يحاول بطريقة أو بأخرى ان يقضى على اى امتاع حسى بين الشاب والفتاه ، فان لم يتمكن من القضاء عليه تماما ، فأنه يلجأ الى تشويه صورة الجنس ، كعمل قذر . ولا يدرك وينستون سر الاصرار على هذا الاتجاه ، لكن الامر يبدو بشكل ما ، متفقا مع الطابع العام للحزب .

وقد نجح الحزب الى حد كبير فى غرس هذا الاتجاه مع نساء الحزب دون الرجال .

.... عاد يفكر مرة أخرى فى كاترين . بدا أنه قد انقضت تسع .. بل عشر ... لا بل احدى عشرة سنة منذ أفترقا . غريب أنه لايفكر فيها الا نادرا . الأغرب انه لعدة أيام كاملة كان قد نسى تماما أنه كان متزوجا من قبل . لم يستمر زواجهما فى الواقع الا خمسة

عشر شهرا تقريبا ، ولم يوافق الحزب كما هى العادة ـ على طلاقهما ، لكنه لايمنع بل قد يشجع عمليات الانفصال فى الحالات التى لايكون الطرفان فيها قد انجبا اطفالا ..

كانت كاترين فتاة شقراء الشعر ، طويلة ، منتصبة القامة ، رشيقة الخطوة ، حركاتها عموما فيها جمال ما . أما وجهها فكان وجها ذا كبرياء ، حتى لقد تظنه وجها نبيلا . الى أن اكتشفت وينستون أنه لا ينبىء عن شىء متميز ..

آمن أن النجاح فى ممارسة الجنس ، كما يجب أن يمارس ، هو فى حد ذاته ثورة انسانية . الرغبة الجنسية ، فى عرف الحزب ، جريمة فكرية ، فحتى لو أنه استطاع أن يوقظ حواس كاترين ، على فرض أنه تمكن من ذلك ، فإنه ذلك خليق بأن يعتبر جريمة اغتصاب للمرأة .. لزوجته .. « اغتصاب فكرى » .

تجربته المؤلمة ، قطعت عليه حبل أفكاره ، فعاد لتجربته يصبها على الورق :

« أضأت المصباح فى المطبخ . غمر النور المكان . عندئذ تبينت تفاصيل وملامح المرأة فى الضوء القوى .. »

للمرة الأولى منذ قابلها تمكن من رؤية المرأة بوضوح وعن قرب . تقدم منها خطوة وهى مستلقية على السرير ثم توقف ، يملؤه خوف ورغبة . أصبح على وعى كامل بالمغامرة التى يقدم عليها . فمحتمل جدا أن أحدى الدوريات كانت تمر فلمحته وتتبعته ، ورجالها فى انتظاره الآن خارج المكان ، حتى لو خرج دون أن يمارس الجنس فان الـ ... » لكنه عاد ليواجه نفسه بحقيقة ما حدث دون ما رآه .

أنه لم يفكر فى الدوريات حقيقة . الموقف الصعب الذى وجد نفسه فيه .. هو أنه فوجىء بالمرأة التى أمامه .. امرأة عجوز ، أخفت سنها بالمكياج الثقيل ، ان كثافة المساحيق فوق وجهها عندما اقترب منها بدت كقناع من البلاستيك ، خشى ان يتكسر اذا حركت عضلات وجهها . وشعرها برغم صباغته تتخلله شعيرات بيضاء . والأدهى والأمر أنها عندما فتحت فمها لتتكلم ، أكتشف أنه أشبه بكهف أسود .. مجرد تجويف بلا أسنان .

وعاد يصب معاناته على الورق :

عندما تبينت ملامحها فى الضوء ، أكتشفت ان سنها الحقيقى لايمكن ان يقل عن خمسين سنة ، أمرأة عجوز ..

القى بالريشة ، وأخفى وجهه بين راحتيه ، وعاد يضغط بهما عليه . حتى بعد أن أفرغ ما عاناه على الورق ، بقى أحساسه كما هو . لم تنفع الكتابة كعلاج ، مازال يشعر برغبة جامحة فى أن يصرخ وأن يسب وبأعلى صوته .. يسب العالم كله .. بكلمات قذرة . احساس لم يشعر به جامحا كما يشعر به الآن ... و .... و .... وصمت .

* * *

(٧)

عاد وينستون الى مذكراته :

« اذا كان هناك ثمة أمل .. فهو فى البروليتاريا »

أجل ... اذا كان هناك أمل بالفعل ، فلابد أن يبزغ من جموع البروليتاريا .. من هذه الجموع المتراصة من البشر ، وهى المطحونة ، والمهملة .. يمكن أن تتولد تلك القوة القادرة على تحطيم سطوة الحزب ، لايمكن الإطاحة بالحزب من الداخل ، فاعداء الحزب من أعضائه ، ان كان صحيحا أن له أعداء من أعضائه ، ليس على فرض وجود جمعية «الاخوة» الاسطورية هذه ، فليس من المحتمل ـ مجرد أحتمال ـ أن تكون لدى أعضائها القدرة على عقد أجتماعات تضم أكثر من عضوين أو ثلاثة أعضاء على أقصى تقدير .. ان الثورة ـ أى ثورة ـ تحتاج الى اللقيا . الى أندلاع الشرارة بين الاعين وعبر اهتزازات الاصوات الرافضة المتحمسة . وجماعة «الاخوة» ـ ان وجدت ـ فأن أقصى ما يستطيعه أعضاؤها هو كلمه مهموسة تقال خطفا متوجسا ... لكن الطبقة العاملة ، لو قدر لجموع جماهيرها أن تعى قوتها ليست بحاجة للهمس . ما تحتاجه فقط هو أن تنهض وتنتفض ... كحصان جامح ينهض من رقدته ليطرد ذبابا كان عالقا بجسده . لو أختاروا درب الجموع ، لأسقطوا الحزب غدا أشلاء ممزقة متناثرة .. أجل .. بالتأكيد .. أطال الزمان أو قصر .. لابد وأن تحدث هذه الانتفاضة .. ومع ذلك ...

تذكر يوما سار فيه فى شارع مزدحم ، حين سمع فجأة صوتا هادرا صادرا عن جمع من مئات النساء يتقدمن من شارع جانبى ، يبعد عنه مسافة بسيطة . صرخة غضب وبأس هائلة « أووه » ... عميقة وطويلة ومرتفعة ، أتسع مداها بين الجمع ، كصوت جرس ضخم يسرى فى الهواء المحيط . قفز قلبه بين ضلوعه ، اذ أعتقد أن الشرارة قد أومضت .. شغب ، هل تحطمت أغلال البروليتاريا أخيرا .

عندما وصل الى الشارع الجانبى شاهد حوالى مائتين الى ثلاثمائة امرأة متجمعات حول أحد الاكشاك الخشبية لبيع السلع فى السوق ، وجوههن حزينة حزن ركاب باخرة توشك ان تغرق .. لكن عند وصوله كان الاحباط الذين يجمعهن فى صوت واحد قد أندثر الى عديد من المشاجرات الفردية . اذ بداله أن سبب الشغب هو أن هذا الكشك كان يوزع

أوانى طبخ معدنية رديئة الصنع ، وسيئة الى حد بعيد ، لكن الاوانى المنزلية عموما كان من الصعب الحصول عليها لندرتها . والموقف الان ان البائعة ليس لديها « كاسارولات » . انتهت الكمية المسلمة اليها على غير ما تتوقع . النساء المحظوظات ممن حصلن ذهبت كل واحدة بغنيمتها ، بيد أن النسوة ممن لم يحصلن على شىء ، كن يصرخن متهمات البائعة بالمحاباة وعدم العدالة فى التوزيع ، وبالتالى دخلن فى معارك مع النساء الحاصلات على الكاسارولات . وبدا التجاذب ـ والتنازع وشد الشعر .. الخ . وقف وينستون أمام اثنتين منهن .. كل منهما تشد الكاسارولة من ناحيتها بعنف ، الى أن أنخلعت يد الكاسارولة لتسقط المرأتان على الارض .

راقب التصارع المهين .. فى قرف واحتقار .. ومع ذلك ، أحسن بقوة هذه الجموع عندما تغضب .. يالها من قوة رهيبة حقا صادرة عن صرخة واحدة لبضع مئات من النساء .

لكن لماذا لايصرخن من الاعماق من أجل هدف أسمى !!! الى أن تتسلح هذه الجماهير بالوعى . ولكنها لن تتسلح بالوعى ، الا عن طريق الثورة ...»

أبتسم بينه وبين نفسه ، فالصياغة التى كتب بها هذه الجملة فى مذكراته ، بدت منتزعة من أحد كتب الحزب نفسه . لكن فى نفس الوقت الذى يردد فيه الحزب هذه الافكار كانت تعاليمه تنص بالمثل على أن «الطبقات الشعبية » طبقات أقل فى المستوى الاجتماعى ، يجب حراسة مصالحها بواسطة رجال الحزب وذلك بأخضاع البروليتاريا لمجموعة معينة من القوانين تطبق على أفرادها بصرامة .. وذلك نوع من التعاليم يتمشى مع «ثنائية العقيدة» ويصورها .

بل أن المرء لا يعلم الا القليل عن البروليتاريا . فليس من الضرورى أن تعرف الكثير عنهم . فطالما ان افراد البروليتاريا تعمل وتتناسل فهذا يكفى .. نشاطاتهم الأخرى لاتهم . فنحن حين نتركهم يدبرون شؤونهم بأنفسهم كقطيع من الماشية أطلق فى سهول الارجنتين .. فأنهم بطبيعتهم سيعتادون أسلوبا من الحياة سيبدو طبيعيا بالنسبة لهم ، فى مساكن وضيعة يذهب العامل الى العمل فى الثانية عشرة من العمر ، ثم يمر بفترة أزدهار قصيرة حيث الاستمتاع بجمال الطبيعة وممارسة الجنس ، ثم يتزوج فى العشرين .. يصل الى منتصف العمر فى الثلاثين ، فى سن الستين على الاغلب ، يموت .. أما أفق

تفكيره فمحصور بين العمل اليومى الشاق الذى بطبيعته لن يتيح له وقتا طويلا للتأمل فيما حوله ، ثم الافلام المسلية .. والخفيفة والجنسية ، وكرة القدم . ورعاية الاطفال والشؤون المنزلية بالنسبة للمرأة .. وشرب البيرة وأخيرا القمار وهو أمر يشجعه الحزب لهذه الفئات فقط . ماذا بقى من طاقات هذه الطبقة أو اهتماماتها لتفكر فى أى شىء آخر ؟

ان تسيطر عليهم بعد ذلك ، ليس أمرا صعبا . بين صفوفهم يندس رجال البوليس السياسى لتهدئتهم أو امتصاص غضبهم ، ثم القاء القبض وتصفية من يعلو له صوت أكثر مما ينبغى ، أو الذين يشتم من وجودهم بعض الخطر . ليس فى مخطط الحزب أن يستهدف خلق مثل عليا او قيم نافعة لدى هذه الطبقة .. فليس من المستحب أن تمارس هذه الفئات السياسة بتوسع ، اذ يجب أن يظل النشاط السياسى للبروليتاريا فى حدوده الدنيا .. كل المطلوب منهم هو نوع من الوطنية الفجة التى لاتعنى بالتفكير المعقد ، ووطنية يمكن باستثارتها فيهم عند اللزوم أن يقبلوا ساعات عمل أكثر . ... أو أنصبة غذائية أقل عند الضرورة ، وحتى عندما تشعر البروليتاريا بالسخط من هذا الامر أو ذاك - كما يحدث أحيانا - فان سخطهم لايتطور الى ما هو أكبر .. لانه سخط أجوف لايستند الى مبادىء من الممكن ان توجهه . سخط يتمركز فى أهداف جزئية تافهة ، اما الشرور الحقيقية التى تكتنف حياتهم .. فتمر دون ملاحظة .. غالبية البروليتاريا ، ليس لديهم أجهزة السينما التليفزيونية فى بيوتهم .. وقوات البوليس العادية لاتتدخل فى منازعاتهم الا فى القليل النادر ، برغم وجود عالم كامل من الجريمة داخل لندن .. يضم اللصوص ، والمجرمين ، والمومسات ، ومهربى الافيون ، ومن يمارسون كافة أنواع الابتزاز المادى والجسدى . طالما ان هذا النشاط الاجرامى محصور بين أفراد البروليتاريا ولايتعداها ، فليست هناك مشكلة تستدعى التدخل .

فى كل مايتعلق بمسائل الاخلاقيات ، لهم أن يقتفوا أثر آبائهم وأجدادهم من قيم وتقاليد . والطهارة الجنسية المفروضة على أعضاء الحزب ليست مفروضة عليهم . لا عقاب على اى نوع من أنواع الاباحية فى الطبقات الشعبية .. الطلاق مسموح به . بل حتى ممارسة الشعائر الدينية مسموح بها أحيانا ، اذا شعرت السلطات بحاجة تلك الجماعة أو تلك اليها . فالبروليتاريا تحت مستوى الشبهات أو على حد قول شعار الحزب : « البروليتاريا والحيوانات .. لها أن تعيش حرة » .

أنزل وينستون يده الى أن وصلت الى مفصل قدمه ، ودعكه برفق حتى لايزيد التهاب عروقة . فقد بدأت تؤلمه وتستثيره لهرشها . وأنتقلت أفكاره تحاول مطاردة الماضى .. فهل من المستحيل ان نعلم كيف كان شكل الحياة قبل «الثورة» . أخرج كتاب تاريخ يدرسه للأطفال من درج مكتبه ، كان قد استعاره من مسزبا رسونز . وأخذ ينقل منه الى مذكراته :

« فى الزمن الماضى قبل الثورة المجيدة ـ لم تكن لندن هى المدينة الجميلة التى تعيشون فيها الآن يا أطفال . كانت مدينة مظلمة ، قذرة ، بائسة ، حيث كان الانسان يجد مايكفيه من طعام بصعوبة وحيث كان المئات بل الآلاف لايجدون حذاء يرتدونه ، ولا سقف حجرة يعيشون تحته . وكان الأطفال فى نفس عمركم يا أطفال ، مجبرين على العمل ١٢ ساعة فى اليوم لخدمة أسياد قساة القلوب ، يضربونهم بالكرابيج اذا تراخوا فى العمل ، ولا يطعمونهم الا الكسرة من الخبز والماء . لكن يا أطفال كان وسط كل هذا الفقر المريع ، بيوت ضخمة أنيقة يعيش فيها أناس أغنياء ، كل واحد منهم يقتنى حوالى ٣٠ خادما لرعاية شؤونه . هؤلاء الاناس الاغنياء ـ يا أطفال ـ كانوا يسمونهم الرأسماليين . كانوا مخلوقات سمينه كريهة المنظر ، مثل الصورة المواجهة لهذا الكلام . انظروا يا أطفال الى هذا الرأسمالى فى الصوره .. هل ترون هذه البدلة السوداء الطويلة التى يرتديها ، إنهم يسمونها فى زمن الرأسماليين «فراك» كما يرتدى الرجل الرأسمالى ـ كما هو واضح ـ قبعة عاليه لامعة تشبه ماسورة وابور الجاز ، كانت تسمى «القبعة العالية» . هذا كان زى الرأسماليين المستغلين ، ولم يكن مسموحا لاحد سواهم أن يرتدى هذا الزى . وكان الرأسماليون ـ يا أطفال ـ يمتلكون كل شىء فى العالم ، وكل الناس فوق هذه الارض كانوا عبيدا لهم . كانوا يمتلكون الارض ، البيوت ، المصانع ، وأموال العالم كلها . واذا فكر أحد فى عدم طاعتهم أو عارضهم ، يلقون به فى السجن ، أو يأخذون منه وظيفته ويتركونه يموت جوعا . وعندما كان الشخص العادى يتكلم مع الرأسمالى ، كان يجب عليه ـ يا أطفال ـ أن ينحنى له ، ويخلع قبعته من فوق رأسه ويخاطبه بكلمة (سيدى) .

لكن وينستون لم يكمل الجزء الباقى من هذا الوصف ، لانه قد سئم ترديده . فسيأتى حتما ذكر الاساقفة بأكمامهم الواسعة ، والقضاة بطيالسهم المميزة ، ثم وصف لوسائل التعذيب بكافة صنوفها وآلاتها الخشبية والمعدنية ، ووصف ولائم كبير الاساقفة . وتقبيل أقدام البابا .. لم يحو كتاب الاطفال طبعا تفاصيل ماشاع عن العرف القديم

الذى قيل أن له قوة القانون ، من أن كل رأسمالى له الحق فى أن يضاجع أية أمرأة تعمل فى مصنعه .

لكن كيف لك أن تكتشف كم الاكاذيب وكم الصدق فى كل مايكتب ؟

صحيح من الجائز أن الانسان العادى ، بصورة عامة الان يحيا حياة افضل ماديا من حياته فى فترة ما قبل الثورة . الدليل الوحيد على عكس ذلك هو الاحتجاج الاخرس فى داخلك .. الشعور الغريزى أن الظروف التى يحيا فيها ظروف لاتحتمل .. وأنه فى زمن ماكان الوضع مختلفا . صدمه ذلك الاحساس بأن الخصائص المميزة للحياة المعاصره الان ليس فقط قسوتها أو الخوف الذى يشيع فيها ، بل ببساطة ـ سطحيتها ... حياة بلا عمق ـ بلا أشراق .. وبلاحماس . فاذا تأملت صور الحياة حولك لن تكتشف فقط زيف مايقذفه فى وجهك جهاز السينما التليفزيونية ، بل أيضا بعدها تماما عما يدعيه الحزب من أهداف حياة يسعى لتحقيقها . فى مجالات كثيرة من حياة الناس ، فى أعضاء الحزب ، الحقيقة تخالف الصورة التى رسمها الحزب .. الواقع شىء آخر .. الواقع هو أن تكدح طول اليوم فى وظائف كئيبة ، أن تصارع من أجل مكان فى قطار الانفاق .. ترتق جوربا ممزقا ، أن تزدرد قرص سكرين لان غذاءك لايكفى ، وأن تحرص على أعقاب سجائرك لأن وزارة الوفره تقول أن السجائر متوفرة .

أن الأهداف الاستراتيجية العليا ، التى يرسمها الحزب شىء هائل جبار ، ومبهر .. عالم من الصلب والاسمنت المسلح ، ومن الالات الضخمة والاسلحة الرهيبة ـ دولة من المحاربين والمشتعلين حماسة .. يقتحمون المستقبل بخطى قوية صفا واحدا متراصا ، كلهم يؤمنون بفكر واحد يرددون شعارات واحدة ، فى عمل دؤوب مستمر .. يقاتلون وينتصرون .. ثلاثمئة مليون أنسان كلهم بنفس النمط .

أما الحقيقة فتعكس سيلا من صور منهارة ، مدن كئيبة ، جماهير لاتجد مايكفيها من الغذاء ، ألوف منها تجوب الشوارع دون حذاء كامل يستر أقدامها ، منازل قديمة مزدحمة يرجع تاريخها الى القرن التاسع عشر ، تفوح منها دوما رائحة الكرنب وهو الغذاء الرئيسى المقرر على الجميع ، ومايفوح من مراحيضها القذرة المهملة من روائح . بدا لوينستون أنه يرى صورة لندن كلوحة كبيرة تمثل فراغا وبقايا مدينة كانت . فى ركن من اللوحه يطل وجه مسز بارسونز الضامر ، وشعر رأسها الناحل . تشقى لاصلاح ماسورة بالوعة حوض المطبخ .

وعاد مرة أخرى ، يحك مفصل قدمه .. وصوت الجهاز يحاصره ... احصائيات .. احصائيات .. ليلا ونهارا ، أحصائيات تثبت بلغة الارقام أن المواطنين يحصلون على طعام أكثر وملابس أكثر ، منازل أفضل ، ووسائل ترفيه أكثر تقدما . ويعيشون سنين اطول ، يتقدمون صحيا وجسديا ، يزدادون قوة عاما بعد عام ، تغمرهم السعاده .. نسبة ذكائهم فى أرتفاع مستمر نسبة تعليمهم فى تقدم متواصل .. كل شىء أفضل مما كان عليه قبل الصورة .

وأنت لا تستطيع أن تثبت ، ولا حتى أن تنفى كلمة واحدة مما يصب فى أذنيك بالحاح .

يزعم الحزب مثلا أن أربعين فى المائة من البروليتاريا قد تم محو أميتهم . وأن هذه النسبة قبل الثورة لم تتجاوز ١٥٪ نسبة الوفيات فى الاطفال ١,٦٪ ، وقبل الثورة كانت تصل الى ٣٪ وهكذا .. وأنت ليس بوسعك أن تثبت لا هذا ولا ذاك . كأنك أمام معادله صعبة طرفاها مجهولان . بل من الجائز جدا ، أن كل كلمة مكتوبة فى كتب التاريخ أو حتى تلك التى تعتبر حقائق غير قابلة للجدل . من الجائز أن تكون بالفعل خيالا بحتا .

شعر وينستون أنه جد واثق من شىء واحد أنه ليس بامكانك أن تتأكد من صحة ، أو عدم صحة ، مايقال . فربما لم يكن هناك مخلوقات باسم الرأسماليين أصلا ، وأن العرف الذى يتيح لهم أغتصاب نساء مصانعهم قد يكون أكذوبة ، وأنه لم يوجد الا فى الخيال قبعات أسمها « القبعة العالية » فكل حدث يطويه الضباب . حقيقة ما حدث يمكن ان تمحى ، وينسى الناس الحقيقة ، ويبقى التزييف فى أضخم أكذوبة عرفها الانسان . مرة واحده فى حياته أستطاع أن يمسك بدليل مادى ، بعد حدوث الحدث ـ وهذا هو المهم ـ دليل مادى ملموس غير قابل للجدل لعملية تزوير تمت . أمسك بهذا الدليل فى يده لمدة نصف دقيقة . كان هذا عام ١٩٧٣ على الاغلب ... يتذكر التاريخ على وجه التقريب لانه تاريخ أنفصاله عن كاترين . لكن الحدث الذى تم تزويره وقع قبل ذلك بسبع أو ثمانى سنوات .

بدأت قصة هذا الموضوع فى منتصف الستينات ، فترة حركات التطهير الكبرى ، التى تمت فيها ازاحة قادة الثورة الاصليين ، والقضاء عليهم قضاء مبرما . ما أن حل عام ١٩٧٠ الا وكانت عملية التطهير أكتملت ، لتبقى صورة الزعيم وحده على المسرح السياسى .. باقى رفاقه من قادة الثورة قدموا للجمهور كخونة ورجعيين . جولد شستين لاذ

بالفرار ولجأ الى مخبأ سرى .. أما الاخرون فالبعض منهم .. لم يظهر لهم أثر على الاطلاق . ببساطة ، أختفوا .. والبعض الاخر قدم الى محاكمة صورية وطبعا أعترفوا بجرائمهم وصدرت ضدهم أحكام بالاعدام ، وتم تنفيذه . لكن كان ممن كتبت لهم الحياة بعد حركة التطهير ثلاثة : أسماؤهم على التوالى : جونز ، وايرونسون ، وروثرفورد . ولابد أنه كان عام ١٩٦٥ عندما قبض عليهم . وكما حدث فيما بعد لغيرهم ، أختفوا لمدة سنة تقريبا ، بحيث لم يكن أحد يعلم طوالها هل قتلوا أم مازالوا أحياء . ثم تم استدعاؤهم ليدينوا أنفسهم علنا بنفس الطريقة التى يتبعها الحزب . أعترفوا بالاتصال بدوله أجنبية . (فى هذا الوقت كانت الدولة الاجنبية المعادية هى أوراشيا) ، وأستنزاف الاموال العامة ، واغتيال عدد من اعضاء الحزب البارزين الموثوق فيهم ، والتآمر ضد الدولة والزعيم ، الذى تمتد زعامته للحركة الثورية قبل قيام الثورة بسنوات عديدة ، ثم أعترفوا بارتكاب جرائم تخريب ذهب ضحيتها مئات الالاف من المواطنين .

وبعد اعترافهم بكل ما اقترفوه من آثام - صدر العفو عنهم وأعيد تسجيلهم كأعضاء فى الحزب ، بل وعينوا فى مناصب ، وأن كانت مظهرية بلا سلطة حقيقية ، لكنها بدت للناس مهمة ، وقام الثلاثة بتحرير مقالات مسهبه فى (التايمز) .. قاموا فيها بتحليل أسباب أنحرافهم ، مع وعد قاطع بتصحيح مسارهم .

راهم وينستون بعد الافراج عنهم بفترة وجيزة يترددون على «مقهى شجرة الكستناء» ، وهو يذكر ما كان يخالجه من أعجاب ومن رعدة عندما كان يراقبهم وهم يتحركون ، بنظرات جانبية من عينيه ... رجال أكبر منه سنا .... أطلال عالم ، فهم تقريبا آخر الشخصيات العظيمة ممن عاصروا الايام البطولية لتأسيس الحزب . يحف بهم بريق العمل السرى والكفاح السياسى القديم ، وذكريات الحرب الاهلية . بل أعتقد وينستون آنذاك ، برغم حركة التعتيم التى كان الحزب قد بدأها بالنسبة لأى تاريخ قديم . أعتقد أنه قد سمع باسمائهم منذ تاريخ يتجاوز المرة الاولى التى سمع فيها باسم الزعيم . لكن رغم كل ذلك كانت النظرة ! اليهم هى أنهم خرجوا على القانون ، وأعداء الثورة ، ومنبوذون ، قدر عليهم بكل تأكيد ، أن سيطويهم النسيان بعد اختفائهم المتوقع خلال عام أو عامين . فمن يسقط بين براثن البوليس السياسى لن تكتب له النجاة من مصيره المحتوم ، طالت به الأيام أم قصرت .

كانوا عبارة عن ثلاث جثث تمشى على قدمين فى أنتظار تصريح الدفن . جاء مقعد وينستون بالقرب منهم فى المقهى . ولم يكن من الحكمة فى شيء الاقتراب من مثل هذه الشخصيات أو مخالطتها . جلسوا صامتين أمام كل منهم قدح من الـ «جين» محلى ببعض القرنفل الذى يشتهر .. ويتميز به هذا المقهى .. تأثر وينستون بمنظر روثرفورد من دون الثلاثة . كان أحد رسامى الكاريكاتير المشاهير .. أشعلت رسوماته الساخرة حماس الجماهير قبل وأثناء قيام الثورة . وحتى الان مازالت بعض رسوماته تظهر على صفحات «التايمز» وان كانت الان مجرد ظل باهت بلا روح لرسوماته السابقة النافذة والمؤثرة . رجل ضخم الجثة مخيف المنظر ، شعره كمعرفة الاسد .. مجعد رمادى اللون يغطى رقبته ، يتميز بوجه خشن الملامح كبير الحجم ، ذو شفتين بارزتين ناتئتين تتدليان الى اسفل .. لابد أنه كان يتمتع بقوة جسدية خارقة فى شبابه .. أما الان فبرغم ضخامة حجمه ، فمن الواضح أن الوهن قد بدأ يدب اليه .. حركاته غير متماسكة .. عضلاته مترهلة .. مشيته غير ثابتة ، اميل الى الاهتزاز . يعطى أنطباعا أنه على وشك الانهيار ، كجبل تعرض لهزة عنيفة .

الساعة الثالثة بعد الظهر ، لايتذكر وينستون ما الذى دعاه الى الخروج الى المقهى فى هذه الساعة التى يكاد المقهى أن يخلو فيها . صوت الموسيقى يصدر عن شاشة جهاز السينما التليفزيونية .. جلس الرجال فى ركن المقهى بلا حركة تقريبا ، وفى صمت . عندما لاحظ النادل ان زجاجة الجين أمامهم قد فرغت قام متطوعا وأحضر لهم زجاجة جديدة . بجوارهم كانت قطع الشطرنج مرصوصة على طاولتها ، دون أن يلعب أحد . ثم ، لمده نصف دقيقة تقريبا ، حدث شيء ما لشاشة الجهاز ، توقف اللحن الذى كان يذيعه الجهاز ، تغير أيقاع الموسيقى الصادرة منه ايضا ، اذ يبدو أن شريطا قديما قد تداخل فى الارسال ليغنى صوت من الجهاز أغنية بصوت مشروخ فيه رنة سخرية تقول كلماتها :

« تحت ظلال شجرة الكستناء الممتدة .. »
أنا بعتك .. أنت أيضاً بعتنى ...
وهاهم يرقدون هناك .. هناك نحن نرقد »
« تحت تلال شجرة الكستناء الممتدة .. »

الرجال الثلاثة لم يرمش لهم جفن ، لكن عندما توقفت عينا وينستون المستطلعة على وجه روثرفورد المحطم ، كانت الدموع تنساب فى صمت من عينى الرجل . ولأول مرة

لاحظ وينستون بشيء من الرعب الداخلي ، وان كان ساعتها لم يعلم كنه هذا الرعب ، ان روثرفورد وزميله أيرونسون قد حطم أنف كل منهما .

ولم يمض وقت طويل بعد هذا اللقاء ، حتى القى القبض على الثلاثة مرة اخرى . اذ اتضح للحزب - كما أذيع - ان ثلاثتهم قد تورطوا مرة اخرى فى مؤامرات جديدة منذ اللحظة التى اطلق فيها سراحهم . وفى محاكمتهم الثانية تكرر نفس الاعتراف بجرائمهم . وصدر حكم الاعدام عليهم ونفذ حتى يكونوا « عبرة للأجيال الصاعدة » .

مضت خمس سنوات على هذا الحادث ، وفى حوالى سنة ١٩٧٣ ، كان وينستون يقلب فى سجلات قديمة لأمر خاص بعمله ، عندما عثر مصادفة على ورقة من الواضح انها سقطت سهوا مع ما يفحصه من أوراق وصلته عبر جهاز ضغط الهواء ونسيها المسؤولون عن قسم الوثائق . ما ان نشرها وفحص محتوياتها حتى أدرك اهميتها . كانت نصف صفحة نزعت من « التايمز » ... بين محتوياته خبر مصور لبعثة حزبية لمهمة ما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، فى الصورة ظهر بوضوح فى منتصفها ايروسون وجونز وروثرفورد . ولكى لا يكون أى ظل للخطأ انزلقت عيناه الى اسماء اعضاء الوفد المكتوبة اسفل الصورة ... أجل ... انها اسماؤهم بعينها .

اهمية هذه الصورة هو ان نصف الصفحة يحمل تاريخا واضحا والرجال الثلاثة ، فى المحاكمتين الأولى والثانية ، اعترفوا انهم فى هذا التاريخ بالذات ، كانوا فى « أوراشيا » . وينستون يذكر التاريخ لأنه يوم لا ينسى ، كان يوم عيد . اعترف الثلاثة انهم قصدوا أوراشيا عبر مطار ، كندا لمقابلة سرية تم تدبيرها مع اركان حرب جيش أوراشيا ، لافشاء اسرار غاية فى الأهمية عن جيش بلادهم . الاعتراف طبعا وتاريخه يمكن الرجوع اليه فى وثائق عديدة يحتفظ بها الحزب فى المبنى .

اذن ، ليس أمام وينستون الا استنتاج واحد : « ان كل هذه الاعترافات كاذبة » طبعا ، هذا الاستنتاج فى حد ذاته ليس استكشافا . فحتى فى هذا الوقت المبكر لم يتخيل وينستون بأى حال أن كل هؤلاء المقبوض عليهم والذين ينتهى دوما الحكم بشطب اسمهم من سجلات الأحياء ، قد اقترفوا فعلا كل هذه الجرائم التى اتهموا بها .

لكن هذه المرة امامه دليل مادى ملموس ، صورة ثلاثة من رجال الحزب اندثروا فى حقبة من حقب الماضى ، تطل عليه كما لو كانت احدى عظام الحفريات يكتشفها باحث

فجأة فى الطبقة الخطأ من الأرض ، فتقلب احدى نظريات الجيولوجيا رأسا على عقب . مثل هذا الدليل لو قدر له ، بطريقة أو بأخرى ، ان يصل الى العالم الخارجى ، ويتم نشره كفيل بكشف وسائل الحزب ، اذا عرض بطريقة توضح اهمية ما له من دلالة .

مضى وينستون إلى عمله . وكان قد غطى نصف صفحة « التايمز » بورقة بيضاء على مكتبه فور اطلاعه على مضمون المنشور بها . ولحسن حظه كان وضع الورقة بالمقلوب « بالنسبة للعدسة فى مكتبه عندما اطلع عليها ، فلم تلتقطه شاشة الجهاز الموضوع فى مكتبه لمراقبة ما يتناوله من سجلات » . أسند قطعة الكرتون السميك التى يكتب فوقها احيانا أسندها الى ركبتيه ، وتراجع بمقعده ليكتسب أكبر بعد ممكن عن شاشة الجهاز . ثم بخفة وضع المستند الذى اطلع عليه وهو مازال مغطى بالورقة البيضاء ، على ركبتيه ، ثم بحركة سريعة القى بالورقة فى احدى « جحور الذاكرة » مع غيرها من أوراق مهملة ستنزلق فى ذلك الجحر إلى حيث يتم حرقها . اثناء قيامه بكل تلك الخطوات لم تكن تشغله تعبيرات وجهه التى تصورها شاشة الجهاز ، انما ضربات قلبه ، فهو فى حالة انفعال والجهاز المواجه له على مسافة ليست ببعيدة حساس حتى لأى تغير يطرأ على الجسم ، ومن الممكن أن يلتقط ضربات قلبه العالية . لكن الأمر مر بسلام حدث هذا منذ عشر أو احدى عشرة سنة . اليوم لو تكرر الموقف ربما فكر وينستون فى الاحتفاظ بهذا الدليل .. هذا الجزء من صحيفة « التايمز » بطريقة ما . كان الغريب ان حقيقة امساكه بنصف الصحيفة هذا بأصابعه بدأت تتضح له بصورة مختلفة ، عن نظرته إلى هذه الحقيقة ، فى الماضى ، حتى بعد أن اصبحت تلك الورقة والصورة التى تتضمنها مجرد ذكرى . أترى ما أعتقده من قبل من سيطرة الحزب الكاملة على احداث الماضى ... أقل قوة مما كان يظن ، لمجرد أن هناك دليلا حتى وأن اصبح ذكرى ، كان له وجود مادى ملموس فى الماضى ؟

لكنه عاد يفكر . حتى على فرض انه بامكان تجميع رماد هذه الصورة واعادة تكوينها (وهو فرض مستحيل بطبيعته) فأى دلالة ستبقى للصورة حتى لو عرضت على الناس . فالدولة الآن ليست فى حالة حرب مع اوراشيا . وبالتأكيد فان اعترافات رجال الحزب الذين اعدموا قد تم تغييرها مرة ربما أو مرتين ، لتتواءم مع الموقف السياسى الحالى ، وايضا اعيدت الى قسم الوثائق والسجلات بعد تزويرها مرة أو مرتين . أى دلالة لتاريخ مكتوب

على صفحة أو نصف صفحة الـ « تايمز » ، اذا كانت الاعترافات الأصلية ، قدم تم فى الغالب « تصحيحها » ، وأعيدت مرة اخرى بعد عملية التزوير ، لتأخذ مكانها فى ارشيف السجلات والوثائق . فالماضى لم يطرأ عليه مجرد تغيير ، انه فى حالة تغيير مستمرة ... الكابوس الذى يكاد يطبق عليه دوما هو عجزه عن فهم « لماذا » تتم عملية الخداع الرهيبة هذه بواسطة الحزب ، ان الأهداف القريبة لعملية التزوير لكافة الأحداث أو المستندات ، كانت غير خافية عليه ، أما الهدف النهائى المقصود على المدى البعيد ، فمازال لغزا مستغلقا .

تناول ريشته وكتب :

« أنا لا أفهم (كيف) ، لكننى لا أفهم (لماذا) »

وساءل نفسه كما ساءلها مرات كثيرة سابقة : « هل أنا مجنون ؟ ربما كان المجنون مجرد أقلية ضئيلة فى جمع حاشد ، مجرد واحد تفكيره يختلف عن الآلاف تماما مثل حالته . هل أنا مجنون ؟ عاد يسائل نفسه . ففى قديم الزمان كان الاعتقاد بأن الأرض تدور حول الشمس كلاما يمكن ان يصورك كمجنون . اليوم لو أعتقد ان الماضى لا يمكن تغييره ، الن يواجه نفس المصير ؟ .. فهو ربما كان الوحيد فى « أوشانيا » الذى يتمسك بهذا الاعتقاد . فاذا كان الوحيد فعلا فهو مجنون ... غير أن فكرة كونه مجنونا لم تقلقه كثيرا . ان ما يملأ نفسه رعبا ... هو الاحتمال الآخر القائم ... انه ربما كان مخطئا فى كل ما يعتقد .. هذا زمن كل شىء فيه جائز .

أخرج كتاب التاريخ للأطفال ، وتمعن فى صورة الزعيم على واجهته . عينا الزعيم كعينى منوم مغناطيسى ... تتفرس فيه ، كما لو كانت هناك قوة نافذة تضغط على أعصابك ... كأشعة تنفذ الى داخل جمجمتك وتقتحمها لتتخلل خلايا فمك ... تبث الفزع فيك ، لكى لا تؤمن بشىء آخر غير المفروض عليك ان تؤمن به ، ان تنكر كل ما تقدمه حواسك لعقلك من براهين وأدلة .

فى النهاية ليس مستبعدا أبدا أن يعلن الحزب أن حاصل جمع ٢ + ٢ = ٥ . وستجد نفسك معتقدا صحة ما يقال لك ... أمر حتمى أن يصل بهم الأمر الى هذا الحد من الخلط . فالزيف مثله مثل الكذب ... كرة ثلج تبدأ صغيرة وتكبر مع دورانها الرهيب . وآلة الحزب الجهنمية آخذة فى الدوران : أمر طبيعى أن ينتهى الموقف الذى اتخذته الدولة من الحقيقة

إلى اطلاق دعوة كهذه . فالفلسفة التى يقدم عليها الحزب لا تنكر مجرد أثر التجربة الانسانية أيا كانت ، بل هى تنكر الوجود الحقيقى لأى واقع يختلف مع معطيات الحزب . استتبع ذلك أن اقصى درجات الهراء التى يمكن أن يتهم بها المرء هى : أن تستخدم

عقلك ... أن تدمن تحليل الأمور والقضايا بالمنطق ... بيد أن أخشى ما يخشاه وينستون ليس هو مواجهة الموت بجريمة اختلاف تفكيره عن منطق الحزب ومفاهيمه فى أى قضية ... بل أن يتضح له فى النهاية : انهم على صواب !! من هو المجنون اذن ومن هو العاقل ؟ وفى

أى معسكر يقع الصواب ؟ صحيح ... ما الذى يؤكد له ان حاصل جمع ٢ + ٢ = ٤ ، أو أن قوة الجاذبية الأرضية هى التى تسقط الأشياء إلى الأرض ، أو أن الماضى قد تم وانتهى وانه بطبيعته غير قابل للتبديل ، طالما أن العالم الخارجى والتاريخ وكل الظواهر تكتسب وجودها الفعلى من خلال عقل الانسان . فاذا كان عقل الانسان نفسه من الممكن ان يتحكم فيه الحزب أو الدولة ... فماذا بقى اذن ؟؟؟

لكن ، لا ... الا مملكة العقل !!! فهى الأرض الوحيدة التى يقف عليها بشجاعة ... ووجد وينستون نفسه يفكر فى (اوبرايان) ... تداعى إلى تيار فكره دون سبب واضح . وأحس انه متأكد أكثر من أى وقت مضى ، أن اوبرايان يقف إلى جانبه ، فى معسكر المنطق ، وكأنما يكتب مذكراته لأوبرايان ... فكتب دون وعى : « إلى اوبرايان » ... وأخذ يفكر فى حرفى كلمة ... « إلى » ظهر الحرفان ممتدين لا نهاية لهما . دون أن يتأكد ان انسانا ما سيقرأهما ... لكن لا بأس من كتابتهما ، ففيهما تأكيد له انه يوجه كلامه إلى انسان يعيش فى الواقع .

من تعاليم الحزب : أن ترفض ما تقدمه عيناك واذناك من شواهد ... هذا امر محتوم وأساسى وقاطع .

شعر وينستون أن قلبه يغوص بين ضلوعه وهو يتخيل القوى الهائلة المتراصة فى الجانب المعادى لفكره ، السهولة التى يمكن لأى من مسئولى الفكر فى الحزب أن يفحمه بها اذا عن له أن يناقشه فيما يفكر ، المهارة التى يمكن لأى من مثقفى الحزب أن يصرعه بها فى أى جدال ... بحيث لن يكون بمقدوره ان يتابع فهم ما يقال فى مواجهة فكره ، ناهيك عن محاولة الرد .

ومع ذلك ... وبرغم كل شيء ... شعر أنه على حق ... هم على باطل ... وهو على حق . الشواهد الواضحة وضوح الشمس ... أيضا الأشياء البسيطة التافهة ... والأشياء التى لها وجود فى الواقع ... يجب أن تجد من يدافع عنها .

البدهيات ... هى صلب الحقيقة .

تشجع يا وينستون ، وتمسك بموقفك ... العالم الخارجى المادى الملموس ... موجود لم يمح ، قوانينه الطبيعية لا تتغير : الأحجار صلبة ... الماء سائل ، قوة الجاذبية تشد الأشياء اليها .

أحس انه يوجه خطابه إلى « أوبرايان » ، وانه ايضا قد توصل إلى بدهية هامة ، فأمسك بريشته ليكتب :

« الحرية ... هى حرية أن تقول
حاصل جمع اثنين إلى اثنين يساوى أربعة .

اذا منحت هذه الحرية ، فكل شيء يمكن أن يتتالى وراءها »

* * *

(٨)

فى مكان ما ... من آخر أحد الممرات ، داعبت أنفه رائحة بن محمص . رائحة قهوة حقيقية ، تختلف عن قهوة « النصر » التى لا مذاق لها . رائحة تجاوزت الممر إلى الشارع الذى يمشى فيه . توقف لا اراديا ، ولمدة ثانيتين تقريبا استعاد خلالها عالم طفولته الذى كاد أن ينساه .

وانطلق صوت باب يغلق ، فتلاشت نكهة القهوة ... كأنما الباب قد احتجزها فجأة .

كان قد سار على قدميه عدة كيلو مترات ، وبدأ التهاب العروق فى قدمه ... هذه ثانى مرة فى ثلاثة اسابيع يتغيب فيها عن اجتماعات « المركز الاجتماعى » ؟... تصرف طائش لا ريب ... لأنهم بالتأكيد يحصون مرات حضورك وغيابك بدقة . وعضو الحزب من المفروض ألا يتمتع بأى وقت فراغ ، ولا يجوز له أن يخلو إلى نفسه ، إلا داخل جدران منزله عند النوم . ويفترض الحزب انك ان لم تكن تعمل ، أو تأكل ، أو تنام ... فلابد - عن وعى حزبى - أن تشارك فى نوع من النشاط الترفيهى ... الجماعى . أما أن يبدو لك سلوك ينم عن رغبتك فى العزلة والتباعد عن الناس ، كأن تتريض بمفردك سيرا على الأقدام فى شوارع المدينة ، فهذا سلوك سلبى يعرضك لأن تؤاخذ عليه . هناك اصطلاح خاص يمثل هذا السلوك فى اللغة الجديدة ... هو (التفرحد) ومعناه النزوع إلى العزلة والانفراد والبعد عن النمط المألوف . لكنه هذا المساء ، عند خروجه من الوزارة اغرته رقة نسيم ابريل بأن يتمشى ... زرقة السماء الصافية ... الدفء يشيع فى جو المدينة ، فقرر ان ينطلق على سجيته فى شوارعها . خاصة وان البديل هو مساء طويل ممل فى المركز الاجتماعى بكل تلك الضوضاء ، واسلوب المحاضرات اللزجة ، والألعاب التى فقدت جدتها ، وصحبة الرفاق الممضة مما بدا له أمرا لا يطاق هذا المساء ... بشعور غريزى تجاوز محطة الأوتوبيس وبدأ يتحرك تجاه قاع المدينة ... نحو شوارعها الضيقة وأحيائها الشعبية ، اتجه الى جنوب لندن اولا ، ثم عرج إلى الشرق ، وعاد ليتجه شمالا . ثم ضاع منه الاتجاه تاركا نفسه يسير كيفما اتفق عبر شوارع لا يعرفها .

عاوده الخاطر الذى يشغله « لو كان هناك ثمة امل ... فالأمل فى البروليتاريا » ، يردد لنفسه هذه الجملة المرة تلو المرة ، كحقيقة حدسية هلامية مبهمة ... تبدو على شىء من

السخف فى مواجهة الواقع المحيط به . قادته قدماه إلى قلب أحد الأحياء الشعبية الفقيرة ، منازله بنية اللون ، يبدو انه فى شمال أو شرق ما كان يعرف من قبل (بمحطة سان بانكرز) . أخذ يقطع الطريق الحجرى الضيق على الجانبين ... منازل متواضعة من طابقين وأبواب الدور الأرضى منها تطل على الطريق مباشرة ... تعطى انطباعا لجحور الفئران المتراصة . بين قوالب الطوب الحجرى المكون لأرض الشارع ، تجمعت مياه قذرة كالقنوات الرفيعة . المكان يعج بالبشر فى حركة صاخبة ودائبة ، داخلة الى تلك الجهة أو خارجة منها ... الزحام حتى فى الأزقة التى تصب فى الطريق الذى راح يطويه ، اناس كثيرون - فتيات فى ربيع العمر ، يضعن احمر شفاه فاقع الحمرة ، وشبان يطاردونهن .

ونساء شاحبات مترهلات ... صورة لما ستصير اليه الفتيات بعد عشر سنوات ... وبشر ادركهم الشيب يجرون اقداما مهتزة ، وأطفال تستر أجسامهم اسمال بالية ... حفاة الأقدام يلهون فى المياه القذرة ، وينفلتون هاربين عند صياح امهاتهم ... أكثر من ربع زجاج نوافذ البيوت على الجانبين مكسور ... حلت محل الزجاج قطع من خشب الأبلكاش بألوان متنافرة .

ظل يمشى فى الشارع ، لا يعيره معظم سكان الحى التفاتا ملحوظا ، عدا القليل منهم يرقبه بحب استطلاع مشوب بالحذر . مر باثنتين من النسوة تكاد كل منهما تماثل الوحش الكاسر ملامح ومتانة بنيان . الساعدان الغليظان بلونهما المحمر مضمومان إلى الصدر ، تتجاذبان اطراف الحديث : « نعم ... قلت لها لو كنت فى مكانى يا أختى كنت فعلت ما فعلته أنا » ثم أردفت « سهل ان تنقذينى - قلت أنا لها يا بنت الـ ... هذه ... سهل أن تنتقدينى ... لكن هل لديك مشاكل وهموم مثل مشاكلى وهمومى ؟ » . أجابت الأخرى مؤيدة « هذا بالضبط هو الكلام ... آى نعم ... من الذى يقدر أن يلومك على هذا الكلام يا أختى ... من يلومك ... هذا هو الكلام المضبوط ... ثم ان - » .

عند مروره بهما توقف الحديث لحظات ، ليس خوفا بالتأكيد ، لكن كنوع من حب الاستطلاع ، كتوقف الحديث بين اثنين عند مرور حيوان غريب ... لأن (زى الحزب) الذى يرتديه « الأوفرول الأزرق » - ليس زيا مألوفا فى هذه الأحياء . بالتأكيد ليس من الحكمة فى شيء أن يراك أحد ترتاد مثل هذه الأماكن ، الا اذا كنت مكلفا بمهمة رسمية محددة إذ من الجائز أن تستوقفك احدى الدوريات ، ثم تبدأ الأسئلة المنغصة :

« اوراقك ... يا رفيق ؟ أين اثبات الشخصية ؟ ماذا تفعل هنا ... فى أى وقت غادرت مقر عملك ؟ هل سبق لك أن مررت بهذا الطريق فى عودتك الى منزلك ؟ » ... وهكذا ... ليس هناك نص رسمى يمنع ارتياد هذه الأماكن ... لكن ارتيادها يمكن أن يفضى بك الى تقرير فيما لا يزيد عن سطرين عنك ، يوجه الى البوليس السياسى ، لكى يتتبعك لكشف نواياك . فجأة ساد الاضطراب من فى الشارع جميعا ؟! صرخات تتعالى ومن كل جانب ، انطلق الناس مذعورين الى ابواب منازلهم كأرانب يطاردها وحش .. وفجأة على وجه السرعة جذبته احدى المرأتين إلى داخل منزلها فى حركة واحدة لم تستغرق اكثر من لحظة ... فى نفس الوقت اندفع رجل يرتدى زيا اسود ، من أحد الأزقة الجانبية وجرى الى وينستون مشيرا بيده المنفعلة الى السماء « لنش ... لنش ... خذ بالك ... حاسب ... سينفجر فوق رأسك ... انبطح على وجهك حالا .. أسرع » .

كان الاصطلاح العامى « لنش » هو الاختصار الذى اتفق عليه سكان الأحياء الشعبية ، لسبب أو لآخر ، كتسمية للقنابل الصاروخية ... وفى سرعة البرق وجد وينستون نفسه منبطحا على وجهه ، فبالكاد يخطىء سكان هذه الأماكن فى تنبؤهم بقرب انفجار صاروخ كما لو كانوا يمتلكون حاسة سادسة ، تنبههم غريزيا قبيل ثوان من الحدث أن صاروخا فى الطريق . مع أن المفروض . حسب نظرية الصواريخ ، أن سرعتها تفوق سرعة الصوت .

ضم وينستون ساعديه فوق رأسه ووجهه إلى الأرض . ثم ... صوت الصاروخ يزأر ، صوت انفجار مصحوب بدفقة خاطفة من الضوء ... الأرض تهتز تحت جسده .. وأشياء تتساقط فوق جسمه ... مضت ثوان قبل ان يملك جأشه لينهض ، وليجد جسمه مغطى ببقايا زجاج محطم تساقط من النوافذ القريبة منه .

واصل السير ... كان الصاروخ قد ازال عن وجه الأرض عدة منازل تبعد عنه بمائتى متر فى نهاية الشارع ... ومازال الدخان المتخلف عن الانفجار يشكل عامودا متصاعدا الى أعلى كحبل سميك مشدود إلى السماء ... ذرات ترابية من الجبس والمصيص معلقة على هيئة سحابة تلف المكان ... تحلق الناس حول مكان الانفجار .. بالقرب منه كومة من حطام ، يتوسطها شريط أحمر قانى اللون ... اقترب من الركام ... ليكتشف انه الدم ينساب من يد مفصولة عن ذراعها ... قذفت بها شدة الانفجار بعيدا ، فابيض لونها بعد ان انفصلت عن جسم صاحبها ... كانت فى لون بياض الجبس تقريبا .

ازاح اليد جانبا عن طريقه ، وعرج الى شارع فرعى جانبى ، ليتفادى الزحام ... ولم تمض خمس أو ست دقائق ، حتى كان قد ابتعد عن منطقة الانفجار . وعاد صخب الحياة الى الشوارع كأن شيئا لم يكن . الساعة حوالى الثامنة ، ومحلات تقديم الخمر الخاصة بالبروليتاريا تعج بمن فيها ، « خمارات » كما كان يطلق عليها ، تختلف عن ... « حانات اعضاء الحزب ». مداخلها ابواب مفصلية شاحبة اللون تنقسم نصفين ، تفتح وتغلق تلقائيا عند دفعها ، أبواب لا تهدأ لكثرة الداخلين والخارجين . تفوح من « الخمارة » التى دلف اليها وينستون رائحة تراب عالق ، وبول ، وبيرة فاسدة . فى احد زواياها وقف ثلاثة رجال ، احدهم ممسك بجريدة مفتوحة يطالع احدى صفحاتها . بينما زميلاه يشاركانه القراءة من موقفهما خلف كتفيه . كان من الواضح انهم مستغربون فيما كتب بهذه الصفحة ، ولابد انها اخبار هامة هذه التى تشدهم الى هذا الحد ... لم يكد يقترب منهم خطوات حتى كان احدهم قد انتفض ملوحا بغضب فى وجه زميليه ، لدرجة بدا منها لوينستون انهم على وشك ان يتضاربوا . « اليس باستطاعتك ان تسمع كلامى ؟ افهمنى يا حمار ... أنا أؤكد انه لم يكسب رقم ينتهى بـ (٧) أبدا طوال الشهور الأربعة التى مضت . »

... « يا غبى افهم ... أنا اقول كسب »

ـ : « يا ابن الـ ... اسمع ، أرجع معى الآن . نذهب لمنزلى ، أنا عندى المجموعة كلها مكتوبة بأرقامها على ورقة احتفظ بها . وأنا عندما اقول لم يربح رقم منتهٍ بـ (٧) ، إذن لم يربح رقم منته بـ (٧) ، يجب ان تفهم هذا ... »

« وأنا اقول رقم نهايته (٧) كسب « الجائزة الكبرى » ... ثانى اسبوع فى فبراير يا أغبى خلق الله ... » .

« أى فبراير ... أى فبراير يا ابن التيس ... المجموعة كلها عندى ... كل أرقامها عندى ... ليس فيها أى رقم (٧) كسب ابدا .. »

كانت الخناقة على أرقام المراهنات .

وحتى بعد أن تجاوزهم وينستون بمسافة ، ونظر خلفه كان النقاش الحاد مستمرا ، والوجوه محتقنة بالغضب . كان الرهان بجوائزه الأسبوعية المالية الكبيرة ، هو الحدث الشعبى الوحيد الذى تهتم به البروليتاريا اهتماما جادا . ربما بالنسبة للملايين منهم تفقد الحياة كل مغزاها لو حرمت من انشطة « الرهان » . اذ لم يكن مجرد تسلية ، بل كان هو

السلوى ... كان مبرر الوجود الوحيد ... أو هو اهمها . هو المتعة ، والمغامرة ، وانتعاش الحواس ، وهو افيون حياتهم . الغريب انه حتى الذى يستطيع بصعوبة أن يقرأ اسمه أو يكتب جملة كاملة ، تجده فيما يتعلق بالمراهنات قادرا على ان يجرى عمليات حسابية معقدة يستبعد فيها ارقاما ويتوقع الفوز لأرقام اخرى ، معتمدا على ذاكرته التى لا تنتعش الا فى هذا المجال فقط ، ومن ثم نشأ ما يشبه الجيش ممن يتعيشون على بيع كتيبات توضح الطريقة الصحيحة للتنبؤ ، ونظم المراهنات ، والمجموعات الرابحة وكيفية التعرف على احتمال فوزها .

لم يكن لوينستون علاقة بالمراهنات لأنها تابعة لوزارة اخرى غير التى يعمل فيها ، هى « وزارة الوفرة » . لكنه كان على وعى (كما كان الكل فى الحقيقة على وعى) بأن جوائز المراهنات بالنسبة لدخل الفرد ... جوائز خيالية . لكن الأرقام الفائزة بالجائزة الأولى كانت فى الغالب لأشخاص غير موجودين ... تصرف عادة قيمة الأرقام ذات الجوائز المتوسطة أو البسيطة ، وفى غياب أى وسيلة من وسائل التواصل بين جماهير « أوشانيا » المترامية الأطراف ، كان من الصعب اكتشاف هذا التلاعب فى اعلان الأرقام الفائزة ... وظل الوهم باحتمال الفوز بالجائزة . الكبرى يعشش فى ادمغة « البروليتاريتا » . وهم الفوز بالثروة والتعلق بالاثارة .

لكن برغم كل هذا عاد الخاطر يلح على ذهن وينستون : « اذا كان ثمة أمل ... فليس الا فى طبقة البروليتاريا » يجب ان يتشبث بهذه القناعة ... يكفى ان تصوغ الأمل فى جملة مثل هذه وترددها .. فتبدو معقولة . فاذا نقلت ناظريك الى الناس ، تلك المخلوقات البشرية التى تسير امامك فى خضم الحياة ، ستجد ان هذه الجملة تحولت الى ما يشبه العقيدة . الشارع الذى يسير فيه الآن ، شارع منحدر الى أسفل لمروره فوق تل . يشعر ان هذا الحى ليس بغريب عليه ... ملامحه مألوفة . وانه يفضى إلى طريق عمومى متسع لا يبعد عنه .

لكن من مكان قريب طرق سمعه صوت صياح ... انتهى الشارع الى منعطف حاد قاده الى عدة درجات تهبط به الى زقاق منخفض عن مستوى الشارع ، حيث تراصت محال بيع فاكهة ، كانت الفاكهة المعروضة ذابلة غير طازجة ، فتذكر وينستون على التو متى جاء الى هذا المكان . فعلى مسيرة دقائق من حيث يقف يقع الحانوت الذى أبتاع منه

«الدفتر» الذى يدون فيه مذكراته الان .. ومن أحدى محلات بيع الادوات المكتبية التى لاتبعد عنه كثيرا أبتاع «حاملة الريشه» المصنوعة من المعدن ،ومعها زجاجة الحبر . تمهل قليلا فى أعلى درجات السلم ينظر الى الزقاق ، حيث تقع «خمارة» قذرة ، بينما فى الجانب الايمن من الزقاق خمارة تبدو نوافذها كأنها مغلقة ، لكنها فى الواقع مغطاه بطبقة سمكية من الاتربة . دفع رجل هرم بابها المفصلى ودلف اليها ، رجل مقوس الظهر خطواته اكثر شبابا من سنوات عمره ، بادى النشاط ، ذو شارب كث أبيض شعيراته نافره . طرأ لوينستون وهو يراقبه ، ان رجلا بلغ من العمر أرذله مثل هذا الرجل الذى لايقل سنه عن الثمانين لابد أنه كان فى مثل سنه عند قيام الثورة . فهذا الشيخ ومن زامله من أقلية مازالت فى الحزب لم يبق الا نفر قليل وصلوا الى مرحلة نضجهم الفكرى قبل قيام الثورة ..لان معظم رجال الجيل الذى سبق قيام الثورة قد أكتسحتهم حركة التطهير والتصفيات التى تمت فى الخمسينيات والستينيات . ومن أستطاع أن يفلت من هذه الحقبة آثر أن يخضع فكريا لما نادت به الثورة من معتقدات . اذن لم يبق الا أن يسائل أحد الشيوخ من البروليتاريا ممن يسمح لهم سنهم بالتحدث عن حياة ماقبل الثورة . تذكر فجأة ذلك الجزء من كتاب التاريخ للاطفال الذى نقله الى مذكراته ، فاعترته أحدى نزعاته الطائشة . أن يدخل «الخمارة» ويخلق أى نوع من التعارف مع ذلك الشيخ الهرم ، ويبدأ فى أسئلته ، كأن يقول له مثلا : (ترى كيف كان يحيا الناس عندما كنت طفلا ؟ هل كانت الامور أفضل مما هى عليه الان ، أم تراها كانت أسوأ ؟»

وبسرعة ، وقبل أن يتغلب عليه عامل الخوف ، طوى درجات السلم ، وعبر الزقاق . كان هذا هو الجنون بعينه . فى العادة ليس هناك مايمنع قانونا وصراحة ، التخاطب مع أفراد البروليتاريا أو التردد على خماراتهم ، لكن مايقوم به الان نوع من السلوك غير مألوف لاعضاء الحزب . هناك شبه أستحاله ألا يلفت النظر اليه . حدث نفسه قائلا : اذا صادفنى حظ سيء ولمحتنى أحدى الدوريات أثناء مرورها ، سأدعى اننى فى حالة أغماء فلجأت لهذه الحانة لالتقط أنفاسى . لكن مثل هذه الحركات لاتمر بسهولة على رجال الدوريات . استجمع شجاعته ودفع باب الخماره ، لتصفعه الرائحة الكريهة للبيرة الفاسدة الرخيصة . حال دخوله أنخفض الضجيج وشعر وينستون بنظرات من خلفه ترقبه مستطلعة « بذلة عمله الزرقاء » الوحيدة منذ دخل فجأة . فى الركن المقابل كان البعض يلعب لعبة السهام ذات الريش . توقفوا لبرهة ناظرين اليه . اما الرجل العجوز فقد استند

الى منضدة الحانة فى حوار مع « الساقى » ، وهو شاب مفتول العضلات ، ذو أنف معقوف كمنقار الصقر ، قوى البنية ، ضخم الجسم ... جمع من مرتادى الحانة يرقب المناقشة . الرجل العجوز حاول ان يشد عضلات صدره ليفرده متحديا الساقى زاعقا فى وجهه .

- « انت تقولى أنا : إنه فى كل هذه الحانة لايوجد «كوب واحد» . أنت قليل الحياء»

- « لا تصدع دماغنا يا هذا بالـ «الكوب» ماذا تريد بالضبط ؟»

قالها الشاب مستندا بطرف يديه على منضدة الشرب ، ناظرا الى الرجل العجوز ساخرا .

- انت تسمى نفسك ساقيا أنت ؟ ولا تعرف ما هو الـ «الكوب» ؟ أما تخجل من نفسك ؟ هل مفروض أن أعلمك ألف باء العمل فى الحانات ؟ ساقى خمر ولايعرف «الكوب » ؟ يالها من عجيبة من عجائب الزمن » .

- « طول فترة عملى لم اسمع هذه الكلمة «كوب خمر» ؟

-الكوب يا هذا هو نصف الربع . والجالون أربعة أرباع ألا تعرف حتى هذا ؟»

- « يا عمى ليس عندنا غير «ليتر» و «نصف ليتر» . هذا هو ما نقدمه طول العمر . وهاهى الكؤوس امامك على الرف فلتنظر بنفسك .. ها هى أمامك .. أهه »

- « وأنا لا أريد غير «كوب» .

أجاب العجوز فى اصرار .. وقد أضاف .

« كان بامكانك بدلا من هذا الكلام أن تصب لى «كوباً» وننتهى . على أيامنا لم نسمع بهذه الـ «ليتر» و «نصف الليتر» . أنا عندما كنت شابا لم أشرب الا ــــ »

- « عندما كنت شابا ياعمنا ، لم يكن أحد يعيش فى المدن . كنا فى الغالب نعيش مع القرود فوق الشجر ... »

قذف الساقى بهذه الكلمات فى وجه العجوز ، وهو يستعرض أثرها على وجوه الزباين الذين ضجوا بالضحك .. وقد بدا أن جمهور الحانة قد تناسوا الدخول المفاجىء لوينستون ووجوده بينهم .

احمر وجه العجوز ، ونفرت عروقه غضبا ، ليستدير منصرفا وهو يغمغم بالسباب . اصطدم بوينستون وهو يهرول للخارج . احتجزه وينستون مطيبا خاطره :

- : «دعنى أدعوك الى الشراب معى ...»

شد عضلات صدره ثانيه ، ونظر اليه مجيبا ..

« يبدو انك انسان من الطبقة الراقية »

فى الغالب لم يلحظ زى الحزب الذى يرتديه وينستون . ثم أستدار ملوحا بقبضته نحو الساقى زاعقا فيه :

« كوب ياغبى .. كوب »

صب الساقى قدحين ، كل قدح نصف ليتر من البيرة القوية الداكنة وقدمهما الى الرجلين . البيرة هى المشروب الوحيد المسوح به للبروليتاريا ، أذ من المفروض ألا يشربوا الـ «جين» وان كان لايعجزهم الحصول عليه بسهولة أن أرادوا . عادت المجموعة التى كانت تلعب لعبة «السهام» الى مزاولة اللعبة ثانية وأنفرط عقد الرجال الذين تابعوا مناقشة الرجل العجوز . أنصرفوا الى الحديث عن المراهنات .. ضاع فيما يبدو وجود وينستون فى الزحام . لم يعد احد يشعر بوجوده غير المألوف بينهم ... واتجه الرجل مع وينستون الى أحدى المناضد فى أقصى المكان تحت نافذة الخمارة . مكان اعتقد وينستون انه بعيد عن سمع الموجودين الى حد ما . لكن المحاولة خطرة مهما كان الامر .. وان خفف من خطورتها عدم وجود شاشة السينما التلفزيونية فى الحانة . وهو أمر تأكد منه وينستون منذ لحظة دخوله . وبعد أن مسح المكان بناظريه .

ابتدره العجوز مغمغما .

ـ « كان بامكان الساقى أن يصب لى «كوباً» بدلا من نصف الليتر هذا . هذا النصف ليتر لايؤثر فى ، واللتر الكامل أكثر مما أحتمل الان .. ناهيك عن الثمن »

أجابه وينستون بسؤال استكشافى فى شيء من الحرص .

ـ « لابد أنك شاهدت الكثير من التغيرات منذ كنت شابا ياعمى ؟ »

أدار العجوز عينيه الذابلتين فى المكان متنقلا من لعبة السهام الى الحانة ، ومن الحانة الى باب دورة المياه ، ثم عاد ينظر الى الحانة ، كما لو كانت التغيرات التى يسأل وينستون عنها قد حدثت داخل هذه الحانة بالذات .

وأخيرا نطق ..:

ـ : نعم .. البيرة زمان كانت أحسن ، وأرخص . ثمن الكوب فى شبابى كان أربعة بنسات لاغير .. بيره خفيفة كنا نسميها «اللطشة» لأنها فى أيامنا كانت تلطش العقل . كان هذا قبل الحرب» .

سأله وينستون مستحثا :

ـ لكن أى حرب ؟»

أجابه العجوز بأن رفع كأسه قائلا :

ـ عشنا عمرنا كله فى حروب ، المهم لنشرب هذا النخب فى صحتك»

ورفع الكأس الى فمه ، وفى لمح البصر كانت «تفاحة آدم» تعلو وتهبط فى عنقه لتختفى البيره فى جوفه .

توجه وينستون الى الساقى وأحضر كأسين جديدين ، كل كأس نصف لتر كسابقه . تناسى العجوز كلامه السابق عن عدم احتماله ابتلاع لتر كامل ، وتناول الكأس الجديد .

عاد وينستون يقول :

ـ انت الان يارفيق فى سن متقدمة ، أكبر منى فى السن كثيرا . لابد أنك كنت رجلا ناضجا قبل أن أولد أنا ... أنت تذكر بالطبع ماكان عليه الحال قبل الثورة . الناس فى مثل سنى لايعرفون اى شىء فى الحقيقة عن هذا العصر . نحن فقط نقرأ عنه فى الكتب . ماتقوله الكتب ربما كان غير الحقيقة . أحب أن اسمع رأيك أنت فى هذا الموضوع . كتب التاريخ تقول ان الحياة قبل الثورة كانت مختلفة تماما عن حياتنا الان . كان هناك قهر فظيع لايوصف ، فقد لايتخيله انسان من بشاعته . هنا مثلا فى لندن ، لم تكن جماهير الشعب الغفيرة تجد شيئا لتأكله منذ مولدها ، حتى المات . نصف الشعب لايجد حتى الحذاء ليحمى الأرجل من غائلة البرد . الناس تعمل ١٢ ساعة فى اليوم . يضطرون الى عدم اكمال تعليمهم وهم بعد فى التاسعة ، يبيتون كل عشرة فى حجرة واحدة . فى نفس الوقت كان هناك نفر قليل جدا من الناس ، مجرد عدَّة آلاف ممن يسمونهم «الرأسماليون» ، كانوا أغنياء أقوياء أصحاب سطوة وعصبية ونفوذ . أمتلكوا كل شىء ممكن للانسان ان يمتلكه . عاشوا فى قصور فخمة ، كل واحد تحت امرته أكثر من ثلاثين خادما ، وعربه تجرها أربعة جياد مطهمة .. لايشربون الا الشمبانيا .. يضعون فوق رؤسهم الـ «القبعات العالية» .. و ...

وكأنما أستيقظ الرجل فجأة على كلمة (قبعات عالية) فبرقت عيناه الخابيتان وصاح مبتهجا :

« آه » « القبعة العالية » ... عجيب أنك تذكر الـ « القبعة العالية » فأمس فقط تذكرت أنا أيضا منظر الـ « القبعة العالية » لا أعلم لماذا تذكرتها أمس فقط . كنت أقول

لنفسى ، كم سنة مرت منذ رأيت « قبعة عالية » ... أنقرضت هذه الاشياء ... آخر مرة لبستها أنا كان فى جنازة بنت خالتى . كان هذا ـ فى الحقيقة لا استطيع ان اتذكر التاريخ بالضبط ـ لكن دعنا نفرض أنه منذ حوالى ٥٠ سنة مضت .

طبعا كنت أرتديها على سبيل السلف ، أستأجرتها يعنى .. أنت فاهم طبعا .. »

تمالك وينستون أعصابه وقال بصبر لم ينفد بعد :

« يا عمى ليس المهم هو القبعات التى كانوا يرتدونها . النقطة التى اردت ان اوضحها ، هى أن هؤلاء اللوردات الى جانب عدد من المحامين والقساوسة ومن على شاكلتهم كانوا هم أصحاب الارض . كل شىء كان مسخرا لخدمتهم . أما أنتم ، كعمال وكفلاحين .. أقصد الناس العاديين ، كنتم كعبيد لهم .. كان بامكانهم أن يفعلوا مايشاءون بحياتكم ، يصدرونكم الى كندا كقطيع من الاغنام . يغتصبون بناتكم ، يأمرون رجالهم فيضربونكم بالسياط . يجب أن تخلعوا قبعاتكم عند مرور الواحد منهم . وكان كل رأسمالى يسير فى كوكبة من الخدم يرتدون زيا خاصا مزركشا وكان الـ .... »

عادت الحيوية الى عينى الرجل ثانيا وصاح فى مرح طفولى :

« نعم أذكر ، الزى الخاص المزركش لهؤلاء الخدم ، كلمة خدم هذه لم اسمعها منذ زمن بعيد ... هيه ... أن هذه السيرة تعود بى الى الايام الخوالى .. أيام الخدم الخصوصيين . ومنظر الحمير أيضا . كان بعض الناس يركبون الحمير ... ذكريات .. ذكريات .. اذكر انى عندما كنت صغيرا ، أعتدت ان اذهب الى الـ (هايدربارك) أتفرج على الخطباء ، من الكاثوليك ومن جيش الخلاص» ، وخطباء يهود ، ومن كل ملة ودين وشكل .. تجدهم فى «الهايدبارك» . كان هناك واحد منهم ... اسمه ... اسمه ... نسيت أسمه .. لكنه كان خطيبا ممتازا وكان كلامه قويا ... وكان يهاجم حكاية الخدم الخصوصيين هذه .. ويقول عنهم (عبيد البورجوازية) و (أتباع الحكام) وأحيانا يسميهم (الطفيليين) والامعات ، الى آخر هذه التسميات ، وكان يهاجم بشدة . كان من حزب العمال وأنت فاهم طبعا كلام حزب العمال .

وشعر وينستون انه يسير فى طريق مسدود ، اذ ان اهتمامات العجوز تحلق فى مجال بعيد ، وأسئلته هو تتوخى أجابات فى مجال آخر ... وكل منها ينطلق فى طريق مختلف .

وعاد يحاول مع الرجل ثانيه ، لعل وعسى :

« يا عمى ... ما أريد أن أعرفه بالضبط ، هو التالى : هل تشعر فى وقتنا هذا أنك متمتع بحرية اكثر من الحرية التى كنت تشعر بها فى الزمن الماضى ، هل تعامل الآن معاملة انسانية أفضل من معاملة هؤلاء الناس لك فى الماضى ؟ فى الأيام الخوالى ... أيام زمان .. هؤلاء القوم الاغنياء .. الناس اللى فوق .. هل كانوا ... »

قاطعه الرجل كمن يحاول أن يساعده فى الكلام :

ـ تقصد مجلس اللوردات ... »

ـ سمهم رجال مجلس اللوردات اذا كان هذا يريحك .. المهم .. هؤلاء الناس .. هل كانوا يعاملونك كأنسان أدنى منهم .. لانهم ـ ببساطة ـ أغنياء ، وأنت فقير ؟ هل صحيح ـ مثلا ... يعنى مثلا ـ أنه كان من الضرورى عندما تخاطبهم ان تبدأ كلامك بكلمة (سيدى) ، وتخلع قبعتك عندما يمر واحد منهم بك» .

بدا ان هذه الاسئلة المتتالية قد اجهدت ذهن الرجل فظل لحظات صامتا كما لو كان يفكر بعمق وتركيز وهو يحتسى نصف الليتر الثانى من البيرة .

ثم أجـــاب :

ـ : « نعم ، كانوا يفضلون طبعا أن تلمس طرف قبعتك عند مرورهم ، من باب الادب ، والاحترام . أنا لم أكن أوافق على هذه الحكاية ، لكن يسعك أن تقول أننى كنت مضطرا أن أفعل مايفعله الناس ... »

ـ : « لكن هل كان العرف فى هذا الوقت ، أنه عندما يسير السادة فى الطريق ـ وأنا هنا أعيد ما قرأته فى كتاب التاريخ ـ هل كان العرف يقضى على خدم هؤلاء السادة أن يزيحوكم عن طريقهم الى الشوارع الجانبية ... »

أجـــاب الرجل مفاخـــراً :

ـ : « أنا تشاجرت مع واحد منهم . أذكر هذا الحادث كما لو كان قد حدث أمس فقط . فى أحدى الليالى كان هناك سباق للقوارب ـ رياضة بالغة السخف ـ حكاية سباق القوارب بالليل هذه .. أتعلم ماذا حدث ليلتها .. أحد خدم الاثرياء يسير فى شارع شافتسبرى ، يلبس قميصا مزركشا و « قبعة عالية » وبالطو ، كان يمشى .. وهو يتقصع فى الشارع بطريقة لولبية .. فأنا أرتطمت به عن غير قصد ... قال لى : « ولماذا لا تنظر أمامك وأنت تمشى هكذا !! هل انت أعمى » فأنا قلت له : « هل تظن أنك أشتريت الشارع لحسابك ؟؟ أنت سكران .. فما كان منه الا ان لكمنى قبضة يده لكمة كادت أن

تقذف بى الى وسط الشارع تحت عجلات أحدى العربات ، لكن انا كنت نويت ان ارد الضربة لولا ... »

من العبث مواصلة الحديث مع هذا الرجل ، شعر وينستون باليأس يتسرب اليه من جدوى الحوار . فذاكرة الرجل لاتستوعب الا نفايات الذكريات الصغيرة التافهة . حتى لو ظل يسأله طول العمر ، فلن يظفر فى النهاية بمعلومات ذات قيمة . بل ربما كانت روايات الحزب فى كتب التاريخ صحيحة . قد تكون صادقة تماما . لكنه عاد يحاول محاولة أخيرة يائسة مع الرجل .

ـ : « أسمع يا عمى ، ربما أنا لم استطع أن اوضح سؤالى . ما أحاول ان اعرفه هو ما يلى . أنت كرجل كبير فى السن . عشت فترة طويلة قبل الثورة . فى سنة ١٩٢٥ مثلا كنت رجلا ناضجا . هل تتابع كلامى .. تفهمنى ؟ قل لى اذن ، على قدر ما تذكر من هذا الزمان القديم ... هل كانت الحياة سنة ١٩٢٥ أحسن من حياتك الان ام حياتك الان أسوأ من أيام زمان ؟

لو خيروك : هل تعيش فى ذلك الوقت ام تفضل أن تعيش الان ؟

سرح العجوز ببصره الى حيث يلعبون لعبة السهام ، وأخذ يفكر ، وهو يرشف البيرة بتلذذ وبطء غير معهود . وعندما بدأ يجيب ، أجاب بتأنى الفلاسفة وهدوئهم ، كما لو ان البيرة قد بدأت تهدىء من أعصابه .

معظم الناس يقولون هذا : ليت أيام الشباب تعود . فى شبابك أنت فى كامل صحتك ، وكامل قوتك . وعندما تصل الى سنى فالامور لاتصبح على مايرام . أنا مثلا أعانى من روماتيزم فى ساقى ومن آلام البروستاتا . أضطر الى الذهاب لدورة المياه ست أو سبع مرات بالليل . لكن أنت تنسى أنه من ناحية اخرى هناك مميزات عظيمة يصل لها الانسان عندما يكبر فى السن ويصير عجوزا مثلى . لم أعد أعانى من هموم الشباب . لا مشاكل مع النسوان .. وهذا مكسب عظيم . أنا لم أصاحب أمرأة منذ ثلاثين سنة تقريبا ، وليست لدى أى رغبة فى مصاحبتهن ... »

أستند وينستون الى حافة النافذة فى صمت .. لا فائدة مع هذا الرجل .. لا فائده .. كان على وشك أن يطلب له كأساً أخرى من البيرة .. لكن لا فائدة ترجى منه ... انتصب العجوز واقفا وأسرع الى دورة المياه .. بدأت البيرة «تشتغل» معه ، وبقى وينستون لدقيقة أو اثنتين يحملق فى كأسه الفارغة .

لم يشعر بنفسه الا وهو خارج «الحان» . يقطع الطريق بخطوات كسلى لا مباليه مرة اخرى . أخذ يفكر : خلال عشرين سنة القادمة على الاكثر سيتحول هذا السؤال البسيط والخطير فى نفس الوقت : «هل كانت الحياة أفضل ام أسوأ قبل الثورة ؟ » سيتحول الى الابد ، سؤالا غير قابل للاجابة . بل هو فى الواقع غير قابل للاجابة فى يومنا هذا أيضا لان الشراذم المتناثرة من كبار السن ، بقايا العالم القديم ، لايبدو أنه باستطاعتهم القيام

بعملية مقارنة شاملة بين عصر وعصر ، بين جيل وجيل . كل ماهو عالق بذاكرتهم لايزيد عن شذرات من آلاف التفاصيل الجزئية الصغيرة .. أهميتها فى نفس درجة تفاهتها .. شجار مع احد خدم اللوردات .. مطاردة لاسترداد منفاخ عجلة .. ذكرى ملامح أخت ماتت منذ زمن طويل .. صورة نافذة المنزل بعد ان ردمتها عاصفة هبت منذ عشرات السنين .. الخ .

لكن «لب الحقائق» ....الصورة الشاملة لعصر كامل .. كانت مسألة أكبر من مستوى ادراكهم . مثلهم مثل النمل ، بامكانه ان يرى العديد من الاشياء الصغيرة ، لكنه يعجز عن رؤية الكل الذى يضم هذه الاشياء المنمنمة جميعها فى رؤية شاملة .

وعندما تدول دولة الذاكره فى ادمغة هؤلاء المعمرين ، ويتم تزييف السجلات التى تصور الماضى بالكامل .. عندئذ .. بامكان دعوى الحزب القائلة أنه قد طور الحياة الى الافضل ـ بامكانها أن ترسخ كحقيقة ثابته ، لانه لايوجد عندئذ ، ولن يوجد فى المستقبل البعيد ، أى معيار يثبت العكس .

توقف شريط ذكرياته فجأة .. ليدير عينيه فى المكان الذى قادته اليه قدماه . وجد نفسه فى شارع ضيق تتناثر بين بيوته القديمة عدة حوانيت . فوق رأسه تماما ثلاث كرات معدنية باهتة اللون تحمل آثار طلاء ذهبى قديم . هذه المنطقة أيضا ليست غريبة عليه ... نعم ... نعم ... بالتأكيد هو نفس المحل الذى أشترى منه دفتر تسجيل ذكرياته .

انتابته قشعريرة خوف ، فقد كان متهورا منذ البداية يوم أشترى هذا الدفتر أصلا .. كان قد أقسم الا يقترب من المكان ، قط . لكن ما أن سمح لخواطره أن تكسر طوقها فتنطلق على سجيتها ، حتى قادته قدماه الى مكان يشعر بالانتماء اليه . كان وينستون يأمل أن يكون أكثر حذرا فى تعامله مع نوازعه الانتحارية . لاحظ أن المحل ، برغم الوقت المتأخر ، بعد التاسعة مساء ـ كان لايزال مفتوحا . فدفعه أحساس بأن التستر داخل مكان

مغلق خير له من التسكع المستمر فى الشارع ... فى داخل المحل ، اذا ضبطته احدى الدوريات سيبرر وجوده فيه بأنه يبحث دون جدوى عن شفرات حلاقة .

كان صاحب المحل قد انتهى للتو من إضاءة قنديل زيت ، فهو أحد محلات بيع العاديات القديمة . وجود القنديل القديم يوحى بالالفة ويبعث احساسا بالهدوء برغم مايفوح فيه من رائحة منفرة .. صاحب المحل فى الستين من عمره تقريبا ، عيناه خابيتان تحجبهما الى حد ما نظارة سميكة .. زحف الشيب الى مفرقيه على عكس الشعر الاسود الغزير النافر لحاجبيه .. يترك لديك أنطباعا بأنه على شيء من الرقى ومن الحضارة . ربما بسبب المعطف القطيفة الاسود الذى يرتديه ، ونظارته ، ورشاقة خطواته .. وسمت الرزانة البادى عليه .. كما لو كان فى الماضى أديبا او موسيقارا .. فى صوته رقة وصفاء ، ونبرته تخلو من سوقية البروليتاريا أو القسم الاغلب منهم . وقد ابتدره البائع قائلا :

ـ : لقد تعرفت عليك لحظة مرورك أمام المحل ، أنت السيد الذى أشترى دفتر الذكريات . ورقه ممتاز فعلا ، من خامة لا توجد كثيرا الان . ورق لايمكنك الحصول على مثله منذ ... منذ ... منذ حوالى خمسين سنة»

نظارة الرجل انزلقت الى أرنبة أنفه ، وكان يتحدث وعيناه تطلان من فوق نظارته . ثم أضاف :

ـ : أية خدمة ؟ تريد شيئا خاصا هذه المرة أيضا ؟ أم تراك قد جئت لتلقى نظرة عامة ؟

ـ : أبدا أنا كنت أمر بالصدفة فى هذا الانحناء ، وقلت لنفسى فلألق نظرة ، ليس فى ذهنى شراء شيء محدد .

ـ أهلا بك على أية حال .. وان كنت اعتقد ان المعروض بالمحل لايلبى طلباتك .. ثم أضاف ، واشارة من يده تحمل معنى الاعتذار .

ـ : ها أنت ترى ... المحل شبه خال من أية بضاعة ذات قيمة . بينى وبينك تجارة العاديات القديمة تجارة فى نزعها الاخير .

ليس عليها أقبال من ناحية ، وليس هناك ما تشتريه أنت لتعرضه من ناحية أخرى . سواء أكان أثاثات منزلية قديمة ، أو أوانى صينية أو أدوات زجاجية ... كلها ، قابلة للكسر بالاستعمال أو النقل المتكرر أو بدأ يبلى بدرجات متفاوته . أنا لم أشاهد مثلا شمعدانا من الفضة طيلة هذه السنوات ...

المحل ، حقيقة مزدحم بمعروضات مكومة بلا نظام فوق بعضها البعض ، لكن من النادر أن تجد فى كل هذا الركام شيئا ذا قيمة . أرضية المكان أصبحت ضيقة ، يصعب التحرك فيها . الجدران مغطاة بأطر ولوحات قديمة متراصة . فوق جدار النافذه ، أطباق كبيره من خشب قديم .. مجموعة من أدوات الرسم والنحت المستهلكه .. مطاوى قديمة مثلمة النصول ، عدة ساعات لاتعمل ، تكسوها البقع ... ومجموعات من معروضات تافهة أخرى لاتحمل قيمة حقيقية ، ربما باستثناء ما عرض على مائدة فى ركن المحل فوقها تصنيفة من المعروضات لا رابط بينها .. علب نشوق مطعَّمة ، مجموعات من دبابيس الشعر وحلى الصدر مرصعة بالعقيق ، أو ما شابهها من حلى ..

بدأت هذه المنضدة تثير اهتمام وينستون فاتجه اليها متأملا .. لفت نظره وهو فى طريقه اليها ، أحدى المعروضات الرقيقة تعكس ضوء القنديل الساقط عليها .. التقطها ليتفحصها عن قرب .

كانت قطعة كبيرة من الزجاج ، مستديرة فى أحد جوانبها ، مستوية على الجانب الاخر فيما يشبه نصف الكرة المستند الى قاعدة .. ملمس الزجاج ناعم ، كأنه مغسول للتو بماء المطر . كأن صفاء المطر قد انتقل الى قلب الزجاج فأكسبه رقة وشفافية .. فى وسط الكرة الزجاجية يوجد شكل سندسى الطابع على هيئة ورده أو نجمة بحر .

بهره منظر التحفة ، فسأل البائع : « ما هذه ... ياترى » ؟

ـ : حلية .. مصنوعة من المرجان .. لابد أن أصلها يرجع الى المحيط الهندى . مثل هذه الحليه لم يعد يصنع منذ ما يزيد على المائة سنة . كما ينبئك مظهرها ، بل ربما يرجع تاريخها الى فترة زمنية أبعد ....

ـ : شكلها جميل بلا شك

ـ نعم .. تحفة جميلة

ثم أضـــــاف :

ـ : « لكن من الصعب أن تجد من يقدر هذا الجمال الآن ، لو أراد أحد شراءها اليوم ربما كلفته أربع دولارات على الاكثر أما فى القديم فأنا أذكر أن تحفة شبيهة كانت تباع بمبلغ يصل الى ثمانية جنيهات استرلينية .. وأيام زمان ، ثمانية جنيهات استرلينية كانت تساوى ... كانت تساوي ... فى الحقيقة لا أستطيع ان أحدد بالضبط كم كانت تساوي ... لكنها كانت تساوى مبلغا ضخما .

لم يعد أحد يهتم بالتحف الاصيلة . أو حتى بالبقايا منها ؟

نقده وينستون على الفور الأربعة دولارات ووضع التحفة فى جيبه .

ما أثر فيه على الارجح . ليس جمالها فحسب ، بل سيماء القدم البادية عليها .. أنتماؤها الصريح الى عالم قديم .. مضى وانقضى وتحمل هذه التحفة بعض آثاره ، نكهة القدم هى ماجذبته .. زجاجها الشفاف الرائق لا شبيه له الان ، ثم أنها تحفة تكتسب جاذبيتها من حقيقة كونها غير ذات نفع مادى .. غير قابلة للاستخدام اليومى ، حتى وان شك وينستون انها كانت ربما تستخدم فى الماضى «كثقالة» ورق . أحس بثقلها فى جيبه . لكنها لحسن الحظ لم تجعل جيبه يبدو منتفخا بصورة ملفتة للنظر . فامتلاك مثل هذه الاشياء أيضا فيه نوع من الخروج عن المألوف لعضو فى الحزب ... أمتلاك أى شيء قديم أو أثرى - وبالتالى أى شيء جميل الشكل - قمين بأن يثير الشكوك حولك .

أما صاحب الحانوت فقد لاحت على وجهه بوادر الانشراح باستلامه للدولارات الأربعة كاملة ، مما حمل وينستون على الاعتقاد بانه كان بامكانه شراء هذه القطعة بسعر أقل .. ثلاثة .. أو اثنين لكن ، لايهم .

عاد الرجل يسأله :

- : «توجد غرفة أخرى فى الدور الاعلى ، هل تحب ان تلقى نظره عليها ؟ ليس بها الكثير .. قطع قليلة أيضا ، وأضاف ، ستحتاج لقنديل آخر لنصعد هذا السلم اليها»

صعد وينستون بعد ان أعد الرجل قنديلا أمسكه فى يده لينير الطريق ، وهو يتحسس بحذر درجات السلم البالية بظهره المحنى ، ثم يتقدم عبر ممر ضيق يقود الى غرفة لاتطل على الشارع بل على فناء مرصوف بقطع حجاره على مسافة ليست بعيدة .. لمح وينستون عبر النافذة غابة من المداخن ، ولاحظ أيضا أن ترتيب الاثاث القديم الموجود فى الغرفة يوحى بأنها مازالت تستخدم للمعيشة ، وليس لمجرد العرض . سجادة صغيرة قديمة على الارض ، صورة أو أثنتان معلقتان على الحائط ومقعد ضخم عميق القاع ذو مساند ، قذر المظهر ، قريب من المدفأة ، وساعة حائط زجاجية ، عتيقة الطراز ، واجهتها تحمل أرقام الـ ٢٤ ساعة كانت تدق فى صوت خافت ، وتحت النافذة مباشرة سرير كبير أحتل ربع فراغ الغرفة ، ملاءته مازالت فوقه .

عقب الرجل على منظر الغرفة فى نبرة تحمل نبرة الاعتذار :

- : « عشت هنا الى أن ماتت زوجتى . أنا الان أبيع الاثاث ، قطعة .. قطعة . هذا

مثلا سرير رائع من خشب الماهوجنى النادر . أو يمكن أعتباره رائعا اذا تخلصنا من البق الذى يعشش فيه ، وان كانت هذه عملية مرهقة ـ وهنا ، رفع يديه عاليا ليوزع ضوء القنديل على كل مساحة المكان حيث بدت الغرفة ككل فى ظل الضوء الخافت . غرفة ودودة ، تثير أحساسا بالراحة ، التمعت فى ذهن وينستون فكرة أخرى .. من أفكاره النزقة . لماذا لايستأجر هذه الغرفة كملاذ منعزل يدفع لقاءه عدة دولارات ؟ مجرد آفتراض .. أذا واتته الشجاعة لتنفيذه .. لكنها لم تعد أن تكون أحدى نوازع الطيش والجنون التى تنتابه ولذلك حاول طرد هذا النزق من ذهنه فورا ، الا أن جو الغرفة ظل يثير فى نفسه نوعا من الحنين الى الماضى ، كما لو كانت بالمثل تحمل مسحة عهد قديم .. بدا له أنه يعرف بالضبط مايمكن ان يشعر به فى هذه الغرفة اذا قدر له ان يجلس مسترخيا وسط هذا المقعد الضخم ذى المساند ، أمام المدفأة . تخيل نفسه جالسا مستندا بقدميه الى سياج المدفأة ، وغلاية الشاى على النار... وحيدا تماما . دون أن تصادر حريته عين تراقب .. دون أن يطارده أحد فى عزلته وليس ثمة صوت غريب سوى مايصدر عن الغلاية ، ومن الساعة بصوت حركتها الرتيب خافتاً يزيد من ألفة المكان .

لم يستطع أن يكبح جماح ملاحظة عنت له ، فقال فى شيء من حب الاستطلاع : « ألا توجد شاشة سينما تليفزيونية هنا ...؟»

أجاب الرجل بالايجاب معقبا : «أنا لم أطلب أقتناء أى من هذه الاشياء . ثم أن ميزانيتى لاتتحمل قيمة رسومها . ومن ناحية أخرى ، لا أشعر بحاجة لوجودها .. أنظر هذه الناحية .. أرجو أن تعجبك هذه المنضدة المطوية هناك . تحتاج فقط الى مفصلين حديديين لطرفيها المطويين ...

فى الركن الآخر رأى وينستون ، خزانة كتب صغيره ، شدته أليها تلقائيا ، لكنها لم تكن تحوى الا سقط المتاع من الكتب ، أذ كانت حركة التطهير الفكرى قد لاحقت بسطوتها الهائلة أحياء «البروليتاريا» أيضا . ولم يكن مسموحا أن يبقى فى كافة أرجاء «أوشانيا» أى كتاب صدر قبل عام ١٩٦٠ .

ظل الرجل رافعا ذراعه بالقنديل ، ليتوقف أمام لوحة قديمة ذات اطار من خشب الورد ، علقت الى الجانب المواجه للسرير ... بجوار المدفأة .

وجه البائع نظر وينستون اليها فى صوت رقيق ..

ـ : « آه هل تهوى اللوحات القديمة ياترى ؟ »

اقترب وينستون ليتأمل اللوحة . كانت لوحة من المعدن المطروق ، تصور مبنى له قبة ونوافذ مستطيلة ، يرتفع برج فى صدره ، ويحيطه من الخارج سور ، كما ان هناك صورة تمثال فى خلفية اللوحة . اقترب منها وينستون ليشاهدها عن كثب . بدا له ان المشهد

مألوف لديه أيضا ، وان لم يتبين أو يتعرف على شخصية التمثال .

قال البائع ـ : ان اللوحة مثبتة الى الحائط ، لكن اذا كانت لديك رغبة فيها ، فبأمكانى أن أنزعها من الحائط .

عاد وينستون يتأمل اللوحة ليقول أخيرا :

ـ : أنا أعرف هذا المبنى المرسوم فى هذه اللوحة ... لقد تحول الى اطلال الان ... يقع فى منتصف الطريق الذى يضم فى آخره (قصر العدالة)

أمّن البائع على كلامه موافقا ومضيفا :

ـ : سقطت عليه القنابل منذ ... لاأذكر ... منذ سنوات كثيرة مضت ... كان المبنى لكنيسة فى القديم . كان اسمها كنيسة (سانت كليمنت دين) .

وابتسم معتذرا حين شرع يغنى بعفوية أنشودة : ـ (عندما تدق أجراس سانت كليمنت ... فهى تحيى البرتقال وزهر الليمون) .

سأله وينستون بشغف :

« ما هذا الذى تغنيه ؟ »

مقطع أنشودة كنا نغنيها ونحن صغار . لا أحفظ بقية كلماتها كلها ، لكنى أذكر نهايتها :

(ها هى الشموع تنير طريقك)

(ها هى « المفرمة » بها أفرم عظامك .....)

كانت أنشودة مرحة تصاحب رقصة قديمة ، وكان يفرد الراقصون فيها أذرعهم وتتشابك أيديهم لتمر من تحتها ، وعند الغناء اذا حاولت المرور اثناء ترديد : (ها هى المفرمة بها أفرم عظامك) يطبقون بأذرعهم عليك ليمسكوا بك ... الأغنية كانت مشهورة فى تلك الايام ، وفى مقاطعها اسماء لكل كنائس لندن ، أو لكل الكنائس المعروفة فى لندن آنذاك على الاصح » .

عاد وينستون يسرح بناظريه فى اللوحة ، محاولا التعرف على العصر الذى تنتمى اليه الكنيسة . كان من الصعب دائما ان تحزر عمر اى مبنى معروف فى لندن ... فكل مبنى ضخم أو عظيم مرموق ، كان الزعيم دائما يقول أنه قد بنى بعد الثورة . أما المبانى الضخمة المغرقة فى القدم ، فكان يقال بغموض انها بنيت فى « العصور الوسطى » دون تحديد . أما أجيال الرأسمالية فقد كان الرأى السائد أنها لم تقدم للبشرية أى شىء له قيمة . ولم يكن بمستطاع بالتالى أن تقدم دراسة تاريخية استنادا الى المبانى الاثرية (وطبعا ما كان مكتوبا فى كتب التاريخ أمر مفروغ منه) ، فبعد الثورة ، تم تغيير كافة البيانات التى من الممكن أن تستشفها من تمثال أو مخطوط أو حجر أثرى .

ثم قال للرجل :

ـ : لم اعرف أبدا من قبل ان هذا المبنى كان لكنيسة .

ـ : « مازالت هناك مبان كثيرة للكنائس . لكنها الان تستخدم فى اغراض اخرى »

وكأنما قد عاد الحنين بالرجل إلى الأغانى القديمة ، فطفق يدندن بالانشودة من جديد :

(تدق اجراس سانت كليمنت ، تحيى البرتقال وزهر الليمون

تدق اجراس سانت مارتن . اعطنى ثلاث بنسات)

... الخ

لا استطيع استرجاع بقية كلمات الانشودة .

ـ : لكن اين كنيسة سانت مارتن ؟!

ـ : سانت مارتن ياسيدى تقع ... تقع اين ... نعم ... تذكرت ... فى ميدان النصر . فى مواجهة المعرض الكائن هناك . المبنى الكبير ذى الواجهة المثلثة والعواميد الضخمة ، سلالمه مرتفعة وعريضة .

كان وينستون يعرف هذا المكان جيدا . والمبنى الذى يتحدث عنه الرجل قد تحول الان بالفعل الى قاعات عرض لكافة الوان الدعاية الحزبية أو الثورية : كالنماذج المصغرة للقذائف الصاروخية .... انتاج وزارة السلم ونماذج مماثلة « للقلعة العائمة » .... ومجسمات من الشمع تمثل فظائع الاعداء .... الخ .... الخ » .

واصل الرجل كلامه :

ـ : كانوا يسمونها فى القديم (سانت مارتين ـ كنيسة الحقول) ولو انى لا ارى منظر حقول فى هذه الانحاء الان .

لم يشتر وينستون اللوحة . لأن اقتناءها فى منزله يعتبر أكثر نزقا من احتفاظه بالقطعة الزجاجية التى يسعه أن يزعم انه يستخدمها كـ « ثقالة » للاوراق ، اما اللوحة ، فهى تحتاج اولا لنزعها من الحائط ، ثم عملية نقلها الى منزله محفوفة بالخطر ... بقى لفترة فى المحل مواصلا حديثه مع الرجل . اتضح ان اسمه ، على غير ماتوقع بالنسبة لفرد من « البروليتاريا » هو تشارنجتون أو « مستر » تشارنجتون ، باعتبار ما كان يسمى به فى الماضى .... أرمل فى الثالثة والستين على وجه الدقة ، يقطن فى هذا المحل منذ ثلاثين سنة ، وان لم يعن بتغيير اللافتة الخارجية للمحل المكتوب عليها اسم « ديكس » ، ليكتب اسمه بدلا منه ، طافت بمخيلة وينستون ، وهو يحدثه ، تلك الانشودة التى كان يتغنى بها الرجل . وبرغم طرافة كلماتها ، فهى تثير فيه احساسا هائما بان هناك اصوات الاجراس تداعب سمعه ، اجراس لندن اخرى غير التى يعيش فيها الآن ... مدينة عاشت فى الماضى ومازالت تعيش بقاياها فى نفس عالمه ، منطوية ، ومنسية ، تطل عليه من فوق ابراج الكنائس بصورة غائمة ، والغريب انه ، على قدر مايذكر ، لم يسمع فى الواقع صوت جرس كنيسة فى حياته بطولها .

استأذن من مستر تشارينجتون وهو فى الغرفة العليا ، حتى لايراه الرجل وهو يطل بحذر من المبنى ، ليستكشف هل هو مراقب أم لا ، وقبل ان يطوى الشارع بخطى سريعة . كان قد عقد العزم على العودة الى هذا المحل بعد فترة مناسبة . فى غضون شهر مثلا .... من الممكن ان يغامر بالتخلف عن اجتماع المركز الاجتماعى . اقنع نفسه ان مغامرة التردد على المحل ، هى نفسها مغامرة التخلف . أما ما اعتبره نزقا بالفعل فهو ان يتردد على نفس المحل الذى ابتاع منه دفتر ذكرياته دون ان يتأكد من الهوية الحقيقية لصاحب المحل . هل له علاقة بالبوليس السياسى مثلا ؟ ومع ذلك فكر مرة اخرى ... ليجد نفسه موقنا ، رغم كل شىء انه سيعود وسيشترى منه مقتنيات جميلة تافهة .... سيشترى لوحة « سانت كليمنت دين » ، سينزعها عن الحائط ويحملها الى شقته بعد اخفائها تحت معطفه ... سيغرى شارنجتون بان يجاهد كى يتذكر بقية كلمات الانشودة . حتى الفكرة الجنونية ـ فكرة استئجار الغرفة ـ اقتحمت مسار خواطره كلمحة خاطفة . اجتاحته نشوة غامرة لما راود ذهنه من مشاريع ، فتحول الى انسان لايبالى ... لم يعن الا بنظرة عجلى قبل ان يخطو خارج المحل ، بل لقد اخذ يتمتم فى غير ما حذر بكلمات الانشودة التى سمعها ... يتمتم بها فى الشارع العام ....

« أجراس سانت كليمنت تحيى البرتقال وزهر الليمون
اجراس سانت مارتن أعطنى الثلاث ..... »

فجأة تجمد الدم فى عروقه .... واحدة ترتدى الزى الازرق قادمة اليه من الاتجاه المعاكس . انها نفس الفتاة فاحمة الشعر فى قسم الادب الروائى . لكن لم تبتعد عنه اكثر من عشرة امتار . صوت الشارع كان خافتا ، لكن .... صوبت الفتاة نظرة ثاقبة ... نظرة لاتخطىء الهدف ... الى عينيه تماما ، ثم واصلت سيرها كأنها لم تلحظه ... .

مرت ثوان اسلم فيها وينستون نفسه لسطوة الذهول . حالة شلل كامل سيطرت على كيانه . ثم استدار بخطوات ثاقبة واتجه يمينا ، دون ان يلحظ انه يسير فى اتجاه خاطىء لايقوده الى منزله . على اية حال فقد تأكد الان من احد الاسئلة المعلقة . فهذه الفتاة تتجسس عليه ... لاشك فى هذا . لابد انها قد تبعته الى هنا . فمن غير المعقول ان تسير فى نفس الشارع بالصدفة ، وفى نفس ليلة تغيبه عن المركز بالصدفة ... فى منطقة تبعد عدة كيلومترات عن اى حى يشغله اعضاء الحزب ... كل ذلك بالصدفة ؟!.... غير معقول ! لايهم بعد ذلك ، اذا كانت عضوا رسميا فى البوليس السياسى أم مجرد جاسوسة هاوية تتطلع الى تحقيق عمل باهر . يكفى انها قد ركزت عليه وانها تراقبه . بل ربما رأته يدخل « الحان » ايضا ...

شعر وينستون انه فى حاجة الى طاقة هائلة ليجر قدميه اللتين ثقلتا فجأة . قطعة الزجاج الناتئة تضرب فخذه مع كل خطوة ، لم يكن فى كامل وعيه بحيث يتخلص منها . أما اكثر ما آلمه فهو اضطراب معدته ، شعر انه لابد ان يصل الى اية دورة مياه ليفرغ احشاءه ، والا مات بعد دقائق معدودات ... ومن اين له بدورة مياه عامة فى مثل هذه الاحياء ؟ ثم بدأت آلام أحشائه تخف رويدا . مخلفة أحساسا بالضيق ... والالم .

اكتشف أنه يسير فى زقاق مسدود ، فدار على عقبيه ووقف للحظة حائرا لايدرى الى اين يذهب وكيف يتصرف ؟ ثم بدأ مستعيدا اتجاه الشارع الذى كان يسير فيه وموقع منزله ..... من ثم أخذ يعيد تقييم الموقف : هذه الفتاة مرت به منذ ثلاث دقائق لماذا لا يركض محاولا اللحاق بها ... فيتتبعها هو بدوره فاذا وصلا الى مكان معزول فبامكانه أن يقتلها بأن « يفلق » رأسها بحجر ثقيل . بل حتى قطعة الزجاج الثقيلة فى جيبه يمكن ان تؤدى الغرض . ثم مالبث ان هدأ وتخلى عن هذا النزق ، لأن مجرد قيامه بمجهود جسمانى عنيف ، كان فوق طاقته الآن . وهو لايستطيع ، لا الجرى ولاحتى توجيه اية

ضربة عنيفة ، ثم ان الفتاة صغيرة السن ، ممتلئة حيوية .. وتستطيع بالتأكيد ان تدافع عن نفسها ... فكر فى الاسراع الى مركز الخدمة الاجتماعية ليبقى هناك حتى نهاية السهرة وحتى يثبت بعده عن المنطقة التى شاهدته فيها الفتاة . لكن الوصول الى هناك فى موعد مناسب ، كان ضربا من المحال . لم يبق أمامه الا ان يركن الى نوع من البرود اليائس ... اصبح كل امله محصورا فى ان يصل الى منزله فى اسرع وقت ممكن ليضع نهاية لمعاناته النفسية الرهيبة .. مجرد ان يجلس فى هدوء داخل بيته ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

وعندما وصل الى شقته كانت الساعة تقارب العاشرة . بقيت ثلاث دقائق وتطفأ انوار المبنى ... فاسرع الى المطبخ وصب لنفسه ملء فنجان شاى من الجين وابتلعه ، ثم قصد الى المنضدة المعهودة وجلس اليها ... اخرج دفتر مذكراته من الدرج ... لكنه لم يفتحه مباشرة . فقد اقتحم وجوده فى وحدته صوت نسائى من شاشة الجهاز يزعق فى وجهه بنشيد حماسى . استجمع كل طاقته ليطرد هذا الصوت عن سمعه محاولا ان يتوهم ان ليس لهذا الصوت وجود فى الغرفة . ثم حملق فى الغطاء الخارجى لدفتر المذكرات ... الصوت مازال يطارده ..

ـ : عندما يستدعيك البوليس السياسى للاستجواب ... يتم ذلك ليلا ... دائما فى الليل ... أفضل شيء ياونستون ان تقتل نفسك قبل ان ينالوا منك ، فلابد ان كثيرين قد انتحروا لنفس السبب ..

اعداد كبيرة من « المختفين » كانوا منتحرين .... بيد ان الانتحار ... دون اسلحة نارية ، أو سم سريع المفعول يحتاج الى شجاعة رهيبة ـ.... وجد نفسه يفكر بغرابة فى عدم جدوى الالم والخوف من الناحية البيولوجية المحضة ... ان تخذلك احاسيسك ، فى اللحظة التى تحتاج فيها اكثر من أى وقت الى انتظام وظائف اعضائك حتى تنجز بكفاءة عملا على هذه الدرجة من الخطر . هذا التجمد الذى يصيب اعضاءك هو خيانة من الجسد للفكر ... كان أجدر به ان يسكت الى الابد صوت الفتاة ـ بعد ان شاهدته ـ كان ينقصه ـ فقط ـ ان يتصرف بسرعة . لكن جسامة الخطر المباغت الذى شعر انه يهدده برؤية الفتاة له ، شل قدرته على الحركة . دهش لفكرة اقتنع بها الآن : « إنه فى لحظات الازمة لايحارب الانسان عدوا خارجيا ، بقدر ما يحارب ضد مايجتاحه فى الداخل من قوى معطلة »... معدته بدأت تؤلمه .. لم ينجح الجين فى تهدئتها . اصبح التفكير المنطقى مستحيلا . يبدو ان التفكير لايستقيم مع اللحظات المأساوية أو البطولية . فالأمر سواء فى

ميدان القتال ، أو فى عنابر التعذيب ، أو فى سفينة على وشك الغرق ، المهام الضخمة التى تواجهك تختفى من الوعى مؤقتا ، تسقط فى نسيان جزئى ، ومطالب الجسد الملحة هى التى تطفو على السطح ، بل حتى سويعات الحياة اليومية المعتادة ان لم يهددك خطر داهم أو الم صارخ ... فسائر لحظات الحياة هى كفاح متصل ضد الجوع ، أو البرد ، أو الأرق أو الآلام المعتادة .. كألم فى سنك .. أو فى معدتك .. تماما كما يشعر هو الآن .

وفتح دفتر مذكراته ...

من المهم ان يسجل الان شيئا فى مذكراته ... المذيعة المطلة من الشاشة انتقلت الى نشيد جديد . صوتها الحاد ينفذ الى رأسه كنثار زجاج شائك جارح ... حاول ان يستدعى صورة « أوبرايان » الى ذاكرته . ثم قرر ان يعنون مذكراته اليه ... ولكن بدلا من صورة اوبرايان ، احتلت ذهنه صور مختلفة ـ لما يمكن ان يحدث ـ لو قبض عليه رجال البوليس السياسى . لو اقتصر الامر على إنهاء حياته بسرعة لهان الامر ، فالموت امر عادى فى مثل هذه المواقف ، لكن ماقبل الموت ... هو الذى لايطاق . والغريب ان احدا لم يتطرق للحديث فى هذا الموضوع ابدا ....

رغم ان مايحدث كان معروفا للجميع ... معادلة صعبة ! فقبل ان يقبضوا عليك ، يجب ان تدلى باعتراف مفصل مع كل طقوسه الروتينية التى لابد ان تتكرر مع كل حالة مماثلة ... سحل جسدك حيا على الارض ، طلب الرحمة من قسوة التعذيب الذى ستتعرض له حتما ، صوت الكسور التى ستصيب اطرافك ، أو قفصك الصدرى ، وحتى عامودك الفقرى ... ثم بضعة اسنان تتناثر مع الدماء من فمك ، لعنف الضربات المصوبة الى وجهك نفسه ... ثم اخيرا وليس آخرا ، مجموعة من خصلات مخضبة بالدم انتزعت من فروة رأسك .

لماذا يتحمل المقبوض عليهم كل هذا العذاب ؟ اذا كانت النهاية واحدة ؟ ماجدوى عدة ايام أو حتى عدة اسابيع ... تضاف الى حياة منتهية أو مختصرة من حياة منتهية . ان الانسان بمجرد اختياره طريق الانشقاق الفكرى عن الحزب ، يختاره الموت تلقائيا . فلتعش اذن شهورا أو حتى سنوات ، لكن النهاية محتومة . لا احد ينجو من اكتشاف امره ... مطلقا . ولم يحدث ان امتنع أحد من المقبوض عليهم عن الاعتراف . فمع اول خطوة لك على طريق الانشقاق الفكرى ، هناك مايشبه اليقين انه فى تاريخ معين ـ يطول أو يقصر ـ ستطوى صفحة حياتك قبل الأوان ... بل ان مجرد اختيار طريق « الفكر » فى

حد ذاته ، هو اختيار ضمنى ... لطريق الموت ، اذن لماذا كل هذا الرعب ؟... ولماذا يتحمل المرء كل هذا القدر من العذاب ، وهو يعلم علم اليقين مدى ونوع النهاية المحتومة ؟

اجهد ذهنه مرة اخرى ليستدعى صورة « اوبرايان » لمخيلتـه ... تذكر صوتـه ـ : « سنلتقى حيث لن يكون هناك ظلام » ... هذه بالفعل هى نفس كلمات « اوبرايان » فى الحلم ... لقد ادرك مايعنى بهذه الكلمات أو خيل اليه انه قد ادرك .... فالمكان الذى لن يحيق به الظلام : هو المستقبل البعيد المشرق كما تخيله ، مستقبل لن يراه أى منهما ، لكنه قادر بشىء من الحدس ... من الاحساس الغيبى ان يشارك فى صنعه ..

توقف انثيال خواطره على صوت المذيعة الحاد يكاد يخترق اذنيه . وضع سيجارة فى فمه ليشعلها . تساقط بعض التبغ منها الى فمه . مذاقه كمذاق رمل مطحون وفيه مرارة ... ازاحت صورة الزعيم فى مخيلته صورة اوبرايان .

كرر مافعله منذ عدة ايام . التقط قطعة نقود معدنية من جيبه واخذ يفحص الوجه المرسوم عليها . عينا الزعيم تحملقان فيه ، بنظرة ثقيلة ، هادئة مطمئنّة ... ومطمِئنة ! لكن كم من الجرائم ترتكب تحت ستار هذه البسمات ...

كان الزعيم يطل عليه من احد وجهى العملة .. مبتسما ..
الحرب ... هى السلام
فى الحرية ... عبودية
فى الجهل ... قوة
وعاد نعيق هذه الكلمات يطارده حتى دون ان يراها .

❊ ❊ ❊

الجزء الثاني

الفصل الثاني

(١)

لندن .. فى منتصف النهار .

غادر وينستون القسم الذى يعمل فيه متجها عبر الممشى الى دورة المياه فى آخره .

لمح هيئة شخص قادم فى الاتجاه المقابل له فى الممشى الذى يسير فيه .. الرواق مضاء بمصابيح كهربائية قوية . اتضح له انها الفتاة فاحمة الشعر مرة اخرى ... قبالته تماما . كانت قد مضت اربعة ايام منذ لمحته يسير خارجا من محل التحف القديمة . عندما اقتربت منه لاحظ ان هناك رباطا طبيا ضاغطا ازرق اللون يلف ذراعها اليمنى ، له نفس لون ردائها الحزبى تقريبا . يبدو انها اصيبت اثناء عملها على احدى آلات الطباعة بقسم الأدب الروائى الذى تعمل فيه ، حوادث ليست نادرة للعاملين بهذا القسم .

لم يكد يفصل بينه وبينها مايزيد على الأربعة أمتار ، حتى رآها قد تعثرت فى سيرها وسقطت فى وضع يكاد يكون افقيا تماما ، منكفئة على وجهها . انتزع الارتطام منها صرخة ألم حادة . لابد أنا قد سقطت على الذراع المصابة . توقف وينستون ، حين نهضت الفتاة مسرعة رغم الألم . وجهها مصفر وقد كساه شحوب شديد . رجح ان السبب فيه مفاجأة العثرة ، كأنما الدم قد هرب من وجهها فجأة .. مما جعل شفتيها تبدوان أشد احمرارا من لونها الطبيعى . عيناها مثبتتان على عينيه ... فيهما دعوة مستورة للنجدة ، مع تعبير ينم عن الخوف أكثر مما يعكس من الألم .

انتابت وينستون أحاسيس متضاربة . فهو أمام عدو يسعى لموته ، لكنه ـ فى نفس الوقت امام انسان يتألم ... فمن الجائز ان ذراعها قد كسرت . وجد نفسه تلقائيا يخف لنجدتها . بل شعر فعلا ، لحظة سقوطها على ذراعها المصاب ، كما لو أن الألم قد انتقل تلقائيا الى ذراعه هو .

ـ أتشعرين بألم ؟

ـ لا ... لا ... لاشىء .. ألم بسيط .. فى ذراعى فقط ..

يكاد يشعر بنبضات قلبها الواجف ، وهى عجيبة ، كما لاحظ شدة شحوب وجهها عندما اقترب منها .

ـ هل تشعرين بكسر فى ذراعك ؟

ـ لا .. شعرت بألم فقط عند سقوطى . لكن أنا الآن أحسن .. لا أشعر بكسر .

مدت يدها الأخرى اليه . فساعدها على النهوض بينما استعادت بعض احمرار وجهها ، وبدت فى حالة افضل مما كانت عليه ساعة سقوطها . وعادت تقول :

ـ اصابة بسيطة على كل حال ، مجرد ألم فى المفصل . شكرا يارفيق على تعبك معى .

لم يستغرق الحوار الا نصف دقيقة ، ثم تركته الفتاة بعد أن شكرته ومضت بنفس الخفة ، وهى تسير كما لو كانت لم تصب بشىء بالفعل .. أما عن وجهها الخالى من التعبير . فهو بالنسبة للجميع من طول التعود عليه ، قد أصبح له قوة رد الفعل الغريزى ، كما أن شاشة جهاز السينما التليفزيونية كانت مواجهة لهما مباشرة . ومع كل ذلك اعترته دهشة لم يستطع ان يحكم السيطرة على تعبيرات وجهه عند الاحساس بها ، فقد دست الفتاة فى يده ـ عندما تلاقت أيديهما لينهضها من سقطتها ـ دست فى يده شيئا ما . من الواضح ان فعلتها هذه مقصودة . أحس بالشىء فى يده صغيرا أملس . عند دخوله من باب دورة المياه نقل ماأعطته الفتاة بخفة الى جيبه ، وتحسسه بأطراف أصابعه . كانت ورقة مطوية مربعة صغيرة . اثناء وقوفه الى المبولة ، فكر فى أن يفض الورقة . لابد أنها رسالة من نوع ما . حب الاستطلاع يسيطر على حواسه ... فكر فى ان يدخل الى المرحاض ويقرأها خلف الباب المغلق ، لكنه يعرف جيدا ان أكثر الأماكن سرية هى أكثر الأماكن عرضة للمراقبة . فمثل هذه المحاولة غباء مطلق .

عاد مرة اخرى الى مكتبه ، وجلس اليه . وبسرعة ألقى بالورقة المطوية على مكتبه لتختلط مع غيرها من الأوراق امامه . ثبت نظارته الى عينيه ، وقرب جهاز الكاتب الصوتى الآلى اليه . حدث نفسه قائلا « لأستمر فى عملى المعتاد خمس دقائق ... خمس دقائق اخرى على الأقل » ، قلبه ينبض فى صدره بعنف خشى من قوته . ولحسن الحظ كانت المهمة المكلف بها مجرد تصحيح بعض ارقام الانتاج وبعض التواريخ ، مهمة روتينية لاتحتاج الى تفكير مركز .

أيا كان المسطور فى هذه الورقة ، فلابد ان له مضمونا سياسيا ، وعلى قدر ماأسعفه فكره المشتت ، فهناك احتمالان ، لاثالث لهما . الأول ـ وهو الاحتمال الأرجح ـ ان الفتاة

هى بالفعل احدى عضوات البوليس السياسى . لكنه وقف حائرا مع هذا الاحتمال ، اذ ليس من عادة البوليس السياسى ان يرسل اخطارات بهذه الطريقة . عاد يقول لنفسه .

ـ : « لابد ان لديهم مبرراتهم لمثل هذا الأسلوب الجديد » ، ربما كان مضمون الرسالة الموجهة اليه .. تهديدا ، أو استدعاء ، أو أمرا بالانتحار ، أو لعله مجرد فخ من الفخاخ التى ينصبها البوليس السياسى لضحاياه .. ترى هل يلعب البوليس السياسى معه لعبة القط والفأر ؟! يلاعبه قبل القضاء عليه ؟ لكن هناك الاحتمال الثانى ، وهو اكثر خطورة ... احتمال تمثل فى فكرة تطل برأسها لتسيطر على ذهنه رغم محاولته كبح جماحها : ان تكون الرسالة المسلمة له عبر الفتاة صادرة عن احدى المنظمات السرية المناهضة للحكم ... لم لا ؟؟ ربما كان لجمعية « الأخوة » وجود حقيقى فعلا .. والفتاة عضو فيها . هذا الاحتمال الثانى ، رغم كونه احتمالا بعيدا .. وجد نفسه وقد تطرق الى ذهنه فى نفس اللحظة التى وضعت فيها الفتاة الورقة الملفوفة فى يده ، قبل ان يفكر بتعقل ليصل الى الاحتمال الأول الذى بدا أكثر منطقية . الا ان رد الفعل الفورى والتلقائى ، كان الاحتمال الثانى : انها عضو فى جماعة سرية ... والآن ، برغم عقله الذى ينبئه ان الرسالة المطوية امامه تحمل اليه فى الغالب خطرا من نوع ما ، الا انه لم يستطع ان يمنع احساسا ساذجا وغير منطقى بالأمل الذى تشبث به ، فأخذت ضربات قلبه تزداد عنفا ، واستطاع بما يشبه المعجزة ان يسيطر على نبرات صوته وهو يملى الأرقام المصححة فى جهاز الكاتب الصوتى الآلى . طوى الأوراق امامه بعد ان فرغ منها ، والقى بها فى جهاز الضغط الهوائى لتأخذ مسارها المعتاد . مضت ثمانى دقائق كاملة منذ تسلم الورقة المطوية . عدل وضع نظارته على عينيه ، اطلق زفرة ليستعيد توازنه النفسى ، وبيده قرَّب مجموعة الأوراق التالية التى سيبدأ العمل فيها . طبعا الورقة المطوية على قمتها . أمسك الورقة المطوية بهدوء يبدو عاديا .. وفضها وقرأ ... كلمتين اثنتين ... مكتوبتين بخط ردىء :

أنا أحبك ..!

مضت ثوان أسلم نفسه فيها لعالم الدهشة والانبهار ، والصدمة ، والجنون ... وبلغت به شدة الانفعال الا يلقى بهذه الورقة ـ التى تحمل ادانة .. مادية له ـ ألا يلقى بها فى احدى جحور الذاكرة ليتخلص منها ... أمسك بدليل ادانته وتشبث به . وحتى قبل ان يلقى بالورقة فى الفتحة ، قرأها مرة ثانية وثالثة ليتأكد من ان الحروف المكتوبة بها حروف حقيقية ، وان الأمر ليس وهما أو خداع نظر .

وطوال بقية ساعات العمل الرسمية هذا الصباح وجد صعوبة شديدة فى ان يركز انتباهه فى عمله .

سطر واحد لايزيد عن كلمتين اثنتين ، هز كيانه ... لكن المجهود الأكبر الذى بذله ، وكلفه طاقة نفسية فوق مايحتمل ، لم يكن مجرد التركيز فى عمله بذهن مشتت ، بل ان يبدو طبيعيا امام شاشة الجهاز ، وهو عمل فى داخله هذا الكم من الانفعال .. وهذا القدر من الاثارة ... لم يشعر يوما كل هذه الكراهية لجهاز السينما التليفزيونية قدر احساسه اليوم .. عجيب ان تولّد كلمات الحب كل هذه الكراهية .. شعر بآلام معدته تنتابه مرة اخرى . وكان تناول الغذاء الذى اقترب موعده فى الكانتين المعهود بزحامه ، وجوه الخانق ، وضوضائه .. هو قطعة من العذاب . داعبه الأمل فى ان يستطيع - ولو للحظات - ان يخلو الى نفسه بعيدا عن العالم كله ، لكن سوء حظه كان بالغا ، فقد اطبق عليه « بارسونز » شخصيا ، برائحة عرقه تسبقه وتكاد تطغى على رائحة اليخنى الأقل سوءا .. حاصر وينستون بحديثه الغبى والممل ، فلم يدع له فرصة الانفلات ، ليهنأ بوحدته ، فيستعيد تفاصيل التجربة النادرة التى مر بها اليوم ... حدثه بارسونز عن « اسبوع الحقد » ، وهو فى غاية الحماس . أخذ يصدع رأسه بذلك الانجاز الضخم الذى حققته فرقة أشبال الجواسيس التى تضم ابنته . فقد انتهت من تشكيل نموذج مكبر من الورق المقوى لرأس الزعيم عرضه متران كاملان .. ولكن مازاد من ضيق وينستون ، هو اضطراره الى ان يستفسر من بارسونز عن تفاصيل بعض مايقول ، فى خضم الضوضاء الشديدة فى المكان ، مما اضطره ان يرفع صوته طالبا منه ان يعيد هذه الجملة او تلك حتى لايبدو غير مهتم بالحديث عن الزعيم وصوره . الحديث كله كان قطعة من العذاب لانسان يتمزق ليخلو الى نفسه .

مرة واحدة استطاع ان يلمح طيف الفتاة فى الكانتين جالسة الى احدى الموائد مع فتاتين من زميلاتها فى نهاية الصالة .. ولكن بدا له انها لم تلمحه ، وهو من جانبه - من قبيل المبالغة فى الحرص - لم ينظر تجاه مائدتها مرة اخرى .

طوال فترة مابعد الظهر كانت معاناته أقل ... فقد كلف بإحدى العمليات التى تتطلب تفرغا ذهنيا تاما لانجازها . فعليه ان ينحى جانبا التفكير فى اى موضوع آخر . اشتملت العملية على تزوير وثائق خاصة بالانتاج لعامين مضيا ، بطريقة توحى بالقاء ظلال من الشك على احدى الشخصيات البارزة فى « التنظيم الداخلى » . وكان هذا من

نوع الأعمال التى يتقنها هو مما جعله ينهمك فى أداء المهمة وأن يبعد صورة الفتاة عن ذهنه لمدة ساعتين كاملتين .

لكن ملامحها عادت ترامق خياله ثانية ، ومعها رغبة عارمة فى ان يخلو الى نفسه . والى ان يتمكن من أن يجالس نفسه بنفسه . لم يكن فى مقدوره مطلقا أن يبعد عنه لحظة لقاء اليوم ـ هذا التطور الهائل فى وجوده كله ـ أو ان يلقيها خارج نطاق وعيه . كان عليه ان يقضى السهرة فى مركز الخدمة الاجتماعية . ولذلك فقد التهم عشاءه بسرعة فى الكانتين .

وتوجه الى المركز ، حيث شارك فى جلسات الاستغفال الجماعى ، تحت اسم (جماعات المناقشة) ، لعب شوطين من البنج بونج ، وابتلع عدة كؤوس من جين النصر ، وأجبر نفسه على الجلوس ومتابعة محاضرة عن « العلاقة بين أسس (الانجشاك) وأسس الشطرنج » وان يستمر فى المتابعة حتى نهايتها بينما نفسه تنضح بالملل .. ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يجد ما اعتاده من الرغبة الملحة فى الفرار من المركز .

مجرد قراءة سطر واحد ومن كلمتين هنا : « انا أحبك » ... سطر واحد فقط أشعل فى أعماقه من جديد رغبة قوية فى الحياة ... فى ان يبقى كائنا حيا يدب على وجه الأرض . بل حتى أن يعرض نفسه لمخاطرات لاداعى لها ، اصبح أمرا لايتفق ابدا مع شدة تمسكه بأن يبقى هذا الكائن الحى .

تحمل كل سخافات روتين حياته اليومية ، الى ان بلغت الساعة الحادية عشرة مساء . خلا الى نفسه ، لأول مرة ، منذ قابل الفتاة .. والواقع انه خلا الى نفسه تجاوزا فقط ، لأن شاشة السينما التليفزيونية مازالت تشاركه فراشه . لكن على اية حال فالظلام يلف الغرفة ، وطالما بقى صامتا ، فبامكانه ان يقنع نفسه بأن الجهاز الموجود فى غرفته ايضا لا وجود له . واخيرا ... بدأ يستعيد فى ذهنه ماحدث . يسترجع صور اليوم فى تتابعها . مارس تفكيرا متواصلا ـ فرديا غير قابل للمقاطعة من العالم الخارجى ... بل لقد شعر ان هذا العالم الخارجى كله ليس ما يحتم وجود اصلا ... شىء .. مجرد شىء لا لزوم له .

اعتصر ذهنه ليواجه مشكلة حقيقية .. مشكلة مادية يجب ان يبحث لها عن حل ، وهى كيف يتصل بالفتاة ليدبر اول لقاء معها ؟ احتمال ان تكون الفتاة مخادعة تنصب فخا للايقاع به ، اصبح الآن احتمالا سخيفا لا يحتمل المناقشة ، احتمالا مستبعدا ... تأكد انها ليست من هذا النوع . عندما استعاد الحالة التى كانت عليها عندما دست فى يده

قصاصة الورق .. كانت حالة اضطراب وانفعال حقيقيين .. والعمـلاء لايضطربـون ، ولاينفعلون ... ولذلك فالفتاة صادقة تماما .

ولم يخطر بباله مجرد احتمال رفض مبادرتها للتقرب منه ... غريبة مشاعر الانسـان هذه ... فمنذ خمس ليال فقط ، كان يبحث عن طريقة يهشم بها رأس هذه الفتاة بالذات بقطعة من الزجاج ... لكن اليوم ، فلا أهمية اطلاقا لمشاعره فى الماضى . المهم الآن كيف يلقاها وكيف يراها لحما ودما ... واستغرقه تفكير مفاجىء فى قوامها . والمفاتن التى لم يسبق ان التفت اليها فى هذا القوام ... فاذا به يجردها من ملابسها ليراها عارية تماما ... نفس الجسد الشاب المثير الذى يلهب خيال الشباب كلما اضطرمت فى النفس نوازع الرغبة ... لم يكن لها فى نفسه الا صورة احدى مهووسات الحزب .. مجرد ببغاء تردد شعاراته فى غباء ... عقل أُفرغ من محتواه تماما ، فليس فيه الا التفاهة والخواء . أما الآن ، فمجرد التفكير فى احتمال ان يفقدها ، يهز كيانه باحساس من الهلع والرعب ، فهو لايطيق ان يفقدها كامرأة ، وعاشقة ... ومأأثار مخاوفه اكثر من اى شىء آخر هو أن تتراجع عن اقامة علاقة معه ، إذا لم يسرع الى الاقتراب منها ... يجب أن يجد وسيلة للقاء . غـير أن الصعوبات الفعلية التى تعترض امكانية هذا اللقاء ، صعوبات ضخمة ... بدا له موقفه كموقف لاعب شطرنج لابد أن يحرك قطعة معينة ، وهو يعلم أن القطعة التى سيحركها محكوم عليها بالضياع بعد أى حركة .... فشاشات الجهاز تتبعك أينما ذهبت ، وهو لايريد ان يثير شك أحد الآن ، حتى لا تضيع منه الفتاة الى الأبد .

كان قد أخذ يستعرض كل امكانيات اللقاء معها ، بعد خمس دقائق فقط من قراءته الورقة . الآن ، وقد خلا الى نفسه ، بدأ يستعيد فى هدوء كل النقاط التى فكر فيها سلفا ، كصانع ماهر يرص صفا من أدواته على المائدة قبل ان يشرع فى العمل .

بداءة ... ليس هناك احتمال لتكرار موقف اليوم ، بأن يتقابلا فى الممشى . فهى تعمل فى قسم مختلف .. قسم الأدب الروائى ، وهو لايعرف بالضبط موقع هذا القسم فى المبنى . لو كانت زميلته فى قسم الوثائق لكان الأمر أسهل نسبيا ، وليس هناك مبرر يستطيع ان يفتعله ليذهب الى قسم الأدب الروائى . بل ليس هناك مبرر اصلا للسؤال عنه أو عنها .

ومحاولة تتبع خطواتها بعد العمل الى حيث تسكن ، تثير الريبة فى الاثنين . وتلفت النظر . وهو لايعرف عنوانها . ولا ميعاد انتهاء عملها بالضبط .

محاولة ارسال خطاب لها معنونا الى الوزارة ، نتيجتها معروفة ، لأن كل الخطابات الخاصة ، معرضة للفتح بواسطة اجهزة رقابة خاصة ، مما جعل مسألة تبادل الرسائل بين الناس عملا نادراً . ومعروف ان الدولة قد اعدت صيغ خطابات مكتوبة جاهزة ، تحوى قائمة طويلة من الجمل التى يحتمل ان يستخدمها المواطن فى المراسلات اليومية العادية . وماعليك الا ان تضع علامة على الجمل التى تحتاجها الى من تود مراسلته . ثم قبل كل شىء او بعد كل شىء ، انه يجهل اسمها حتى الآن .

أخيرا فكر فى الكانتين .

ان اسرع وسيلة للاتصال بها هو الكانتين فلو استطاع فقط ان ينفرد بها على مائدة منفصلة ، حتى ولو فى وسط الصالة .. فى مكان ليس قريبا الى حد يمكن لشاشة الجهاز ان تلتقط حواره ، لأن الضوضاء ، ستكون محيطة به من كل مكان لو تمكن من الانفراد بها حتى ولو لنصف دقيقة ، لأمكنه ان يتبادل معها عدة كلمات تنير له الطريق .

مضى أسبوع على تسلمه الورقة .... سبعة ايام كاملة ... والحياة بالنسبة له حلم قلق . فى اليوم التالى لم تظهر فى الكانتين الى ان انطلقت صفارة انتهاء فترة الغذاء ... فى الغالب غيروا لها ورديتها ، لتتناول غذاءها مع المجموعة التالية ، فقد رآها تدخل الكانتين وهو خارج منه ... لم يتبادلا حتى النظرات .. تظاهرت من جانبها بأنها لم تلمحه . ثم فى اليوم الذى يليه وجدها فى نفس ورديته فى فترة الغذاء ، لكنها كانت جالسة الى مائدة مع ثلاث فتيات وقباله شاشة الجهاز مباشرة .

وبدا ان تفكيره كله ، بل وكيانه بأجمعه قد ذاب فى احساس لا يطاق .. نوع من الشفافية ، جعل كل حركة .. كل صوت .. كل لمسة .. كل كلمة ينطقها أو يسمعها ، عذابا رهيبا . وحتى فى النوم لم يكن يستطيع أن يهرب من صورتها .. لم يلمس دفتر مذكراته خلال هذه الأيام .. وكان ملاذه الوحيد ، هو العمل الذى كان يستطيع ان ينسى فيه أحيانا نفسه لفترة قد تمتد لعشر دقائق ، ولم تكن لديه أى فكرة عما يمكن ان يكون قد طرأ عليها .. ولا سبيل الى الاستفسار عنها .. يمكن ان يكونوا قد بخروها .. يمكن ان تكون قد انتحرت .. يمكن أن تكون قد نقلت الى الطرف الآخر من « اوشانيا » .. والأسوأ من كل ذلك ، والأكثر احتمالا ، أن تكون قد غيرت رأيها فتعمدت أن تتحاشاه وتبتعد عنه .

وفى اليوم التالى عادت الى الظهور .. كانت ذراعها مطلقة من المعلاق ، وقد أحيط رسغها بقطعة من اللصوق .. الارتياح الذى بعثه مرآها فى نفسه كان من الطفرة بحيث لم يستطع ان يقاوم التحديق المباشر فيها بضع ثوان .

وفى اليوم الذى يليه ، كاد يوفق فى التحدث اليها .. اذ عندما جاء الى الكانتين كانت جالسة وحدها تماما الى منضدة بعيدة عن الجهاز ، وكان الوقت مبكرا ، ولم يكن المكان مزدحما .. والصف الذى وقف فى نهايته كان يتقدم الى ان وصل ونيستون الى منضدة التوزيع ، ثم توقف لمدة دقيقتين لأن أحدهم فى المقدمة كان يناقش النادل خلف المنضدة فى أنه لم ينل حصته من اقراص السكرين .. ولكن الفتاة كانت ما تزال وحدها ، عندما حمل ونيستون صينيته ، وأخذ يتقدم نحو مائدتها .. مشى اليها متصنعا مظهرا عفويا بينما عيناه بدتا تبحثان عن مائدة خلفها .. كانت على مبعدة ثلاثة أمتار منه .. ثانيتان فقط ويتحقق له ما يريد .. ولكن .. صوت خلفه يناديه .. « سميث » .. تظاهر بأنه لا يسمع ولكن مرة أخرى « سميث » بصوت مرتفع .. لا فائدة .. التفت .. فاذا بشاب اشقر الشعر ، أحمق الملامح ، بالكاد يعرفه اسمه ويلشر ، يدعوه بابتسامة عريضة الى مكان خال على مائدته ، ولم يكن يأمن ما يترتب على الرفض . وبعد ان لوحظ وعرف لم يستطع ان يصطنع العفوية ، فيذهب ويجلس بطريقة عفوية الى المائدة التى تجلس اليها الفتاة ، لابد ان تصرفا كهذا سيلاحظ .. فجلس وهو يصطنع ابتسامة متوددة .. بينما انقض عليه الاشقر البنى .. خطر له لو أنه يستطيع ان ينهال عليه بمعول يفلقه نصفين .. ولم تمض دقائق بعد ذلك حتى شغل احدهم المقعد الخالى مع الفتاة .

ولكن لابد انها لمحته وهو قادم نحوها .. ولابد انها ايقنت ان يحاول الاتصال بها .

* * *

ظهر اليوم التالى بكر فى دخول المقصف ، وهو واثق انه لابد سيجدها فى نفس مكان الأمس ، متوقعا ان تكون بمفردها . وقف فى الصف كالعادة . الرجل الواقف امامه ضئيل الحجم ، سريع الحركة ، له شكل الخنافس ، بوجه ممطوط وعينان لاتوحيان بالثقة . عندما تناول وينستون صينيته وترك الطاولة لاحظ ان الرجل يسير فى اتجاه مائدة الفتاة .... كاد الأمل ان يضيع منه ليوم آخر ، لكن كان هناك مقعد خال فى مائدة اخرى أبعد من تلك التى تجلس اليها الفتاة وحيدة . اتضح ان الرجل يبحث عن أكثر الموائد راحة بالنسبة له ، قصد المائدة الخالية ليستمتع بالأكل منفردا ، الا ان وينستون فوجىء بصوت ارتطام جسم الرجل بأرض القاعة . فقد انزلقت قدمه مع تلهفه على الوصول الى المقعد الخالى قبل غيره . ولكنه سرعان مانهض ، والتفت الى وينسون وكل نظرات الشك موجهة اليه ، كما لو كان هو الذى تعمد عرقلته ، لكن الموقف مر بسلام ، بعد ان تأكد ان وينستون لاذنب له ، وان سقوطه كان نتيجة لتسرعه ليس الا . مرت خمس ثوان اخرى قبل ان يسحب وينستون المقعد المواجه للفتاة ويجلس عليه دون النظر اليها .

اخذ يفرغ محتويات الصينية على المائدة ، وبدأ يأكل . كان من الأهمية بمكان ان يبدأ حديثه معها على الفور ، قبل ان يشاركهم انسان آخر الجلوس الى المائدة لكنه احس بلجلجة ، وبخوف يتملكه ، اذ مضى اسبوع كامل منذ محاولتها التعرف عليه . ربما تكون قد تراجعت عن المضى فى اقامة علاقة معه .. ربما غيرت رأيها فى الموضوع كليا .. عاد يردد لنفسه سرا ، وهو يمضغ طعاما بلا طعم ... « لابد انها قد غيرت رأيها » . من المستحيل ان تستمر علاقة مثل علاقتها وتصل الى بر الأمان ، مثل هذه العواطف الجامحة لاوجود لها فى واقع الحياة الرتيب الذى يعيشونه . كان من الممكن ان يظل وينستون اسير خواطره هذه الى مالانهاية لولا ظهور احد معارفه ويدعى امبلغورث - خشى وينستون ان يتجه اليه ، ليشاركهما المائدة ، وينتهى الموقف . امسك بتلابيب الفرصة المتاحة له للكلام ... امامه دقيقة واحدة ويجب ان يضع حدا لتردده . وينستون والفتاة مايزالان يزدردان الطعام امامهما فى حركات منتظمة ... شيء شبيه بالحساء مصنوع من حبات الفاصوليا الممهوكة .

واخيرا ، وفى صوت خفيف أقرب الى الهمس ، نطق وينستون ولكن حتى وهو يتكلم ، لم ينظر احدهما الى الآخر ، بل بنفس الحركات المنتظمة ظلت ايديهما تتنقل مابين اطباق الحساء وشفاههما . ووجهاهما بلا تعبير ينم عن تبادل حوار بدأه هو بقوله :
- : فى أى وقت تنتهى ورديتك ؟

ـ السادسة والنصف ..

ـ أين يمكن لقاؤك ؟

ـ بميدان « النصر » ، قرب التمثال ..

ـ هذا المكان ملىء بشاشات الأجهزة ..

ـ طالما فيه جمهور فلا يهم ..

ـ كيف سأتعرف عليك فى الميدان ؟

ـ عندما ترانى بمفردى لاتخاطبنى . أنتظر حتى أندمج وسط مجموعة من الناس عندئـذ لاتنظر الىّ . حاول فقط أن تقترب منى .

ـ متى ؟

ـ فى السابعة مساء .

ـ أتفقنـــا ..

لحسن حظ وينستون لم يره صديقه أمبلفورث ، وجلس الى مائدة أخرى . ثم أنتهت الفتاة من تناول طعامها بسرعة ، وغادرت المكان . بينما بقى هو فى مكانه ليشعل سيجارة .

كان وينستون فى ميدان النصر حتى قبل الموعد المتفق عليه . ظل يتسكع حول قاعدة العامود الضخم ، الذى يحمل تمثال الزعيم ، والذى يصوره ناظراً جنوباً وفى اتجاه السماء ، حيث يوحى اليك أنه قد قضى على طائرات « أوراشيا » (أو طائرات أيستاشيا كما كان يقال منذ عدة سنوات) ، وذلك فى معركة الأقليم الجوى الأول ... فى الشارع المواجه للتمثال هناك شارع ارتفع فى نهايته تمثال آخر ، الرجل على صهوة جواد ، يدعى « أوليفر كروموِيل » . مضت خمس دقائق بعد السابعة ، والفتاه لم تظهر بعد . مرة أخرى عاد الخوف يسيطر عليه . لابد أنها لم تستطع الحضور .. أو ربما غيرت رأيها .. أخذ يمشى بخطى وئيدة ناحية الجزء الشمالى من الميدان ، متأملاً باستمتاع غير مكتمل ، المبنى الذى تعرف فيه على بقايا كنيسة سانت مارتين . ثم استدار ، ليلمح الفتاه واقفة بالقرب من قاعدة التمثال ، تقرأ .. أو تتظاهر بأنها تقرأ عاموداً من الكتابة الدعائية ... لم يكن مأموناً أن يتجه اليها على الفور . يجب أن ينتظر حتى تصبح الفتاة وسط جمع من الناس .. أيقظه من تفكيره صوت صياح مصحوب بصرير عجلات سيارات وشاحنات مصحوبة بجلبة وضوضاء قادمة من الناحية اليسرى . فجأة أخذ كل من بالميدان يركض فى اتجاه واحد . مرقت الفتاة بخفة وأنضمت للجمع الراكض . تبعها وينستون راكضاً هو الآخر . واستطاع

أن يفهم سر الحركة المفاجئة فى الميدان من تعليقات الناس السريعة حوله . كان الجمهور متجهاً لمشاهدة موكب أسرى جنود « أوراشيا » .

كثافة الجمهور تسد الجزء الجنوبى من الميدان .

فى الأحوال العادية كان وينستون يبتعد قدر الامكان عن مركز أى تجمهر أو موكب ، لكنه وجد نفسه هذه المرة . مقتحما للخضم حيث يزاحم ، ويكافح بكل طاقته ليشق طريقه وسط زحام المتجمهرين . لكن بعد أن سار خطوات ووجه بجبلين بشريين فى صورة أحد العمال ضخم الجثة . وزوجة لاتقل عنه ضخامة ، يقفان أمامه كسد منيع صعب الاقتحام . بيد أنه استجمع كل طاقته وأفلح بجهد خارق أن ينفذ من بين جسديهما مرورا بأحد جانبيه فى حركة لولبية تلوّى فيها جسمه كله . شعر خلالها بقفصه الصدرى وقد أوشك أن يتقصف وهو يخترق هذا السد البشرى .. ليتجاوزه وقد تفصد عرقاً . ثم ليصبح فى موازاة فتاته ، كتفاً لكتف ، وكل منهما ينظر أمامه ، بثبات .

مر أمامهما رتل من سيارات النقل والشاحنات . فى كل ركن من الأركان الأربعة لكل سيارة وقف حارس متخشب الوجه ، بندقيته سريعة الطلقات فى يده ، وقد انحشرت فى كل عربة مخلوقات صفراء البشرة ترتدى زياً عسكرياً بائس المنظر أخضر اللون ، وقد أجلسوهم القرفصاء . وجوههم المغولية الحزينة تنظر فى جمود عبر قضبان السيارة وأرجلهم ترسف فى أغلال حديدية ، كان يسمع صوت أرتطامها مع كل رجة تصيب السيارة فى سيرها .. صوت أرتطام المعدن مسموع وأن لم تظهر الاغلال نفسها للعيان .. كتف الفتاة وذراعها حتى آخر الكوع ملتصق بذراعه .. خدها قريب منه لدرجة شعر وينستون معها بالدفء يشع منه . وعلى التو انتهزت الفتاه الفرصة ، وكما فعلت فى الكانتين بدأت تخاطبه بنفس النبرة العادية التى لاتنم عن أى تعبير .. شفتاها بالكاد تتحركان وهى تتكلم ، همهمة استطاع أن يلتقطها وسط صياح الجمع استكملا بها حوارهما الذى بدأ فى الكانتين :

ـ هل تسمعنى ؟

ـ نعـــم .

ـ هل تستطيع الخروج يوم الأحد لمقابلتى ؟

ـ نعـــم

ـ إذن أنتبه لكل كلمة سأقولها . لأنه يجب أن تعى تفاصيل كل ما سأقوله لك : أذهب أولاً

الى محطة بادينجتون . وبنوع من دقة التعليات العسكرية أذهلته ، أخذت الفتاة تملي عليه خط سيره بعد أن يصل الى ميدان بادنجتون . ينزل من القطار فى محطة بعد مسيرة نصف ساعة . يخرج من المحطة الجديدة . يتجه يساراً . يسير مسافة « ٢ » كيلو متر فى الطريق المواجه له . يجد بوابة كبيرة أحد قضبانها مخلوع . البوابة تطل على حافة حقل كبير يسير فى ممر يخترقه مكسو بالعشب .. ثم عبر مسار بين الأشجار ، الى أن يصل الى شجرة مقطوعة بلا ثمر .

كأن هناك خريطة مرسومة بكل تفاصيلها داخل رأس هذه الفتاة . أعادت عليه سؤالها الأخير .

ـ هل تتذكر ماقلته لك بالترتيب ؟

ـ نعم .

عادت تكرر له مكان اللقاء .

ـ تتجه يساراً ، ثم يميناً ، ثم يساراً مرة أخرى .. وتذكر أن البوابة قضبانها ناقصة ..

ـ نعم .. نعم .. متى ؟

ـ حوالى الثالثة بعد الظهر .. لكن يجب أن تنتظرنى . فأنا سأصل اليك عبر طريق آخر مخالف . هل أنت متأكد من أنك تذكر كل التفاصيل التى قلتها .. كلها .. ؟

ـ نعم !!

ـ اذن ابتعد عنى الآن بأسرع مايمكن .

لم يكن هناك داع لأن تنبهه الى ذلك ، فهو يعلمه . لكنهما الآن محاطان بالجماهير من كل جانب ، والتخلص من الزحام أصبح صعباً .. مازالت الشاحنات تتقاطر الواحدة تلو الأخرى .. والناس مازالوا يحملقون فى دهشة ورهبة .. عند بداية دخول الشاحنات الميدان قوبلت بصيحات الاستنكار والادانة ضد الأسرى ، لكن من الواضح أنها صيحات معدة من قبل .. أعدها أعضاء الحزب المندسون بين الجمهور .. صيحات ما لبثت أن خفتت . وكان الشعور السائد بين الناس ، هو ببساطة .. حب الاستطلاع . فالأسرى ، سواء من « أوراشيا » أو « أيستاشيا » كانوا بالنسبة للناس نوعاً من الحيوانات الغريبة ، ليس بمقدورك أن تراهم بالفعل الا فى صورة أسرى ، وحتى كأسرى لايسعك الا أن تقتحمهم بنظرك فى تقزز ونفور .. ليس هناك من يعرف مصيرهم بالطبع فيما عدا أن البعض منهم سيدانون كمجرمى حرب ، لينفذ فيهم حكم الاعدام علناً .. أما بقية الأسرى فأنهم ـ

ببساطة ـ يختفون ، ربما بإرسالهم الى معسكرات السخرة للأعمال الشاقة .. وعندما انتهى « قطيع » الوجوه المغولية ، ليتلوها وجوه أسرى ذوى ملامح أوروبية ، قذرون ، لحاهم طويلة ، نال الاجهاد من ملامحهم المرهقة .. عيون بعضهم تطل على وينستون وسط وجوههم ، تائنة العظام هزيلة .. نظرات بعضهم مصوبة بتركيز وقوة غريبة على ماهم فيه من محنة .. لكنها نظرات خاطفة لاتفتأ أن تخبو ، ثم قاربت قافلة السيارات من نهايتها . فى آخر عربة رأى أحد الأسرى .. رجل عجوز أشيب الشعر ، منتصب القامة ، قبضتاه مضموتان الى صدره كما لو كان قد أعتاد على هذا الوضع عندما قيدوه وكان ذلك هو الوقت المناسب لوينستون وللفتاة أن يفترقا بعد أن خف الزحام ، لكنه فى آخر لحظة لم يشعر الا ويد الفتاه تبحث بلهفة عن يده لتقبض وتضغط عليها بقوة .

ضغطة يد لم تدم أكثر من عشر ثوان . لكنه شعر بهذه الثوانى زمناً ممتداً درس فيه كل تفاصيل يدها .. استكشف الأنامل الطويلة ، الاظافر المنمقة ، سطح جلد اليد الخشن من قسوة العمل ، مع نعومة ملمس المنطقة القريبة من الرسغ . حين يلمس هذه اليد مرة أخرى فى مقدوره أن يتعرف عليها دون أن يرى صاحبتها ..

تذكر فجأة أنه لم يعرف الا لون عينيها .. فى الغالب عسليتان .. لكن بعض الفتيات فاحمات الشعر لهن عيون زرقاء أحياناً . شدة حرص الفتاة منعته من الالتفات بوجهه للنظر فى محياها .. ثم شقا طريقهما وسط الحشد ثانية ، بيدين متماسكتين تحوطهما أجساد الجماهير الحاشدة ، وبدلاً من أن يتأكد من لون عينى فتاته كانت عينا الأسير العجوز تحملقان فى عينيه ، فى حزن أسر عبر عشة من الشعر الأبيض .

❊ ❊ ❊

(٢)

كان الممشى الذى يقطعه وينستون وسط الغابة شبيها بجلد نمر أرقط .. عليه انعكست ظلال الأشجار واضواء نفذت خلال أغصانها أشعة الشمس تتوج هامات الشجر ثم تنساب بين الأفرع لتغسل الأرض بلون ذهبى دافىء .. واليوم هو الثانى من مايو ، والهواء الندى الحنون يكاد يقبل وجه الرجل ، ومن مكان بعيد تناهى اليه هديل الحمام .

وصل مبكراً الى حد ما . لم تصادفه صعوبة تذكر فى رحلته الى هذا المكان .. لابد أن للفتاة خبرة طويلة بالسفر ، مما أدخل اطمئناناً نسبياً الى نفسه .. أتضح له أن بامكانه الآن أن يثق فى قدرتها على اختيار الموقع الآمن للقاء . لكن كقاعدة عامة ليس بوسعك أن تشعر بالأمان لمجرد أنك فى أرض حقلية خارج نطاق المدن .. صحيح أنه لاتوجد شاشات أجهزة بطبيعة الحال ، لكن هناك دائما خطورة ذلك العدد الضخم من الميكروفونات المبثوثة فى الأماكن غير ظاهرة ، وفى أنحاء متفرقة . ليس هناك ضمان أنه لايوجد فى هذا القطاع من الغابة أو ذاك أكثر من ميكروفون أخفى بأتقان . وبالطبع بامكان أجهزة البوليس السياسى ان تتعرف عليك من صوتك .. أجل من صوتك فقط ..

من ناحية أخرى ، ليس من السهل أن تسافر بمفردك دون أن تلفت الانظار .. وان كنت لست مطالباً بختم جواز سفرك الداخلى ان لم تتجاوز الرحلة مائة كيلو متر . غير أن الأمر لايخلو من دوريات مفاجئة ، فى محطات السكة الحديد يفحصون بدقة أوراق كل عضو فى الحزب ينوى السفر ، مع توجيه الأسئلة الثقيلة نفسها .

الا أن وينستون فى رحلته اليوم ، كان محظوظاً فلم تعترضه أى دورية . وهو بدوره كان حريصاً على أن يلقى عدة نظرات جانبية أثناء سيره من المحطة الى هذا المكان للتأكد من انه ليس هناك من يتتبع خطواته . كان القطار الذى استقله مزدحماً « بالبروليتاريا » ، يسودهم طابع الخارجين الى رحلة خلوية نظرا للجو المشمش هذا اليوم .. عربة القطار ذات المقاعد الخشبية قد احتلتها أسرة كاملة بعدد أفرادها الضخم بدءاً من الجدة الهتماء بشعرها الأشيب ، الى الرضيع البالغ من العمر شهوراً لاتتجاوز أصابع اليدين . كانوا قاصدين احدى القرى القريبة لقضاء فترة بعد ظهر نفس اليوم ، ولم يخفوا أنهم يريدون الحصول على الزبد الذى يجدونه فى السوق السوداء .

بدأ الممشى الذى يسير فيه وينستون يتسع . ثم أفضى به الى الطريق التى وصفتها له وسط الحقول ، مجرد مسار على الأرض اصطنعته الماشيه فى سيرها الدائم عليه . ساعته ليست معه ، لكن الوقت لم يشارف الثالثة بعد كما قدر . أعشاب الجريس المزهره شديدة الكثافة بحيث لم يستطع أن يمنع أقدامه من أن تطأها فى سيره .. انحنى وبدأ يجمع بعض أعشاب منها تنتهى بزهور زرقاء صغيرة .. وذلك ليضيع الدقائق الباقية على الموعد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإحساس مبهم بأنه يجب أن يقدم باقة زهر لفتاته فى أول لقاء لهما ، وان لم يكن قد مر بتجربة حب سابقة .. جمع باقة كبيرة وأخذ يشم رائحة الزهر . شعر بصوت قادم خلفه ، فتجمد . ذلك وقع أقدام قادمة نحوه .. صوت أعواد العشب وهى تتقصف تحت الاقدام واضح ومسموع .. استمر فى انحنائه كما لو كان منهمكا فى جمع أعشاب الجريس . قدر أن هذا أفضل تصرف ، لأنه لو نظر خلفه لاثار الأكثر من الشك والريبة .. حدث نفسه « ربما كانت خطوات الفتاة أو ربما هى خطوات من يتتبعه دون أن يشعر ».. لم يستطع أن يستدير لينهى شكوكه . فاستمر فى جمع الأعشاب بهمة . ولكنه أحس فجأة بيد تنقض على كتفه .

أعتدل بسرعة والتفت ناظرا خلفه .. كانت هى الفتاة .. أومأت له برأسها فى صمت ألا يتكلم ، فبقى صامتا . سارا مخلفين الشجيرات ، ليصلا الى ممشى ضيق داخل الغابة . من الواضح أنها ترددت على هذه المنطقة أكثر من مرة ، فخطواتها تتفادى بسهولة الحفر والمطبات بأسلوب من أعتاد السير فى هذا الدرب . تبعها وينستون وهو لايزال ممسكا بباقة الزهر . كان أول احساس انتابه لرؤيتها هو احساس بالراحة .. لكنه وهو يلمح قوامها الشاب ، القوى ، الرشيق ، يخطو أمامه بخفة ، وقد لفت وسطها بشريط « العفة » الذى يظهر بدرجة الشد فيه شدة استدارات جسمها .. لم يسعه الا أن يشعر بنوع من الضآلة أمام هذه الفتاة .. وحتى عندما كانت تخطو أمامه ، أحس أنه ليس أهلا لها بصورة ما . وأنها لن تستمر فى علاقتها به . كأنما أحس بوجل وهو يواجه الخلاء لأول مرة . كان أحساسه ، وهو يغادر حياته المتقوقعة داخل لندن وزحامها الخانق .. كإحساس دودة قز خرجت للتو من شرنقتها .. خضرة الأوراق حوله والهواء الندى يداعب شعره ، والاحساس بالتوجس فى داخله ، كطفل لم يتعود الانطلاق بعد ، وتذكر وهو يتابع خطوها أن فتاته لم تره من قبل فى ضوء النهار خارج الجدران .. أنتهى بهما المطاف الى جذع الشجرة المقطوعة التى أخبرته عنها . قفزت الفتاة فى رشاقة فوقها وفتحت ثغرة بين شجيرات خلفها . وجد

وينستون نفسه أمام قطعة أرض مكسوة بالقش ترتفع عن مستوى أرض الغابة قليلاً فيما يشبه الهضبة الصغيرة ، محاطة من كافة جوانبها بشجيرات تجعل من المكان مخبأ محكم الخفاء ، بعيداً تماماً عن الانظار .

أخيراً وقفت الفتاة قبالته ، ولأول مرة يرى ابتسامتها أكثر أشراقاً من الشمس وهى تقول له :

« ها قد وصلنا .. »

كانت تقف على بعد لايزيد عن عدة خطوات منه ، الا أنه لم يجرؤ على الاقتراب أكثر ..

واصلت الفتاه حديثها :

ـ : لم أشأ أن أكلمك عندما وضعت يدى على كتفك لأنى كنت أخشى وجود ميكروفون قرب الممشى الذى تسير فيه .. احتمال ضعيف بالطبع .. لكنه وارد جداً . وأنت تعلم أن هؤلاء الحيوانات يستطيعون أن يكتشفوا الإنسان من صوته .. والآن نحن فى أمان .. »

مازال لايستشعر القوة الكافية للاقتراب منها ..

ـ : هل نحن فى أمان هنا ؟ »

كرر جملتها الأخيرة بغباء .

ـ : نعم أنظر الى الشجيرات حولك ..

كانت شجيرات غير سميكه أقتلعت من الغابة لتحيط بهذه الهضبة الصغيرة ، كأعمدة نحيفة لمعبد صغير ..

وأضافت الفتاة :

ـ ليس هناك شجرة واحدة غليظة لدرجة تسمح باخفاء ميكروفون أو أى شيء آخر . لقد جئت أنا الى هنا من قبل . كان من الواضح أنهم يتبادلون أى كلام للتخفيف من انفعال اللقاء المتوتر .. بدأ يقترب منها الآن ، أصبح مواجهاً لها تماماً .. فى ابتسامتها ظلال سخرية خفيفة ، تحمل شيئاً من الدهشة لبطء تحركه وقد اقتربت منه .. انزلقت باقة الزهر من يده الى الأرض ، كأنها قد سقطت من تلقاء نفسها ، أمسك بيدها .

ـ : هل تصدقين أنه حتى هذه اللحظة لم أكن أعرف لون عينيك .

وكانت عيناها عسليتين . بأهداف وطفاء .

ـ : والآن وقد رأيتنى على الطبيعة . هل مازلت تطيق النظر الى وجهى ؟
ـ : نعم أحب النظر الى وجهك ..
ثم أضاف :
ـ : وأنا فى التاسعة والثلاثين . متزوج من زوجة لم استطع التخلص منها . أعانى من التهاب فى أوردة الساق وخمس من أسنانى صناعية ..
ـ : وأنا لايهمنى حتى ولو كانت كلها

تفجر فيه احساس بالفخر ، وفى نفس الوقت بعدم تصديق واقعه برمته . سعادته باحتوائها بين ذراعيه وجسدها المستلقى أمامه فى استسلام .. سعادة غامرة مجنونة لكن لم يشعر برغبة فى ممارسة الجنس . ثم أنه قد اعتاد أكثر مما ينبغى حياة ـ طال بها العهد ـ خالية من مغامرة الجنس .. ومع ذلك فهو لا يعنى بهذا التصرف الزهد والتعفف .. كيف ؟ وجسدها الشاب الثائر بين ذراعيه ؟ واعتدلت الفتاة فى جلستها وانتزعت عن شعرها عشبا أخضر علق به فى ضجعتها .. وجلست ملتصقة به . وقد لفّت ذراعها حول خصره قائلة :
ـ لا عليك يا عزيزى . أنا أيضاً لست متعجلة بالنسبة لهذا الأمر .. أمامنا ساعات بعد الظهر كلها . لكن قل لى .. أليس هذا مخبأ رائعاً ؟ لقد اكتشفته عندما تهت احدى المرات ، وأنا فى معسكر جماعى . وجماله أن بامكانك أن تسمع أى صوت يقترب منك على بعد مسافة تزيد على مائة متر . »
ـ : ما أسمك ؟
ـ : جوليا .. لكن أنا أعرف اسمك بالكامل : وينستون ـ وينستون سميث . »
ـ : وكيف عرفت ؟
ـ : يهيأ لى أنى أكثر براعة منك فى اكتشاف الأشياء ؟!! لكن أحك لى : ماذا كان رأيك فى قبل أن أسلمك الورقة .

لم يشعر بأى رغبة أن يكذب عليها . كان نوعاً من ممارسة الغش أن يبدأ معها بأسوأ ماعنده ، وأصدق ماعنده ، فقال :
ـ كنت أكره حتى مجرد رؤيتك ... فكرت فى اغتصابك .. ثم أن أقتلك بعد ذلك . منذ فترة لاتزيد على أسبوعين ، فكرت جدياً فى تهشيم رأسك الجميل هذا بقطعة زجاجية صلده . لو كانت حقيقة لديك الرغبة فى معرفة رأيى السابق فيك ، فهو ببساطة : كنت أظنك أحدى عميلات البوليس السياسى » .

انطلقت الفتاة فى ضحك صاف منطلق :

ـ : يا مجرم .. لم يصل الأمر لأن تتخيلنى بوليس سرى ؟ »

كانت سعيدة بأن حقيقتها تخفى على من حولها الى هذا الحد لتضيف .

ـ : صحيح كنت تفكر أنى أعمل مع البوليس ؟ »

أجاب وينستون بجدية :

ـ : ليس بالضبط فى الواقع . لكن مظهرك العام .. حيويتك وشبابك .. صحتك الجيدة .. النشطة .

ـ : أنت تعلمين شغل المعسكرات والـ ــــ فقلت لنفسى لابد أنها واحدة من اياهم .

ـ : قصدك عضو عامل نشيط فى الحزب . اتميز ـ على حد قولك ـ بعفة المسلك واللسان ... وشغل الشعارات والمواكب والمسيرات والاستعراضات والمعسكرات ... و .... وسائر هذا الخبل . أظنك كنت تعتقد أيضا أنه لو اتيحت لى أول فرصة فأشى بك للسلطات كأحد المنشقين فكريا .. وأسلمك بنفسى لتعدم ؟

ـ : نعم كنت أفكر فى شىء من هذا القبيل . أنت تعلمين أن فى بلدنا جيشا من الفتيات من هذا النوع .

أجابته وهى تنزع شريط العفة من حول وسطها .

ـ : ولابد أن هذا الشريط اللعين قد أكد هذا المعنى فى ذهنك عنى .

ألقت بالشريط فوق أحد الأغصان . ثم ، كأن انتزاع الشريط قد ذكرها بشىء فأخذت تعبث باصابعها داخل جيوبها لتخرج منها قطعة شوكولاته صغيرة . قسمتها نصفين ، وقدمت نصف القطعة لوينستون . من رائحة الشكولاته وحتى قبل أن يتذوقها أدرك أنها مستوردة . رائحة الشيكولاته التى أعطتها له فتاته أثارت فى نفسه ذكرى معينة ، لم يستطع انتزاعها من مخيلته ... ذكرى مزعجة وقوية .

سأل الفتاة :

ـ : من أين لك بهذه الشيكولاته ؟

أجابت بدون اكتراث :

ـ : السوق السوداء طبعا .. فى الحقيقة أنا فتاة أعجبك جدا فى هذه الأمور . شاطرة فى كل الالعاب ، كنت قائدة فرقة فى أشبال المخابرات . متطوعة للعمل ثلاث ليال فى جمعية

محاربة السلوك الجنسى . لساعات وأنا أروج لافكارهم العفنة فى لندن كلها . دائما أحمل احدى اللافتات فى مسيرات الحزب . دائما أبدو مرحة ومتفائلة كتعليماتهم ، لا أرفض أبدا أى عمل أكلف به فى أى موكب يحتاج الى زعيق ، دائما أزعق بملء فمى مع الجماهير .

وهذه هى الطريقة الوحيدة لكى أبعد الشبهة عنى ..

ذابت قطعة الشيكولاتة فى فم وينستون . كانت لذيذة . لكن مازالت تلك الذكرى تلاحقه بدون أن تطفو الى سطح عقله الواعى ، برغم احساسه القوى بها ، كشىء يراه بطرف عينه . حاول ان يزيح خواطره جانبا ، وأن كان على وعى أن الذكرى التى تطارده هى/لشىء يود أن يلغى أثره ، ان يبطله بدون أن ينجح ..

نظر الى الفتاة قائلا :

ـ : أنت صغيرة فى السن . ربما أصغر منى بعشر أو خمس عشرة سنة . ما الذى يعجبك فى عجوز مثلى ؟!

ـ : شىء ما فى ملامح وجهك . قلت لنفسى يا بنت لماذا لا تغامرين بالتعرف عليه للتأكد من هذا الشىء . أعتقد أن لديَّ القدرة على التعرف على أولئك الذين لا ينتمون . أنت غير ملتزم .. ما ان رأيتك حتى شعرت أنك فى قرارة نفسك ضدهم ..

« كانت « هم » بالطريقة التى قالتها تعنى الحزب ، والتنظيم الداخلى للحزب على وجه الخصوص ، وهو الذى تكلمت عنه بسخرية مريرة ، وبكراهية جعلت وينستون نفسه يشعر بالقلق ، برغم احساسه النسبى بأنه فى أمان . فى هذا المكان النائى ، اذا كان هناك ثمة أمان فى أى مكان ..

دهش وينستون لخشونة ألفاظها ، إذ من المفروض مثلا فى عضوات الحزب ألا يستخدمن ألفاظ السباب مطلقا ، وهو عن نفسه لم يلجأ الى السباب أبدا ، على الأقل علنا . لكن جوليا لم تكن لتستطيع أن تكبح جماح نفسها ـ عند ذكر الحزب والتنظيم الداخلى ـ من استخدام أحط الألفاظ من ذلك النوع الذى يقرأه المرء مكتوبا فى الانفاق أو دورات المياه ... ولم يضايقه ذلك . فقد كانت الشتائم المقذعة التى تنطق بها نوعا من التمرد على الحزب وأساليبه . بدت بشكل ما ظاهرة صحية بل وطبيعية . كصهيل الحصان النافر عندما يستروح أثراً للتبن المغشوش .

كانا قد غادرا عشهما ، وبدآ يسيران فى الطريق المغطى بالاشجار . كل متأبط وسط الآخر بذراعه ... عندما كان عرض الطريق يسمح بمرورهما سويا . لاحظ أن خصرها

لدن ، وناعم ومحبوك تحت ملمس ذراعه بعد أن خلعت عنها الحزام الذى كانت تلفه حوله . لم يكن حديثهما الآن يعلو عن الهمس . وبعد أن غادرا المخبأ الذى لجآ اليه ، قالت جوليا أن الأفضل أن يسيرا فى هدوء قدر الامكان . فسارا الى أن شارفا حافة الغابة الصغيرة حيث أوقفته قائلة :

ـ « لا تخرج الى الخلاء . ربما كان هناك من يراقبك . نحن فى أمان طالما نسير فى حمى الأغصان » .

كانا يقفان فى ظلال شجيرات البندق ، وأشعة الشمس المتسربة من خلال الأغصان تريق شحنات الدفء على وجهيهما . وعندما نظر وينستون الى الحقل الممتد أمامه شعر بالدهشة تتملكه فهو يعرف المكان ، بالرغم من أنها المرة الأولى التى يراه فيها .. دهشة تسرى فى نفسه ممزوجة بحب أستطلاع .. هذا المرعى القديم بهذا الدرب الضيق يخترقه بشكل متعرج .. تلك التلال الركامية الصغيرة المتفرقة هنا وهناك .. فوق السور المواجه له فى نهاية المرعى والمصنوع من شجيرات متراصة دون احكام .. أغصان شجر الدردار تتأرجح ، يهزها نسيم خفيف ، وأوراقها الكثيفة تموج فى بطء كشعر امرأة غزير يتحرك مع حركة رأسها . هذه أول مرة تصافح عيناه المكان ، لكن وينستون شعر أنه قد رآه من قبل دون أن يدرى أين . بل لابد أن يوجد مكان ما أبعد من مرمى بصره الآن » يوجد بالتأكيد نهر تعترضه بحيرات صغيرة ، مياهها خضراء اللون يسبح فيه سمك الديس » .

سأل جوليا :

ـ : ألا يوجد نهير فى هذه الانحاء ؟

ـ : فعلا ... هناك جدول ماء فى هذا الاتجاه . على حافة الحقل المجاور . وهو جدول تسبح فيه الأسماك . اسماك كثيرة تستطيع ان تشاهدها متجمعة تحت ظلال شجر الصفصاف على جانبى الجدول ، تهز ذيولها بشكل لطيف .

همهم وينستون لنفسه :

ـ : أشعر أنى على أبواب المدينة المسحورة ـ تقريبا ..

وقد سمعته فتساءلت :

ـ : المدينة المسحورة ؟

ـ : لا تأخذى كلامى على محمل الجد ، مجرد سرحات خيال أرددها لنفسى ، هذا المنظر الطبيعى أمامى يذكرنى بصورة شاهدتها فى أحد احلامى .

ـ : أنظر ... أنظر ..

همست جوليا وهى تلتصق به أكثر .

كان أحد طيور السمان المغردة قد حط على غصن قريب .. يبعد عنهما مسافة لا تزيد عن خمسة أمتار تقريبا ، فى نفس مستوى نظراتهما المبتسمة لمنظره المحبب . يبدو أن الطائر لم يرهما ولم يشعر بوجودهما . كان الغصن الواقف عليه يقع تحت الشمس ، فهاهما يرقبانه فى الظل .. فرد الطائر جناحيه ، ثم ضمهما ثانية الى جسمه الصغير ، أحنى رأسه قليلا وكأنما إجلالا لوهج ، الشمس . ثم انطلق يغرد بصوت ساحر .. الصمت الشامل يلف المكان ، مما أضفى على تغريده روعة . أنسابت الى سمعهما موسيقى الطائر الاهية .. وكأنما اخذت النشوة بطائر السمان فأخذ ينوع فى أدائه ، لا يكرر صوتا ، ولا يعيد نغمة ، كمطرب بلغ القمة فى أدائه الآسر ، فأخذ يبدع فى اللحن نفسه مظهرا براعة أصيلة .. أخذ الطائر يتوقف على فترات يفرد فيها جناحيه ، ثم يضمهما ثانية ، ينفض صدره المزركش بالألوان المتناغمة ليبدأ انطلاقة غناء جديدة .

ظل وينستون يرقبه فى خشوع .

ترى لمن يغنى هذا الطائر ؟ ولماذا يغنى ؟... وماذا يغنى ؟... ليست هناك رفيقة يغنى لها .. وليس على الغصن طائر أخر ينافسه .. ما الذى يدفعه أن ينتحى جانبا فوق غصن شارد ويطلق موسيقاه هذه لتضيع فى الفضاء الرحب ؟

ثم بدأ يتساءل أهناك يا ترى ميكروفون مخبأ فى شجرة قريبة ؟ كلامه مع جوليا لم يزد عن الهمس .. لن يتمكن الميكروفون من التقاطه ، لكن هل بوسع الميكروفون أن يلتقط جمال هذه الموسيقى التى يبدعها طائر السمان ؟ ما رأى رجال التنظيم الداخلى فيه . ترى هل غناء طائر السمان ... ضد النظام أيضا ؟

عاد صوت الطائر المغرد ينتزعه من خواطره ، صوت امتزج بأشعة الشمس ، بهدوء المكان ، بانسياب الخضرة فى الحقل ، ليشيع فى نفسه احساسا لم يعن بمعرفة كنهه ، يكفى أنه يحسه .. فيض من أحساس غامر .. توقف عن التفكير ..

(٣)

قالت له جوليا :

ـ فى امكاننا أن نعود الى هذا المكان مرة أخرى . عموما من الممكن أن نستخدم نفس المخبأ مرتين . لكن ليس قبل شهر أو شهرين بالطبع .

ما أن تنبهت حتى تغير طابعها من سمت الهدوء والدعة الذى ران عليها ، الى نمط الفتاة النشيطة العملية ، إذ ارتدت ملابسها على وجه السرعة ، لفت « شريط العفة » حول خصرها ثانية ، وأخذت تعد تفاصيل مسارهما فى طريق العودة . وكان من الطبيعى أن يترك لها وينستون ترتيب هذه الأمور ، إذ يبدو أنها تتمتع بنوع من الدهاء فى تناول المسائل العملية ، وهى ملكة يفتقر إليها وينستون ، وهذا بالاضافة الى اطلاعها الواسع على كافة تفاصيل الطرق ، وطبيعة الريف عموما لكثرة رحلاتها السابقة .. كان الطريق الذى اختارته له للعودة يختلف تماما عن طريقه السابق ويؤدى الى محطة سكة حديد أخرى .

وكأنما تتحفه بأولى نصائحها فى هذا المجال حين قالت :

ـ : لا تستخدم أبدا نفس الطريق ذهابا وعودة فى أى رحلة خلوية .

وكان الترتيب الذى وضعته . أن تغادر المكان هى أولا ، وينتظر هو قرابة نصف الساعة قبل أن يبدأ رحلة العودة .

واتفقا على مكان معين بلندن ، ليتلاقيا فيه منذ الآن أربع مرات أسبوعيا . شارع فى واحد من أفقر احيائها يفضى الى سوق غير مسقوف يصطخب بالزحام والضجيج عادة ، حيث ستتجول جوليا بين الحوانيت متظاهرة بالبحث عن أى سلعة غير موجودة فى محلات الحزب .. أربطة أحذية ، أو خيط للحياكة ، أو ما شابه ذلك ، فاذا استشعر أن الجو موات لاتمام اللقاء يتمخط بصوت مسموع عند اقترابه منها ، وإلا وجب عليه أن يمر بها دون توقف . بهذه الطريقة ، لو صادفهم حظ طيب ـ يمكن أن يتبادلا حوارا فى خضم الزحام ، لمدة ربع ساعة مثلا .

ـ : والآن ، وجب على أن انصرف ..

قالت له بعد أن تأكدت من استيعابه كافَّة « التعليمات » ، وأضافت :

ـ : « يجب ألا أتأخر عن السابعة والنصف ، لارتباطى بالتطوع بساعتين لنشاط جمعية محاربة السلوك الجنسى ، توزيع منشورات ، وما شابه ذلك . أليس هذا أمرا لعينا ؟ مر بيديك على ملابسى .. هل هناك حشائش عالقة فى شعرى ؟ ... متأكد ..؟ ... إذن الى اللقاء يا حبيبى .. الى اللقاء .. »

عانقته بعنف وقبلته قبل أن تنصرف لتشق طريقها بين الشجيرات وتختفى داخل الغابة .

خلال شهر مايو كله لم تتح لهما إلا فرصة واحدة تمكنا فيها من ممارسة الجنس ، فى موقع آخر دلته عليه جوليا ، وهو غرفة تحت أحد أبراج كنيسة قديمة مهجورة على مشارف احدى القرى النائية ، حيث سقطت قنبلة ذرية منذ ثلاثين سنة . وقد كان الموقع معزولا فعلا ، بعيدا عن الأنظار ، ومأمونا . لكن الطريق إليه محفوف بالمخاطر . فيما تلا ذلك ، تلاقيا فى الشوارع فقط ، فى شارع يتغير كل ليلة ، ولمدة لا تزيد عن نصف الساعة فى أى لقاء .. فى الشارع اثناء مشيهم بين الجمهور ، دون أن يلحظ أحد انهما يسيران سويا ، إذ اعتاد أن يتقدمها قليلا ، أو العكس .. وعلى فترات متقطعة كانا يتبادلان حوارا غير متصل ، دون أن ينظر أيهما للآخر .. نوع ظريف من الحوار ، كنبضات ضوء الفنار المتقطعة تسطع ثم تخبو فى تواصل ، لكن دون اتصال . ودائما كانا يلجآن للصمت المطبق لدى اقتراب أى من اعضاء الحزب بزيه الأزرق منهما ، أو عند اقترابهما من احدى شاشات الاجهزة . يقطعان جملة كانا يتبادلانها عند استشعار الخطر ، ثم يكملان نفس الجملة بعد مرور الزى الأزرق أو تجاوز شاشة الجهاز . يبتزان الحوار اذا وصلا الى النقطة المتفق عليها لافتراقهما ، ثم يكملان نفس الجملة التى توقفا عندها فى بداية اللقاء التالى ، كان من الواضح أن جوليا مدربة من قبل على مثل هذا النوع من الحوار ، الذى اسمته ـ على حد قولها ـ « كلام بالتقسيط » ثم انها تتمتع بقدرة مدهشة على الكلام ، دون تحريك شفتيها تقريبا .

مرة واحدة خلال شهر تقريبا من مقابلاتهما أثناء الليل ، استطاعا أن يختلسا قبلة ، كانا يسيران فى صمت عبر أحد الشوارع الجانبية ، (من عادة جوليا ألا تتبادل أى حوار معه خارج نطاق الشوارع الرئيسية) عندما فاجأهم صوت كالرعد يصم الآذان . اهتزت الأرض من تحتهم وابرقت السماء ، ولم يشعر وينستون بنفسه إلا وهو ملقى على أحد

جوانبه مصابا بكدمات ، وفى حالة رعب ... لابد أن إحدى القذائف الصاروخية قد سقطت بالقرب منهم . فجأة شعر بوجه جوليا الذى لا يبعد عن وجهه إلا سنتيمترات معدودة ، شاحبة كالموت يكاد يكون فى لون الطباشير الأبيض ، بل شفتاها أيضا كانتا خلوا من الدم .. شاحبة شحوب الموتى . جذبها بقوة الى صدره لتتلاقى شفاههما تبث الدفء والحياة فى الوجه الشاحب ... شعر بمذاق الجبس فى شفتيه . فقد كان أثر الانفجار مازال عالقا بجسديهما .

وفى ليال كثيرة كانا يصلان الى نقطة اللقاء ، ثم يسير كل عبر الآخر دون أن ينبس أيهما ببنت شفة ، أو أن يتبادلا ايماءة ، لتصادف مرور احدى الدوريات ، أو لوجود طائرة هليوكوبتر ، حتى وان كانت الظروف مواتية . ساعات العمل الأسبوعية لوينستون لا تقل عن ٦٠ ساعة . وجوليا كانت تضطر أحيانا للعمل فترة أطول . وأيام اجازاتهما الأسبوعية كثيرا ما اختلفت وفق نظام الورديات التى كانت تعمل بها . ونادرا ما كانت جوليا تخلو لليلة كاملة ، إذ كانت تكرس وقتا طويلا لحضور المحاضرات . والاشتراك فى المسيرات ، وتوزيع مطبوعات تصدرها « جمعية محاربة السلوك الجنسى » . وتعد لافتات (أسبوع الحقد) ، وتشارك بحماس فى أية حملة تبرعات .. الى آخر هذه الأمور من أنشطة الحزب .

فى رأيها أن كل هذا الجهد له مقابل .. وليس بالضرورة أن يكون مقابلا ماديا ، نشاط يفيدها أساسا .. كنوع من التمويه المتقن ، يخفى نواياها الحقيقية ، أو على حد قولها :

« لو التزمت كمواطن بالقواعد الصغيرة فبامكانك ان تخرق القوانين الكبيرة » .

بل وقد حثت وينستون على أن يخصص ليلة اضافية للتطوع أسبوعيا مشاركة فى المجهود الحربى ، وهو نشاط اختيارى لا يتطوع له إلا غلاة المتحمسين من أعضاء الحزب .

ومن ثم فقد تعين على وينستون أن يمضى أربع ساعات أسبوعيا فى ملل كامل يربط « صواميل » بعض القطع المعدنية ، ربما اجزاء من قنابل أكبر ، فى أحد المصانع الخانقة سيئة الاضاءة ، حيث تختلط ضوضاء طرقات المطارق بموسيقى أشد سوءاً صادرة عن جهاز السينما التلفزيونية .

وعندما التقيا ذات يوم ، فى برج الكنيسة المهدمة أخذا يكملان فراغات حوارهم الناقص طوال الأسبوع . كان الجو حارا بعد ظهيرة هذا اليوم ، والهواء داخل الغرفة الصغيرة ساكنا وخانقا ، تشيع منه رائحة روث الحمام ، فجلسا يتحدثان لساعات على

أرضية الغرفة الترابية المكسوة بأغصان صغيرة وحشائش .. ويتبادلان النظر من الفتحات المستطيلة لكوة صغيرة ، للتأكد من عدم وجود أى غريب قادم .

أخبرته جوليا أنها فى السادسة والعشرين ، وتقيم فى أحد بيوت الشباب الحكومية مع ثلاثين فتاة أخرى ، و « دائما محصورة فى وسط النساء . لكن أكره هذه « الحبسة » داخل هذا المجتمع النسائى المقيت » . أما عملها فكان كما توقع ، على احدى آلات طباعة الأعمال الروائية . تحب عملها ، الذى يتلخص فى تشغيل أحد الموتورات الكهربائية القوية ، لا يحتاج للجهد بقدر ما يحتاج للفن فى ادارته . أخبرته أنها لا تعتقد أنها تتميز بمهارة واضحة لكنها عموما تحب العمل اليدوى ، وتشعر بألفة مع الآلات . وكان بوسعها أن تصف بالتفصيل كل خطوات اصدار رواية أدبية بدءا من صورتها الخام كورق مطبوع على الآلة الكاتبة فى « لجنة الخطة الأدبية » وحتى اللمسات الأخيرة لفريق « اعادة الصياغة » . ولكن مضمون الرواية ، كرواية ، لم يكن بالشىء المثير للاهتمام بالنسبة لها . بل هى لم تعن بقراءة ما يطبع ، فالكتب شعرت بها مجرد « شىء » يتم انتاجه مثله مثل المربى أو المقشات أو ، أربطة الأحذية .

فى ذاكرتها لم يعلق بها أى حدث قبل الستينيات ، والانسان الوحيد الذى اعتاد أن يحكى لها عن أيام ما قبل الثورة كان جدها العجوز ، الذى فوجئت باختفائه وهى فى الثامنة من العمر . وفى المدرسة كانت بنتا « شاطرة » ، وكانت « كابتن » فريق الهوكى ، كما حصلت على ميدالية الجمباز للمدرسة فى عامين متتاليين . وفى منظمة أشبال المخابرات وصلت الى « قائدة فرقة » ، كما كانت عضوا بارزا فى منظمة الشباب ، قبل انضمامها « لجمعية محاربة السلوك الجنسى » . فى اطوار حياتها المختلفة تميزت بشخصية بارزة ، ودوما تحتل مكانا بارزا فى أى مجال تتصدى له . بل لقد اختيرت للعمل فى قسم (الأدب الاباحى) كدلالة على الثقة التى استطاعت أن تكتسبها تتويجا لسجلها الحافل فى نشاط الحزب . وهذا القسم ، بطبيعة ما ينشره من أدب مكشوف وروايات تحمل كل ضروب الشذوذ الجنسى لتوزع فى أوساط البروليتاريا ، لا يختار العاملون فيه إلا ممن يتمتع بسمعة طيبة .. عملت فى هذا القسم لمدة عام ، فكانت تساهم فى انتاج كتيبات ذات أغلفة مغرية تحمل عناوين مثل « ليلة فى القسم الداخلى لطالبات الثانوى » أو « قصص من أوضاع الجنس الغريبة » . كتيبات تنتشر بسرعة البرق بين البروليتاريا ، خاصة فى أوساط الشباب منهم ، الذين يتداولونها على وهم أنهم قد حصلوا على شىء ممنوع وغير قانونى .

بدافع حب الاستطلاع سألها وينستون : « لكن ماذا تحوى مثل هذه الكتب ؟ »

أجابته : « أبدا .. حثالة الكلام .. تفاصيل معظمها مقزز ولا يستأهل عناء القراءة ، بل ومملة لكثرة تكرارها . كل هذه الكتب تدور حول ٦ مواضيع رئيسية تتكرر فى مئات القصص . أنا عملى يدوى بطبيعته على الآلة ، ولا علاقة لى (بلجنة اعادة الصياغة) . أنت تعلم أننى لا أملك القدرة على التأليف أو الكتابة أو سائر هذا الكلام .. »

علم ـ لدهشته ـ أن كل العاملين فى هذا القسم ، باستثناء رئيسه ، من الفتيات . ولم يكن القسم يرحب حتى بالمتزوجات . وذلك لاعتقاد المسئولين فيه أن رجال الحزب أقل قدرة على السيطرة على نوازعهم الجنسية من النساء ، ومن ثم فهم عرضه للتأثر بكم القذارة فى هذا النوع من الأدب . هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى لاعتقاد الحزب ان الفتيات اللائى يتم اختيارهن للعمل بهذا القسم ، يتمتعن بالعفة وطهارة المسلك ، أى لن تستهويهن أصلا ، مثل هذه المواضيع الشاذة . وبالتالى لم يكن هذا القسم يرحب بمن مارسن الجنس كالمتزوجات .

وأضافت جوليا :

« وها أنت تجد أمامك فتاة تتميز بالعفة والطهر .. هل تطمع فى مزيد من الطهر ؟؟ »

ثم أكملت حديثها عن حياتها :

ـ : « مررت بأول تجربة جنسية لى وأنا فى السادسة عشرة ، ضاجعنى عضو فى الحزب عمره ستون سنة . وانتحر فيما بعد ليتفادى القبض عليه . »

وأردفت ..

ـ : « عمل طيب ، وإلا لكان اضطر لافشاء اسمى للمخابرات »

ثم بدأت تجرب أنواعا مختلفة من الرجال بعد هذا العضو المبجل . فالحياة كما تراها .. غاية فى البساطة . أنت تريد أن تستمتع بوقت طيب . و « هم » بمعنى الحزب والحكومة يحاولون حرمانك من هذه المتعة فى الحياة ، فبالتالى يجب عليك أن تخرق كل القوانين التى وضعوها ، كلما استطعت الى ذلك سبيلا ، لتختلس ما يتاح لك من لحظات سعيدة .

طريقة كلامها تترك لديه انطباعا أنها تنظر الى محاولة « هم » لحرمانها من لحظات الاستمتاع بحياتها .. كشىء طبيعى ، مثل نظرتها الى محاولتك أنت أن تتفادى هذه المحاولة بأى وسيلة . كانت تكره الحزب ، مستخدمة للتعبير عن هذه الكراهية ، أقذع الالفاظ وأقساها ، لكنها لم تشغل نفسها بنقد فلسفته أو نظمه .. إلى آخر هذا الكلام

فكل هذه التعقيدات ضد نظراتها الفطرية المبسطة للحياة . لا يعنيها فى شىء أن تعلم شيئا عن عقيدة الحزب وخطه العام ، طالما ان هذا بعيد عن اهتماماتها ومطالبها اليومية . كما لاحظ وينستون أنها نادرا ما تستخدم الفاظ « اللغة الدولية الجديـدة » ، عدا تلك الألفاظ التى أصبحت من « القاموس العامى الدارج » . لم تسمع من قبل عن حركة « الأخوة » ، ولم تصدق انها موجودة أصلا . كما كانت تنظر الى أى محاولة جماعية لمقاومة الحزب ، كسلوك غبى مصيره الفشل . المهارة الحقيقيـة هى خرق القوانـين ، ومحاولـة الاستمتاع بحياتك رغما عن جميع الأوغاد ، وتفادى خطر القبض عليك .. هذا هو كل ما هنالك . تساءل وينستون بينه ـ وبين نفسه ـ ترى كم من أمثال جوليا يضمهم الجيل الجديد ومن نفس سنها ؟ كم شابا وشابة يؤمن بهذا الاتجاه ؟ كم من انسان فتح عينيه فلم يجد غير الحزب وعالم الحزب ، فتقبله كحقيقة واقعة غير قابلـة للنقـاش أو التغيـير ، فلا يفكر أحد منهم فى الثورة ضد سلطته .. بل تفكيرهم لا يتجاوز محاولة الهروب من بطشه ، كأرنب يفر من مطاردة كلب عقور ..

لم يناقش جوليا حتى فى احتمال زواجهما . كانت الفكرة بعيدة المنال لدرجة أنه لم يتطرق اليها ، ولا حتى بذل الجهد لمناقشة وسائل تحقيقها . فليس من المتصور أن توافق أى لجنة من لجان الحزب مهما بلغ تساهل أفرادها ، على زواج كهذا . وحتى لو استطاع الانفكاك بأى وسيلة من « كاترين » زوجته السابقة . الزواج بالنسبة لهما كان نوعا من السراب ، من الأفضل اسقاط التفكير فيه منذ البداية ، وقد فاجأته جوليا مرة تقول :

ـ حدثنى عن زوجتك ؟

ـ كانت ... كانت .. هل تعرفين ماذا تعنى كلمة (نمطية) فى اللغة الدولية الجديدة ؟ تقليد فى كل شىء . ليس فى امكانها أن تفكر فى أى شىء خارج عن مألوف الحياة كما يراها الحزب .

ـ أنا لم اسمع بالكلمة ـ نمطية ـ ، لكنى اتخيل زوجتك بالفعل .

أخذ وينستون يحكى لها تفاصيل حياته الزوجية السابقة . لكن الغريب أن جوليا كانت تسبقه فى الأوصاف كما لو كانت تعيش معهم ، وصفت له ـ ولدهشته الشديدة ـ كل ما يتعلق ببرود زوجته فى السرير ، وكل الحركات التى كانت تصدر عنهـا فى الجماع ، ودفعها له بكل قوتها فى الوقت الذى تحيط جسمه بذراعيها ، لم يجد وينستون أى حرج فى سرد كل هذه التفاصيل مع جوليا . كان يشعر أنه على طبيعته معها وهى أيضا ، فانتفى

الحرج .. احس فى نهاية الحديث ان كاترين قد تحولت من ذكرى مؤلمة الى مجرد ماض كريه .

- : كان بامكانى أن استمر فى حياتى معها ، لولا شىء واحد

وأخذ يقص عليها حكاية تحديد يوم « يجب » أن يمارس الجنس معها فيه من كل أسبوع . وأضاف :

- : كانت تكره هذه المسألة . لكن لم يمنعها عن مزاولة الجنس ضيقاً به .. اعتادت أن تسمى الممارسة الجنسية .. لكن .. لن تصدقى التسمية التى أطلقتها عليه .

- : واجبنا نحو الحزب .. أليس كذلك ؟ »

- : كيف عرفت ؟

- : يا عزيزى ، أنا أيضاً كنت فى مدرسة داخلية ، وحضرت محاضرات الأمور الجنسية التى كانت تلقى علينا (لمن تتجاوز السادسة عشرة) . يخيل الىّ أنهم يقنعون عدداً كبيراً من الفتيات بمثل هذا الكلام . لكنى طبعاً لم أكن متأكده حتى من اللائى يظهرن موافقة وحماساً فى المحاضرات ، لأن النساء منافقات جداً بطبعهن » .

وبدأت جوليا تتناول الموضوع باسهاب ، فبالنسبة لها ، يمكن دائماً تفسير كل شىء استناداً الى تجاربها الحسية . وما أن تتناول هذا الموضوع حتى تتكلم بأستاذية ومهارة بالغة . وعلى العكس مما كان يذهب اليه وينستون ، استطاعت جوليا أن تغوص الى المعنى الدفين لما يدعو اليه الحزب من « تطهر جنسى » ، والى دعوة الشباب الى الالتزام بالعفة . الأمر يتجاوز مجرد الفكرة التى شرحها لها وينستون من أن الغريزة الجنسية عالم مستقل يصعب على الحزب أن يسيطر على المنغمسين فيه أو المستمتعين به . ومن هنا كانت محاولة الحزب تدمير هذه المتعة الحسية . لا ... ان الأمر أبعد من هذا فى رأى جوليا ؟ .. فهى ترى أن الحرمان الجنسى الذى يدعو له الحزب يدفع الشباب الى نوع هستيرى من السلوك ، وهذا السلوك الهستيرى مرغوب فيه لدى الدولة ، اذ يمكن تحويله الى حمى الحزب أو هستيريا عباده الزعيم الفرد المتأله .. وهذا نوع من رد فعل الجنس المكبوت ، الذى يجد مسارا له فى هذه الأنشطة . لأنك اذا وصلت الى المتعة الخالصة ، أو السعادة الشخصية ، فما الذى يدفعك الى التحمس للزعيم أو (الخطة الثلاثية) أو (دقيقتى الحقد) .. أو .. أو ما الى ذلك من الكلام الفارغ .. ومن العفن الذى صدعوا ادمغتنا به ..

وجهة نظر سليمة ، وعندما عاد يتأملها .. ردد :

ـ : معقول ... فهناك دائماً ارتباط بين هذه العفة .. وهذا السلوك الحزبى التقليدى الجامد .. صحيح ... كيف يمكن للحزب أن يصل الى استثارة وترسيخ كل هذه الكراهية .. وكل هذا الخوف .. وكل هذا الايمان الساذج بالشعارات .. دون أن يحتجز قدراً هائلاً من طاقة الإنسان الغريزية ، ليوجهها الى مثل هذه المجالات ، سواء كانت كراهيه أو خوفاً أو ايماناً ساذجاً ؟ فالدافع الجنسى ـ كما اكتشف المهيمنون على الحزب ـ طاقة هائلة يمكن أن توجه ضد الحزب .

اذن فما قام به الحزب ببساطة هو تحويل هذه الطاقة لصالحه .

« وهم » أيضاً قاموا بتكتيك مماثل بالنسبة لغريزة الأمومة والأبوة ، فالعائلة كتنظيم اجتماعى لاسبيل الى الغائه ، بل أن الحزب يدعو الوالدين الى حب أطفالهم . لكن من ناحية أخرى يتم تأليب الأطفال ضد والديهم من قبل الحزب بشكل منظم . يعلمونهم كيف يتجسسون على أبويهم ، وكيف يبلغون السلطات عن أى انحراف يصدر عمن هم أكبر منهم سناً . فتحولت العائلة بالتالى الى خليَّة من خلايا البوليس السياسى .. نظام جعل الإنسان يشعر أنه محاط ليلاً ونهاراً بعملاء يعرفون كل دقائق حياته وتصرفاته .

وعاد وينستون يفكر فى زوجته كاترين . لاشك أن كاترين لو قدر لها أن تكشف أى انحراف فى خطه الفكرى لما ترددت فى الابلاغ عنه . وماحماه منها هو غباؤها الذى لم يتح لها اكتشاف ان فكر زوجها مختلف عن تفكير سواه . غير أن مادفعه لاستدعاء صورة كاترين فى ذهنه ، كان فى الواقع هو ماشعر به من حرارة الجو الخانق حوله ، مما جعل جبهته تنضح بالعرق ، فأخذ يستعيد ذكرى ماحدث فى يوم قائظ مماثل منذ أحد عشر عاماً ، ويقصه على جوليا ..

كان هناك بعد زواجه بثلاثة أو أربعة شهور حين ضلا طريقهما هو وزوجته فى احدى الرحلات الخلوية فى منطقة « كنت » . كانا قد تأخرا عن المجموعة التى خرجوا معها ، وانحرفا فى سيرهما الى طريق خاطىء أدى بهما الى شبه هضبة من الحجر الجيرى ، تطل على منخفض يقل فى المستوى عشرة أو اثنا عشر متراً . ما أن اكتشفت كاترين أنهما قد ضلا الطريق ، حتى أصبحت فى غاية التوتر . مجرد أحساسها أنها انسلخت عن أعضاء الرحلة واختفت عن أنظارهم أثار فيها شعورا بالاثم ، أنها ارتكبت خطأ جسيماً ، فأخذت تلح عليه أن يعودا ادراجهما على الفور ، فى اتجاه معاكس للاتجاه الذى قدما منه . ليتمكنا

من الوصول الى النقطة التى انحرفوا فيها عن الاتجاه الصحيح . لكن فى هذه اللحظة اكتشف وينستون وجود خميلة من الزهر الجبلى نمت تلقائيا فى جوف الربوة التى يقفون فوقها ، ولون الزهر فيها كان يتراوح بين الأحمر والأرجوانى . نبتت فى شقوق العروق الحجرية الممتده أسفل الربوة ، ولم يسبق لوينستون أن شاهد مثل هذه الزهور البرية من قبل فنادى كاترين لكى تلقى نظرة على المشهد الرائع أمامه .

- انظرى ياكاترين ، انظرى .. اترين هذه الزهور التى نبتت من تلقاء نفسها فى قاع الوادى ؟ هل لاحظت أنها من لونين ؟ » .

كانت كاترين على وشك مغادرة المكان .. عادت على مضض وهى مازالت تستعجله للانصراف ، ثم انحنت على حافة الربوه لتلقى نظره على مايشير اليه . كان المكان خاليا تماماً ، يلفه هدوء مطبق . وجد نفسه واقفاً خلفها ويداه على خصرها . أمسكها حتى لاتهتز فى وقفتها على الحافة ، واحتمال وجود ميكروفون الحزب هنا احتمال بعيد جداً .. لمعت فى ذهنه الفكره . بل وحتى لو كان هناك ميكروفـون .. فلن يسجـل الا الـكلام وهما لايتكلمان الآن .. وكان يسود المكان صمت مطبق ، وحر خانق يزيد فى ضغـط سكون الهواء ، بينما الشمس ترسل أشعتها اللاهبه ، والعرق يتفصد من وجهه ، والفكرة تلـح عليه .

قاطعته جوليا :

- : ان تدفعها من الخلف وتنتهى ... ؟ لو كنت مكانك لفعلت »

- : نعم ياعزيزتى . أنت كنت تفعلين ذلك ، أنا كنت أفعله أيضاً ، لو كنت أنا فى الماضى نفس الشخص الذى أصبحته الآن . أو ربما كنت لا أعلم .. لست متـأكداً من أى شىء .. » .

- : هل أنت نادم على أنك لم تتلخص منها ؟ »

- : فعلاً .. عموماً أنا آسف على أننى لم أفعل . »

كان يجلسان متجاورين على الأرض الترابية لبرج الكنيسة . جذبها اليه فأسندت رأسها الى صدره . عطرها يملأ أنفاسه ويحجب رائحة روث الحمام . حدث نفسه قائلاً ، أنها مازالت صغيرة السن .. مازالت الحياة ومستقبلها ممتدين أمامها .. مازالت بعيدة عن أن تعى أن التخلص من شخص غير مرغوب فيه بالقتل لايحل المشاكل وانما يخلقها .

ومع هذه الملاحظة بينه وبين نفسه أخذ يقول :

ـ : عموماً يا جوليا حتى لو دفعتها ، كان الموقف سيظل كما هو ، لا فرق » .
ـ : اذن لماذا أنت آسف أنك لم تدفعها ؟ »

ـ : فقط لأنى أميل للعمل الايجابى على الانتظار السلبى . فى لعبة العلاقة الموقوفة بينى وبين زوجتى لن يكتب النصر لأى منا . » بعض أشكال الفشل أفضل من أشكاله الأخرى .. هذا كل ماهنالك » .

رفعت كتفيها فى تعبير عن الرفض . كانت دائماً لاتتفق معه عندما يقول كلاماً مشابها لهذا . فهى لاتعترف بقانون طبيعى ينص على أن الإنسان ولد ليهزم أو لأن يبقى مهزوماً ، برغم أدراكها لا شعوريا أنه قدر عليها الفناء . أن عاجلاً أو آجلاً . سيكتشفها البوليس السياسى ويقبض عليها ثم يقتلها . لكن مازال هناك جانب من ادراكها الواعى على يقين من أن فى الامكان اقامة عالم سرى تختار فيه أنت نوع الحياة الذى تحب .. كل ماتحتاجه .. هو نوع من المكر .. بشىء من الحظ .. وكثير من الجرأة المحسوبة ، فهى لاتفهم أبداً مغزى أن السعادة قد اختفت من حياتها القصيرة .. وأن النصر الحقيقى للبشرية هو فى المستقبل البعيد ، بعد أن تكون هى قد ماتت بل شبعت موتا ، وأنه منذ اللحظة التى تعلن فيها الحرب على الحزب ، يجب أن تفكر فى نفسك كجثة تسير على قدمين .

وبعد لحظة جالت خلالها بذهنه هذه المحصلات للواقع قال :
ـ : نحن فى الواقع موتى يتحدثون يا جوليا .. »
ـ : نحن لم نمت بعد . »

ـ : أنا لا أقصد أجسادنا .. فلنفرض أن أجسادنا بقيت ستة أشهر .. سنة .. خمس سنوات كما أقدر أنا .. ثم ماذا ؟! أنا خائف حتى الموت من الموت ياجوليا . أنت ماتزالين شابة وأصغر منى سناً .. فالمفروض أن يكون خوفك أكبر من خوفى .. ليس معنى هذا أننا سنتوقف عن التشبث بالحياه أطول فترة ممكنة . لكن المصير واحد . فمادام الإنسان هو إنسان ، فالموت والحياة وجهان لعملة واحدة »

ـ : لا ... لا ياسيدى ، هذا كلام فارغ . جسد من سيضاجعك الآن ؟.. جسدى أنا ، أم هو جثة هامدة ؟ ألا تستمتع بكونك حيا تفيض بالحياة .. لماذا تهرب من عمق الاحساس

النابض بالحياة .. المس ذراعى . هذه هى أنا . هذه هى ساقى .. أنا أمرأة حقيقية .. وأنا حقيقية أيضاً . حقيقة صلبة .. وحقيقة حيـة . هل تكره أن تكون حيـا أم هل تكره هذا ؟ » .

وهنا ـ وفجأة ـ استدارت ودفعت صدرها بحيث أصبح نهداها المتوثبان لصق صدره ، فأحس بهما نافرين ضاغطين عليه . يفيضان حيوية ودفئاً وتدفقا فى عنفوان الى جسمه كله فأجاب :

ـ : نعم أنا أحب هذا ياجوليا .. »

ـ : فلماذا إذن لاتتوقف عن حديث الموت ؟ ..

دعنا من هذا ولنتكلم فى المهم .. اسمعنى جيداً : يجب أن نرتب من الآن طريقة لقائنا التالى .. من الممكن الآن وقد مضى وقت كاف ، أن نزور ملجأنا فى الغابة . وهذه المرة فكرت فى أن نسلك طريقاً جديداً . لقد خططت كل التفاصيل . اسمع .. تركب القطار ـ القادم من .. ثم كمن تستدرك قالت :

« لكن الأفضل أن أوضح لك بالرسم . »

وبنفس طريقتها العملية النشطة فى الشرح رسمت بأصبعها دائرة على أرض الغرفة القديمة ، ثم بريشة من ريش الحمام التقطتها بدأت ترسم المسار الجديد .. وبالتفصيل .

❋ ❋ ❋

(٤)

تأمل وينستون أرجاء الغرفة الصغيرة فوق محل مستر تشارنجتون .. ذلك السرير الضخم مرتب بأغطية من بطاطين مهلهلة ، ووسائد بلا غلاف خارجي . الدقات الخافتة الرتيبة تصدر عن نفس الساعة القديمة ذات الأربع وعشرين رقماً . فوق المنضده ذات المفصلات فى الركن ، كانت التحفة الزجاجية التى اشتراها تعكس الضوء الخافت فى

الحجرة . على حاجز المنضده وضع موقد زيتى أدركه القدم ، وعدة أطباق وفنجانان .. أهداها اليه مستر تشارنجتون .. أشعل وينستون الموقد ووضع فوقه أناء به ماء ليغلى ، وكان قد أحضر معه كمية من « بن النصر » وبعضا من قطع السكرين .. وعقارب الساعة الآن تشير الى السابعة والثلث . وهو يتوقع قدوم جوليا حسب الموعد فى السابعة والنصف .

« طيش .. مجرد طيش .. هو ما أفعله الآن » طفق يحدث نفسه بهذه الجملة .. » مجرد طيش ارتكبه عن وعى .. بل تهور لايمكن تبريره .. بل أن ما أفعله انتحار .. وهو الجنون بعينه » فمن بين كل الجرائم التى قد يرتكبها عضو الحزب ، هذه الجريمة التى لايمكن اخفاؤها الى الأبد .

خطرت له فكرة استئجار هذه الغرفة منذ اللحظة التى انطلق فيها خياله بعد شراء التحفة الزجاجية ، بحثاً عن عش هادىء وكما توقع لم يجد صعوبة فى استئجار الغرفة من مستر تشارنجتون الذى لم يخف سعادته بتلك الدولارات الاضافية التى ستدخل جيبه . بل أن مستر تشارنجتون ، على عكس ما كان وينستون يخشاه ، لم يصدم حين عرف أن الغرض الذى يستأجر من أجله الغرفة هو أن تكون (عش غرام) ، وان كان قد آثر أن يتظاهر بأنه لم يعرف ، ولذلك فقد أخذ يتطرق للموضوع بصورة ملفوفة غير مباشرة ، وهو يلمح الى أن وجوده شخصياً فى المحل أسفل الغرفة ـ كما أوضح بطريقة تنم عن رقة شعوره ـ لن يزعج من بالغرفة ... ان الاحساس بالخصوصية والتفرد .. شىء نادر ورائع فى نظره . لايوجد إنسان لايحلم بمكان خاص به يمكن أن يخلو فيه الى نفسه بين الحين والحين ، ومن ثم نشأ مايشبه العرف غير المكتوب أنه لايجب أن تخوض فى سير الآخرين إذا علمت أن شخصاً ما قد نجح فى أن يجد مكاناً خاصاً به ، عرف لايسرى على عملاء البوليس السياسى بالطبع . ومستر تشارنجتون الذى كان يبدو وقد اختفى من الوجود عند قدوم

وينستون وصعوده الى غرفته ، بدا أنه متفهم للوضع ، بحيث ذهب الى حد أن يطمئن وينستون بأن للمحل مدخلاً آخر عن طريق الفناء الخلفى وهو يقود الى زقاق ضيق .

تحت النافذة سمع وينستون صوت غناء . فأطل برأسه مطمئناً الى أن الستارة المنصوبة على النافذة تحجبه عن الخارج وكانت شمس يونيو مازالت لم تختف بعد . فاذا به يرى أمرأة فى ضخامة الوحش الكاسر ، تقف فى الفناء المفروش بأشعة الشمس ، ساعداها تكسوهما حمره داكنه ، وقد التفت فى مريلة حول خصرها تتنقل مابين اناء غسيل وحبال منصوبة ، تنشر ماميزه وينستون كملابس أطفال داخلية . وفى اللحظات التى كان فمها يخلو فيها من « مشابك » الغسيل ، كانت ترفع عقيرتها بأغنية شعبية قوية النبرات تقول كلماتها :

« كانت الحكاية خيالاً فى خيال »

« يوم يمر مثل باقى الأيام ، ولا شىء يقال »

« لكن آه من كلامك .. ومن نظراتك لما طابت فى كل خيال »

« وآه منك ياسارق قلبى . وليس من عرف ولا من قال »

كانت الأغنية منتشرة فى أوساط لندن الشعبية منذ أسابيع . وهى أغنية مستهلكة المعانى مثل غيرها من إنتاج قسم خاص فى هيئة الموسيقى ، ينتجها وينشرها فى أوساط البروليتاريا . والغريب أنهم كانوا يجمعون كلمات بعض الأغانى الشعبية ومعها كل لمحاتها وتعبيراتها الدارجة وكافة الاهازيج والمعانى الفولكلورية ثم يفرغونها فى شرائط مثقوبة ، ثم يدخلونها جهازاً خاصاً ، وبعملية تباديل وتوافيق معينة ، ودون تدخل بشرى يتم إنتاج عدة أغان توزع فى سوق البروليتاريا على فترات لتشيع فيهم طبيعة المرح وتكرس روح التفاؤل والرضى .. ولكن المرأة البدينة كانت تضفى على الأغنية قوة فى ادائها ، كأنما لتحاول أن تجعل الروح تدب فى كلماتها ومعانيها المكرورة .

من مكانه فى النافذة كان يسمع صوت الغناء مختلطاً بخفق نعليها على أرضية الفناء ، وأيضاً بصراخ الأطفال البعيد فى الشارع العمومى ، مركخلفية بعيدة . جاءه خافتاً صوت ضجيج السيارات وزحمة المرور . ورغم كل هذا بدت له الغرفة مكاناً يشيع فيه الهدوء وتحضنه السكينة ، وكان السبب هو غياب شاشة السينما التليفزيونية .

مازال يقسو على نفسه فى حوار داخلى :

ـ : ماتفعله هو الجنون المطبق . طيش .. طيش .. طيش .. بالتأكيد »

لم يكن منطقياً أن يستطيعوا الاستمرار فى التردد على هذا المكان أكثر من بضعة أسابيع ، دون التعرض للاعتقال . ولكن اغراء الوازع القوى لديهما فى التمتع بعزلة تامة ، فى مكان خاص بهما وحدهما ، مغلق ودافىء وقاصر عليهما دون العالم كله ، كان ذلك وازعاً أقوى من أن يقهر ، وخاصة بعد أن ظلا فترة طويلة نسبياً بعد لقاء برج الكنيسة محرومين من اللقاء تحكمهما ظروفهما ، وذلك أن معدل ساعات العمل قد زادت استعداداً (لأسبوع الحقد) . صحيح أن مابقى على الاحتفال بهذا الأسبوع يزيد عن الشهر ، ولكن الاستعدادات الضخمة القائمة على قدم وساق فى كافة أرجاء المدينة استلزمت تكليف الجميع بأعمال اضافية .

كانا قد رتبا لقاء بعد ظهر أحد الأيام ، حيث يقومان برحلة الى وكرهما فى الغابة ، وكانا قد اختطفا لقاء قصيراً فى الشارع فى اليوم السابق ، للاتفاق على طريقة اللقاء المرتقب . وكالمعتاد لم ينظر وينستون اليها أثناء تبادل الحوار لكن ما أن القى عليها نظرة جانبية حتى لاحظ شحوب وجهها وهى تقول فى اللخظة التى اتيحت للكلام .

ـ : أصرف نظر عن الموضوع كله

ـ : ماذا تقصدين ؟

ـ : بالنسبة لبعد ظهر الغد ، لن استطيع الحضور

ـ : لماذا ؟

ـ : للسبب المعتاد .. ظروف العمل

اجتاحه غضب جارف للحظات .. ذلك أن طبيعة رغبته فيها قد تغيرت خلال الشهر الذى مضى على علاقته بها .. صحيح أن الأمر فى البداية لم يكن أكثر من تحقيق رغبة حسية دون المتعة الحقيقية التى يعيشها بالمشاعر فى الاعماق ، وعلى الأخص ذلك اللقاء الجنسى الأول .. لاشك أن الطبيعة أو الغريزه كانت تدفعها نحوه ، لكن بعد أن مارساه مرة ومرتين أخريين .. أخذ الأمر يختلف .. اصبحت رائحة شعرها .. مذاق شفتيها .. ملمس جسمها .. بدأت كلها تغوص فى أعماقه .. بل سرت مسرى الدم فى عروقه .. فلم يعد الأمر مطلباً جنسياً .. أصبح حياة كاملة .. مطلباً حيوياً ملحاً كالأكل والنوم .. لايستغنى عنه ، وله كامل الحق فى الحرص على حيازته وأمتلاكه .

فعندما قالت له أنه ليس بامكانها الحضور .. شعر أنها تخدعه . ولم يمنعه من اظهار غضبه إلا الزحام الذى فصلهما ، ولكنهما عادا يقتربان . وما أن اقتربت الى الحد الكافى

حتى أمسكت بيده وضغطت عليها .. وهى حركة تحمل من الحنان أكثر مما تثير من الرغبة . فأقنع نفسه أنه طالما أقام علاقة مع أمرأة فان لحظات سوء الفهم أو التفاهم لابد وأن تكون من سماتها . شعر الآن أكثر من أى وقت مضى بحنان غامر نحو الفتاة الممسكة بيده . وكأحساس مفاجىء لم يتملكه من قبل ، شعر برغبة حقيقية فى أن تكون هذه اليد يد زوجته ، يسيران فى ضوء النهار ، علنا دون تخف ودون خوف كزوجين مضى على زواجهما عشر سنوات .. يتشاوران فى أحداث اليوم التافهة ، ويتناقشان فيما يحتاجه المنزل من أشياء .. يمضيان الوقت فى شرائها من السوق . وأهم من هذا كله ، شعر بحاجته الى مكان يقابل فيه فتاته دون أن ينتابه مايشبه الالتزام بضرورة ممارسة الجنس معها فى كل مرة يضمهما لقاء متوتر . ولذلك ففى اليوم التالى لهذا اللقاء ، كانت فكرة استئجار غرفة مستر تشارنجتون ، على ماتنطوى عليه من خطورة ، قد اختمرت فى ذهنه ، ثم عندما عرض الفكرة على جوليا أبدت استعداداً لم يتوقعه ، اذ وافقت على الفور . كلاهما كان يدرك أنها جنون مطبق ، لكن بدا الأمر كما لو كانا يخطوان نحو قبريهما دون مبالاة ، وعن سبق تعمد واصرار ..

عندما ترك النافذة وجلس على حافة السرير فى انتظارها بدا يتخيل شكل الزنزانة فى أقبيه « وزارة الحب » . غريب أيضاً ذلك التأرجح الذى ينتاب وعى الإنسان ، بين الادراك والتعامى عن الرعب القادم . هاهو منظر الزنزانة أمامه ، حقيقياً بنفس الدرجة التى يلى فيها الرقم ١٠٠ الرقم ٩٩ .

ـ : « ليس بوسعك أن تتفادى قدراً يخطوا اليك بثبات أكيد ياوينستون ، فى امكانك فقط أن تؤجل وصوله . ومع ذلك فبحركة طائشة أو تصرف مغامر يبدو أنك من غير وعى ، أو بوعى تقرب المسافة بينك وبين هذا القدر الزاحف الرهيب . » .

سمع خطوات سريعة على السلم الصاعد للغرفة ، ومالبثت جوليا أن دخلت تحمل فى يدها حقيبة من « الخيش » دل أنبعاجها على أنها طافحة .. حقيبة من ذلك النوع الذى طالما رآها تحمله فى مقر عملها بالوزارة .

نهض وتقدم ليأخذها بين ذراعيه ، لكنها تخلصت منه بطريقة عملية سريعة ، وهى مازالت ممسكة بالحقيبة فى يدها وهى تقول :

ـ : نصف دقيقة .. دعنى أولاً أريك ماجئتك به . أظن أنك جئت بذلك البن القذر

المسمى بـ « بن النصر » أليس كذلك ؟ دعنى أُرك إذن ما أحضرته أنا . ولكن قبل كل شيء أقذف ببن النصر فى صندوق الزبالة . ثم بعد ذلك أنظر ماذا أحضرت » .

ركعت على ركبتيها ، ثم فتحت الحقيبة وأفرغت محتوياتها من صواميل ومفكات كانت قد وضعتها لتغطى أعلى الحقيبة ، ثم أخرجت ماكان يقبع تحت المعدات الآلية هذه . مجموعة من الأكياس الورقية أنيقة التغليف . كان أول كيس تناوله وينستون له طابع غريب ورائحة متفرده وجميلة . عندما لمس محتوياته وجد وينستون أنها مادة شبيهة بالدقيق لفرط نعومتها .. تكاد تذوب بين أصابعه الضاغطة .

ـ : ماهذا ياجوليا .. أليس سكراً ؟ »

ـ : نعم .. لكن هناك فرق بين سكر وسكر . هذا سكر حقيقى . وليس تلك المادة التى أحضرتها والمصنوعة من السكرين .. ثم هناك أيضاً رغيف من الخبز ، من دقيق أبيض نظيف .. وليس ذلك الشيء الأسود الذى اعتدنا أن نأكله . وقد جئتك بعلبة لبن أيضاً .. ثم انظر .. هذا الكيس هو ما أشعر بالفخر الحقيقى بقدرتى على الحصول عليه .. هديتى الحقيقية لك ... تصور .. من فرط حرصى عليه لففته فى أكثر من ورقة .. » .

وبدأت تفض الورق . ولكن لم تكن به حاجة لانتظار عملية الفض هذه ، اذ فاحت فى ارجاء الغرفة ـ حتى والكيس داخل غلافه ـ رائحة نفاذة قوية ملأت خياشيمه ، ذكرته برائحة اعتقد أنها داعبت أنفه منذ زمن طويل يرجع الى أيام طفولته . لكنها رائحة كانت تداعبه بين الفينة والفينة ، وهو يمر بالقرب من مكاتب كبار رجال الحزب ، عندما كان العمل يستدعى ابلاغ أحدهم بشيء خاص . أحياناً كان يشم هذه الرائحة فى أماكن مزدحمة دون أن يتمكن من اكتشاف مصدرها . رائحة لم تكن تستمر طويلاً ..

ـ : انه بن .. بن أصلى ؟ » همهم لنفسه .

ـ انه « ياسيدى » البن الخاص بأعضاء (التنظيم الداخلى) . لقد أحضرت لك منه كيلو جراما كاملاً .

ـ : لكن كيف تمكنت من الحصول على كُل هذه الأشياء ؟ »

ـ : كلها سلع خاصة بالتنظيم الداخلى . أولاد الكلب لايحرمون أنفسهم من أى شيء ، لكن بطبيعة الحال الحاشية والخدم والاتباع (لايفوتهم من الحب جانب) وبالتالى بشيء من التفاهم والذكاء تستطيع أن تشترى ولكل شيء ثمنه طبعاً .

ـ : ثم أنظر .. هذا الكيس به أفخر شاى يمكن أن تتذوقه فى « أوشانيا » كلها .

فتح وينستون جانباً من الكيس .

ـ : صحيح ياجوليا هذه أوراق شاى حقيقى ، لايوجد ثمة شبه بينها وبين « نشارة الخشب السوداء » التى نشربها . الشاى الذى أمتلأت به الأسواق أكثره من الهند .

أجابته بلهجة المعنية :

ـ : يبدو أنهم قد استولوا على الهند مؤخراً .. السوق ملىء بالشاى . »

ثم عادت لتقول :

ـ : والآن ياعزيزى . أريد أن تدير ظهرك .. وتبقى كذلك لمدة ثلاث دقائق .. أياك أن تنظر الىّ فيها ولو أدرت وجهك سأخاصمك الى الأبد .. والآن . أمش الى هناك وأجلس على طرف السرير البعيد . لا داعى لأن تقترب من النافذة . وإياك .. اياك أن تنظر خلفك .. » .

ذهب الى حيث أشارت ، وأطل من خلف الستائر الرقيقة للنافذة . مازالت المرأة البدينة تقطع الفناء جيئة وذهاباً ، فى خطوات قوية تكمل نشر « الغسيل » . نزعت مشبكين من فمها ، وذراعاها القويتان مرفوعتان الى حبل الغسيل . عادت لترفع عقيرتها بالغناء .. تردد مقاطع أخرى من نفس الأغنية . أخذت تردد .. بتأثر شديد وبصوت قوى منفعل :

« قالوا الزمن يداوى كل جراحى ... »

« قالوا سلم نفسك لجنة النسيان ... »

« مرت سنين .. هجر وحنين .... »

« لاجرحى كان ينسى .. ولاقلبى كان يلين ... »

وطفقت تعيد كلمات الأغنية التى يبدو أنها تحفظ كلماتها عن ظهر قلب وانساب صوتها الأجش مع رقة نسيم الصيف ، تتلاعب بالنغم فى طرب واضح ، يشوب صوتها شجن لايخلو من سعادة . ويخيل اليك أنها لاتكره أن تبقى طول العمر تردد أغنيات كهذه فى أصيل الصيف .. منظرها يعكس نوعاً من الرضى . هل كانت الأغنية هروباً من هموم حقيقية ؟؟

وتذكر للتو أنه لم يسمع فى حياته أى عضو من أعضاء الحزب يغنى لنفسه بصوت مسموع أو بصورة تلقائية . لو فعل أحدهم هذا لبدا على التو شاذاً وغير منضبط ، وأى

صورة من صور الشذوذ لها خطورتها فى أنه لن يظل خافيا على الغير . لكن وينستون عاد يرجح أن الإنسان لايغنى غناء حقيقياً ، إلا عندما يقترب من حافة الجوع . أيقظه صوت جوليا المرح وهى تقول :
ـ يمكن أن تدير ظهرك .. الآن »

وعندما استدار ، لم تكن المرأة الماثلة أمامه هى جوليا . لو قابلها فى مكان آخر لما تعرف عليها .. إذ كل ما كان يتوقعه من هذه اللعبة التى تلعبها ، أن يلتفت حين تفرغ ليراها عارية تماماً ، لكنها كانت على العكس .. فى كامل ملابسها .. إلا أن تغييراً شاملاً قد بدلها مخلوقاً آخر . كانت فى « ماكياج » كامل ..

لابد أنها قد اجهدت نفسها فى البحث داخل محلات « البروليتاريا » الى أن اقتنصت لوازم الماكياج ، التى يحرم اقتناؤها واستعمالها بصورة قاطعة على أعضاء الحزب . اذ أن ذلك مظهر مرفوض من مظاهر البورجوازية .

كان الروج الثقيل يغطى شفتيها ، البودرة على خديها .. حتى أنفها لم يخل من لمسات .. عيناها عالجتها بالريميل ، فبدتا أكثر اشراقا داخل اطارهما من اللون الداكن . صحيح طريقة وضع الماكياج ليست مكتملة الاتقان .. ماتوقعه وينستون كان أقل كثيراً مما يراه . لم يخطر بباله ، بل ولم يحدث أن رأى يوماً ، امرأة فى الحزب تستخدم لوازم التجميل .. والتغير الذى طرأ على ملامح جوليا كان مذهلاً . فبعض لمسات الألوان ولمسات من التظليل هنا وهناك لم تحول فتاته الى صورة أجمل فقط .. بل الأهم .. حوّلتها الى انثى .. الى امرأة حقيقية تتزين لرجلها ..

الأعجب أن شعرها القصير الرجالى ، وبذلة العمل الزرقاء التى ترتديها اضافا شيئا الى سحر أنوثتها . اطبق عليها بذراعيه ، لتفوح رائحة عطر البنفسج فى أنفه . تذكر رائحة مماثلة شمها يوم قابل المرأة المومس فى حجرة تحت الطابق السفلى .. تلك المرأة العجوز .. بلا اسنان ، لكنه لم يهتم ، فالموقف اليوم مختلف . إحساسه الآن دافق ، عليه أن يغسل الذكريات الأليمة كلها .

ـ : وتتعطرين أيضاً ياجوليا ؟

ـ : نعم ياحبيبى .. اتعطر ايضاً . هل تعلم ماذا أنوى أن أفعل المرة القادمة ؟ سأقلب الدنيا بحثاً عن « جونلا » ، وارتديها لك بدلا من هذه البنطلونات اللعينة . سأرتدى زى

امرأة كاملاً .. جوارب حريرية ، حذاء بكعب عال .. داخل هذه الجدران الأربعة سأتحول من الرفيقة جوليا .. الى مجرد أنثى » .

لم يكن مثل هذا السرير العريض متاحاً الا فى مساكن البروليتاريا ، كسائر الأثاث من الطراز القديم . لايذكر وينستون أنه نام على سرير متسع بهذا الشكل الا فى أيام طفولته البعيدة . أما جوليا فلاتذكر أنها نامت على سرير كهذا قط .. انتهيا من طقوس الجنس الرائع ، ثم مالبثا أن اسلما نفسيهما للنوم العميق . عندما استيقظ وينستون كانت عقارب الساعة العتيقة تشير الى التاسعة ، ولكنه لم يتحرك لأن جوليا كانت مستندة برأسها فى سكون الى كتفه . كانت ماتزال نائمة .. ألوان الماكياج « ساحت » على وجهها ، وبعضها انتقل الى وجهه . فبدا مضحكاً ، وبعضها انتقل الى الوسادة تحت رأسيهما . لكن مازالت بقايا اللون الأحمر على وجنتيها تكسبها جمالاً . جمالاً له سحر خاص فى لحظة السكون هذه ، فتأملها بعينين حالمتين . ذبالة من أشعة الشمس تلملم أطرافها مرتدة الى الأفق ... لكن مازالت تغمر أركان الغرفة وتنعكس فى شحوب على المدفأة المطفأة . والموقد فوقه الاناء بالماء الذى بدأ يغلى ، وصوت الغليان أبرزه الصمت فى الغرفة .. والمرأة السمينة توقفت عن الغناء ، لكن تناهى اليه من بعيد صوت خافت لضجيج الأطفال وتصايحهم فى الطريق .. تساءل وينستون ، أترى ـ فى الماضى السحيق الذى لايذكره ـ هل كان مسموحاً بتلك التجربة الإنسانية الطبيعية التى يمارسانها هو وجوليا .. أن تستلقى هكذا على سرير تشعر انك تمتلكه فى جو الصيف المنعش .. رجل وامرأة .. تجردا من ملابسهما وهمومهما .. يتبادلان الحب والجنس ان شاءا وكيفما يشاءان .. يتبادلان كلاما كيفما يعن لهما وفيما يروق من مواضيع لايسيطر عليهما احساس قاهر بضرورة النهوض من الفراش فى وقت معين ؟! هل اتيح للإنسان فى الماضى أن يستلقى هكذا على طبيعته ، تطرق اذنيه أصوات هادئة كأنما تصله من نهاية الأفق البعيد بلا رغبة فى الحركة .. مستمتعاً باسترخائه التام .. مستحيل ، مستحيل أن يكون الإنسان فى الماضى قد وصل الى هذا ، مجرد تصور أن هذا كان متاحاً فى الماضى ، فكرة لم يقبلها عقله .

استيقظت جوليا . دعكت عينيها ، ورفعت جسمها مستندة الى كوعها لتلقى نظره على الموقد ثم قالت :

ـ : لابد ان نصف الماء قد تبخر ونحن نيام .. » سأعد لك القهوة فى دقيقة . الباقى من

الوقت ساعة على كل حال . متى يطفئون النور فى بناية النصر عندكم ؟ » .
ـ فى الحادية عشرة والنصف مساء . »
ـ يطفئونه فى الحادية عشرة بالضبط فى بيت الشباب عندنا ، لكن يجب أن أصل الى هناك قبل هذا الموعد بوقت كاف لأن الـ »

استدارت بسرعة ثم صاحت وهى تقفز فجأة من السرير فى حيوية

ـ : أنى اراك .. اطّلع من عندك يا ابن الكلب .. »

قالتها وقد امسكت بفردة حذاء وراحت تطارد فأرا . ثم القت بفردة الحذاء عليه فى عنف ، بنفس الطريقة التى قذفت بها القاموس على شاشة الجهاز عندما ظهرت صورة جولد شستين فى تجمع « دقيقتى الحقد » واذ لم تصب الفأر أخذت تجرى تطارده فى مرح نزق .

ـ : ماهذا ؟ »
ـ : فأر . رأيته يرقص لى شواربه فى ركن الغرفة . لابد أنه قد حفر لنفسه جحراً هناك . لكنى جننته كما ترى . »

همس وينستون فى وجوم :

ـ : فئران .. فى الغرفة التى ننام فيها !! »
ـ : ياعزيزى أنها موجودة فى كل مكان . حتى فى مطبخ بيت الشباب لايسلم الأمر من فأر هنا أو هناك . بعض أحياء لندن تعج بالفئران ، لدرجة أن الفئران الكبيرة ـ وفيها فئران قد توحشت ـ تهاجم صغار الأطفال . أقسم لك أن هذا يحدث . فى شوارع بذاتها فى هذه الأحياء الشعبية لاتجرؤ أم أن تترك طفلها يلعب فى الشارع دون أن تراقبه . الشىء المريع صحيح أن بعض هذه الـ » .

قاطعها وينستون :

ـ : كفى .. كفى ياجوليا أرجوك . لا داعى للاسترسال فى الكلام عن هذا الموضوع من فضلك .. » .

كان يتكلم وقد اغلق عينيه تماماً .. كما لو كان يتحاشى أن يرى منظراً مخيفاً رهيباً ، فصاحت به جوليا :

ـ : وينستون .. ماذا جرى ؟ ان لونك مصفر .. ايه الحكاية ؟ .. هل ذكر الفئران يصيبك بالضيق الى هذا الحد ؟ أنا آسفة » .

ـ : أكثر مايرعبنى فى الدنيا .. شكل الفأر .. لا أعلم لماذا »

ألصقت جسدها الى جسده وأحاطته بذراعيها فى حنان ، ثم لفت ساقيها على ساقيه لتبث مزيداً من الدفء فى جسمه ، ولم يفتح عينيه على التو ، اذ اجتاحه لعدة لحظات أحساس بأنه الآن فريسة لكابوس .. احساس ظل ينتابه على فترات طوال حياته المضطربة . وكان شعوره فى معاناة هذا الكابوس هو نفس شعوره الآن .. أنه يرى فيما يرى النائم أنه واقف أمام جدران من ظلام حالك ، وعلى الجانب الآخر من الجدار شىء لايمكن تحمله أو تصوره .. شىء مروع الى الحد الذى يستحيل معه أن يواجهه ، ودائماً عندما يجيئه هذا الكابوس ، كان الشعور الذى ينتابه هو شعور حاد ، بأنه يخدع نفسه ، لأنه كان يعلم على وجه اليقين ، ماهية الخطر الكامن خلف الجدار المظلم ، فلو بذل مجهوداً ضخماً ، وتحمل معاناة تماثل فى قسوتها معاناته بفقد جزء من عقله لكان بامكانه أن يسحب هذا الشىء المخيف الى دائرة الضوء .. لكنه كان دائماً يستيقظ دون أن يدرك هذا الخطر الرابض ودون أن يستطيع مواجهته .. شعر وينستون أنه ، بصورة ما ، كان لهذا الخطر علاقة بما تقوله جوليا عندما قاطعها .. لكنه فتح عينيه ، ليقول لها :

ـ : أنا آسف ياجوليا .. حقيقة أن الموضوع لايستاهل كل هذا .. لا أعلم حقيقة مايقع لى .. كل ماهنالك أنى لا أحب رؤية الفئران » .

ـ : اعتباراً من الغد لن تجد أى فأر ، سأقطع دابر هذه المخلوقات القذرة ، وهذا الجحر سأسده بقصاصات قماش وقطعة زجاج قبل أن ننصرف اليوم .. لنخلص تماماً من هذا البلاء ، وفى المرة القادمة سأحضر قطعة مشمع معى وألصقها فوق هذا الجحر لنغلقه تماماً .. »

كان أثر الخوف الشديد الذى انتابه قد بدأ يتلاشى ، مخلفاً احساساً ممضاً .. ببقايا خجل . وارتكز على كوعه واستند الى ظهر السرير ، بينما نهضت جوليا من الفراش لترتدى بذلة العمل الزرقاء ولتعد القهوة .. كانت رائحة القهوة من القوة والنفاذ الى حد دفعها لاغلاق النافذه حتى لاتثير رائحتها غير المعتادة هنا حب استطلاع أى من الجيران ، ماجعل القهوة أكثر امتاعاً فى مذاقها ، هو ذلك السكر النقى الذى جعل ملمسها عند الشراب ناعماً ، وهو شىء لم يألفه وينستون منذ عهد بعيد اعتاد فيه على أقراص السكرين .. أما جوليا فقد أخذت تتحرك فى الغرفة بينما احدى يديها فى جيب بنطلونها ،

وفى اليد الأخرى قطعة سندويتش من خبز ومربى ، وهى تنظر بلا اهتمام إلى خزانة الكتب وتناقش أفضل وسيلة لاصلاح « مفصلات » المنضدة . ثم ألقت بكل جسدها على الكرسى العميق ذى المساند لتجرب مدى الراحة فى الجلوس عليه ، ثم أخذت تتأمل - فى سخرية مرحة محببه - الساعة القديمة ذات الأربع وعشرين رقماً . ثم أمسكت بالكرة الزجاجية السميكة وأحضرتها معها الى الفراش لتستلقى وتتمعن فى هذه التحفة الزجاجية ، فأخذها وينستون منها وهو مبهور كالعادة بملمس الزجاج الناعم ، وشفافيته وصفائه .

- : ماهذه .. ياوينستون ؟ »

- : لا أظن أنها شىء على الاطلاق .. قصدى أنها لم تصنع أصلاً لتستخدم فى أى شىء .. ان جمالها مجرد .. نابع من داخلها ، وليس فى صلاحيتها للاستخدام فى أى غرض . وهذا سر اعجابى بها . لاتبدو لى كقطعة زجاج ، بل كقطعة من التاريخ نسوا أن يغيروا معالمها ويزيفوها هى الأخرى .. كأنها رسالة قادمة الينا عبر مئات السنين .. لكن أنّى لنا أن نفك رموزها » .

- : قالت جوليا مشيرة بأصبعها الى الرسم المعلق على الحائط المقابل . »

- : هل ترجع الى مئات سنين هى الأخرى ؟ »

- : بل ترجع الى زمن أبعد .. على ما أعتقد . وان كان من الصعب تحديد أى تاريخ بالطبع . كما تعلمين من المستحيل معرفة تاريخ أى شىء بالضبط فى هذا الزمن .. »

اتجهت جوليا الى الصورة لتلقى عليها نظرة عن كثب .

- : ترى أى بناية هذه المرسومة فى الصورة ؟ لقد شاهدت شيئاً مشابها فى مكان ما .. »

- : أنها كنيسة .. أو على الأقل .. كانت كنيسة .. كان أسمها « كنيسة سانت كليمنت دين » .

وعاد ليتذكر مقاطع الانشودة التى رددها على مسمعه مستر تشارنجتون ، ثم أخذ يرددها ، وكان حنينه للماضى يشده .

« أجراس سانت كليمنت تحيى البرتقال وزهر الليمون .. »

« أجراس سانت »

ولكن لدهشته فوجىء بجوليا تكمل بقية الانشودة .

« أجراس سانت مارتين ، أعطنى الثلاث بنسات »
أجراس سانت مارتين ، اعطينى الثلاث بنسات »
ثم لتضيف
« ومتى تدفع لى نقوداً ، تقول أجراس الاولدبيلى »
توقفت مبتسمة لتقول له :

ـ لا أذكر بقية الكلمات لكنى أذكر أن الأنشودة تنتهى هكذا :
« ها هى الشمعة تنير طريقك .. »
« ها هى المفرمة أفرم بها عظامك » ..

أحس أنه وجوليا كيان واحد انقسم الى نصفين .. أحس بها صورة أخرى منه ، ولكن لابد أن هناك تكملة لهذه الأنشودة القديمة .. صمم على أن يلح مستقبلاً على مستر تشارنجتون أن يجهد ذهنه ، ليتذكر الأسطر الهاربة عنه من الأنشودة مع اغرائه بمكافأة قيمة لو فعل .

عاد يسأل جوليا :

ـ : لكن .. أنت من علمك هذه الكلمات ؟ »
ـ : جدى أعتاد أن يرددها لى دائماً .. وأنا طفلة صغيرة . عندما كنت فى الثامنة « تبخَّر » ، أو على الأقل اختفى من الوجود ، ولا أعلم كيف . »

صمتت برهة لتضيف بذهن شارد ، وكأنها تتحدث فى موضوع آخر :
ـ : أنا نسيت شكل الليمون . بالنسبة للبرتقال ، فأنا أعرف البرتقال ، رأيت عدة حبات منه ، فاكهة صفراء مستديرة لها قشرة سميكة ، أما الليمون ترى ماشكل الل ـ »
« أما أنا فأذكر شكل الليمون . كان الليمون منتشراً فى الخمسينات ، نبات حادق ، يلهب فمك إذا اعتصرتيه فيه . وله رائحة مميزة » .

عادت جوليا تنتقل لموضوع آخر .
ـ : يخيل لى أن هناك الكثير من « البق » خلف هذه الصورة . يوماً ما سأرفعها وأنظف الحائط خلفها .
أما الآن فحان وقت الرحيل .. ويجب أن ابدأ فى ازالة آثار هذا المكياج . ياللعنة .. وسأزيل أحمر الشفاه العالق بوجهك .. بعد ذلك » .

ظل وينستون مستلقياً فى استرخاء على السرير لدقائق أخرى ، وكان الظلام قد بدأ يزحف على الغرفة ، فاستدار ليتأمل التحفة الزجاجية مرة أخرى .. أجمل مافيها بالفعل ليس استدارتها ، لكنه قلب الكرة الزجاجية نفسه ، فشفافيته توحى بالعمق .. كأنها تفضى الى أغوار عالم مسحور .. قلب صاف ليست به عتمة .. فيه نقاء الفضاء المطلق وكأن سطح الزجاج المقوس هو قبة السماء الزرقاء .. يحيط به عالم خاص .. عالم له جو متفرد ، وطبيعة خاصة .. شعر أن بوسعه أن يدرك كنه هذا العالم ، بل أنه بالفعل جزء من هذا العالم المسحور . هو .. والسرير من خشب « الماهوجنى » الذى يرقد فوقه .. والمنضدة المفصلية .. والساعة .. والصورة المعلقة .. والكنيسة المطلة منها .. وحتى التحفة الزجاجية نفسها .

ان هذه الكرة .. هى ذات الغرفة التى تضمه .. والمرجان فى داخلها يمثل حياة جوليا وحياته ، امتزجا فى لانهائية تمتد الى قلب الكون ..

* * *

(٥)

اختفى « سايم » ..

فى صباح أحد الأيام التالية ، لم يظهر فى مكان عمله . كانت لبعض زملائه من غير العقلاء الجرأة على التساؤل والتعليق على غيابه . لكن فى اليوم التالى لم يجرؤ أحد على مجرد ذكر اسمه . اختفى .. مجرد واحد واختفى .

فى اليوم الثالث ، قصد وينستون ردهة قسم التسجيلات والوثائق ، ليلقى نظرة على لوحة الاعلانات .. وكانت اللوحة تضم قائمة بأسماء أعضاء فريق الشطرنج ، وهو يعلم أن سايم أحد أعضاء الفريق البارزين . مسح وينستون الأسماء أمامه بناظريه عدة مرات دون أن يجد اسم سايم مع أن القائمة .. هى نفس القائمة ، على نفس الورقة ، بنفس الشكل لا يوجد فيها اسم مشطوب أو خلافه . كل ما لاحظه أنها أقصر قليلاً ، واسم واحد سقط منها ... الموقف واضح ..

سايم لم يعد له وجود ، مادى أو غير مادى . بل يبدو أنه لم يوجد فى الحياة أصلاً .

الجو حار جداً .. ولكن فى غرف وزارة الحقيقة القابعة تحت سطح الأرض ، مكيَّفة الهواء لاتشعر بأى حرارة . بمجرد أن تخرج منها الى الطرقات تشعر بالفرق .. والأنابيب الحاملة للرسائل المتبادلة بين الأقسام يخرج منها هواء ساخن ، يتحول الى مايشبه الصهد فى ساعات الذروة من العمل . والعمل قائم على قدم وساق ، استعداداً (لأسبوع الحقد) الموعود .. كافة أطقم العاملين المدنيين ، بمختلف الوزارات ، مجندة لبذل أقصى الجهد لفترات طويلة تجاوزت النصاب المعتاد من ساعات العمل الرسمية . قمة الاستعداد لاقامة مواكب اجتماعات شعبية ضخمة واستعراضات عسكرية .. ثم محاضرات .. ومهرجانات الكرنفال من تماثيل شمعية .. مع عروض سينمائية .. الى جانب برامج سينمائية تليفزيونية خاصة .. كله فى نظام محكم .. منصات يجب أن تشيد ، وشعارات وبيارق يجب أن تصمم ، وتماثيل يجب أن تصنع ، وأغانٍ لابد أن تؤلف .. وأيضاً اشاعات يجب ترويجها ببراعة ، مع عدة صور يجب تزويرها لتتمشى مع مقتضى الحال .

عمل دائب ...

قسم الأدب الروائى الذى تعمل فيه جوليا ، توقف عن اصدار الروايات ، وتفرغ لإنتاج كتيبات تصور فظائع الاعداء .. أما وينستون ، فالى جانب عمله اليومى المعتاد ، كان عليه أن يقضى ساعات طويلة فى عمل اضافى « تطوعى » ، لمراجعة سجلات طويلة ونسخ لاحصر لها من « التايمز » ، فيغير خبراً هنا أو هناك ، ثم ليعيد صياغة بعض الأحاديث السابقة بما يضفى عليها قوة وجمال أسلوب ، حتى يمكن استعارة بعض أجزاء منها فى أحاديث (الأسبوع) . لكن من ناحية أخرى ساد المدينة جو محموم ، وترددت اشاعات قوية عن سر ازدياد معدل القذائف الصاروخية المنصبة عليها ، خاصة تلك التى يسمع الناس اصداء انفجارها على مسافات بعيدة ، ولاتصيب أهدافاً حقيقية . ترى ماهو مصدر هذه القذائف وماهو سر اطلاقها بهذه الكثرة ؟ .. فى هذا الوقت بالذات !!

اللحن الرئيسى الذى سيردده الناس فى « أسبوع الحقد » تم تأليفه ، وقد سمى « أغنية الحقد » . وهو يطارد الناس ، دون أدنى فرصة للهروب ، بالحاح ، من شاشات السينما التليفزيونية . لحن وحشى الطابع ، من الصعب أن تطلق صفة « النغم » عليه ، وهو أقرب الى دوى قرع الطبول .. عند اذاعته ، منطلقاً كالهدير من مئات الحناجر الصارخة مصحوباً بضربات الخطوات العسكرية المصاحبة ، لاتشعر بأنك تسمع نشيداً .. بل رعباً مجسداً . ولم يلبث هذا النشيد ان اكتسح أوساط « البروليتاريا » ، وانتشر بينهم منافسا لاغانيهم الشعبية التى يدمنون ترديدها ، كتلك الأغنية التى يسمعها وينستون من المرأة الضخمة ، وهى « تنشر » الغسيل .. أما عائلة « بارسونز » ، فقد طفق أطفاله يتغنون بالنشيد ليل نهار ، بصورة غير محتملة ،وبتكرار ممل .. الطفل منهم مُمسك بمشط ، والطفلة بورق التواليت فى فريق موسيقى بشع ، وفى الشارع نفسه الذى تقع فيه بنايات النصر ، نظم « بارسونز » فرقاً متطوعة ، استعداداً (لأسبوع الحقد) ، وهى تقوم بتعليق الاعلام مثلثة الشكل ، وترسم صور المناسبة على الجدران .. تعقد حبال الاعلام فوق الأسقف . و « بارسونز » يفاخر الجميع بأن بنايات النصر وحدها قدمت أربعمائة متر من القماش لصنع الاعلام المعلقة . لقد وجد « بارسونز » مجال نشاطه الطبيعى . قد يرى وهو يتقافز بين جميع المتطوعين كطائر « أبى فصاده » . وقد تذرع بحرارة الجو ، والجهد البدنى الجبار ، الذى يبذله ، فى أن يرتدى حتى فى الشارع بنطلوناً قصيراً وقميصاً مفتوحاً ويظل بهذا الشكل حتى ساعة متأخرة من الليل .. شعلة نشاط دائب فى كل مكان وأى مكان .. يستحث هذا .. يداعب ذاك .. يرفع تلك القطعة من الخشب .. يدق مسماراً هنا .. يشد

حبلاً هناك ، يجرى ، يصعد ، يهبط ، يبتكر تصمياً لتمثال أو شعار ، يصيح .. يغنى .. ومع كل من هذه النشاطات يفرز كمية من العرق تكفى لإغراق قرية .. عرق ذي رائحة نفاذة .. ثم ظهرت احدى الملصقات الجديدة فى لندن كلها فجأة .. وبلا عنوان أو تعليق مكتوب . تصور فقط ملامح قاسية شريرة لجندى من جنود « أوراشيا » على ارتفاع أربعة أمتار .. جندى يضرب الأرض بحذائه العسكرى الضخم ، وقد مات تعبير رهيب على وجهه المغولى ، ويده ممسكة فى قوة بمدفعه الرشاش وهو يصوبه تجاه الجمهور .. من أى اتجاه تنظر الى الصورة .. فالمدفع مصوب الى عينيك ، وملامح الجندى القاسية تتوعدك . وزع هذا الملصق على كل مكان خال فى أى جدار يمكن أن يعرض عليه فى كافة ارجاء لندن . يكاد ينافس صورة الزعيم . بالنسبة « للطبقة العاملة » بما طبعوا عليه من كراهية حقيقية للحرب كان هذا الملصق بمثابة سوط يلهب حماسهم الوطنى فى فورة موقوتة والقذائف الصاروخية تنهمر لتكمل الصورة ، متمشية مع الطابع المحموم الذى اجتاح المدينة ... اصاب احداها دارا للعرض السينمائى فى حى ستبنى ، ليدفن بين الانقاض عدة مئات من الضحايا ... تجمع أهالى المناطق المجاورة فى موكب رهيب لتشييع الضحايا الى مثواهم الأخير ، وتحولت الجنازة الى تجمع مهيب لادانة العدوان ... بينما قذيفة صاروخية أخرى أصابت أرضاً فضاء أعتاد الأطفال استعمالها كملعب لهم ، لتتناثر اشلاؤهم أثر الانفجار ، وتغطى مساحة كبيرة حول مكان سقوط القذيفة ، وتموج المدينة بموجة أخرى من مظاهرات السخط ، وهى تحرق دمى كبيرة تمثل جولد شستين وتمزق أرباً صور جندى أوراشيا من فوق الجدران ، وتلقى بها الى نار مشتعله بينما انصرف نوع آخر من الجماهير الى نهب عدة دكاكين ... كما سرت أشاعة ان عملاء العدو يحددون أهدافا داخل المدينة بشبكة من الاتصالات اللاسلكية مع قوات العدو .. لتندفع الجماهير وتضرم النار فى منزل صغير كان يقطنه مواطنان من أصل أجنبى ماتا خنقاً فى حجرتيهما التى تعلو حانوت مستر تشارنجتون .

استلقى وينستون وجوليا على السرير العريض .. عاريين من أثر الحر القاتل ، أمامهما النافذه مفتوحة وذلك الفأر لم يعد يطل برأسه . هو الآخر قد اختفى ، لكن حشرات البق اللعينة بدأت تتكاثر وتظهر نتيجة لحرارة الجو . لايبدو أنهما يلقيان للأمر بالا . فسواء كانت الغرفة نظيفة أو قذرة .. فهى بالنسبة لهما جنة . ما أن تطأها اقدامهما حتى يفرشا الأرض بورق جلباه لهذا الغرض ، ثم لايمضى وقت طويل حتى يسلما نفسيهما لمملكة العرى

والجنس . ليسلمهما الاجهاد وحبيبات العرق اللامع فوق جسديهما الى نوم عميق يصحوان منه ليجدا جيوش البق قد نظمت صفوفها استعداداً لغـزو مملكتهـم .. مستغلـة ظلام الحجره .

خلال شهر يونيو وحده .. التقيا أربع أو خمس بل ست مرات . بينما وينستون بدأ يقلع عن عادة احتساء « الجين » اذ بدا وكأنه لم يعد فى حاجة للخمر . وقد امتلأ جسمه عن ذى قبل ، وهدأت آلام التهابات عروق ساقه ، ولم تترك إلا أثراً بنى اللون فوق كاحله .. ونوبات السعال التى تستقبله صباح كل يوم .. انتهت .. ايقاع الحياه أصبح محتملاً أكثر من قبل ، بدأ يهجر عاداته الطفولية فى القيام بحركات ساخرة أمام شاشة الجهاز أو رفع عقيرته بالسباب بأعلى صوته . صار أهدأ من ذى قبل .

الآن بعد أن أصبح لهما ملجأ حقيقى ثابت ، لم يجدا داعياً لكثرة اللقاء ، واكتفيا بمرتين فى الأسبوع ، كل مرة يتلازمان لساعتين أو أقل .. لقد بلغا مرحلة الاستقرار ومحور حياتهما الآن هو استمرار وجود هذه الغرفة فى الطابق الأعلى من هذا المحل .. مجرد أحساسهما بأن الغرفة موجوده .. ولاتنتهكها أقدام غريبة ، كان بمثابة الحياة فيها . الأمتار المربعة القليلة التى تكون مساحتها كانت هى كل العالم بالنسبة لهما .. عالم يستمد وجوده من الماضى ، حيث يستطيع حيوانان شاردان أن ينطلقا .. كل منهما على سجيته .. حتى مستر تشارنجتون ، من وجهة نظر وينستون ، كان مثلهما حيواناً شارداً ، ينتمى الى نفس الفصيلة من الحيوانات المنقرضة التى تأبى ان تعيش فى هذا الزمن . أعتاد وينستون أن يتوقف فترة قبل صعوده للغرفة ليتبادل حديثاً ودياً مع مستر تشارنجتون ، وقد بدا أن الرجل نادراً مايغادر محله ، وزبائنه بنفس ندرة مرات خروجه ، يعيش كشبح متنقل فى الأمتار القليلة من المحل الضيق ومن مطبخ ملحق به أكثر ضيقاً ، يعد فيه طعامه البسيط . والمطبخ رغم ضيقه ، يشغل ركناً هاماً منه جراموفون كبير ، عتيق ، خرافى الشكل له بوق ضخم . كان تشارنجتون يبدو سعيداً بعثوره على من يتحدث اليه ويكسر حدة وحدته . والرجل بنظارته السميكة المنزلقة الى أرنبة أنفه ، وبانحناءة كتفيه .. بأنفه الطويل وبمعطفه القطيفة ، بدا كما لو كان هاوياً لجمع التحف أكثر منه بائعاً لها . كان وهو يقلب بضاعته بلا حماس أمام وينستون سواء كانت غطاء كبيراً (سدادة) من الصينى ، أو ايقونة مدلاة من ذهب قشره عليها رسومات قديمة .. كان لا يعنيه أن يشترى وينستون أو لا يشترى ..

كان كمن يتذوق آثار الجمال فيما يعرض لنفسه.. كان الحديث معه كمتعة الاستماع الى صندوق موسيقى عتيق . ولطالما أجهد الرجل ذاكرته فى استدعاء الحان ترجع الى ماض بعيد . أو على الأقل .. تلك الأجزاء منها التى تسعفه بها ذاكرته الكليلة . احدى هذه الأغانى تحكى عن أربع وعشرين طائرا .. وأغنية اخرى بعض كلماتها عن بقرة ذات قرون مقوسة ، وثالثة عن موت أرنب مسكين اسمه كوك روبين ... أعتاد أن يردد أبياتا من هنا وهناك مداعبا وينستون فى ضحكة ماكرة كل مرة .

ـ : يخيل لى أنك شغوف بهذه الأشياء .. أليس كذلك ؟

إلا أن ذاكرته لم تسعفه إلا بعدة سطور من هذه الأغنية أو تلك . ليس بمقدوره الآن أن يسترجع أغنية قديمة كاملة .

لم يكن وينستون أو جوليا بغافلين عن .. « الحقيقة » . فأن هذا الموضوع لن يستمر طويلا . لم تكن هذه الحقيقة البسيطة والمريرة لتغيب عن وعيها لحظة واحدة .. أحيانا يجتاحها الاحساس بزحف الخطر القادم ، بنفس درجة أحساسها بلمس الفراش الذى يضمها ، ليزداد عنف التصاق جسديها كمن يتخذان من شدة الالتصاق ، واتقاد الرغبة وسيلة يائسة للهروب ، كالمحكوم عليه بالاعدام فى اندفاعه المأساوى للتشبث بالدقائق الأخيرة قبل المصير الرهيب المتربص به .

غير أن الأمر لم يسلم أحيانا من لحظات يمنحان فيها عقلها الواعى اجازة قصيرة ، يستمتعان فيها ليس فقط بلذة خداع النفس ، بل يعيشان فى وهم ساذج أن بامكانها الحياة فى هذه الغرفة الى الأبد .. وانهما فى أمان كامل . وانه طالما ضمتها هذه الجدران الأربعة فى هذه الغرفة الحنون ، فالعالم خارجها ليس له وجود .. وان ما يتجاوز نطاق هذه الغرفة قد تبخر .. لا يوجد . فلم يعد هناك ثمة خطر ..

صحيح مازال الوصول الى الغرفة أمرا شاقا تحف به المخاطر ، لكن بمجرد الولوج اليها كان وينستون وجوليا يعزيان نفسيهما أنهما قد أصبحا بمعزل عن الحزب ، والناس ، والدنيا بأسرها .. كثيرا ما تأمل وينستون قلب الكرة

الزجاجية ، يحدوه حنين للنفاذ الى هذا العمق ، ليحيا داخل اطار من شفافية عالم نقى وصاف .. داخل هذا العالم يمكن « اعتقال » اللحظات السعيدة التى يعيشانها .. بالامكان الامساك بتلابيب السعادة ومنعها من الافلات و .. و .. وما احلى الهروب الى احلام اليقظة ..

فى احلام اليقظة تخيل نفسه هاربا أبديا مع جوليا .. يحالفهما الحظ طوال سنوات العمر الممتدة .. فى التخفى المستمر عن الحزب وعن الدنيا كلها .. أو فى احلام اخرى يجد نفسه قد تخلص بقدرة قادر من كاترين ، واستطاع بمعجزة أن يتزوج حبيبته . أحيانا يستبدل نسخة الحلم بصورة أخرى من حلم آخر : انهما قد انتحرا سويا فى وقت واحد .. وفى نفس اللحظة .

أو يتخيل مثلا أنهما قد تمكنا بعد التخفى من تغيير ملامحهما ، بحيث لن يكون فى مقدور أحد التعرف عليهما ، ثم يتدربان على اجادة اللهجة الشعبية باتقان كافراد « البروليتاريا » الاصلاء ، ويتمكنان من العمل بأحد المصانع ، ليقضيا بقية عمريهما دون أن يدرى بهما أحد فى منزل باحد الشوارع الخلفية ..
كانت كلها شطحات خيال .. واستحالة .. كما كانا فى الواقع يدركان جيدا ..

فالواقع المر قد كان قائما .. لا مهرب منه ، والخطة الوحيدة الواقعية فى كل هذا الهراء الذى كان يحلو لهما أن يسرحا فيه ، كانت الاقدام على الانتحار .. ولم تكن لأيهما رغبة حقيقية فى أن ينهى حياته ، فلم يبق إلا الاستمرار .. مجرد الاستمرار ، يوما بعد يوم ... وأسبوعا فى أثر اسبوع ... يغزلان خيوط حاضر مثير .. ضاع منه مستقبله ، فيما يشبه السلوك الغريزى .. كعملية الشهيق والزفير .. تقوم بها رئتاك طالما بقى فى حياتك رمق ، وطالما كان هناك هواء ..
فى أحيان أخرى كان يحلو لهما الحديث عن القيام بنشاط ثورى ضد النظام . لكن دون التطرق فى الحديث الى خطوات عملية تجسد هذه الثورة . لأنه حتى على فرض وجود جماعة « الاخوة » الخرافية هذه ... فكيف السبيل الى الوصول

اليها .. أخبرها وينستون عن التقارب الشديد بين شخصيته ، وشخصية « اوبرايان » . أو ما تخيله هو من تقارب بينهما ، وما ينتابه احيانا من نوازع تدعوه لأن يتقدم « لاوبرايان » عند مقابلته ليعلن له عن عدائه للحزب ، وليطلب منه العون .

الغريب أنه عندما كان يحكى مثل هذه الأمور لجوليا ، لم تكن لتثنيه عن اندفاعه ، بل تنظر الى كل ما يقوله كشىء طبيعى . فقد اعتادت جوليا أن تحكم على الناس من تعبير أعينهم ، فكان من البديهى بالنسبة لها أن حبيبها قد تأكد بالفعل من صدق واخلاص « أوبرايان » طالما ان ما ربطهما هو ادراك نابع من تلاقى العيون . ومن ناحية اخرى كان لدى جوليا ايمان راسخ بان كل انسان ـ أو تقريبا كل انسان ـ لابد ان يكره الحزب ، حتى النخاع . فى سره ، وانه سيفضح مكنون صدره تماما اذا ما اطمأن الى من يحادثه .. ضاربا عرض الحائط بوجود حرية التعبير . لكنها مع ذلك لا تؤمن بوجود .. ولا حتى بامكانية وجود نشاط منظم مناهض للحزب على نطاق واسع . وان كل ما يذاع عن جولدشستين وعن جيشه السرى المعادى للدولة .. كله كلام فارغ .. هراء .. هراء اخترعه الحزب ليخدم اغراضه .. وأن من الاسلم للمرء ان يتظاهر بتصديقه .

تذكر وينستون حركتها المسرحية بقذف الكتاب الضخم فى وجه جولدشستين وابتسم . ردت عليه بابتسامة خبيثة انها فى مرات كثيرة اكثر من ان تعد أو تحصى كانت تصيح بملء فمها فى المظاهرات والاجتماعات العامة تطالب برقبة أناس لم تسمع بهم فى حياتها ؟! وليس لديها أدنى فكرة عن الجرائم السياسية التى اتهموا بارتكابها .. هذا على فرض وقوع مثل هذه الجرائم أصلا . وفى المحاكمات التى كان يعقدها الحزب ، اعتادت دوما أن تأخذ مكانا بارزا فى واحدة من فصائل منظمة الشباب التى تعسكر فى قاعة المحكمة صباح مساء .. تصرخ على فترات فى صوت كالعاصفة مطالبة « بادانة الخونة » و « الموت للمخربين » أما فى جلسات « دقيقتى الحقد » فقد فاقت الجميع بكمية السباب التى تطلقها فى وجه جولدشستين المطل من الشاشة .

أما هى فى الحقيقة ، فليس لديها إلا فكرة واهية عن تعاليم جولد شستين . وتشك فى وجوده هو نفسه ، أو ما يمثله هذا الرجل إن وجد . فقد شبت جوليا عن الطوق بعد قيام الثورة بوقت طويل . وحداثة سنها لا تسمح لها بالرجوع الى المعارك الفكرية أو التصرفات المذهبية التى صاحبت فترة الخمسينيات والستينيات .. وهذه المواضيع أصلا لم تستهوها فى أى سن . لكن مازال بالنسبة لها تصور حركة سياسية مستقلة أمرا لا يصل اليه خيالها . وأولا وأخيرا فهى تنظر الى الحزب ككيان مسيطر لا يقهر .. باق .. وسيبقى .. أبد الدهر . وحكمها صادر من واقع ما تراه من مجريات الأمور .. بل وسيبقى بنفس النمط الذى هو عليه الآن لآلاف السنين ..

والوسيلة الوحيدة لكى تثور عليه ، هو أن تهرب سرا من الالتزام بتعاليمه ، أو أن تمارس سرا أى سلوك معاد متاح .. مثلا ان تقتل احد أفراده دون تعريض نفسها لاحتمال التعرف عليها ، أو ان تفجر قنبلة فى وزارة أو منشأة .. اذا استطاعت .

لكن فى بعض المواقف كانت فى نظرتها السياسية أكثر حصافة وذكاء من وينستون نفسه . ففى احدى المناسبات عندما طرق موضوع قرب اشتعال الحرب مع « أوراشيا » ، فاجأته جوليا بقولها أنها تعتقد أن الحرب لن تقوم ... بل ان القذائف الصاروخية التى تتساقط بكثرة هذه الأيام هى لعبة تقوم بها الحكومة والحزب فى « أوشانيا » نفسها لكى تحتفظ بحالة الرعب بين الناس .. وتلك فكرة لم تخطر على بال وينستون من قبل . بل أنه كان يحسدها عندما كانت تحكى له عن مشاعرها الحقيقية فى جلسة « دقيقتى الحقد » ، انها فعلا تجد صعوبة شديدة فى السيطرة على نفسها ، حتى لا تنفجر ضاحكة من المسرحية المعروضة امامها . لم يكن يهمها من تعاليم الحزب وعقائده السياسية الا ما يمس تفاصيل حياتها الشخصية اليومية مباشرة .. فى أحيان كثيرة كان يبدو أنها تصدق ما يروجه الحزب من خرافات . وذلك لأن الفرق بين الحقيقة والزيف لم يكن ليعنيها فى

شيء .. كانت تصدق مثلا ان الحزب هو الذى اخترع الطائرات ، كما علموها فى المدرسة . (مع ان وينستون يذكر انه فى أواخر الخمسينيات عندما كان لا يزال تلميذا لم يكن الحزب يدعى إلا اختراع الهيلوكوبتر فقط . وبالتالى فمن المتوقع بعد عشر سنوات أخرى ، ان يروج بين الطلبة ان الثورة هى التى اخترعت القاطرة ايضا) . عندما حاول أن يفهمها أو ينبهها الى ان الطائرات كانت موجودة بالفعل قبل أن يولد هو ، وقبل أن تقوم الثورة بسنوات طويلة ، لم تثر هذه المعلومات اهتمامها . فمن رأيها : ماذا يهم اذا كان الحزب هو الذى اخترع الطائرة أم انها من اختراع الشيطان ؟ . ثم صدم وينستون أيضا عندما أدرك انها لا تتذكر انه ـ منذ أربع سنوات لا غير ـ كانت « أوشانيا » تحارب « أيستاشيا » ومتحالفة مع « أوراشيا » . صحيح انها تدين الحرب ككل ، لكن المذهل انها لا تعنى بتذكر اسم الدولة التى نحاربها ، اذ قالت بلا مبالاة غريبة : « على ما أذكر .. نحن دوما فى حالة حرب مع « أوراشيا » . وكان هذا الاتجاه اللامبالى يخيفه الى حد ما . اذ كونها لم تكتشف الخدعة فى مسألة اختراع الطائرة أمر قد يكون مقبولا . لكن الحرب .. أتقبل مثل هذا الكذب ولم تمر بعد سوى أربع سنوات لا أكثر ؟ وجوليا الآن فتاة ناضجة ومن المفروض أن يكون لديها وعى .

أخذ وينستون يناقش معها تبدل الدولة التى نحاربها لمدة طالت الى ربع ساعة . أخيرا وبعد جهد ، استطاع ان ينتزع من ذاكرتها صوراً غير واضحة المعالم ، تتلخص فى أنها تعتقد أنه ربما كانت « ايستاشيا » وليس « أوراشيا » هى التى « كنا نحاربها » فى وقت ما . ومع ذلك فالموضوع برمته ، بدا أمرا ليس على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة لها إذ قالت بنفاد صبر :

ـ : « يحاربون ايستاشيا » أو « أوراشيا » أو حتى الجن الأزرق .. ماذا يهم ؟ »

ثم أضافت :

ـ انها حرب على أية حال .. والاكاذيب هى الاكاذيب .. والحكاية كلها تزييف فى تزييف .. فما الفرق ؟

أحيانا كان يسرد عليها ما يقوم به قسم الوثائق والتسجيلات من وقائع مشينة ، تزييف وتزوير واستبدال وتحريف ... حتى هذا الأمر الخطير ، لم يظهر في استجابتها له انه يثير لديها قلقا أو تخوفا . لم تصل الى ادراك أن الهوَّة تنفتح تحت قدميها عندما تتحول الاكاذيب ـ وينقلب الزيف ـ الى حقائق راسخة . ثم حكى لها عن جونز ، وايرونسون وروترفورد ، وعن قصاصة الورق ، تلك الوثيقة بالغة الأهمية ـ ... التى قدر له ان يطلع عليها والتى امسكها باصبعيه هو نفسه وليس فى يد أنسان آخر .

لا يبدو انها تتأثر أو تهتم بذكر هذه الأحداث أو الوقائع .. ما أغاظه انها لم تدرك مغزى ما يقول فى البداية إذ سألته :

ـ : هل كانوا أصحابك مثلا ، أو اصدقاء اعزاء ، لتهتم بهم كل هذا الاهتمام ...

أجـــاب :

ـ : كلا . لم أعرف واحدا منهم . كانوا اعضاء بارزين فى (التنظيم الداخلى) . ومن ناحية أخرى هم أكبر منى سنا الى حد بعيد . انهم ينتمون الى عالم ما قبل الثورة . لم أعرفهم إلا من صورهم ... وبصعوبة .

ـ : إذن لماذا تشغل بالك الى هذا الحد بحياتهم أو موتهم ؟! الناس يقتلون فى كل يوم ... ما هو الغريب فى هذا ؟؟

حاول جاهدا ان يشرح لها أهمية الموضوع ، أهمية ما يمثله مغزى ما حدث فقال .

ـ : يا جوليا . هذه جريمة لها أهمية خاصة ومتفردة . المسألة ليست مسألة واحد قتل . أو أفراد اعدمتهم الدولة .. أما تدركين مدى خطورة ان تغتـال الدولـة الماضى .. أن تمحوه من ذاكرة الشعب ؟ الماضى اعتبارا من يوم أمس تمحوه الدولة بالفعل . واذا بقى أى اثر للماضى .. فهو يبقى فى صورة أشياء مادية مثل ذلك المصباح القديم الذى ترينه هناك .

الآن أصبحنا ـ بالفعل وليس بالقول فقط لا نعلم أى شيء مما حدث فى الثورة . وطبعا نجهل ماذا كانت عليه سنوات ما قبل الثورة . أى أثر من الماضى ، قضوا عليه .. أى وثيقة عن الماضى ، زيفوها .. أى كتاب . أى صورة .. أى جريدة .. أى شيء .. بدلوا فيه وعدلوا .. وقلبوا الحقائق . والذى

بين أيدينا اليوم ركام من الزيف ... تلال من الخديعة . كل تمثال .. كل شارع كل مبنى ضخم .. غيروا اسمه . كل تاريخ على ورق أو سجل ، تم تزييفه بما يخدم ما يدعون اليه . وهذه الجريمة مستمرة يا جوليا .. يوما بعد يوم بل دقيقة بدقيقة .

لقد اوقفوا مسار التاريخ .

لا تعيش بيننا الآن إلا صور الحاضر .. يريدونها دوما باهرة ومبهرة .. حاضر مستمر .. ودائم . ان الحزب على حق .. ودائما أبدا على حق .

أنا أعلم ، بالطبع ، أن الماضى قد تم تزييفه . لكن كيف أثبت للناس أن تزييفا قد حدث ، حتى لو كنت أنا من قام بعملية التزييف ذاتها ؟ بعد أن تنتهى تفاصيل الجريمة . هم لا يبقون على أى أثر لما تم . أى دليل يعدم على الفور .

الدليل الوحيد كان داخل رأسى أنا . ولست على يقين ـ يا جوليا ـ ان انسانا آخر يشاركنى فى كل ما اتذكر . وحتى فى حالتى الوحيدة . كل ما استطعت أن أصل اليه طوال حياتى برمتها .. هو مجرد دليل مادى واحد ووحيد . اهتديت اليه بعد وقوع الحدث بسنوات طويلة .

وهنا سألته جوليا :

ـ : ماذا كانت فائدة ما وصلت اليه ؟

ـ : لم تكن له أى فائدة . لأنى اعدمت هذا الدليل بعد دقائق من اطلاعى عليه . اليوم اذا تكرر الموقف سأحتفظ باى دليل يقع تحت يدى ..

فاجابته جوليا :

ـ : لو كنت مكانك لما فعلت . انا مستعدة حقا أن اغامر .. لكن فى مقابل ماذا ؟.. فى مقابل شيء يستحق المخاطرة .. وليس فى مقابل قصاصات من ورق . ثم قل لى : ماذا كان بوسعك ان تفعل بقصاصة من جريدة وقعت تحت يدك ؟؟

أجـــاب :

ـ : ليس بوسعى أن افعل الكثير . لكنه دليل مادى على أية حال ، كفيل بان يهز ثقة الناس فيما يقال لهم لو قدر لى أن اطلع احدا عليه . أو بمعنى أصح لو بلغت بى الجرأة الى درجة ان اطلع البعض عليه . أنا متأكد انه ليس بوسعنا ان نغير ما نعيش فيه الآن ـ فى سنوات عمرنا نحن ـ لكن ما يجول بخاطرى انه لو وجدت فقط مقاومة تنمو هنا وهناك .. مجموعات صغيرة من البشر يتكاتفون ليزداد حجمهم مع الزمن .. مخلفين بعض الوثائق بعد رحيلهم للاجيال القادمة .. ليتيحوا لهذه الاجيال القادمة فرصة لتكملة المشوار ... و ...

قاطعته قائلة :

ـ : يا حبيبى .. الأجيال القادمة لا تعنينى فى قليل أو كثير .. ما يعنينى ببساطة هو أنت وأنا .

فتوقف عن الكلام .. ونظر اليها فى صمت .. وقال أخيرا :

ـ : أحيانا يا جوليا أشعر انك ثائرة فى الجزء السفلى من جسمك فقط ، من الخصر الى القدمين ليس إلا . التمرد لم يصل الى عقلك بعد .

بدا كأنما قد اعجبها التعليق .. فالقت بنفسها عليه واعتصرته بين ذراعيها وهى تضحك .

وعندما كان يتشعب وينستون فى الحديث عن قضايا فرعية خاصة بالحزب ، كان الفتور يبدو فى طريقة استجابتها وما أن يبدأ فى شرح وتحليل أو ادانة مبادىء « الانشجاك » .. أو ازدواجية العقيدة ،.. أو الغاء « الماضى » بتحويله .. الى ماض أخرس .. أو نفى الحقيقة الموضوعية .. أو سيادة الغوغائية .. ما أن

يتطرق الى هذه المواضيع « الثقيلة » ، حتى تظهر على جوليا علامات الضجر ، وعدم الفهم ، أو الحيرة من كل هذه الكلمات المعقدة التى لا تعنيها فى كثير أو قليل . وأخيرا أصبحت تلجأ الى طريقة خبيثة . اذ ما ان تستشعر ان لدى وينستون ميلا الى العودة الى هذه المواضيع حتى تبدأ فى التناوم ، فتتثاءب ، الى ان تنعس بالفعل ، كانت جوليا تنتمى الى فصيلة من البشر ، لديهم القدرة على النوم العميق فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار تختارها .. وعندما كان وينستون يتأمل طريقة تفكيرها وسلوكها ، كان يدرك الى أى حد يسهل على المرء أن يتظاهر بالانتماء الى النظام ، بينما ذهنه خال تماما مما يظهر أنه متحمس له . من ناحية أخرى كان من الواضح ان الحزب يحقق نجاحا ملحوظا فى فرض نظرته لكافة أمور الكون على اولئك الذين ليست لديهم القدرة ، ولا الرغبة ، فى الدخول فى متاهات العقائد السياسية المعقدة . من السهل إذن ان يطلب الحزب من عامة الناس ان يتقبلوا أكثر صور التعدى على الحقيقة وضوحا ، لأنهم أصلا لم يرتفعوا الى مستوى الوعى بما هو مطلوب منهم من قضايا مصيرية .. وليست لديهم الرغبة فى متابعة أحداث الساعة ، ليتسنى لهم تحليل ما يجرى لمعرفة حقيقة الواقع . ان عدم ارتفاع جماهير الشعب الى مستوى ادراك ما يراد بهم ، كان هو ما يضمن بقاءهم محتفظين بقواهم العقلية . لأن ادراك حقيقة ما يراد بهم ، ومع العجز عن مقاومته ـ كان خليقا بأن يفضى بهم حتما الى الجنون . كان الجهل نعمة ، والجماهير تبلع ـ ببساطة ـ أى شىء يلقى اليها . والتزييف الذى كان الحزب ينجح فى تمريره عليهم ، لم يكن ليبدو ضارا بأحد ، لأنه زيف متقن لا يترك اثرا مباشرا أو واضح المعالم ..

وعلى الرغم من كل هذا ، فمازال وينستون يعتقد أن الأمل ـ ان كان ثمة أمل ـ معقود على البروليتاريا .

* * *

(٦)

حدث الأمر أخيرا !!

الدعوة المنتظرة .. وصلت . وكأنما كانت حياته كلها انتظارا متواصلا لهذه الدعوة .

إذ بينما هو يسير فى ممشى الوزارة الطويل ، وتقريبا فى نفس المكان الذى ناولته فيه جوليا قصاصة الورق ، شعر بخطوات شخص أضخم منه حجما ، يسير خلفه مباشرة . أخذ هذا الشخص ، أيا كان ، يتنحنح ربما كمقدمة لرغبته فى بدء حوار معه . فتوقف وينستون فجأة ، واستدار .. ليواجهه .

ووجد امامه .... « أوبرايان » .

أخيرا قدر له أن يلتقى مباشرة وعن قرب « بأوبرايان » . شعر للتو برغبة فى الفرار ... رغبة فى الهروب من الموقف الذى فاجأه دون أن يكون مهيأ له .. قلبه يدق بعنف . أحس أنه غير قادر على الكلام .. لكن أوبرايان برغم ارتباك وينستون الواضح ، تقدم منه وبحركة ودية مطمئنة تأبط ذراعه ، بحيث سارا متجاورين جنبا الى جنب ، ثم بدأ حديثه معه بنفس الطابع الودود ، وباسلوب متحضر تميز به عن سائر أقرانه من أعضاء التنظيم الداخلى .

ابتدره قائلا :

ـ : لقد كنت مشوقا لانتهاز فرصة للحديث معك ، اذ اعتدت أن أتابع مقالاتك فى « التايمز » . يبدو لى أن لديك ميولا للدراسات اللغوية .. خاصة فيما يتعلق باللغة الجديدة » .

كان وينستون قد استعاد بعض هدوئه ، وقد زايله اضطرابه الى حد بعيد .

ـ : لست متخصصا بالمعنى المفهوم .. كل كتاباتى لا تزيد عن مجرد محاولات ، فى فقه اللغة الجديدة ، أنا مجرد هاو ، ليس إلا ... إذ لم تتح لى فرصة الدراسة الجادة للتراكيب اللغوية .

ـ : لكنك بالرغم من ذلك تكتب باللغة الجديدة باسلوب ممتاز .. وليس هذا رأيى أنا

وحدى . لقد كنت اناقش موضوع مقالاتك مع أحد اصدقائك من فقهاء اللغة بحق . اسمه .. لا أذكر اسمه الآن حقيقة .

مرة أخرى شعر وينستون أن قلبه يدق بعنف . فلاشك أن هذه اشـارة واضحـه « لسايم » فالكل يعلم ان « سايم » لم يعدم فقط .. بل أنه قد « تبخر » أو أنه لم يوجد أصلا .. وأى تلميح بسيرته فيه نذير خطر داهم . وبلا جدال فان تلميح أوبرايان عن سايم ، هو اشارة مقصودة .. نوع من الشفرة قصد به ان يشجع وينستون على الحديث دون خوف . فباشتراك اوبرايان معه فى مناقشة موضوع سايم ، فكلاهما يتعرض لخطر واحد « تهمة بارتكاب جريمة « الانحراف الفكرى » ..

استمر الاثنان يقطعان الردهة متجاورين .. إلى أن توقف « أوبرايان » ليعيد تثبيت نظارته التى انزلقت الى أرنبة أنفه .. احدى لازماته التى تجعله يبدو على شىء من الألفة مع محدثه ، وواصل كلامه :

ـ : ما قصدت اليه ، هو تنبيهك الى كلمتين استعملتهما فى مقالاتك الأخيرة ، والكلمتان قد بطل استخدامها حاليا ، وإن كان هذا الالغاء لم يمض عليه وقت طويل .. ترى هل راجعت الطبعة العاشرة من قاموس اللغة الجديدة ؟

ـ : كلا . لا أعتقد ان هذه الطبعة قد صدرت بعد . فى قسم الوثائق حيث أعمل مازلنا نستخدم الطبعة التاسعة .

ـ : صحيح . فالطبعة العاشرة لن تصدر قبل فترة لن تتعدى بضعة شهور . لكن هناك بضع نسخ قد طبعت منها ، تتداول على نطاق ضيق للمعنيين بالامر . حصلت على نسخة أنا لنفسى ، ربما كنت مشوقا للاطلاع عليها فيما أعتقد .

ـ : بل يهمنى جداً الاطلاع عليها ...

أجاب وينستون بسرعة وقد بدأ يدرك الى أين يقوده الحوار ورغبة أوبرايان فى التعلل بهذا اللقاء مرة أخرى على انفراد .

ـ : بعض التعديلات التى تضمها الطبعة العاشرة ، باهرة حقا ومتفردة ، فى اختصار عدد « الافعال » . أظن ان هذه النقطة بالذات ستسترعى انتباهك . والآن أيهما تفضل ؟ : أن

أرسل لك رسولا لتوصيل القاموس لمسكنك ـ وإن كنت أخشى ان انسى الموضوع فى زحمة العمل ـ أم تراك تفضل مثلا أن تمر على فى مسكنى فى أى وقت يناسبك ؟

ثم استوقف وينستون وهو يضيف :

ـ : لحظة واحدة .. دعنى اكتب لك عنوانى .

كانت وقفتهما أمام السينما التلفزيونية ، وكما لو كان أوبرايان يحاول أن يتذكر أين وضع مفكرته ، أخذ يتحسس جيوبه الى أن وجدها . مفكرة ذات غطاء مكسو بالجلد ، ثم اخرج قلم حبر من الذهب . وبالضبط تحت الشاشة كتب عنوانه ، واضحاً بالطبع ، أمام أى مسئول يتابع الحوار فى الجانب المقابل من شبكة السينما التلفزيونية . ثم انتزع الورقة المكتوب عليها عنوانه وسلمها لوينستون قائلا :

ـ أنا عادة الزم بيتى فى المساء . اذا حدث ولم تجدنى سيسلمك خادمى القاموس .

استأذن وانصرف تاركا وينستون ، لم تزايله الدهشة بعد فى وقفته ممسكا بالورقة . ولم يجد حاجة الآن لاخفائها ، وأن كان قد استظهر عن ظهر قلب تفاصيل العنوان المكتوب عليها مرة ومرتين ، ثم مزقها والقى بها الى أحد « جحور الذاكرة » القريبة .

لم يستغرق حواره مع « أوبرايان » إلا دقيقتين على الأكثر . هناك ذلك المعنى الواحد ، خرج به وينستون من كل ما حدث : حكاية القاموس وسيلة توصل بها ـ أوبرايان ليطلعه على عنوانه . وكان مثل هذا الاجراء ضروريا ، لأنه بالاستقصاء العادى وبمختلف أنواع البحث ، لم يكن بمقدوره أن يتعرف على هذا العنوان . لا يوجد دليل من أى نوع يوضح عناوين أعضاء الحزب . أوبرايان إذن ـ بهذه الوسيلة ـ كما لو كان ينبئه بصورة غير مباشرة : « اذا رغبت فى الاتصال بى .. فهاك العنوان » .

بل ربما احتفظ له برسالة أخرى يخفيها فى القاموس ليطلع عليها وينستون عند استلامه ..

وعلى أية حال ، فشىء واحد قد تأكد منه الآن : **المؤامرة ضد النظام** ... تلك الحركة التى كان يطمح إليها ، قد تحققت فى الواقع الماثل أمامه ، وانه قد قارب الآن أن يتلمس بوادرها .

وينستون على يقين الآن ، أنه إن عاجلا أو آجلا .. سيلبى نداء « أوبرايان » .. ربما غدا .. ربما بعد وقت قد يطول .. ليس متأكدا متى على وجه الدقة ، مما هو مقدم عليه ، يعلم أنه استكمال لطريق سار على دربه ، عن قصد أو غير قصد ، منذ سنوات عدة .. المرحلة الأولى فيه كانت تلك الافكار التى استحوذت عليه وهو يتأمل أحوال المجتمع والناس من حوله ، ثم انتقل الى مرحلة كتابة مذكرات ، وهى مرحلة تعنى أنه انتقل من عالم الأفكار المجردة الى الكلمات المحددة .. والآن .. ينتقل من مرحلة الكلمات الى مرحلة الافعال المحددة .. مما خطر له : ان المرحلة التالية فى طريق التمرد الذى يسير فيه ، هى شىء ما .. عمل ما سيقدم عليه داخل مقر « وزارة الحب » نفسها .. لكنه مدرك ومتعقل لنتيجة عمله . خطورة الطريق الذى تقوده اليه تصرفاته فى النهاية نابعة من مجرد البداية فيه .. فطالما خطوت الخطوة الأولى ، فليس ثمة سبيل الى التراجع . ولم ينافق نفسه بادعاء عدم الخوف .. فالخوف فى داخله لا ينكره .. بل الرعب موجود فى أعماقه بتعبير أدق .. كان كمن يدخل تجربة مسبَّقة للموت .. كأنه يحمل بذرة الموت داخله ، وهو يحيا . حتى وهو يتحدث مع أوبرايان وبعد ان انقضت نشوة المفاجأة الأولى .. سرت الى أعماقه مشاعر الرعب ، والرعدة ، والاحساس بصعقة الجليد فى عظامه واقع لا ريب فيه ، واقع يزحف اليه حثيثا . أحس انه يقترب من جو القبر الرطب . وذلك احساس ليس جديدا عليه .. فما بينه وبين الاحساس بالقبر المنتظر ليس جديدا عليه .

***

(٧)

فتح وينستون عينيه ..

عيناه مغرورقتان بالدموع . جوليا جسدها يستدير اليه ، مازالت نائمة بجواره ، تغمغم بكلمات مثل « أيه الحكاية » أو « لماذا استيقظت » ؟

أجابها وينستون :

ـ : كنت أحلم و ....

لكنه لم يكمل ... والموقف اشد تعقيدا من أن يجد كلمات واضحة محددة المعالم ليعبر عنه بها .. فهناك تفاصيل ما جرى فى الحلم نفسه ، ثم هناك تلك الخواطر المتضاربة ، والمعلقة بذكرى مرتبطة بالحلم ، خواطر اشاعت الاضطراب فى ذهنه .

أسند ظهره الى ظهر السرير .. واغلق عينيه ليستعيد توازنه وهدوءه . ومازال الحلم بأحداثه يطارده . كان كحلم نورانى رحب الأبعاد ، يبدو كما لو كان يمتد الى حياته كلها . كبساط أمام ناظريه بأحداث واضحة المعالم ، أو كامتداد الأفق الصافى وقد غسلته مياه المطر بعد غيم . كأحداث يراها داخل تحفته الزجاجية بقلبها البلَّوري الشفاف .. استدارة الكرة الزجاجية مماثلة لاستدارة قبة السماء ، وما يحدث تحت هذه القبة هو تدفق ضوء غامر يجلو البصر ويكشف البصيرة .. وهو لا يستطيع أن يفصل احداث الحلم عن مشهد يلح عليه ، يرى فيه ذراع أمه تلوح له عن بعد . هذا المشهد الذى تكررت رؤيته فى لقطة الأم فى الفيلم الذى شاهده ، تحوط بذراعيها جسم طفلها الصغير لتحميه من الرصاص المنهمر ، قبل ان ينسف القارب الذى يضمها وطفلها ، بقذيفة صاروخية تحيله اشلاء متناثرة .

عاد من خواطره ليقول لجوليا :

ـ هل تصدقين يا جوليا . انه حتى هذه اللحظة ، كنت أعتقد أننى قتلت أمى .

جاء صوتها الناعم يغمغم :

ـ لكن لماذا قتلتها ؟

أجاب :

ـ أنا لم أقتلها جسديا .

فى الحلم تذكر آخر لمحة من وجه أمه ، وحتى بعد أن استيقظ فمازال ذهنه غير قادر ان يتخلى عن تلك الظاهرة من الأحداث التى عايشها منذ لحظات فى الحلم . انها ذكرى حادث لابد انه قد حاول جاهدا ابعاده عن عقله الواعى منذ سنوات طويلة . لا يستطيع ان يتذكر على وجه التحديد تاريخ الحادث ، لكنه لابد انه قد زامنه عندما كان فى العاشرة . أو ربما فى الثانية عشرة .

كان والده قد أختفى فى تاريخ سابق على هذه الفترة . سابق بكم سنة ؟ لايذكر .. لكنه يذكر بصورة أفضل الظروف الصعبة وجو تلك الحقبة من حياته . نوبات الهلع التى أصابت الكل مع تكرار الغارات الجوية .. الالتجاء الى محطات الانفاق المستخدمة كمخابىء .. أكوام العمارات المهدمة والانقاض فى كل مكان . الملصقات غير واضحة المعالم المعلقة هنا وهناك على نواحى الشوارع ... عصابات الشباب التى ترتدى زيا ذا لون موحد . الطوابير الطويلة الممتدة امام المخابز انتظارا لرغيف العيش ، وأصوات الطلقات النارية تأتى من الأفق البعيد .

حقيقة ، لابد أن يذكرها قبل غيرها .. انه لم يكن هناك مايكفى على الاطلاق من الطعام للناس .

تذكر تجواله مع غيره من الاولاد .. من نفس سنه ينقبون فى أكوام القمامة يلتقطون ماقد يكون قد تسرب اليها من بقايا اوراق الكرمب أو قشر البطاطس ، وأحيانا لقيمات من خبز جاف يقومون بتنظيفها من القاذروات العالقة قبل ان يأكلوها .

يذكر ايضا انتظاره مع اقرانه فى مكان معين بأحد الطرق التى أعتادت أن تمر بها سيارة تحمل غذاء قطعان الماشية .. مكان أرضه غير مستوية .. عند مرور السيارة عليه يتساقط منها بعض العلف فكان يسرع لالتقاطه مع سائر الاولاد . صور الجوع الضارى فى هذه الفترة لم تسقط عن ذاكرته .

عندما اختفى والده ، لم تظهر أمه جزعا ولا أفصحت عن دهشة . فقط بدأت تتغير ، تغيراً طارئا .. بدأت تتحول الى امرأة بلا روح .. هادئة هدوء الموتى .. حتى وهو فى سنه الصغيرة تلك ، كان يدرك أنها فى حالة انتظار ممض لشىء مابدا أنها على يقين من أنه لابد

آت لاريب . بيد أنها كانت تزاول نشاطها العادى من أعمال الطهو والتنظيف والصيانة المعتادة فى المنزل مثلها مثل أى ام .. تسوى له سريره .. تمسح أرضية الغرفة ، تنظف المدفأة من الرماد المتخلف .. لكن حركاتها كانت بطيئة متثاقلة ، رتيبة ، كما لو كانت مرغمة عليها . حياة ضاع منها أى أثر للحماس من أجل شىء ، أو فى أى شىء . جسمها الفارع تحول الى قطعة متحركة من الاثاث . تكسوه رغبة واضحة فى الخلود الى السكون التام . لساعات طويلة كانت تجلس على الفراش بلا حراك تقريبا .. ممسكة بأخته الطفلة الشاحبة الصامتة . كان عمرها سنتين .. ملامحها مماثلة للآسيويين نتيجة لهزالها . أحيانا كانت تضم وينستون ايضا الى حضنها وتضغط جسده الضعيف الى صدرها بعد أن تحيطه بذراعيها .. وتظل معه فى هذا الوضع .. صامتة ساهمة ..

كان مدركا ، برغم طيشه ، وأنانية الاولاد فى هذا السن ، أن لتصرفاتها هذه علاقة بذلك الشىء الذى لم تفصح عنه ، والذى من الواضح أنها تنتظره .

يذكر وينستون الغرفة التى كانوا يعيشون فيها ... حجرة خانقة مظلمة ، يشغل نصف مساحتها سرير كبير يغطيه لحاف فاتح اللون . وفى الحجرة ماسورة لها مفتاح لتوصيل الغاز . وأرفف وضعوا عليها الطعام . خارج الغرفة حوض داكن اللون قذر ، يشترك فى استخدامه سكان عدة غرف . كما يذكر منظر امه بقامتها الفارعة عندما كانت تنحنى لتقلب الطعام فوق النار . ويذكر قبل كل شىء احساس الجوع المستمر الذى صاحب هذه الفترة ، والمعارك الطاحنة التى كان عليه ان يخوضها عند حلول وقت الوجبات . سؤاله الملح وطلباته المتكررة دوما من اجل مزيد من الطعام يسد به رمقه ...

صياحه وزعيقه الصاخب فى وجهها ، (والغريب أن يتذكر حتى نبرة صوته الحادة آنذاك .. نبرة كانت أكبر من سنه) ، أو الحاحه المزعج وتوسلاته حتى يرق قلبها فتمنحه أكثر من نصيبه الذى لايكفى . أمه كانت فى الواقع ، كما يدرك الآن ، تعطيه أكثر مما يستحق ، كانت تشعر أن « الولد » له الحق فى مزيد من الطعام حتى وان كانت الزيادة على حساب صحتها وحيويتها هى ... ولم يكن الولد يفهم لانه مازال جائعا . فكان باستمرار يطلب وبالحاح من أجل المزيد ، فكان لزاما على الأم فى كل مرة أن تدعوه لأن يتخلى عن أنانيته ، فأخته الطفلة مريضة ، وفى حاجة للطعام هى الأخرى . ولكن كلماتها كانت تذهب أدراج الرياح فى مواجهة عناده ، وكثيرا ماهاتج عندما كانت تكتفى بما كانت تقتطعه من غذائها لتمنحه أياه . وكثيرا ما حاول ان ينتزع « الوعاء » بما فيه من طعام

من يديها ، أو يخطف جزءا من الطعام من الطبق الموضوع أمام أخته . كان يدرك أنه بتصرفاته الطائشة تلك يتسبب فى جوع الأم والأبنة ، الا انه لم يكن يستطيع أن يقاوم أنانيته وقسوة الاحساس بالجوع .. بل كان يشعر أحيانا أن له الحق فيما يأخذ ، وان الغلطة ليست غلطته ، الغلطة غلطة انسان آخر . صرخات معدته الخاوية كانت تبرر له احيانا كل شيء . وفيما بين الوجبات الهزيلة ، ان لم تتنبه أمه لتصرفاته ، كان لايتورع أن يمد يده الى نصيب الاسرة كله من الطعام ... يخطف ماقد يظفر به خلسة ...

وحدث يوما أن قررت وزارة التموين للاسرة نصيبا من الشوكولاته ، وهو أجراء لم يتخذ منذ شهور خلت . مذاق الشوكولاته بعد طول حرمان كان له طعم خاص ، حتى وان كان نصيب الاسرة المقنن لايتجاوز الاوقيتين (كانوا يستخدمون الاوقية فى الوزن آنذاك) المفروض ان تقسم قطعة الشوكولاته الى ثلاثة اجزاء فيما بينهم ، لكنه وكأنما كان يستمع الى صوت انسان آخر ، وجد نفسه يصرخ فى وجه أمه مطالبا بالقطعة كاملة له وحده . طلبت منه امه بصوت واهن فيه لوم شديد ، بألا يكون طماعا الى هذا الحد . دخل مع أمه جولة من المساومات والاستعطاف مرة ، وشد وجذب مرة أخرى ، بكاء تارة ، وصراخ تارة أخرى ، ثم لجوء الى العنف مرة اخيرة ... واخته الصغرى متعلقة بصدر الأم ، كقرد صغير متشبث بأمه ... تنظر اليه بعينيين ذابلتين لاتفهم مايدور واخيرا قبلت الام أن تحتجز ربع القطعة لأخته الصغرى وأن تعطيه الارباع الثلاثة الباقية ... عندما أمسكت الطفلة بقطعة الشوكولاته نظرت اليها فى حيرة لاتعلم ماهو هذا الشيء الجديد . وينستون وقف يرقبها وهى تهز القطعة فى يدها ، ثم هجم فجأة على اليد الصغيرة وأنتزع منها نصيبها الصغير مندفعا نحو الباب ليهرب من أمه .. تتبعه صيحاتها الحزينة .

« يا وينستون .. انت ياولد ... ارجع .. ارجع وأعط أختك قطعة الشوكولاته ياابنى ... ارجع » توقف خارج الغرفة . لكنه لم يرجع . عينا أمه مثبتتان عليه فى قلق .. حتى فى هذه اللحظة تشعر انها تنتظر هذا الحدث القادم دون ان يدرك ماهيته . أما اخته الصغيرة وقد شعرت ان شيئا ماقد اختطف من يدها ، فقد بدأت تبكى فى صوت واهن كمواء القطة . أحاطت الأم بذراعيها جسم الصغيرة وضمتها الى صدرها فى حنان لتطيب خاطرها . أحس أن أخته من فرط ضعفها على وشك الموت . ادار وجهه عنهما ولاذ بالفرار ، ينهب درجات السلم وقطعة الشوكولاته بدأت من حرارة يده تذوب داخلها .

بعد أن « ألتهم » قطعة الشوكولاته أستشعر الخجل مما فعل ، وظل لساعات هائما على وجهه يقطع الطرقات خشية مواجهة عينى أمه ، الى أن أجبره الجوع على العودة الى المنزل ، ليجد أن أمه قد أختفت ، ولم يقدر له أن يراها بعد ذلك . ولم يكن غريبا فى هذا العهد أن يرجع طفل ليكتشف غياب أحد والديه أو كليهما .. أصبح ذلك حدثا شبه مألوف كل مابالغرفة كما هو .. عدا أن أمه وأخته الصغرى قد اختفتا لم ينقص من الغرفة شىء ، حتى رداءهما تركوه كما هو .

منذ تلك اللحظة وليومنا هذا ، ليس متأكدا من أن أمه قد ماتت .. من الجائز جدا أنهم قد بعثوا بها الى أحد معسكرات العمل الاجبارى . أما اخته . ان كانت لاتزال على قيد الحياة . فربما أرسلوها كما ارسلوه هو الى احد الملاجىء التى تشرف عليها الحكومة . (أو مركز من مراكز « استعادة الصلاحية » كما كانوا يطلقـون على هذه الامـاكن) . ملاجىء بلغ من كثرتها أن قسمت الى مستعمرات كاملة ، كنتيجة للحرب الأهلية التى دارت رحاها . واحتمال آخر أن تكون أخته فى أحد معسكرات العمل الاجبارى مع أمه أو ربما تركت هنا أو هناك فى مكان مجهول تنتظر الموت ... أو ماتت منذ زمن ... كل احتمال جائز .

تململت جوليا بجسدها العارى بجواره . صور الحلم مازالت حية فى ذاكرته ... صور أسلمته الى خيالات حلم آخر مر به منذ شهرين تقريبا ... حين رأى أمه أيضا تحمل طفلتها المتشبثة برقبتها والاثنان تغوصان الى عمق سحيق تحت الماء ، وعيونهما ترنو اليه بينما القاع يشدهما اليه .

أنتصبت جوليا جالسة بجواره ، وعيناها مازالتا مغمضتين . وحين قص عليها حكاية أختفاء أمه فى هذا الزمن البعيد ... وعن تصرفاته تلك ، عقبت قائلة دون حماس .

- : اعتقد انك كنت ولدا متوحشا فى هذا العهد ..

ثم اضافت :

- : كل الاولاد فى هذا السن وحوش ، وأولاد كلب ....

عاد وينستون ليقول :

- : يا جوليا ليس المهم تصرفات الاولاد . ما أردت أن أوضحه . أومغزى كل هذا هو أنه .... »

أغفت مرة اخرى ، ومن حركاتها عرف أنها فى سبيلها للنـوم ثانية . كان يود أن يستطرد معها فى حديث ذكرياته عن أمه . كان يريد أن يضيف أشياء كثيرة عنها ... أن يقول أنها كانت برغم عدم تميزها بشىء معين عن سائر الامهات (من ذكاء مفرط أو ما شابه) ، كانت تتمتع بنوع من نبل الاحساس ورهف الشعور ، وطهر الوجدان ، ربما لأن ما آمنت به من مثل عليا ، كان من النادر أن تجد ايمانا مماثلا له فى زمنها . امرأة مثلها العليا متفردة . مشاعرها لاتنتمى لجيلها ... مشاعر ، بلغ من رقتها أنه يشعر أنها كانت قاصرة عليها وحدها . وأن ماكان ينبع فى داخلها من أحاسيس كان من الصعب على الاحداث ان تغيره . هذا الثبات فى ماتستشعره من نبل الاحساس ، هو ما أعطى أمه سمة العظمة التى تحف بذكراها فى خياله المرهق الان ... فهى عندما كانت تحب لم تكن تسأل نفسها عن جدوى أو عدم جدوى هذا الحب . كانت تحب فقط ، فهو عندما انتزع من اخته الصغرى نصيبها من الشيكولاته ، أحتضنت أخته فى حنان ، حتى وان كان هذا الحنان لن يعيد للطفلة ما انتزع منها . ولا حتى بامكانه ان يحجب شبح الموت عن الأم أو الطفلة . الحب الدافق لاطفالها ، بداها أنه الناموس الطبيعى للحياة ، بغض النظر عن جدواه . كأنها كانت تتصرف من مفهوم يقول : « اذا لم يكن لديك ماتعطيه لمن تحب يكفى ان تمنحه الحب وحده » ... مثل المرأة فى القارب عندما جاهدت عبثا لتحمى طفلها بان غطته بذراعيها المضمومتين . ذراعان لن تحمياه من تمزيق الرصاص المنهمر ، أكثر مما تحميه طبقة رقيقة من ورق شفاف . ابشع ما أرتكبه الحزب فى حق الناس ، هو انتزاع تلك المشاعر الطبيعية من صدورهم ... ذلك ان دعايته تركز على ان : (أحاسيسك ومشاعرك لاطائل من ورائها) ... وفى نفس الوقت قوة الحزب بشبكته الاخطبوطية تنمـى فيك أحساسا بالعجز عن تغيير أى شىء . أنت فى قبضة الحزب .. ما تشعر به أو لاتشعر به ، ماتفعله أو تحجم عن فعله ... لن يغير بالفعل أى شىء فى المجتمع الضخم الذى تعيش فيه .. واذا حدث وأختفيت أنت نفسك فلن يسمع أحد بك أو بما قمت به ـ على فرض انك قمت بشىء يذكر ـ ... أنت مجرد « واحد » انتزع من مسار الاحداث الـرهيب . صحيح أن اختفاء انسان ـ حتى منذ جيلين ـ لم يكن له أهمية تذكر . لم يكونوا يحاولون أن يغيروا التاريخ . ماكان يحكمهم هو أحاسيس الولاء لبعضهم البعض ، وولاؤك لشىء

خاص ليس محل نقاش .. ماكان يعنيهم هو علاقتهم الاسرية الوثيقة والعاطفية نحو بعضهم البعض . كان ايماءة يائسة تنم عن أسى فى موقف معين ... عناق ... دمعة حزن ... كلمة مواساة لانسان يحتضر ... كانت لها قيمة فى حد ذاتها .

عاد وينستون الى التفكير فى « البروليتاريا » ... ان البروليتاريا كما تنبه الآن فجأة لهذه الحقيقة بقيت فيهم هذه الخصال . فولاؤهم الحقيقى ليس للفكر السياسى أو للحزب أو للدولة أو خلافه . ولاؤهم بطبيعته مكرس لبعضهم البعض . ولأول مرة وجد نفسه ينظر الى البروليتاريا باحترام .. وليس كنظرته السالفة لهم كمجرد قوة كامنة ستقفز يوما الى سطح الاحداث لتغير العالم كله ... وان البروليتاريا بقيت محتفظة بسماتها الانسانية . لم تتحجر مشاعر جماهيرهم الانسانية بعد ... مازالوا محتفظين بنوازعهم البدائية التى يجب عليه ـ هو نفسه ـ ان يرتد الى عفويتها .

اعتراه خجل من نفسه عندما قادته افكاره إلى الحقيقة . خجل من سلوكه حين تذكر كيف قذف يوما باستهتار بيد انسان مقطوعة ، دفع بها انفجار الى جواره حين فاجأته الغارة فى أحد شوارع لندن فى ذاك المساء ... كيف دفعها بقدمه كما لو كانت بقايا شيء ما ... مجرد كم مهمل ، وليست قطعة لحم من انسان .

ـ : « البروليتاريا مازالوا آدميين ... نحن لسنا ... بآدمين »

قال فجأة لنفسه بصوت عال .

استيقظت جوليا ثانية ونظرت اليه نظرتها لانسان غير عاقل ، قالت فى دهشة :

ـ : وما الذى يجعلك تعتقد العكس ؟؟؟ »

فكر وينستون قليلا قبل ان يضيف :

ـ : ألم يخطر ببالك قط جوليا ، أن أحسن حل لموقفنا ، ان نغادر هذا المكان قبل حلول الظلام ، وان لايرى أحدنا الآخر بعد ذلك ابدا »

ـ : فكرت فى هذا مرارا ياحبيبى . لكن لن أنفذ أيا من هذه الافكار المجنونة على أية حال ... »

ـ : حتى الآن فالحظ يحالفنا ... لكن ليس من عادة الحظ ان يحالف الناس طول الوقت . وانت مازالت سنوات العمر ممتدة امامك ياجوليا .. انت مازلت صغيرة السن ... مظهرك يوحى بالبراءة .. بانك انسانة عادية . لو ابتعدت عن مخالطة أناس من أمثالى لربما قدر لك أن تعيشى أربعين أو خمسين سنة أخرى .

ـ : كلا ياسيدى . لست فى حاجة الى الخمسين سنة هذه التى تهبها لى .. ولا تظن انى لم افكر مليا فى موقفنا .

ما ستفعله أنت ... أنا أيضا سأقوم به . من فضلك .. كفاك يأسا . أنا سعيدة باننى مازلت على قيد الحياة . هذا هو كل ماهنالك ... » .
ـ : يا جوليا علاقتنا قد تستمر شهوراً ، سنة اخرى ... لست متأكدا من أى شيء . لكن فى النهاية ، المقدر علينا أن نفترق . ألم تفكرى فى الوضع الذى سنصير اليه ؟ مدى العزلة والوحدة التى سوف يستشعرها كل منا اذا ابتعد عن الآخر ؟ اذا قدر لهم أن ينالوا منا فليس بوسعى أو بوسعك أن نفعل أى شيء لبعضنا البعض . فعلا لا قولا ـ لن يكون فى مقدور أى منا أن يساعد الآخر بأى شيء . لو اعترفت بعلاقتك بى ... سيطلقون النار على رأسك بعدها بدقائق . وان لم أعترف .. فطلقات الرصاص فى انتظارك ايضا . لاشيء فى استطاعتى ان اقوله أو ان افعله ... لاشيء مما سأمتنع عن قوله أو فعله قادر على تأجيل حكم الاعدام عليك ، أكثر من دقائق معدودات . ليس بوسع أحدنا ، حتى أن يعلم ، اذا كان الآخر قد قضى عليه ، أم مازال على قيد الحياة . سنجد أنفسنا شخصين محاصرين معزولين لاحول ولاقوة لهما . أهم مايشغلنى ألا يخون أحدنا الآخر . بالرغم من كون هذا ـ حتى هذا ـ لن يغير من الأمر شيئا ... فعلاقة الحب التى نمارسها تحمل فى داخلها بذور فنائنا ... » .

اجابت جوليا :
ـ : اذا كان مايشغلك هو مجرد الاعتراف ، فنحن سنعترف ... سنعترف . ليس بوسع أحد أن يمتنع عن الاعتراف . لانك ستتعرض لعذاب مزعب رهيب ان امتنعت ... » .
ـ : ليس الاعتراف فى حد ذاته مايشغلنى . مايشغلنى هو أن يخون أحدنا الآخر . ليس ماسأقوله أو ماستقولينه هو المهم . المهم هو ماسنشعر به .... آنذاك . لو نجحوا فى اجبارى على التوقف عن حبك ... ستكون هذه هى الخيانة الحقيقية ... » .

فكرت جوليا فى كلماته مليا :
ـ : ليس بمقدورهم أن يصلوا الى هذا ، هذا هو الشيء الوحيد الذى يعجزهم تحقيقه . بامكانهم أن يجعلوك تقول أى شيء ... لكن ... ليس بوسعهم أن يجبروك على الايمان بما تقول . ليس باستطاعتهم النفاذ الى أعماقك ياوينستون » .

أجابها وقد بدأ الأمل يدب فى نبرة كلامه :

ـ : صحيح ... ليس باستطاعتهم هذا ... كلامك سليم ياجوليا .. ليس بمقدورهم النفاذ الى اعماق أى انسان . وطالما انك تشعرين ان تمسكك بالحياة ، يستأهل كل هذا العناء ، حتى ولو كان الاستمرار فى الحياة لن يخدم هدفا فى النهاية ... هذا الشعور وحده فيه الانتصار عليهم .... »

عاد يفكر فى شاشة جهاز السينما التليفزيونية بسماعته التى لاتكل عن التقاط الاصوات . انهم يتجسسون عليك ليل نهار ... نعم . لكن اذا قدر لك ان تحتفظ بفكرك المستقل داخل تلك السنتيمترات المكعبة فى جمجمتك ... فأنت أذكى منهم فى مملكتك .. مملكة العقل والمنطق والارادة ... بكل دهائهم سيظلون عاجزين عن اكتشاف ذلك العالم السحرى الذى تدور فيه أفكارك أنت الخاصة . ربما دلت دولة العقل بحق ... اذا وقعت فى براثنهم . فليس متاحا للمرء أن يكتشف بالضبط مايدور داخل دهاليز « وزارة الحب » لكن بالمستطاع ان نتنبأ ... بتعذيب ... عقاقير مغيبة أو منشطة ... أجهزة معقدة لقياس استجاباتك العصبية ... دفعك للانهيار التدريجى من الداخل باجبارك على عدم النوم فى جو من العزلة التامة ... والوحدة الموحشة ... والاسئلة اللاهبة المكرورة تتلاحق كالسياط . وعلى أية حال فالحقائق لايمكن أخفاؤها طول الوقت . بامكانهم أن يصلوا اليها عن طريق كافة أنواع الاستجوابات للمحيطين بك ... أو أن تنتزع منك قسرا بالتعذيب ...

لكن ليس بوسعهم أن يطأوا مملكة النفس ...

اذا كان الهدف ليس مجرد ان تبقى على قيد الحياة ... بل أن تبقى على قيد الانسانية فما الفرق ان يعذب الجسد أو يبقى سليما . هم بالفعل بكل سطوتهم أعجز من أن يقتحموا مشاعرك كأنسان ... انطلاقا من هذه الحقيقة ، فليس فى مقدورهم ان يحيلوا احتقارك أو كراهيتك أو رفضك الى شىء غير موجود ، لأن انفعالك لصيق بك ، شئت أم أبيت .

فى مقدورهم أن يعرفوا كل فعل ... كل تصرف ... كل كلمة ... كل سلوك . بل كل فكرة طرحتها للناس أو حتى اعترفت انك فكرت فيها ... أما قلب الحقيقة ... مايجول فى وجدانك انت ... فهو خارج عن حدود سلطانهم ... سيبقى أبد الدهر جنينا فى داخلك ... غير قابل للولادة ..

❊ ❊ ❊

(٨)

وينستون ، وجوليا .

اخيرا ... فعلاها ..

اخيرا نجحا فى الاقدام على ماكان يفكران فيه .

الغرفة التى يقفان وسطها مستطيلة الشكل ، هادئة الاضاءة . صوت جهاز السينما التليفزيونية خافت الى ادنى حد ممكن . نعومة السجادة التى يقفان عليها نعومة القطيفة . فى آخر الغرفة جلس اوبرايان الى مكتب ، يعلوه مصباح كهربائى يسكب ضوءاً اخضر ... على هذا الركن من الغرفة ... مكتب مثقل بالاوراق على جانبه .

لم يرفع اوبرايان ناظريه عن الاوراق امامه ، حتى بعد ان اعلن الخادم عن قدومهما ..

قلب وينستون يدق بعنف ، وقد خشى لشدة ارتباكه ألا تسعفه الكلمات . لقد نجحا فى اقتحام حاجز الخوف اخيرا . اخيرا بلغت بهما الجرأة حد القدوم اليه وهاهما فى حضرته . هذا هو الخاطر الوحيد المسيطر على وينستون .. المغامرة بالحضور عمل طائش قطعا ... كان جنونا من كليهما ان يحضرا سويا ، حتى وان سلكا طريقين مختلفين ولم يتقابلا الا على باب مكتب اوبرايان . لكن مجرد الاقدام على الولوج الى هذا المكان احتاج منهما الى طاقة عصبية ، وجرأة . فنادرا ماكان يتاح للمرء الدخول الى داخل مساكن اعضاء التنظيم الداخلى .

بل انه لامر نادر جدا ان تتاح للمرء حتى ان تطأ قدماه الاحياء التى يسكنون فيها . وهى احياء تشى بجو مختلف تماما الفَخْفَخَة الانيقة ، والأبهة التى تشيع فى كل ارجائها ... رائحة الاطعمة الشهية .. مظاهر الثراء .. رائحة الطباق الفاخر ... المصاعد السلسة المتحركة فى هدوء ... الخدم والحشم بزيهم الابيض المميز ، فى حركة دائبة لكن دونما جلبة او ضوضاء ... الجو كله ... جو غير عادى ، يثير فيك احساسا بالرهبة .

وعلى الرغم من السبب الواضح الذى جاء من اجله ، فقد ظل وينستون باستمرار وهو فى طريقه الى مكتب « اوبرايان » فى حالة خوف ان يعترضه فجأة أحد الحراس ، ليطالبه بابراز بطاقته الشخصية مع سائر تلك الاسئلة الصعبة ، ليطرده فى النهاية خارج

المبنى . الا انَ الخادم ، قادهما بالفعل ـ وفى أدب ـ الى مكتب اوبرايان ، ودون أدنى اعتراض . رجل ضئيل الحجم أشيب الشعر ، ذو وجه شبه مستطيل لاينبىء عن أى تعبير ، ملامحه فيها مسحة صينية ، ويرتدى كسائر الخدم المعطف الابيض المميز . الممشى الذى سار فيه مغطى ايضا بسجاد فاخر ، ناعم الملمس ، يشعر بنعومته تحت اقدامه ..

الجدران مكسوة بورق حائط أنيق ... والاجزاء السفلى بخشب سنديان فاخر ... النظافة التامة من سمات المكان ... حتى هذه النظافة المفرطة سببت له نوعا من التوتر . اذ لم يعتد وينستون ابدا ان يسير فى ممشى لم يلطخ بآثار الايدى التى تنضح بالعرق ...

مازال اوبرايان وعيناه على ورقة امامه يتفحصها بعناية وتركيز . رأسه منحـن على المكتب . وينستون فى وقفته لايرى الا امتداد انفه المعقوف ... نفس الوجه الضخم الذى ينم عن ذكاء برغم ضخامته . بقى هذا الموقف حوالى نصف دقيقة . ثم جذب اوبرايان جهاز الكاتب الصوتى الالى اليه ليملى رسالة باللغة الشفرية الخاصة بالأعمال الحزبية :

(بند (١) فاصله (٥) فاصله (٧) موافقه كاملة . قف . الاقتراح يشمل بند (٦) مكرر + مثير للسخرية .

يقترب من انحراف الخط . الغ ... أوقف كل أجراء اّتخذ . زائد كامل التوقعات . فى انتظار تعليمات عليا ... انتهى ...

نهض عن عمد عن كرسيه ، واتجه صوبهما فوق سجادة امتصت صوت اقدامه . زال عنه الى حد ما الجو الرسمى الذى يلف المكان او اللغة الدولية الجديدة التى كان يتعامل بها . لكن مظهره كان جاداً أكثر من ذى قبل ، كما لو كان يستشعر الضيق لاضطراره الى الانشغال عن عمله . الرهبة التى كان يستشعرها وينستون عادت اليه فى صورة حرج واضح . بدا له من الموقف المحيط به أنه قد أرتكب خطأ فى كل ماتصوره من أفكار غبية . فأى دليل ذلك الذى اقنعه ان اوبريان هذا سياسى متآمر وضد نظام الحزب ؟ لاشىء سوى لمعة عينيه ... وملاحظة واحدة عابرة . فيما عدا هذا ... كل تصوراته من الممكن ان تكون مجرد خيال جامح . ليس بامكانه التذرع الآن بان حضوره بسبب القاموس ... وجود جوليا معه اذا كان الموضوع قاموس فقط ، ليس له مايبرره على الاطلاق .

مر اوبرايان عبر شاشة الجهاز ، وكأنما قد خطرت له فكرة طارئة ، فاستدار وضغط على أحد الازرار بالجدار . صدر عن الجهاز صوت حاد ، ثم صمت ، لم تستطع جوليا ان تمنع

نبرة دهشة ، وحتى وينستون ، برغم ارتياحه ، لم يستطع ان يحجم عن ابداء ملاحظة سريعة تعكس الانبهار ...

فصاح متعجبا :

ـ : باستطاعتك ان ... تغلق الجهاز »

أجابه أوبرايان فى هدوء :

ـ : نعم ... نحن لنا هذه الميزة . باستطاعتنا ان ننهى الارسال عندما نريد . »

وقف قبالتهما الآن .. جسمه الضخم يطل عليهما من عليائه . تعبيرات وجهه عبارة عن علامة استفهام مستغلقة . من الواضح انه فى حالة انتظار .. انتظار قاس ... لوينستون ان ينطق . ووينستون يسائل نفسه : أكلمه عن ماذاً ؟

حتى الآن مظهر « اوبرايان » هو مظهر كبير يتساءل عن سر ازعاجه وسبب قطع حبل أفكاره ، وتعطيله عن عمله . ساد الصمت لفترة ، وبعد ان كف الجهاز عن العمل ... اصبح للصمت وقع ثقيل . الثوانى تمضى كالساعات ، والوقت يزحف ووينستون لاينطق . وجد صعوبة ان يحتفظ باتجاه عينيه صوب وجه اوبرايان واخيرا .. افصح الوجه الصارم عما يشبه بداية مشروع ابتسامة وبنفس اللازمة التى اعتاد عليها اعاد تثبيت نظارته على ارنبة انفه قبل ان يسألهم :

« هل أبدا أنا ... أم تبدأون أنتم ؟ »

ونطق وينستون اخيرا :

ـ : سأقول لك أنا عن الموضوع الذى جئنا من أجله »

ثم توقف ونظر صوب شاشة الجهاز فى قلق :

« هل الجهاز مغلق تماما بالفعل ؟ »

نعم ، الجهاز لايعمل على الاطلاق ... نحن وحدنا الآن ... تماما . »

« جئنا اليك يامستر اوبرايان لاننا »

وتوقف وينستون ثانية . أدرك لأول وهلة عدم وضوح نواياه فى الحضور ... عدم انتظام افكاره ... عدم ترتيبه للكلام الذى يود ان يفصح عنه . بل عدم مايتوقعه من اوبرايان بالتحديد ، أو ماسيطلبه منه . لكن برغم كل ذلك استمر فى الحديث ، وهو يشعر ان كلماته تخرج من فمه ضعيفة وغير مقنعة ....

« نحن نؤمن ان هناك حركة ما ، ان هناك حركة ما ، مايشبه المنظمة السرية تعمل ضد الحزب ، وأنك أنت مشترك فيها . نحن ببساطة نريد ان نشترك معك ، ونعمل من أجلها ، ونحن بصراحة ضد الحزب . اعداء له . لانؤمن بتعاليم « الانجشاك » ... نحن منشقون فكريا . ونحن ايضا اثنان من الداعرين نمارس العشق والجنس . اعترف بكل ذلك ، لأننا نضع انفسنا تحت رحمتك . ان رغبت منا ان ندين انفسنا بأى وجه ، فنحن على استعداد لأن .. »

توقف وينستون مرة اخرى ، ونظر خلفه ، شاكا فى ان الباب المغلق خلفه قد فتح دون استئذان او تنبيه . وصح ماظنه فالخادم الضئيل الحجم واقف بشحمه ولحمه خلفه مباشرة . اذ دخل الحجرة فى صمت ... يحمل صينية فوقها مشروبات .

طمأنه اوبرايان :

« مارتن واحد منا ... »

ثم وجه حديثه الى الخادم :

ضع المشروبات على المنضدة المستديرة يامارتن . واذا لم تجد مقاعد كافية فاحضر لنفسك مقعدا من الخارج وانضم الينا . خذ اجازة من عملك كخادم ، لعشر دقائق فنحن الان نعقد جلسة عمل . »

سحب مارتن مقعدا وانضم اليهم . ومع انه جلس مرتاحا وادعا لكنك تشعر انه مازال يحمل طابع الخدم . طابع التابع عندما يتمتع بميزة مامع من هم أعلى منه . وينستون يتابع حركاته بنظرات جانبية . ادهشه ان الدور الذى يؤديه هذا الرجل طوال حياته قد بلغ من تأثيره عليه أنه من الصعوبة بمكان ان يخرج عن اطاره ولو للحظة ، تناول « أوبرايان » دورق الشراب من عنقه ، وأخذ يصب منه فى الكؤوس . هذا النوع من الشراب قانى اللون . اعاد الى ذهن وينستون صور زجاجات تحويه يتذكر انه رآها منذ مدة طويلة تذكر اعلانا عنه وهو صغير يصور زجاجة ملأى بهذا السائل القانى تدور على صينية تعمل بالكهرباء وتميل الزجاجة لتصب السائل فى الكئوس ثم ترتفع ثانية .. نسى التاريخ الذى رأى فيه هذا الإعلان القديم . بعد ان صب اوبرايان الشراب ، نظر وينستون الى كأسه المملوءة من اعلى فبدا له السائل بلون قريب من اللون الاسود . لكنه فى الدورق قانى اللون يعكس الضوء الساقط عليه . نكهته العاصفة نفذت الى رأسه وليس إلى أنفه

فقط . أما جوليا فلم تتورع عن أن ترفع كأسها وشمها فى حب استطلاع واضح ..

ـ : « اسمه .. النبيذ »

اجاب اوبرايان على دهشتهم باختصار ، وهو يبتسم ثم اضاف :

ـ : « لابد انكم قد قرأتم عنه فى الكتب . لايتسرب منه الا القليل لاعضاء الحزب العاديين للاسف . »

ملاحظة عابرة عاد بعدها وجهه الى جديته ، اذ رفع كأسه قائلا :

ـ : « من المناسب ان نبدأ اجتماعنا بأن نشرب نخب قائدنا فى صحة زعيمنا . فى صحة : أيمانويل جولدشستين » . رفع وينستون كأسه ليشرب النخب وقد تملكه حب الاستطلاع . فهذا النبيذ الذى سمع عنه وحلم به ، مثله مثل تحفته الزجاجية . ومثل اناشيد مستر تشارنجتون غير المكتملة ، ينتمى الى عالم قديم مضى دون ان يخلف الا قليلا من آثاره .. عالم رومانسى يشعر بحنين دافق اليه .. عصر ذهبى كما اعتاد هو ان يسميه فى خيالاته .. وقد كان يظن ـ ولايعلم لماذا ـ ان هذا النبيذ لابد وان له مذاقا حلوا ، كطعم مربى الفراولة ، وان له تأثيرا مسكرا قويا . لكن الواقع ـ عندما احتسى الشراب ـ كان مخيبا لآماله بلا جدال . فبعد ان تعود طوال هذه السنوات على « جين النصر » وجد صعوبة فى ابتلاع هذا الشراب الجديد . اعاد كأسه الفارغة الى المنضدة ، قائلا :

ـ : اذن هناك بالفعل شخصية حقيقية اسمها جولد شستين ؟ »

ـ : نعم بالتأكيد . حى يرزق لكن اين يعيش ليس بامكانى ان احدد ... »

ـ : والحركة ... المؤامرة ... أو التنظيم المعادى للحزب .؟ هل هو حقيقة ايضا ؟ أم هو مجرد احد اختراعات البوليس السياسى ؟ »

ـ : كلا انْ له وجودا حقيقيا . اطلقنا عليه اسم حركة (الاخوة). لكن ليس بمسموح الآن ان افصح لك اكثر من ان (الأخوة) حركة حقيقية ، وانك الان قد اشتركت فيها . وسأعود الى هذا الموضوع فيما بعد ... » .

ثم نظر الى الساعة فى معصمه .. ليضيف .

ـ : « حتى بالنسبة لاعضاء التنظيم الداخلى » ، ليس من الحكمة اغلاق الجهاز اكثر من نصف ساعة : ما كان يجب عليكما الحضور الى هنا سويا ويجب عليكما عند الانصراف ان ينصرف كل على انفراد . »

ثم اشار الى جوليا بايماءة من رأسه :

ـ : « انت يارفيقة يجب عليك الانصراف قبله ... أمامن الآن عشرو دقيقة . مفهوم بالطبع ياوينستون انه يجب الاجابة على عدة اسئلة واستفسارات قبل انضمامكم الى الحركة . اذا بدأنا بالعموميات : ماهى المهام التى تشعر ان بمقدورك القيام بها من اجل الحركة ؟ »

ـ : نستطيع ـ كلانا ـ ان نقوم بأى شىء .. »

عدل اوبرايان من وضع مقعده ، بحيث اصبح مواجها تماما لوينسون ويكاد يتجاهل وجود جوليا ، كما لو كان من المسلم به ان بوسع وينستون ان يجيب نيابة عن كليهما ولبرهة ارخى جفونه قليلا على عينيه ، وبدأ يوجه اسئلته بنبرة عميقة هادئة كما لو كان قد اعتاد على هذه العملية ، كمن يقرأ من لوح محفوظ ويعرف اجابات اسئلته مقدما :

ـ : هل انتما على استعداد للتضحية بحياتكما ؟ »

ـ : نعم ... »

ـ : هل انتما على استعداد لمواجهة خطر الموت فى أى وقت ؟ »

ـ : نعم ... »

ـ : وان تقوما باعمال تخريب قد يتسبب عنها موت مئات من الضحايا الابرياء ؟ »

ـ : نعم ... »

ـ : وان تخونا ـ أن أستدعى الامر ـ وطنكما لصالح قوى أجنبية »

ـ : نعم ...

ـ : هل لديكما الاستعداد عند الضرورة لممارسة الوان التمويه والتزوير ، والتهديد ، وافساد فكر الناشئين ، وتوزيع عقاقير ذات تأثير ضار على السلوك البشرى ، وتشجيع الدعارة ، ونشر الامراض السرية والقيام بأى نشاط أيا كان من شأنه أن يتوخى خلخلة دعائم الحزب ويبث فيه الفساد ؟

ـ : نعم ...

ـ : لو اقتضى الامر ـ على سبيل المثال ـ ان أمرتما بسكب سائل حارق على وجه طفل ، هل تطيعان الامر ؟ »

ـ : نعم ...

هل انتما على استعداد للتخلى عن هويتكما ، والتنازل عن شخصيتكما الحقيقيتين فى الحياة ، وان تقبلا الحباة كخدم أو عمال فى الميناء ...؟

ـ : نعم ..؟

ـ : هل انتما على استعداد للانتحار فى الوقت الذى تحدده المنظمة وبالكيفية التى تحددها المنظمة ..؟

ـ : نعم ... »

ـ : هل انتما على استعداد لأن يتخلى كل منكما عن الآخر ويحرم من رؤيته طول العمر ؟

صرخت جوليا فى وجهه مجيبة هذه المرة :

ـ : لا ...

احس وينستون ان دقائق طويلة قد مضت قبل ان يجيب هو على هذا السؤال بالذات . وللحظات شل تفكيره ، وشعر بعجز عن مجرد الكلام ، ثم أخيرا تحرك لسانه دون صوت تقريبا ، يصدر عنه المقطع الاول من كلمة ممضوغة ، يبتلعها : نصف مقطع لكلمة اخرى وفى ارتباك واضح ، الى ان استقر اخيرا على كلمة واحدة خافتة :

« لا »

تأملهما اوبرايان متفحصا ، ينقل ناظريه من الواحد للآخر الى ان عقب قائلا :

ـ : حسنا ... حسنا فعلتم ان اخبرتمونى ، لانـه من المحتـم ان نعـرف كل شىء عنكما .. »

ثم اردف وقد استدار تجاه جوليا هذه المرة ... وفى نبرة ذات معنى وجه خطابه لها :

« هل تعلمين انه حتى فى حالة البقاء على قيد الحياة ، هناك احتمال ان يتحول صديقك الى شخص آخر ... قد تضطرنا الظروف الى تحويل شخصيته وهويته الى انسان آخر . ملامح وجهه ، حركاته ، مشيته ، شكل يديه ، لون شعره ، حتى صوته نفسه ... قد يعتريه التغيير . انت نفسك قد تتبدلين الى شخص آخر . لدينا مجموعة من الجراحين قدرتهم فى تغيير ملامح الانسان ، قدرة غير عادية ، بحيث يصعب التعرف على الشخص بعد العملية الجراحية اللازمة ... وفى مواقف معينة ، هذه العمليات تصبح ضرورة لا مفر منها ... بل قد يقتضى الامر بتر أحد اعضاء الجسم .»

لم يستطع وينستون ان يمنع نفسه من النظر مرة اخرى الى وجه مارتن بملامحه الصينية . لم يجد أى جروح أو ندوب فى وجهه . أما جوليا فقد اعتراها شحوب خفيف .. شحوب جعل النمش على وجهها أكثر وضوحا ... لكن عيناها تتبادلان نظرات اوبرايان الثابتة .. فى جرأة .

وبعد تفكير قصير غمغمت كلمات تؤدى معنى الموافقة .

اجاب اوبرايان :

حسنا ... اذن اتفقنا .. وانتهى الامر . »

على المنضدة كان يوجد صندوق سجائر كبير لونه فضى . قدمه الرجل فى حركة اوتوماتيكية ، وقد بدا ان ذهنه شارد فى مجالات اخرى . التقط لفافة لنفسه ، ثم نهض ليذرع الغرفة جيئة وذهابا فى خطوات بطيئة ، كأن الوقوف والمشى يساعدانه على التفكير فى تمعن . نكهة السجائر ممتازة ، معبأة جيدا بتبغ راق . نظر اوبرايان اثناء سيره الحثيث فى ساعة معصمه ... ليقول لخادمه ..

من الافضل ان تنصرف الآن الى حجرتك يامارتن . سأفتح الجهاز بعد ربع ساعة . لكن تمعن فى ملامح الرفاق امامك جيدا قبل ان تنصرف ، لانك ستراهم كثيرا فيما بعد . ربما لن أقابلهم أنا مستقبلا .. »

تسلطت عينا الرجل على وجهيهما كأنما يبغى نقل صورة وجهيهما الى ذاكرته ، وهو نفس مافعله عندما رآهما أول مرة فى محاولتهما مقابلة اوبرايان لم يظهر اى ود أو مجاملة فى عمله هذا . كان يستظهر كل تفاصيل الوجهين امامه .. بشعور محايد ... خطر لذهن وينستون انه ربما كانت الاوجه « الصناعية » عاجزة عن التعبير عما تحس . ومالبث مارتن ان غادر المكان ، دون كلمة او تحية . اغلق الباب فى صمت خلفه . أما اوبرايان ، فمازال يذرع الغرفة بخطواته ، ويده ممسكة بسيجارته بينما يده الاخرى فى جيب لباس العمل الاسود الذى يرتديه ، الى ان قال :

« من الطبيعى ان تتوقعا ان كفاحكما سيكون سريا . حربا فى الظلام . ستعيشان دوما فى الظل دون ان يعلم احد عنكما شيئا ... احد خصائص كفاحكما ... أن تتلقوا الاوامر .. وان تنفذوا فى طاعة كاملة ، دون نقاش ، بل دون حتى معرفة سبب ماتكلفون به ... فى مرحلة قادمة سأرسل لكم كتابا يشرح طبيعة المجتمع الذى نعيش فيه ـ الاسس الحقيقية لتكوينه ـ يوضح الاستراتيجية بعيدة المدى لتقويض أركان هذا المجتمع . وعند استيعاب مافى الكتاب ، ستكتسبان العضوية الكاملة لمنظمة « الاخوة » . لكن الى ان تتبينا الأهداف البعيدة التى نكافح من اجل تحقيقها ، وبينما نكلفان بمهام محدده ، لن يتاح لكما الاطلاع على أى شىء . لقد ذكرت لكما ان منظمة « الأخوة » لها وجود حقيقى . أما عدد أعضائها بالضبط فلن تعرفا . سواء أكان عشرة أفراد ، أم عشرة ملايين . من واقع ماسيتاح لكما معرفته ، ربما تخيلتما ان عدد افرادها لن يتجاوز اصابع

اليد . ستتصل بكما المنظمة ثلاث أو اربع مرات . وقائع الاتصالات بكما ستعدم ، فيما عدا هذا اللقاء لأنه الاول . الأوامر الصريحة بالقيام بمهمة ماستكون صادرة عنى انا وعندما سنجد ان من الضرورى الاتصال بكما فسيتم هذا عن طريق وسيط هو مارتن . عند القبض عليكما فى نهاية الأمر ، ستعترفان ... هذا أمر مفروغ منه . ليس هناك سبيل لعدم الاعتراف ، لكن فى واقع الامر سيكون مالديكما من معلومات هو القليل الذى ستعترفان به ، بالاضافة طبعا لتفاصيل العمليات التى ستكونان قد قمتما بها . حتى اذا كانت لديكما نية الاعتراف .. فلن يكون بامكانكما الاعتراف الا على مجموعة محدودة من اعضاء التنظيم . انا مدرك طبعا لوسائل التعذيب المستخدمة لاستخلاص الاعترافات من المقبوض عليهم . ربما بلغ بكم الصمود ـ وهذا مجرد احتمال ـ الا تعترفا باسمى . لكن حتى لو قدر لكم ان تعترفا . فسأكون عندئذ فى عداد الاموات ، أو أكون قد بدلت ملامحى وشخصيتى بصورة انسان جديد .

استمر فى خطواته المتأنية فوق البساط النّاعم . برغم ضخامة جسمه كانت تحف به المهابه ، ليس فى خطواته الرشيقة فحسب ، بل فى سائر حركاته ، وسواء فى الطريقة التى يحرك بها ذراعه عندما يضع يده فى جيبه ، أو فى طريقة تناوله لسيجارة جديدة . سيماؤه ليست سيماء القوة فقط ، بل يترك أنطباعا بالثقة الشديدة فيما يقول ويفعل ، ثقة ممزوجة بشيء ساخر ليس أستخفافا بالخطر ، لكنه نوع من التعالى عليه . ورغم جديته البالغة ، لاتجد فى كلامه ، أى أثر للتعصب وضيق الافق المميز لبعض أصحاب الحركات السرية . حتى عندما تطرق الحديث للاغتيال ، والانتحار ، ونشر الامراض السرية ، وبتر الاعضاء ، أو تغيير ملامح الوجه ، كانت تشوب حديثه السخرية المرة مما يجب القيام به وليس الاستمتاع به . « هناك بعض الافعال الحتمية ، لا مفر منها .. » كما أوضح . وأنما الذى يريد أن يفصح عنه هو أن « هذه افعال يتعين علينا أرتكابها دون أن يرمش لنا جفن ، لكن ليس هذا هو مسار الحياة الطبيعى ، بعد أن نغير صياغتها ونجعل منها حياة تستحق أن يحياها المرء . »

أحس وينستون بفيض من مشاعر الاعجاب الشديد نحو « أوبرايان » ، اعجاب كاد يبلغ درجة التقديس لشخصه . نسى شخصية جولد شستين قائد الحركة .. صورته نفسها تراجعت الى الظل . اذ عند تمعنك فى وجه أوبرايان بملامحه المتحضرة برغم ضخامتها وعدم تناسقها .. وكتفيه العريضين فى صلابة ، كان من المستحيل ان يخطر لك فى بال ان هذا

الرجل يمكن ان يقهر . ليس هناك عبء أو مهمة ثقيلة لا يكون كفؤا لها ، ليس هناك خطر أيا كان من الممكن أن يفلت من بصيرته وبعد نظره . جوليا نفسها بدا عليها التأثر الواضح بشخصيته . سيجارتها أنتهت دون أن تنتبه لها لشدة أنتباهها له . مضى أوبرايان فى جدية :

ـ بغير شك سمعتما أشاعات عن منظمة «الاخوة» ، ولابد أنكما قد كونتما فى خيالكما صورة عنها . ربما تخيلتما ، مثلا تنظيما سريا ضخما من المتآمرين ، يتقابلون بعيدا عن الانظار فى السراديب ، ينقشون رسائل غير مفهومة على جدران دورات المياه ، أو الانفاق . يتعرفون على بعضهم البعض ببعض الرموز الشفرية أو بحركات معينة بالايدى ... كل هذا هراء .. لا وجود له فى الواقع .. أعضاء «الاخوة» الحقيقيون ليس بوسعهم التعرف على بعضهم البعض . ومن المستحيل لاي عضو ان يتعرف الا على عدد محدود جدا من افراد الخلية التى ينتمى اليها . حتى جولدشستين نفسه . اذا قدر له ان يسقط فى أيدى عملاء البوليس السياسى ـ لن يكون بمقدوره ان يعترف الا باسماء عدد محدود ، والا بمعلومات محدودة ، لن تقودهم الى القائمة الكاملة لاعضاء التنظيم . بل يمكن محوها من الوجود ، لانها ليست مجرد تنظيم سرى كسائر التنظيمات ، ان مايجمع شتات أعضائها ليس سوى عقيدة سياسية غير قابلة للقهر .. وأنت كعضو فى «الاخوة » لاتنتظر نجدة من رفاقك ، ولا حتى تشجيعا . اذا قبض عليك لن تجد عونا من أحد . نحن لا نحمى أعضاءنا عند القبض عليهم . أقصى مانستطيع ـ وعند الضرورة ـ هو أن نقوم بتهريب شفرة حلاقة للزنزانة التى تضم العضو المقبوض عليه لمساعدته على الانتحار . يجب أن تعتادا ـ منذ الان ـ على حياة لاتنتظران فيها مقابلا لما تتعرضان له من خطر محدق . أيامكما لن تعرف حتى الامل فى حياة افضل . الدرب الذى نسير فيه هو ببساطة : أنجاز مهام متتالية .. لفترة تطول أو تقصر ، سيقبض علينا ، سنعترف ، ثم نموت ، هذا هو المسار الوحيد المتوقع فى عضويتكم . ليست هناك امكانية لان نجنى فى حياتنا مهما طالت ، ثمار أية تغيرات جوهرية ستحدث فى المجتمع . فيما بعد . نحن أناس كتب علينا الموت . حياتنا الحقيقية هى فى هذا المستقبل الذى سيأتى من بعدنا .. سيشرق هذا المستقبل حتما ، لكن بعد أن تكون قد تحولت الى كومة من تراب .. الى هياكل عظميَّة .. ما مدى بعد هذا المستقبل المنتظر عنا . لسنا على علم حتى بهذا .. ربما تحقق التغيير الذى نكافح من أجله بعد الف عام كل ما هو متاح لنا فى العصر الحاضر وفى

تركيبة مجتمعنا هذه هو ان نسعى لمد الرقعة التى يسيطر عليها العقل والمنطق خطوة خطوة . ليس فى مقدورنا الان القيام بعمل جماعى . المتاح ان ننشر افكارنا بشكل فردى فقط . من مواطن الى مواطن ومن جماعة الى جماعة ، ومن جيل الى جيل . لاننا فى مواجهة هذا الكيان الهائل ـ البوليس السياسى ـ ليس فى وسعنا الا هذا السبيل .»

توقف لينظر لثالث مرة الى ساعة معصمة . ثم الى جوليا :

ـ : حان الوقت تقريبا لان تنصرفى يارفيقة »

فلما استعدت للوقوف أضاف :

ـ : أنتظرى . دوْرق النبيذ مازال مملوءاً لمنتصفه »

صب فى الكئوس مرة اخرى حتى حافتها . رفع كأسه وقد عودته النبرة الساخرة وهو يقول :

ـ : نخب من نشرب هذه المرة ؟ هل نشرب نخب ماسيحل من فوضى فى البوليس السياسى ؟ ام نخب موت الزعيم الكبير ؟ نشرب نخب الانسانيـة ، أم نشرب نخـب المستقبل ؟ »

قال وينستون على غير ما توقع . وفى هدوء يحمل من الشجن ، أكثر مما يعكس من الحزب : « بل نشرب نخب .. الماضى » .

أجاب أوبرايان بصوت جاد وعميق :

« الماضى ؟ فعلا الماضى فى غاية الاهمية »

وشرب الجميع نخب الماضى ، الى أن أفرغت الكئوس . عندئذ مالبثت جوليـا أن نهضت لتنصرف ، فتناول أوبرايان علبة صغيرة من أحد الارفف ، ثم أخرج منها قرصا مسطحا صغيراً أعطاه أياها ، طالبا منها أن تضعه على لسانها ، اذ من المهم الا تخرج ورائحة النبيذ الخاص باعضاء التنظيم الداخلى تفوح من فمها . لان عمال المصعد فى غاية اليقظة لمثل هذه الامور . وما ان خرجت حتى بدا وكأنه نسى وجودها كله ، وأستمر فى مشيته فى الغرفة . خطوة أو اثنتين ليقول لوينستون :

ـ : هناك بعض التفاصيل يجب ان ننتهى منها . يخيل الىَّ أن لديك مخبأ من الممكن ان تلجأ اليه عند الضرورة ؟ »

فأخبره وينستون بالتفصيل عن الغرفة التى يستأجرها من مستر تشارنجتون . فوافقه الاخر على اللجوء اليها قائلا :

ـ هذه تؤدى الغرض مؤقتا . فيما بعد سأرتب لك مكانا آخر . من الضرورى أن تغير مخبأك على فترات .

فى نفس الوقت سوف أبعث اليك بنسخة من الكتاب ـ (لاحظ وينستون كأنَّ « أوبرايان » أيضا يلفظ كلمة الكتاب بما يشبه الترتيل والحرص على مخارج الحروف) ـ من كتاب جولدشستين بأسرع وقت ممكن ... وقد تنقضى عدة أيام قبل أن أحصل على نسخة .. لا توجد نسخ كثيرة كما قد تعلم . رجال البوليس السياسى يتتبعون مانطبعه منه باسرع من معدل طباعتنا لنسخ جديدة . مجهودهم لن يغير شيئا . فخطورة الكتاب ليست فى مجموعة الورق التى يحرقونها .. لان الافكار لاتفنى . الكتاب غير قابل للفناء . حتى لو أحرقوا آخر نسخة .. سنعيد طباعته كلمة كلمة ، لانها فى داخلنا نحن ، أصبح الكتاب هو نحن .. هل تحمل عادة حقيبة جلدية صغيرة ؟

ـ فى العادة .. نعم

ـ ماشكلها ؟

ـ سوداء ، قديمة جدا . لها سوستة على كل جنب

ـ يوما ما فى المستقبل القريب لا أستطيع أن أحدد الآن أحدى الرسائل الخاصة بعملك اليومى سوف تحوى كلمة اسيئت طباعتها ، ولذلك فسوف تطلب إعادة طباعتها .. فى اليوم التالى تذهب الى عملك بدون حقيبتك . وفى وقت ما خلال النهار فى الشارع سيلمسك رجل من ذراعك وسيقول : « أظن أن حقيبتك قد سقطت منك » . فالحقيبة التى يناولك إياها ستحوى نسخة من كتاب « جولدشستين » . وسوف تعيدها بعد أسبوعين . »

ثم ساد الصمت بينهما للحظات .. الى ان قال :

ـ : بقيت دقيقتان وتنصرف ـ سنتقابل مستقبلا . هذا .. اذا قدر لى أن أراك ثانية »

نظر وينستون اليه ، وعقب على كلامه بصوت متردد :

ـ : « حيث لن يكون هناك ظلام »

لدهشته وجد أوبرايان يومىء برأسه موافقا على أضافته ، كما لو كان يعى تماما مايقصد اليه ، ثم قال :

ـ : والى أن نلتقى . هل لديك أى أستفسار ؟ أى سؤال ؟ أى رسالة ؟ أى شىء تود أن تقوله قبل أن تنصرف ؟

فكر وينستون مليا . ليست هناك أسئلة أخرى يود القاءها ، ولا هو ممن يميلون الى القاء خطب طنانة فى موقف كهذا . وبدلا من أن ينصرف تفكيره الى أى شيء متعلق بحركة «الاخوة» أو شخصية « أوبرايان » ، وجد وينستون نفسه يفكر رغما عنه فى السرير البائس الذى رأى عليه أمه لاخر مره ، وتحفته الزجاجية المستديرة ، والحجرة التى يأوى اليها مع جوليا واللوحة المحفورة باطارها الوردى .. فخرجت من شفتيه تلقائيـا كلمات تسأل :

ـ هل سمعت من قبل أنشودة ـ يامستر اوبرايان ـ تقول كلماتها من ضمن ماتقول :

(أجراس سانت كليمنت تحيى البرتقال وزهر الليمون)

مرة أخرى أومأ الرجل معقبا على كلامه ، وبود واضح أكمل بقية الانشوده :

ـ (أجراس سانت مارتن ، أعطينى الثلاث بنسات)

ومتى تدفع لى نقودى ؟ تقول أجراس الاولدبيلى ..

أردف وينستون فى جذل وسرور .

ـ اذن ، فانت تعرفها حتى السطر الاخير ؟

ـ نعم اعرفها .. حتى السطر الاخير .. اما الان فيخيل الى انه قد آن وقت الرحيل . لكن أنتظر ، يستحسن أيضا ان تمتص هذا القرص .. لكى يزيل رائحة فمك .

نهض وينستون ، فمد له اوبـرايان يده مصافحـا . قوة يده تكاد تعتصر اصابـع وينستون . وهو فى طريقه الى الخارج بعد ان تجاوز باب المكتب ، استدار ليلقى نظرة على الرجل . لكن أوبرايان كان كما يبدو قد نفض يديه عن الموضوع وتحول الى نفس صورة الرجل العملى التى كان عليها قبل لقائهما . وقف ينتظر رحيله ويده على أحد الازرار .. ليعيد تشغيل جهاز السينما التليفزيونية . ووراءه صورة باهتةِ للمكتب الذى كان يجلس اليه ساعة دخولهما هو وجوليا . والضوء الاخضر فى الركن ، وجهاز الكاتب الصوتى الالى فى الانتظار .. أيضا أكوام الورق . أنتهى الحدث . لن تمضى ثلاثون ثانية إلا ويعود أوبرايان كما كان : الشخصية الهامة المنصرفة الى انجاز عملها الخطير فى خدمة الحزب .

* * *

(٩)

شعر وينستون أن جسده قد تحلل من شدة التعب ... (تحلل) هى الكلمة المناسبة لما يعانيه من ارهاق . ردد الكلمة فى ذهنه تلقائيا يصف لنفسه حالته . جسده ينضح بالاجهاد .. أحس حتي بعظامه ، وقد تحللت ... تحول هو كله الى كتلة هلامية رقيقة .. شعر أنه لو رفع يده لامكنه أن يرى (من خلالها) أشعة الشمس . جسد مسحوق بلا عظام ، وحتىً بلا كتلة . أغرق نفسه فى عمل متواصل ، حتى غاب فيه . أجهد نفسه ، فتملكه الاجهاد .. تمكن منه وتسرب الى كل خلاياه . لم يعد يشعر بنفسه الا كجهاز عصبى متحرك .. كل أحاسيسه بدت مكبَّرة ، الرداء بدا عبئا ثقيلا على كتفيه ، أرض الطريق المستوية أحس بها كصخر مسنون ينفذ فى قدميه ، حتى الحركة البسيطة . فتح كفه وضمها .. بدت له فى حاجة الى جهد جهيد .

تجاوزت ساعات عمله الدؤوب تسعين ساعة فى خمسة ايام . نفس الشيء ينطبق على كل العاملين بالوزارة . الان فقط انجزوا المطلوب وأنتهت المهمة . ليس لديه بالفعل اى عمل . ليس مكلفا بعمل حزبى أو حكومى من أى نوع ، حتى صبيحة اليوم التالى .. فى مقدوره الان ان يقضى ست ساعات فى مخبأه ، وتسع ساعات أخرى فى سرير غرفته ، وببطء شديد أخذ يقطع الطريق المؤدى الى محل تشارنجتون ، والشمس تلملم خيوطها الذهبية منسحبة الى الافق البعيد . عينه تتنقل بين جانبى الطريق لتفادى أية دورية قد تمر ، وان كان يشعر عن غير حرص منه . أنه ليس من المحتمل ان تجوس المكان أية دوريات اليوم . مع كل خطوة كانت الحقيبة الجلدية الثقيلة التى يحملها تضرب فى فخده ، فيتسرب أثر أحتكاك الحقيبة الى أعصاب رجله كلها التى ينقلها فى أرهاق . داخل الحقيبة يرقد (الكتاب) الذى تم تسليمه اليه منذ ستة ايام ، والذى لم تتح له بعد فرصة الاطلاع على صفحة واحدة منه .

فى اليوم السادس من (اسبوع الحقد) ، وبعد المواكب والخطب ، والمظاهرات والهتافات المدوية ، بعد كل تلك الشعارات المرفوعة والاعلام ، والملصقات والأفلام والتماثيل الشمعية . بعد كل هذا الدبيب للخطوات العسكرية المنتظمة ، وكل هذا الهدير للمصفحات ، وازير الطائرات المنقضة والمارقه فوق المواكب ، والصاعدة الى السماء فى

مسارات ثعبانية الشكل .. بعد ستة ايام من هذا النشاط المحموم .. بعد ان تصاعد الحماس الى قمة الاثارة، وجماهير الشعب تغلى غضبا ، وتموج بكراهية بلغت الذروة ضد «أوراشيا » .. حتى ليخيل اليك أنها ستفتك بأى أسير من «أوراشيا» تقع عليه انظارها .. بعد أن أرتفعت درجة الغليان الى قمة الهذيان ..

بعد أن بلغ الموقف هذا الحد .. أعلن أن «اوشانيا» ليست فى حالة حرب مع «اوراشيا» . ان البلاد فى حالة حرب الان مع «أيستاشيا» وأن «اوراشيا» قد تحولت الى .. حليف .

لم يعلن بالطبع أى بيان بأن تغيرا جذريا قد اتخذ فى السياسة الخارجية للدولة . ماتم ، هو أن فوجىء الناس بما يشبه الصدمة ، بأن أذاعت وسائل الاعلام فى جميع قطاعات الدولة وفى وقت واحد ، أن «أيستاشيا» وليست «اوراشيا» .. هى العدو الحقيقى للشعب . كان وينستون يشارك فى احدى المظاهرات الصاخبة فى احد ميادين لندن الرئيسية عندما أذيع البيان . كان الوقت مساء ، والميدان غارقا فى بحر من الاضواء الساطعة ينعكس على الاوجه والرايات المرفوعة ، المكان يموج بالالاف المتدافعة من الجمهور الصاخب الذى يضم بين من يضم ، كتلة بشريه من ألف تلميذ صغير ، فى زى منظمة أشبال المخابرات . على منبر عال وقف خطيب أصلع ذو سوالف طويلة يلهب حماس الجماهير . تجاعيد وجهه تنضح بالكراهية ضد العدو الغاشم ، جسده غير متناسق الاعضاء ، باحدى يديه أمسك بمقبض الميكروفون فى عنف ، ويده الاخرى الكبيرة الحجم فى نهاية ذراع معرورق ونحيف ، تلوح فى الهواء ، تنذر الاعداء بالوعيد . صوته المتخشب كان أقرب الى الصرير وهو صادر عن الميكروفون . وقد طفق يعدد أهوال الاعمال الأجرامية التى ارتكبها جيش العدو ، من اغتصاب وتدمير ، وسطو ، ونهب ، وفظائع يندى لها الجبين .. ومن تعذيب للاسرى وقتل للنساء والشيوخ والاطفال ، ومهاجمة المدنيين العزل ، وترويج الدعايات المسمومة ، والحنث بالوعد بعد أتفاقيات السلام .

كانت هناك استحالة ـ اذا أقتنعت بكلامه حقا ـ ألا يصيبك الجنون من هول ماتسمع . وفى الفترات التى كان يلتقط فيها أنفاسه ليواصل حربه الكلامية ، أحس وينستون ان غليان الكراهية بين الجماهير غليان مسموع .. هدير يصم الاذان ، كجماع صرخات الاف الوحوش المتوثبة للانقضاض على جيش «اوراشيا» . أعلى الاصوات صادر عن تلاميذ

المدارس فى زيهم المعهود . استمر خطاب الرجل زهاء عشرين دقيقة ، الى ان وصل احد الرسل على عجل ، وشق طريقه وسط الجمع الحاشد وأتجه الى منبر الخطيب المتحمس . وضع فى يده قصاصة ورق . فضها الرجل وقرأها دون ان يتوقف عن القاء خطابه الملتهب ثم .. دون ان تتغير نبرة صوته الحاد ولا طريقة القائه الحماسى ولا حتى مضمون الفظائع التى يسردها ، ودون ان يهتز .. واصل بصوته الجهورى القاء الخطاب .. شىء واحد فقط تغير .. أسم الدولة التى يهاجمها . الاغرب ، أنه دون أن يصدر تعليق واحد من أى من آلاف الواقفين ، سرت موجة خفيفة من تفهم ما حدث .. «اوشانيا» الان فى حالة حرب مع أيستاشيا .

فى الدقائق التالية شهد الميدان حركة دائبة مضطربة غير عادية . فالاعلام واللافتات التى يحملها أعضاء الحزب . كلها خاطئة الان . ونصف اللافتات تحمل ملامح جنود ، ادانتهم تصبح خطأ بعد تغيير اسم العدو . تحول الخطيب الى الهجوم على عملاء جولدشستين كنوع من الاستراحة القصيره ، تم أثناءها تغيير مشاهد التمثيلية ، الملصقات أنتزعت بسرعة عن الجدار . الاعلام واللافتات مزقت على الفور ووطئتها الاقدام . وقام أشبال المنظمة بأنجاز هائل فى هذا السبيل ، بان أنطلقوا كالقرود الى اسطح المنازل وقاموا بتقطيع كل الحبال والاسلاك التى تحمل لافتات تدين «أوراشيا» ..

ثم لم تمض دقائق معدودات ، الا وقد تغير وجه الصوره ، وعاد الخطيب المفوه يدين الاعداء وبشاعة ما يرتكبونه ضد «اوشانيا» ... ويده المعروقة مازالت ممسكة بخناق الميكروفون فى رعشة غاضبة ، واليد الاخرى تلوح بنفس العنف .. الصوت الصارخ منطلق من حنجرته بنفس النبرة ، والكلمات تكاد تكون نفس الكلمات ، وقد مال بصدره الى الامام مخاطبا الجماهير الغفيرة ..

مضت دقيقة وصدى الصوت يضرب جنبات الميدان بكلمات الهجوم اللاذع .. ومرة اخرى عاد هدير الاصوات الناقمة من نفس الصدور المحمومة ... تنضح بنفس القدر من الكراهية ضد العدو .. استمر نشاط اسبوع الحقد كما هو . بقى الحقد .. لم يتغير سوى الاتجاه الموجه اليه . أكثر ما أثر فى وينستون ، وهو يجاهد حتى لايفلت عقله من سيطرته ، أنه عندما أخذ يسترجع الموقف ، اكتشف ان الخطيب قد انتقل من احد السطور التى يقرأها الى السطر التالى ، دون أن يكمل نصف الجملة الاولى ، ودون أن يتغير حتى جرس الكلمات ، ولا ايقاع خطابه . كان ما يمارسه من حديث متناقض هو الشىء الطبيعى

نفسه . وخلال الجلبه والهرج اللذين سادا الميدان عند تغيير الاعلام والملصقات ، شعر وينستون بيد رجل لايعرفه تلمس برفق كتفه وهو يقول :

ـ : يخيل اليّ أن حقيبتك قد سقطت منك يارفيق ..

بحركة طبيعية أنحنى الى الارض والتقط الحقيبه ، دون أن يرد عليه ، لكنه الان اصبح واثقا أنه ستمر ايام لن يستطيع أن يقرأ شيئا من الكتاب الذى تحتويه الحقيبة . ففى نفس اللحظة التى انفض فيها الجمع وانصرف كل من فى الميدان ، كان لزاما عليه ان يتوجه ـ حتى دون أن يسمع النداء المذاع من شاشات الاجهزة باستدعاء كافة موظفى «وزارة الحقيقة» ـ أن يتوجه الى مقر عمله فورا . الساعة الان حوالى الحادية عشرة مساء .. عند وصوله الى مبنى الوزارة وجدها تغص بكافة العاملين . وكان الاستدعاء الجماعى قد أذيع بالفعل .

«اوشانيا» فى حالة حرب الان مع «أيستاشيا» . من الصعب أن تتذكر فترة لم تكن فيها «اوشانيا» فى حالة حرب مع «أيستاشيا» . المهم الان بالنسبة لعمله فى الوزارة ، جزء كبير من الكتابات والتعليقات والوثائق السياسية قد أصبح الان فى وضع يستلزم التغيير والبعض يستوجب الالغاء محليا .. التقارير والسجلات من كل الانواع ، .. مقالات وأفتتاحيات الصحف .. مضمون كتب سياسية معينة .. كتيبات حزبية وغير حزبية .. أفلام .. تسجيلات صوتية وبرامج سينما تليفزيونية ، صور .. كلها يجب أن «تصحح» وبسرعة البرق . يكاد يصيبه الدوار من ضخامة المهمة ، ومن تصور الجهد المضنى المطلوب منه . وعلى الرغم من عدم صدور توجيهات محدده ، سرى أعتقاد نتيجة التجارب السابقة ، ان مديرى العموم بالوزارة يهدفون الى محو اى اثر يشير الى وقائع الحرب القائمة مع «اوراشيا» ، والتحالف الذى كان سارى المفعول حتى وقت قصير مع «أيستاشيا» ، خلال أسبوع واحد فقط كحد أقصى . حجم العمل المطلوب مذهل . وأصبح لزاما على كافة العاملين فى تخصصات متعلقة بعملية التبديل هذه ، أن يكرسوا ثمان عشرة ساعة يوميا فى جهد متواصل خلال الاربع وعشرين ساعة . ومايزيد طبيعة العمل صعوبة ان عمليات التزييف لاتتم صراحة بتوجيهات واضحة ، بل يتم التبديل بنفس الاساليب الملتوية ، مع التوسل بنفس الالفاظ المبهمة ، أعتمادا على ذكاء العاملين وحسن تمرسهم بتزييف سابق . لم يكن يسمح ـ نتيجة لذلك ـ لاى من العاملين بالتوجه للراحة لفترات متتابعة لاتزيد عن ساعتين الى ثلاث ساعات . وصدرت الاوامر باخراج المراتب المطاط من مخازنها ،

وفرشها فى أروقة الوزارة ليتسنى للعاملين أكتساب الوقت المستغرق فى الذهاب الى ، والعودة من مساكنهم . وقسم العمل فى ورديات متصلة دائرية ، تغطى الاربع والعشرين ساعة ، والكل فى سباق مع الزمن ، أملا فى الوصول الى أرقى صور التنزييف احكاما . شمل النشاط العاملين بالمقصف ، ودارت «قهوة النصر» على الجميع طوال الليل الى جانب سائر المنبهات . وما إن ينتهي وينستون من كومة الاوراق الموزعة عليه فوق مكتبه ، ليختطف سويعات من النوم ، حتى يعود ليعاود الكرة ، وقد علت مكتبه مرة اخرى كومة اكبر ، يبدأ فى انجازها ، ودقات الصداع القاتل تزداد حدتها مع زيادة حدة الاجهاد . وفى فترات غطت الاوراق والوثائق والسجلات المطلوب تعديلها أرجاء المكتب كله لتنسكب على ارضية الغرفة . فى مثل هذه المهام الطارئة ليس هناك ثمة مهرب بتعلل بمرض أو أرهاق . فالارهاق هو الحالة السائدة . وعلاج المرض الوحيد مزيد من العمل كتعليمات الحزب . وكان لزاما على وينستون ان يقضى وقتا محسوبا عليه ، فى ترتيب الملفات المنزلقة الى الارض ، وتنسيق كافة الوثائق المطلوب تغيير مضمونها ، كعملية أولية تتيح له ان (يكسب ارضا) داخل غرفته الضيقة ليبدأ عمله الحقيقى الشاق فى التغيير . ولم يكن فى حالة مزاجية تسمح بتأمل احوال العاملين امامه او حوله ، فالكل فى الهم سواء . ولما كان قد أظهر من قبل براعة فى العمليات التى تتطلب ذكاء وحسن تصرف أعتمادا على التطبيق البارع والمرن لتعليم (الانجشاك) ، فقد ازدادت نسبة العمليات غير التقليديه المطلوبة منه . واصبح الجهد المستهدف لانجازها ليس بدنيا فقط .. بل عقلي أيضاً ، وهو مازاد من صعوبة موقفه ، فبعض (التعليمات) تحتاج الى خيال وحسن تصور ، مع ضرورة مراعاة الحقائق الجغرافية الواجب أخذها فى الاعتبار عند تزييف صور الحرب من جزء معين من العالم الى جزء آخر .

فى اليوم الثالث من عمله المتواصل ، أحس بعينيه وكأن الدم فى داخلهما يكاد يفجر شعيراتها ... ونظارته تحتاج لمسح كل عدة دقائق . كان فى معركة مع واجب ضخم ملقى على كاهله ، بعضه كان بالامكان رفضه لكنه مع ذلك ليس مهيأ نفسيا ان يسلم بالعجز عن اتمامه . المسألة من بعض وجوهها كانت مسألة كرامة . وعلى قدر ما يذكر لم يكن يشغله ان معظم ما ينطق به للكاتب الصوتى الآلى كان كلمات كاذبة عن عمد . كان همه الاول ـ مثله مثل أى من العاملين بالوزارة ـ ان يكون الكذب متقنا ـ ان يكون التزييف

محكما غير قابل للطعن أو المؤاخذة ، التحدى الحقيقى الذى يستشعره : ان يتقن عمله ، بغض النظر عن طبعية هذا العمل . بل ان مضمون الكلمات لم يكن يشغله وقتها ، قدر أنشغاله بدرجة اتقان الزيف فيها .

فى صبيحة اليوم السادس ، خفت حدة العمل ، الانابيب الاسطوانية التى تقذف بالملفات الى مكتبه بدأت تهدأ قليلا . لم يصله اى شىء لنصف ساعة كاملة . ثم وصله ملف اخذ يقلب فى تفاصيله ، ثم لا شىء بعده . وفى كافة اقسام الوزارة هدأت الحركة تقريبا . كأن الوزارة كلها قد أخذت تتنفس الصعداء ، اذ تم انجاز عمل هائل لا يمكن تصور حجم ووزن الجهد المبذول فيه الا بممارسته .

منذ الان ... ليس فى مقدور اى انسان ، مهما توسل بالدلائل ، أن يجد قرينة واحدة تثبت ان الدولة كانت فى حالة حرب مع «أوراشيا» . هذه الحرب لم تحدث . وفى تمام الساعة الثانية عشرة ، أعلن على غير توقع ان جميع العاملين بالوزارة يمكنهم الانصراف لفترة راحة حتى صبيحة اليوم التالى .

وينستون مازال يسير حاملا حقيبته الجلدية التي تضم (الكتاب) . وهو الكتاب الذى أخفاه بين قدميه فى عمله المكتبى ، ووضعه تحت وسادته فى نومه .

ذهب الى شقته ، فدخل الحمام وحلق ذقنه ، وكاد ان يستغرق فى النوم أرهاقا داخل الحمام وهو يأخذ « رشَّةً » برغم الماء الفاتر المنساب على جسمه .

وما ان وصل الى السلم المؤدى الى غرفته فوق محل تشارنجتون ، حتى بدأ يخطو فوق درجاته وهو يحس بصرير الالم الزاحف فى مفاصله اثناء صعوده البطىء . الآن بلغ به التعب منتهاه ، لكنه لايشعر برغبة فى النوم .. فتح النافذه ، أوقد وابور الغاز القذر ووضع قدر الماء فوقه ليعد لنفسه القهوه . ستصل جوليا قريبا . والى ان تصل فكر فى (الكتاب) فجلس داخل الكرسى ذى المساند ، وفتح (سوستة) الحقيبة الجلدية .

امسك بالكتاب ... شكله يشبه المراجع الضخمة ، وله غلاف اسود غير متقن الصنعة . لايحمل اسما أو عنوانا . والكتابة فيه ليست مستوية الى حد ما . صفحاته قد بليت فى أطرافها ، وتساقط بعضها من داخله مما يدل على كثره الايدى التى تداولت قراءته . بعد ان فتح الغلاف ، قرأ عنوانا فى الصفحة الاولى يقول :

« حكم الاقلية فى الحركة الشمولية »

«النظرية والتطبيق»

بقلم : ايمانويل جولدشستين

وبدأ وينستون فى قراءة الكتاب :

الفصل الأول
« فى الجهل قوة »

(خلال حقبة التاريخ المسجل ، وربما منذ نهاية العصر الليينوليثي ، عاش على وجه البسيطة ثلاثة أنواع من البشر . الجنس الراقى .. والمتوسط ، والمنحط . هذه الأنواع الثلاثة تفرعت الى تقسيمات متعددة تحمل أسماء لا حصر لها ، أختلفت هذه التقسيمات فى عددها ، وفى اتجاهات هذه الشيعة ضد الاخرى . باختلاف كل حقبة زمنية . لكن بقى فيها جميعا التركيب الاساسى للمجتمع ثابتا دون تغيير . وحتى بعد عديد من الثورات والفورات والتغبيرات التى بدت لاول وهله وكأنها غير قابلة للالغاء ، ظل نفس النمط من التركيبة الاجتماعية واحدا ، كجهاز الجيرو فى الطائرة يعدل نفسه دوما .. ليرتد الى نفس الاتجاه الاساسى الثابت .

أهداف هذه الأنواع الثلاثة لايمكن التوفيق بينها اطلاقا

توقف وينستون عن القراءة ... فقط لكى يستوعب الموقف بينه وبين نفسه ، فى أنه حقيقة وحده ، وأنه حقيقة يمارس«القراءة »فى جو آمن ومريح . وبرغم وجوده فى الحجرة بمفرده ، فعلا ، فقد أخذ يتلفت حوله بحكم العادة ، ليتأكد من أنه وحده فعلا . ليتأكد من انه .. لا توجد شاشة قريبة .. ولا أذن تتصنت من ثقب الباب .. وليس هناك من يقف خلف كتفيه ليسترق النظر إلى الكتاب الذى يقرأه .. وأنه ليس بحاجة لان يخفى مايقرأ بكف يده من باب الحيطة ...

هل حقيقة ... أنه « يقرأ » ؟ ... وأنه وحده تماما ؟..

نسيم الصيف الخفيف يداعب وجهه .. ونفس صيحات الاطفال الخافتة تتناهى الى سمعه من بعيد .. والغرفة نفسها يلفها صمت حنون لايخدشه الا صوت الساعة الواهن .

أتخذ لنفسه وضعا اكثر راحة فى المقعد الكبير ذى المساند .. مد ساقيه ، وأسند قدميه الى سور المدفأة .. هذا الجو المحيط به هو النعيم .. أى سعادة تغمره .. بل لعله قد بلغ المنتهى .. قد شارف الخلود ..

يا سلام .. تجلس بعيدا عن العالم الخارجى كله .. وتقرأ .. وحدك .. وأنتابته شقاوة أطفال فى طريقة قراءته ربما لفرط السعادة .. ففجأة اخذ يقلب فى صفحات الكتاب دون تسلسل .. كقارىء ضمن الكتاب بين يديه ، ولديه أحساس أكيد انه سيقرأه مرة ويعيد قراءته أكثر من مرة .

ففتح صفحة على الفصل الثالث ليقرأ عنوانه :

الفصل الثالث

الحرب ... هى السلام

أن تقسيم العالم الى ثلاث من القوى العظمى كان حدثا ليس بالجيد ، فقد كان توقع حدوث هذا التقسيم يرجع الى منتصف القرن العشرين ، ربما الى ماقبل هذا التاريخ . فنتيجة لابتلاع روسيا القارة الاوروبية كلها . وأبتلاع الولايات المتحدة الامريكية الامبراطورية البريطانية .. ظهر الى الوجود بالفعل ورسخت اقدام قوتين عظمَيَيْنْ من تلك القوى الثلاثة : «اوراشيا» «وأوشانيا» . تلت ذلك فترة زهاء عشر سنوات .. عقد كامل فى صراعات مضطربة ومتعددة الاتجاهات ، ظهرت فى الافق اخيرا القوة الثالثة : « ايستاشيا» . الحدود الفاصلة بين القوى الثلاث محدده وقاطعة فى بعض منها . ومائعة ومتغيره تقدما وتقهقراً فى البعض الاخر فى تلك المناطق التى تدور رحى الحرب فيها . ولكن ـ عموما ـ الحدود فى معظمها تتطابق مع الحدود الجغرافية الطبيعية لكل منها . فأوراشيا تضم المناطق الواقعة بين البرتغال غربا الى مضايق بيرنج شرقا ، مرورا بالجزء الشمالى من أوروبا والجزء السهلى والجبلى من آسيا . بينما تضم «أوشانيا» الامريكتين وجزر

الاطلنطى بما فيها الجزر البريطانية واستراليا وأجزاء من آسيا «اوسترالاشيا» ، والجزء الجنوبى من افريقيا . اما «أيستاشيا» فهى تقل مساحة عن الاخريين ، اذ تضم الصين والجزء الواقع جنوبها فى آسيا ، والجزر اليابانية ، وجزءاً كبيراً غير ثابت الحدود من مانشوريا ومنغوليا وهضبة التبت .

خلال الخمس وعشرين سنة الماضية كانت تلك القوى العظمى الثلاث سواء متحدة أو متفرقة ، فى حالة حرب مع بعضها البعض . لكن الحرب الان ، مع ذلك ، لم تعد صراعا محموما لكى تقضى أى من تلك القوى على القوتين الاخريين ، كما كان الحال فى النصف الأول من القرن العشرين . أصبحت الحرب الان حربا محدوده فى أهدافها بين قوى متصارعة ، ليس بوسع أى منها أن يدمر الاخر ، بل أن كل واحدة من تلك القوى ليس لديها سبب مادى مباشر للقتال ، ولايفصل بينها تباين حقيقى فى المذاهب . وليس معنى ما ذكر بالطبع ان الحرب بينها قد أصبحت اقل دموية عن ذى قبل ، أو يغلب عليها طابع الفروسية مثلا . على العكس ، حمى الحرب تنتشر بصورة أكثر هستيرية وأكثر استمرارية بين كل اقطار تلك القوى . وأصبحت الأعمال العدوانية كالاغتصاب ، والصلب ، وقتل الاطفال والعجائز وأخضاع الاسرى لنظم شبيهة بالعبودية ، وتعذيب المسجونين الى حد يصل احيانا الى دفنهم احياء او القائهم فى الماء المغلى .. أصبحت جميعها لفرط تعددها اعمالا عادية بين سلطات القوى الثلاث . الا ان الحرب اقتصرت بالنسبة للقوى المتصارعة بالفعل على عدد محدود من أناس على مستوى تخصصى وعال من التدريب القتالى ، مما قلل من عدد الاصابات نسبيا . وآقتصر القتال الفعلى على جبهات الحدود فقط ، وهى حدود لايستطيع المواطن العادى فى اى من اقطار تلك القوى ان يحددها بدقة .. كما آقتصر القتال الى جانب الحدود على معارك تدور بين تلك القلاع العائمة التى تقوم على حراسة الابعاد الاستراتيجية عبر حدود تلك القوى البحرية . أما فى مراكز الحضارة فلا تعنى الحرب الا عجزاً مستمرا فى المواد الاستهلاكية ، وتلك الانفجارات التى تحدث بين الحين والحين لهذا الصاروخ أوذاك مخلفة عددا محدودا من الضحايا .. ربما لايتجاوز عشرات القتلى فقط . الحرب فى الواقع قد غيرت من طابعها ، أو بمعنى أدق ، الأسباب المؤدية الى الحرب قد تغيرت من حيث ترتيب اولوياتها . فالدوافع التى كانت موجودة لكن دون فاعلية كبيرة فى حروب اوائل القرن العشرين ، قد اكتسبت الان اهمية ملحوظة وبدأت فى البروز كأسباب جوهرية .

ولكى نفهم طبيعة الحرب المعاصرة ، يجب ان يدرك المرء فى المقام الاول ان من المستحيل ان تكون هذه الحرب حاسمة لاى طرف .. لكنها مستمرة على نفس النمط برغم انضمام واحدة من تلك القوى للقوتين الاخريين أو العكس ، الا أن هناك استحالة فى ان يقضى على أى من تلك القوى العظمى ، حتى لو تحالفت اى من القوتين ، على القوة الثالثة . تكاد القوى ان تتساوى فى الموارد البشرية والدفاعية ، بل ان لكل قوة من الثلاث انظمتها الدفاعية التى وصلت مرحلة غاية فى الصلابة . «أوراشيا» تحميها أراضيها الشاسعة الممتدة . وأوشانيا من المستحيل القضاء عليها عبر محيطين شاسعين هما الاطلنطى والهادى . وأيستاشيا يحميها عدد سكانها الرهيب وقواهم الصناعية .

فى المقام الثانى ، ليس هناك ـ من وجهة نظر مادية بحته ـ لم يبق ما يسوغ أن تنشب الحرب من أجله . فمع رسوخ تلك النظم الاقتصادية التى تكفل الاكتفاء الذاتى لكل قوة عظمى داخليا ، انتفى ذلك الصراع التاريخى القديم على الاسواق الخارجية لتصريف السلع ، وهو أحد الاسباب الرئيسية للحروب القديمة . ثم أن التنافس على مصادر المواد الخام لم يعد الان مسألة حياة او موت لاى قوة منهم . وعلى أية حال فكل قوة من الثلاث لها فى اتساع رقعتها ما يغنيها عن طلب المواد الخام لدى الأخرى . من الممكن توفيرها أو بعضها على الاقل داخل حدودها . ومن ثم فالبحث عن السبب الاقتصادى المعقول لكل تلك الحروب الصغيرة حاليا ، يفضى بنا الى حقيقة : وهى سكان كل قوة عظمى انما تقاتل من أجل مزيد من القوى العاملة . فهناك حدود رباعية متداخلة بين القوى العظمى الثلاث تمتد بأركانها من طنجة عبر برازافيل ، مرورا بداريون وانتهاء بهونج كونج ، تضم ما يقرب من خمس العالم كله . سر الصراع الدائم اذن بين القوى الثلاث ، هو : الرغبة فى امتلاك هذه الأقاليم ذات الكثافة السكانية العالية . بالاضافة الى حقيقة حاسمة وهى ان أيا من تلك القوى المتصارعة لم تستطع ان تضع يدها بالفعل على كل المنطقة موضوع النزاع .. والمناطق المتنازع عليها تنتقل من يد الى يد . وأصبح غرض الاستيلاء على ذلك الجزء أو ذاك من تلك المناطق غير محددة الهوية ، هو السبب فى خضوع ذلك ، القطر أو ذاك، فى تلك المناطق لواحدة من القوى الثلاث على حساب غيره من القوى .

وأرض المناطق المتنازعة غنية بالمعادن ، وبعضها غنى بمنتجاته الزراعية ، مثل المطاط ، الذى يتكلف انتاجه فى المناطق الاكثر برودة نفقات طائلة .. لكن الاهم من هذه

أو تلك ، هو ان هذه المناطق ، مصدر لا ينضب للقوى البشرية الرخيصة . فكل قوة عظمى تطمع فى السيطرة على افريقيا الاستوائية ، أو الشرق الاوسط أو جنوب الهند ، أو الجزر الاندونيسية ، هدفها السيطرة على سواعد وأبدان عشرات من مئات الملايين من العمال الذين يمكن استنزاف قواهم . وسكان تلك المناطق الذين تدهور بهم الحال دون مواربة الى مستوى العبيد ، ينتقلون من سلطة احد الغزاة الى سلطة غاز جديد . وهم يستهلكون كما يستهلك الفحم أو البترول فى سباق تلك القوى من أجل مزيد من التسليح ، أو مزيد من التوسع ، أو مزيد من السيطرة على الايدى العاملة الرخيصة .. وهكذا .. بلا نهاية أو حدود لكلمة (مزيد) .

ويجب ملاحظة حقيقة هامة ، وهى ان القتال لايتعدى اطلاقا حدود المناطق المتنازع عليها . مثلا : حدود (أوراشيا) الامامية ظلت تمتد وتتراجع مابين حوض الكونجو والساحل الشمالى لحوض البحر الابيض المتوسط . (اوشانيا) بالمثل تستولى ثم تتخلى عن جزء من المحيط الهندى وجزر المحيط الهادى ، لتستولى عليها ايستاشيا ثم ترغم على الانسحاب منها ، وهكذا . مثال آخر : منغوليا كمنطقة متنازع عليها ، لايمكن ان تحدد بصوره قاطعة خطا ثابتا يفصل حدود (اوراشيا) عن (أيستاشيا) فيها . أما المناطق القطبية .. فهى نهب لنزاع دائم بين القوى الثلاث . كل منها تدعى لنفسها الحق فيها برغم خلو هذه المناطق من السكان وبرغم عدم استغلالها .

لكن برغم كل ذلك ، يبقى دائما نوع من توازن القوى المتعادله بين المتصارعين الثلاثة . وقلب أى منهم ، أى المناطق التى تكون الأراضى الرئيسية لأى من تلك القوى العظمى ، يبقى دائما لايمس . فالقتال ـ كما يقضى العرف بينهم ـ لايمكن ان يمتد للقلب ، بل يقتصر على الاطراف .

والمتأمل لذلك النزاع الدائر حول افريقيا الاستوائية مثلا ، يجد أن هذه المنطقة ليست لها اهمية حقيقية للاقتصاد العالمى . فالايدى العاملة الرخيصة فى تلك المنطقة لاتضيف انتاجا فعليا يسهم فى رخاء العالم ، نظراً لانها مسخرة لانتاج أدوات الحرب فقط ، وبهدف شن حرب جديدة من قبل هذه القوة العظمى او تلك . وهذه الحرب الجديدة التى تشنها هذه القوة او تلك هدفها النهائى هو ان تصل الى اوضاع عسكرية افضل ، يمكن معها شن حرب اخرى . أى أن جهد وعرق ملايين من العمال الافارقة ليس له من جدوى

سوى الحفاظ على الايقاع السريع الذى تسير بها نغمة الحرب الدائمة بين القوى الثلاث . اذا لم يوجد ملايين العمال ككل ولا الطريقة التى يحافظ بها هذا المجتمع على تماسكه واستمراريته .

ان الهدف الاساسى للصراع العسكرى المعاصر ، هو استغلال نتاج الآلة ، دون رفع مستوى المعيشة للمجتمع الدولى (وهو هدف يعترف به ثم ينكر ، وفق عملية « ازدواجية العقيدة » التى يمارسها الحزب ممثلا فى العقول المخططة للتنظيم الداخلى) . فمنذ نهاية القرن التاسع عشر ، ظلت مشكلة الوسيلة التى يمكن بها تصريف الفائض من السلع الاستهلاكية ... ظلت هذه المشكلة ضمنية غير معلنه فى المجتمع الصناعى . لكن حاليا ، فى هذا العصر الراهن ، عندما نجد عدداً قليلا من الناس بالكاد لديهم مايكفيهم من الطعام ، فهذه ليست مشكلة ملحة ، ولم يكن لها ان تتحول الى مشكلة ملحة حتى اذا تغاضينا عن عمليات التدمير لطاقات العالم الغذائية . الحقيقة ان عالم اليوم هو عالم جائع ، عار ، متهدم اذا قارناه بعالم ماقبل ١٩١٤ ، بل تبدو الصورة الواقعية له الان مقارنة بالصورة الوردية التى تخيلها البشر منذ سبعين سنة ، أكثر قسوة .. ففى بداية العشرينات من هذا القرن ، كانت الرؤيا المتخيلة لما سيكون عليه المجتمع الانسانى فى المستقبل هى رؤيا للعالم وقد اصبح ينعم بالثراء ووقت الفراغ ، والنظام والكفاءة .. صورة براقة لعالم من زجاج وصلب وأسمنت فى لون الثلج .. تلك الرؤي التى كونت القاسم المشترك الاعظم بين مثقفى تلك الحقبة . فقد كان العلم والتكنولوجيا يحرزان تقدما رهيبا فى سرعته ، فكان من الطبيعى ان يفترض مفكرو تلك الايام ازدياد تطور هذا العالم وهذه التكنولوجيا بنفس السرعة أو اكثر . بيد ان هذا الافتراض لم يتحقق . من ناحية لان الحروب والثورات المتواصلة أفضت بالعالم الى فقر متواصل ، ومن ناحية أخرى لان التقدم العلمى والتكنولوجى يعتمد على انماط تفكير تطبيقية وعملية لم يتح لها النماء فى مجتمعات أخرى تميزت بالجمود الفكرى وعدم الرغبة فى التجريب . المحصلة النهائية لكل ذلك : ان اصبح العالم اليوم اكثر بدائية من العالم منذ ٤٠ سنة . لايمنع هذا ان بعض البلدان المتخلفة قد احرزت تقدما ، وان بعض المخترعات (خاصة تلك التى تخدم اهداف الصراع العسكرى وأعمال البوليس السياسى من قدرة على التصنت وخلافه ..) قد تطورت ، لكن مسار التجريب والاختراع توقف الى حد بعيد . وما نزل بالبشرية من آثار الهجمات النووية البربرية فى النصف الثانى من القرن العشرين مازال أثرا ممتدا . وحتى مع عدم تقدم التكنولوجيا كما يجب ، فان الاخطار الكامنة الاولى التى ظهرت فيها الالة

الى الوجود ، بدا لكل عقل مفكر ان الحاجة للجهد البشرى ، وبالتالى الى نوع من عدم المساواه بين البشر فى استغلال طاقتهم ، قد آن له ان يختفى . فلو ان الآلة كآلة قد استغلت وليس من هدف لها الا تحقيق هذا الغرض ـ رفع المعاناة عن الانسان ـ لا مكن القضاء على الجوع والمرض والجهل والاستنزاف لكافة البشر ، فى فترة لم تكن لتتجاوز أجيالا معدودة . بل ان الآلة ، عن غير قصد متعمد لبلوغ هذا الهدف ، بل كنتيجة لما وفرت من رخاء كان لابد ان يوزع على الناس استطاعت ان تحقق ارتفاعا بمستوى معيشة الانسان خلال الخمسين سنة فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين .

لكن ، بدا واضحا للعيان من ناحية أخرى ، ان امتداد اثر الثروة الناجمة عن استخدام الالة على نطاق واسع وتوزيعه على الجميع ، انما يهدد تركيبة المجتمع السيادى ذى الطبقات الهرمية من الادنى الى الاعلى . لاننا اذا تخيلنا فى النهاية ، أن يستمر بالفعل الانتفاع بنتاج الآلة للكل ، بحيث يصبح الانسان قادرا على ان ينعم بما يكفيه من الطعام ، وبساعات عمل اقل ، وبمنزل يؤويه ، وبه حمام وثلاجة كهربائية ، وأصبح يمتلك سيارة ، بل ربما طائرة ، اذن ماذا يبقى من صور التمايز بين الناس ؟ ان أهم صور التمايز والتفرقه الطبقية ستكون فى طريقها للزوال بسبب ما توفره الالة كآلة من رخاء يشمل الجميع . لان امتداد مظلة الرخاء لتحتوى الجميع ، سيقضى بالتالى على معظم صور التمايز بين البشر .

كان من الممكن ان نتخيل مجتمعا توزع فيه الثروه وضروب الرخاء على الجميع ، على ان تبقى السلطة محصورة فى ايدى قلة من نخبة متميزة . لكن التطبيق العملى لهذا التخيل لايضمن بقاء واستقرار هذه التركيبة الاجتماعية . لانك اذا منحت الفرد الأمن الغذائى والمعيشى ، بالاضافة الى وقت الفراغ ، فأنك تزيل الغشاوه عن جموع الشعب ككل ، وهى غشاوة يرسفون فى أغلالها بسبب الجهل ، وبسبب الحاجة ، الانسان اذا شبع وأستقر سيفكر لنفسه بنفسه ، وما ان يصل الانسان الى هذه المرحلة فسيكتشف حتما ان هذه القلة المتميزة لا تؤدى وظائف اجتماعية حقيقية ، باستثناء التسلط وبالتالى فالخطورة الحتمية التالية هى اكتساح هذه القلة والقضاء عليها . اى انه على المدى البعيد ، المجتمع الطبقى الهرمى البادىء من طبقات دنيا الى طبقات أعلى ، لايمكن ان يستمر بقاؤه الا باستمرار بقاء الفقر وعدم الوعى ، واذا استعرضنا مسار التاريخ وطالبنا بالعودة الى نسق المجتمع الزراعى ، كما كان يحلم ويفكر فى اوائل القرن العشرين ، لما وجدنا فى هذه الردة الحل العملى للقضية . لان رفض التقدم الآلى والصناعى والتمسك بالمجتمع الزراعى المتخلِّف

لايعنى الا وضعا يجد فيه اى مجتمع رفض التقدم الصناعى والآلى نفسه مجتمعا ضعيفا عسكريا وأقتصاديا ، ومن ثم عرضة للغزو من قبل مايحيط به من أطار متفوق صناعيا ، لان الرغبة البشرية فى استخدام الالة منذ ظهورها وتقدمها تحولت الى رغبة شبه غريزية ، فلا سبيل الى الانطلاق فى اتجاه معاكس .

وليس بحل عملى ايضا أن تبقى جموع الشعب فى حالة فقر مصطنع بتقليل نتاج الآلة . حدث هذا بالفعل فى نهاية مراحل الرأسمالية بالتقريب مابين ١٩٢٠ و ١٩٤٠ . اذْ تم تجميد حجم الانتاج العام فى اقطار كثيرة ، بل وتركت الارض دون ميكنه زراعية حتى يمكن الحد من انتاجيتها ، وتم وقف التقدم فى استخدام الآلة ، ومنعت قطاعات كبيرة من الشعب من ان تمارس حق العمل ، وأبقيت عن عمد تعيش على ماتهبه لها الدولة من معونة اجتماعية لكن هذا النظام أيضا ، وان كان قد ضمن سيادة الطبقة ، فقد أفضى من ناحية اخرى الى ضعف الدولة ككل ، عسكريا وماديا . وطالما كانت هذه القيود المفروضة ، مصطنعة بالفعل ، فالدفاع عن بقائها أصبح مستحيلا .. كانت المشكلة آنذاك معادلة صعبة . لان السلع يجب ان تنتج طالما وجدت آلة لانتاجها ، لكن نتاج الآله نفسه يجب الحد من مدى توزيعه حتى لاينتفع الكل فيشبع . الحل الوحيد لبقاء وضع شاذ كهذا هو استمرار استخدام العنف ، أى اللجوء الى الصراع العسكرى واللجوء الى السلاح .

ومعروف ان نتيجة الحرب هى الدمار . ليس دمار النفس البشرية فقط ، بل دمار جانب من الانتاج المادى بالمثل . فالحرب هى نسف للمبانى ، أو اغراق للسفن ، واعدام لمواد وسلع كثيرة ومتنوعة .. قد يستخدمها الانسان ـ اذا وزعت بالعدل ـ فى تحقيق رخائه . وبالرخاء يتحقق له الوعى على المدى البعيد . والوعى اذا وصل الى مرحلة معينة فلابد أن يفضى الى القضاء على الاستغلال . بل ان الاسلحة المختلفة المستخدمة فى الحرب ، حتى على فرض عدم تدميرها ، لها ميزة ، وهى انها تستنزف جهد وطاقة الانسان نفسه ، التى لو لم توجد الحرب ، لاتجهت الى مسار آخر .. وهو انتاج سلع تحقق الرخاء للجميع فبناء «قلعة عائمة» على سبيل المثال ، يتضمن بالتالى تشغيل الاف العمال فى جهد بشرى وصناعى ، يمكن ان ينتج فى السلم عدة مئات من السفن التجارية الصغيرة .. وهكذا .. ببناء قلعة عائمة اخرى تمتص جهد الاف العمال مرة اخرى . أى أن الحرب عمليا ، أو الجهد الحربى عموما ، هو وسيلة لامتصاص اى فائض فى طاقة الانسان العامل ، بعد ان يتحقق له انتاج ما يلزمه من ضروريات اساسية لمعيشته . وحاجة الانسان دوما من قبل الدولة ـ وفق هذه النظرية ـ يجب أن تكون أقل مما يكفيه

حقيقة . لانه اذا أستمر احساس المواطن بانه هناك عجزا فى مايقرب من نصف احتياجاته المعيشية ، لكان فى استمرار هذا الاحساس ميزة معينة . بل انه حتى بالنسبة للطبقات المميزة فى مثل هذا المجتمع ، فأنها تخضع لنوع من الحرمان . لانه فى هذا الجو الشامل بالحاجة ، اذا ألقينا للشعب ـ حتى بالفتات بعد ان تعود على الحرمان ، أو اذا حابينا تلك الفئة المميزة بقدر بسيط من الاكتفاء ، أو بنوع نادر من السلع لبدا هذا كثيرا فى نظرها بل صار مثارا للحسد والتفرق بين هذه الفئة وغيرها ـ الاحساس بالتمايز هنا نسبى ـ فلو قارنا بين المستوى الذى يعيش فيه حتى عضو «التنظيم الداخلى» نفسه ، وهو ما ينظر اليه كمثل اعلى فى حياة رغدة ، لوجدنا حياته مقارنة بالمستويات المعيشية السائدة فى النصف الاول من القرن العشرين ، حياة شظف ، بل حياة مجهدة وقاسية . لكن مع ذلك فأحساس العضو فى هذا التنظيم الداخلى هو احساس بالرفاه : بشقته المتسعة ذات الموقع الممتاز ، وملابسه من خامة أجود نسبيا وطعامه من نوع مميز نسبيا ، نوع شرابه وطباقه ، وبالخادمين أو الثلاثة القائمين على تلبية طلباته ، سيارته الخاصة أو طائرته الهيلوكوبتر ... كل هذا يثير لديه أحساسا بانه يعيش فى عالم وردى يختلف عن عالم سائر أعضاء الحزب العاديين . ونفس الشىء ينطبق على أحساس عضو الحزب العادى اذا قارن نفسه بما يعانيه المواطن العادى من غير أعضاء الحزب .. هؤلاء الناس ممن نطلق عليهم وصفا شاملا تحت أسم (البروليتاريا) . اذا ان الجو الاجتماعى السائد كله هو جو حرمان عام ، يصبح معه التمتع بقطعة معينة من لحم الحصان مثلا ، كمؤشر للفارق بين الحرمان والرخاء ومن ناحية اخرى .. استمرار حالة الحرب .. وبالتالى استمرار الاحساس بالخطر المحدق بالبلاد .. يجعل الامر طبيعيا ان تفوض البلاد أمرها لفئة قليلة كوسيلة وحيدة للحفاظ على وحدة القرار فى مواجهة العدو .

فالحرب ، بناء على ما عرضناه ، لاتحقق فقط هدف تدمير السلعة فقط ، بل انها لتحقق هذا الهدف فى اطار احساس نفسى شامل وعام ، بأن هذه هى الوسيلة المقبولة الوحيدة . نظريا كان من الممكن ببساطة امتصاص جهد الانسان الفائض فى بناء معابد او أهرامات او حفر انفاق وردمها مرة اخرى ، أو حتى بانتاج مختلف ضروب السلع . ثم احراقها . مثل هذا الاجراء لايحقق سوى الاساس الاقتصادى للمجتمع السيادى هرمى الطبقات ، لكنه لن يعتمد الاحساس النفسى الذى يقوم عليه . فالمقصود هنا كهدف نهائى ليس الروح المعنوية للطبقات الكادحة ، بل الروح المعنوية لرجال الحزب أنفسهم . ففى المجتمع السياسى مسموح حتى لاقل اعضاء الحزب شأنا بأن يقتنع بينه وبين نفسه

بأنه كفؤ ، نشط بل وحتى ذكى أيضا (فى حدود معينة لاينبغى ان يتجاوزها) . لكن الاهم ان تبقى اتجاهاته الرئيسية هى الخوف والحقد وعبادة الفرد ، والتفاخر بالانتصارات الاسطورية .. فى نمط عقائدى متعصب ومؤمن بكل مايلقى اليه عبر وسائل الاعلام . أى باختصار يجب ان يبقى فى نمط التفكير الموائم لحالة الحرب المستديمة . لايهم بعد ذلك ان الحرب قائمة بالفعل والقتال مشتعل ام لا . وطالما ان ميزان القوى ليس فى صالح قوة عظمى على حساب الاخرى ، فليس مهما الوصول الى نصر حاسم ، ولن تكون كارثة بالنسبة له حتى لو منى الجيش بهزائم جزئية . الهدف فى النهاية ان تكون هناك دوما حالة حرب . مايطلبه الحزب فى جو مثل هذا ، ونظرا لضرورة استمرار الحرب لتحقيق اهدافها السابق ايضاحها ... مايطلبه الحزب ، هو نوع من انقسام فكرى فى عقل اعضائه .. أنقسام يحققه الحزب بسهولة بسيادة جو الحرب المحموم والشامل لأرجاء المعمورة . لكن

هذا الانقسام يبدو ملحوظا بصفة خاصة كلما ارتفع العضو فى مرتبة الحزبية ، وعلى وجه التحديد (فى التنظيم الداخلى) تصل هستيريا الحرب وكراهية العدو الى ذروتها . فعضو التنظيم الداخلى بصفته أحد أعضاء الحزب الحاكم يتسنى له بالضرورة ان يكتشف حقيقة ان هذا الخبر أو تلك الواقعة غير صحيحة ولم تحدث . أو أية موقعة حربية أو قتال شامل هو فى الحقيقة امر مزيف ، أو أن الحرب فى جبهة ما ليست مشتعلة كما أذيع .

أو يتسنى له ان يطلع على الأسباب الحقيقية لعمليات عسكرية تتم لاغراض مخالفة تماما للاهداف المعلن عنها . لكن كل هذه المعلومات يتم تحييدها فى عقله بعملية (ازدواجية الفكر) التى اعتاد نمط تفكيره عليها ، اذ ان داخل عقل كل عضو فى هذا التنظيم الداخلى عقيدة شبه دينية راسخة ، ان (اوشانيا) حتما ستسود العالم ، فلا تخالجه ذرة شك فى ان الحرب قائمة فعلا ، وأنها ستنتهى بالبلاد الى النصر النهائى المؤزر .

جميع أعضاء التنظيم الداخلى على يقين راسخ من هذا النصر الحتمى القادم ، كمبدأ وكعقيدة ، لاتقبل الجدل . وهذا النصر سيتحقق اما بالاكتساب الدائم لأراض جديدة وضمها «لاوشانيا» ، وبالتالى الوصول الى قوة عسكرية سياسية هائلة ليس من الممكن الوقوف امام سطوتها أو عن طريق اكتشاف نوعيات جديدة من اسلحة مبتكرة لا سبيل لوقف تأثيرها المدمر . والبحث الدؤوب عن نوعية متقدمة من الاسلحة الفتاكة ، يظل مستمرا دون توقف ، وهو يكاد يكون المجال الوحيد الذى يتحقق من خلاله للعقلية الابتكارية أو التخيلية ان تمارس نشاطها الخلاق . ففى (اوشانيا) فى هذا العصر ، العلم ،

بمفهومه القديم كوسيلة مجرده للبحث ، قد انتهى ، وفى اللغة الدولية الجديدة لاتوجد كلمة (علم) . المنهج العلمى التجريبى للتحقق من أى فرض نظرى ، هذا النمط الذى يعتبر أساس الفكر العلمى فى السابق ، هو نمط يتعارض اساسا مع المبادىء الاساسية لـ (الانجشاك) . بل ان التقدم التكنولوجى لايتم بصورة رئيسية ، الا عندما يؤدى هذا التقدم الى انتاج وسائل اكثر تطورا لتستخدم فى زيادة القيود على الحرية الفردية للمواطن .

أما فى سائر الفنون الحرفية النافعة الاخرى ، فالمستوى اما ثابت أو يتدهور . فالحقول مثلا يتم حرثها بواسطة الخيل ، بينما الكتب يتم انتاجها آليا . غير أنه فى المجالات الاكثر حيوية بالنسبة للدولة أى فى مجالى الحرب ، والتجسس على سلوك الفرد ، وفكره ، فان النمط العلمى التجريبى مازال مطبقا بهدف التوصل الى وسائل اكثر تطورا .. أو على الاقل فى هذين المجالين لا يواجه المنهج العلمى ، معارضة جاده .. لذلك فان الهدفين الرئيسيين للحزب هما :

غزو العالم كله . والقضاء قضاء مبرما على أى امكانية للتفكير المنطقى المستقل .

ومن ثم كان على الحزب ان يتعرض لمشكلتين بغرض حلها : الاولى هى كيف يكتشف الحزب ما يدور داخل عقل الانسان ، حتى ان لم يرغب هو أن يفصح عن نوعية فكره . والهدف الاخر كيف نصل الى نوعيات متقدمة من الاسلحة الفتاكة .. قادرة على أباده عدة ملايين فى وقت أقصر ودون أنذار مسبق ..

فى هذين المجالين فقط .. مسموح بالتقدم العلمى ان يشق طريقه . ورجل العلم اليوم : أما أن يكون مزيجا من العالم النفسى والباحث الذى يدرس بدقة بالغة أقل ايماءات التعبير الانسانى ، وأدنى طبقات الصوت البشرى ونبراته لاكتشافه أغوار هذا أو ذاك ، يجرى تجاربه على عقاقير انتزاع الحقيقة أو العلاج بالصدمة ، والتنويم المغناطيسى وأبعاد التعذيب التعس لاستخلاص المعلومات . أو هو اليوم ، من ناحية اخرى كيميائى أو من رجال الابحاث فى الفيزياء أو علم الأحياء ، تخصصه الرئيسى فى تلك الموضوعات المتعلقة بالطرق المثلى للقضاء على الحياة الانسانية . ففى المعامل الضخمة لوزارة السلم ، وفى المحطات الاضخم المقامة فى الغابات البرازيلية وفى الصحراء الاسترالية وفى المناطق القطبية فرق كاملة من الباحثين يعملون دون كلل فى هذا المجال . وقد تخصص بعضهم ، فى تخطيط وسائل نقل الجنود والمعدات للحروب القادمة . بينما الفريق الاخر تخصص فى تصميم صواريخ وقذائف ذات قدرة تدميرية اكبر ومدى قذف

أبعد . وفريق ثالث ، يعمل فى تطوير نوعيات المتفجرات بغرض زيادة طاقتها التفجيرية ، وفريق آخر فى تطوير الهياكل المعدنية للمعدات الحربية بمعادن غير قابلة للاختراق . وباحثون تخصصوا فى الحرب الكيميائية لانتاج غازات اكثر سمية ، ومساحيق قادرة على القضاء على المحاصيل لقارة كاملة بأن تولد جراثيم قادرة على مقاومة كافة أنواع المضادات الحيوية . وفرق اخرى تخصصها البحث الدؤوب لتصنيع أجهزة حربية بامكانها السير تحت سطح الارض بنفس قدرة سير الغواصة تحت سطح الماء ، أو تصميم طائرة تستطيع الانطلاق دون حاجة الى قواعد جوية ، وبنفس القدرة على المناورة للسفينة العادية . والبعض الاخر يبحث احتالات مستقبلية لاستغلال الطاقة الشمسية فى الاغراض الحربية بتجميع اشعة الشمس الحارقة بتركيز شديد بواسطة عدسات ضخمة على ارتفاع يبعد عن سطح الارض بالاف الكيلو مترات .. أو باحداث زلازل صناعية أو أعاصير مصطنعه ، عن طريق التوصل لمنابع الحراره فى قلب الكره الارضية ثم التحكم فيها .

لكن أيا من هذه المشاريع لم يقترب حتى الان من احتال التحقق الفعلى ، ولم يتسن لاى من القوى الثلاث ان يتفوق على القوتين الاخريين فى هذا المضار . الملحوظة التى تستوقف النظر ان كل قوة عظمى تمتلك من القنابل الذرية وهى سلاح أقوى من أى سلاح يمكن أن تكتشفه الأبحاث الدائرة الآن . وبرغم دعوى الحزب كالمعتاد أنه قد اخترع كل شيء فالقنبلة الذرية ، قد اكتشفت فى حقيقة الامر فى زمن مبكر يرجع تاريخه الى اوائل الاربعينات ، ثم استخدمت على نطاق واسع كسلاح تدميرى ، بعد هذا التاريخ بعشر سنوات . فى هذه الحقبة من تاريخ البشرية اسقطت عدة مئات من القنابل الذرية على المراكز الصناعية خاصة على الاقطار الاوروبية من روسيا ، وعلى بلدان اوروبا الغربية ، وأمريكا الشمالية . وكان تأثير تفجير هذه القنابل هو اقناع الجماعات الحاكمة فى جميع الدول ، ان إلقاء عدة قنابل ذرية اخرى معناه القضاء المبرم على المجتمع الدولى كله ، وافناء أى مجتمع منظم ، ومن ثم فناء الجميع . بعيد ذلك التاريخ ، وبالرغم من عدم ابرام اية اتفاقيات أو الإشارة اليها ، توقف بالفعل استخدام القنابل النووية .

لكن كل قوة من القوى الثلاث استمرت فى انتاج مزيد من القنابل الذرية وتخزينها ، انتظارا للفرصة الحاسمة المواتية التى تعتقد كل قوة من القوى الثلاث انها آتية دون ريب .

خلال هذه الفترة ـ فترة الاستعداد ـ فان « فن الحرب » ظل فى حالة توقف أو جمود زهاء الاربعين سنة واستخدمت فيها طائرات الهيلوكوبتر بنسبة اعلى من استخدامها فى السابق . ولم يعد الاعتماد على القاذفات المقاتلة ، بل على القاذفات المروحية ١ وأفسحت القطع البحرية المعتادة الطريق الى تلك القلاع العائمة غير القابلة تقريبا للاغراق . لكن فيما عدا هذين التطورين لم يتحقق تقدم يذكر فى مجال تقدم الاسلحة التقليدية . فالمدرعة ، والغواصة والطوربيد ، والمدفع الرشاش ، وحتى البندقية والقنبلة اليدوية مازالت تستخدم بنفس النمط السابق . وعلى الرغم من قائمة الضحايا الذين يتساقطون نتيجة المعارك الدائرة دون توقف والتى تذاع عبر أجهزة السينما التليفزيونية أو تنشرها الصحافة ، فان المعارك الطاحنة المميزة للحروب السابقة حيث كان يبلغ عدد الضحايا عدة الاف بل عدة ملايين ... هذه المعارك لم تتكرر ثانيه .

نجم عن هذا أن أى قوة من القوى العظمى أصبحت لا تخاطر بحرب شاملة قد تواجه فيها احتمال الهزيمة . وكل المعارك التى تشتعل على نطاق واسع ، لاتعدو أن تكون هجوما مباغتا على احد الحلفاء السابقين ، أو انحيازا لعدو الامس . والاستراتيجية التى تتبعها كل قوه ، أو بالاحرى تدعى لنفسها أنها تتبعها ، هى نفس الاستراتيجية المتبعة لدى الآخرين اما الخطة المتبعه لتحقيقها فتكاد تكون واحدة . فعن طريق القتال والمفاوضات والهجمات المباغتة والغادرة ، تتمكن كل قوة من اكتساب أو اكتساح عدة اقطار تقيم فيها سلسلة من القواعد الحربية لمحاصرة القوة الاخرى ، أو القوى الاخرى ، لتوقع مع الدول المغار عليها (معاهدة صداقة) . ارغامها على أن تتحول من معادية الى صديقة ، وتستمر حالة التحالف لفترة كافية لازالة اثار الشكوك والعداء السابق . وتستغل فترة الصداقة هذه فى تغطية المواقع الاستراتيجية فى تلك الاقطار ، بمنصات اطلاق قذائف ذات رؤوس نووية ، يتم نقلها اليها على فترات ، والهدف النهائى بالطبع هو انتظار اللحظة المرتقبة التى يمكن فيها اطلاق هذه الصواريخ النووية كلها مرة واحدة على الخصم بغرض شل قدرته على الرد على الهجوم النووى الذى تخطط له كل قوة عظمى بنفس الطريقة وعلى نفس المستوى .

لكن هذا الهدف النهائى ، بهذا التخطيط من الواضح تماما انه هدف مستحيل التحقيق ، كأحلام اليقظة . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فمعظم الأقطار التى تدور على ارضها هذه المعارك لاتخرج عن مناطق خط الاستواء والمناطق القطبية . ولم يقع حتى

الان غزو حقيقى لأراض تقع فى قلب هذه القوة العظمى أو تلك . وهو امر يوضح ان الحدود بين هذه القوى هى حدود صارمة وغير قابلة للتغيير فى مناطق كثيرة منها . (فأوراشيا) بامكانها مثلا أن تغزو الجزر البريطانية التى تعتبر جغرافيا جزءاً من اوروبا ، أو من ناحية أخرى بامكان «أوشانيا» أن تدفع بحدودها الى مشارف الراين أو حتى تتوغل الى فيستيولا . لكن مثل هذا الغزو سيعتبر خرقا للعرف السارى والمعقود أو المتبع بين تلك القوى ، وهو عدم مساس الوحدة الحضارية لاراضى كل منها . فلو ان «اوشانيا» غزت تلك الاراضى التى كانت تسمى فى يوم ما فرنسا أو المانيا ، لكان عليها ان تبيد نهائيا اهالى تلك المناطق ، وهم يبلغون المائة مليون تقريبا ، وهو عمليا امر غاية فى الصعوبة ، أو أن تمتص أراضيها نفس العدد وهو أمر أصعب . نفس المشكلة قائمة بالنسبة للقوتين الاخريين .

هذا الوضع أدى بالضرورة ، الى أنه لكى تحتفظ كل قوه عظمى ببنيتها وهيكلها الاساسى ، ألا يتم أى أتصال بينها وبين أجانب من خارجها ، فيما عدا الاتصال المحدود بالطبع ، بالاسرى والعبيد الملونين . فحتى حلفاء اليوم ، يجب ان ينظر اليهم بأقصى حد ممكن من الحذر الواجب تحسبا للمستقبل . فبعد عزل أسرى الحرب فى (اوشانيا) مثلا ، لا يمكن لمواطن من مواطنيها أن يتعامل بأى صوره من الصور مع مواطنى أوراشيا أو (أستاشيا) ، وممنوع على مواطنيها ان يدرسوا لغات هؤلاء الاجانب . والهدف من هذا المنع منطقيا ، أنه لو سمح لمواطنى أى من تلك القوى العظمى ان يحتفظ بسائر مواطنى القوى الاخرى لاكتشف ان اهلها اناس عاديون .. بشر مثلهم .. لهم نفس الامال .. ويعانون من نفس المخاوف .. ان معظم مايقال لهم عن طريق وسائل الاعلام هو مجرد مجموعة منسقة من الاكاذيب . فالعالم المغلق المحكوم به على المواطن فى أقطار كل قوه عظمى ، عرضة للانفتاح لو تم له الاتصال بمواطن الاقطار الاخرى المعادية ، مما يؤدى الى انهيار تلك الدوافع التى تنمو فيه من كراهية وخوف وأحساس زائف بأنك انت الوحيد على حق ، وتدافع عن قضية عادلة .. هذا لو تم سيؤدى الى انهيار الروح المعنوية والقتالية للمواطن . وقد أدى هذا الى ان يرسخ .. ذلك الحصار الفكرى لكل قوة على عقول مواطنها .

ليس مسموحا الا بتراشق القنابل ، لا الافكار . لان الافكار اخطر .

في ظل هذا الجو السائد ، برزت حقيقة ، لم يكن ليقدر لها أن تعلم لمواطن أى من القوى الثلاث ، وهى ان الظروف المعيشية داخل اقطار أى من تلك القوى هى تقريبا نفس الظروف .. فى أوشانيا مثلا .. الاساس المحرك لتلك الظروف المعيشية هى تعاليم (الانجشاك) . فى (اوراشيا) تجد (البلشفية الجديدة) . اما فى ايستاشيا فتجد الاساس فيما يسمى بـ (أفناء الذات) أو السلام النابع من غريزة الموت . وكمثال على ذلك فليس مسموحا لمواطن « أوشانيا » الاطلاع على مضمون الاساس العقائدى أو الفكرى للقوتين الاخريين . والذى تلح عليه وسائل الاعلام ، هو ان الافكار السائدة خارج « اوشانيا » هى شطحات همجية تنتهك اخلاقيات الانسان ورجاحة عقله . بينما فى الواقع انه ليس هناك فارق حقيقى يمكن ان تمايز به الاساس الفكرى بين القوى الثلاث . كما ان الانظمة الاجتماعية التى تفرزها تلك الاسس الفكرية فى كل منها ، من الصعب أن تجد اختلافا أساسيا بينها . فداخل أقطار كل من تلك القوى العظمى تجد نفس البناء الهرمى المتصاعد للسلطة ، ونفس الاتجاه لعبادة الفرد .. الزعيم الذى تكاد النظرة اليه تبلغ حد التقديس والتنزيه ، ونفس النمط الاقتصادى الذى يعتمد فى بقائه على استمرارية الحرب .

تأسيسا على ماسبق ، فان الحقيقة المجرده هي : أن أيا من القوى الثلاث ، ليس فى مقدورها غزو القوتين العظميين الاخريين . بل ان هذا الغزو على افتراض نجاحه ، لن يحقق ، للمنتصر مكسبا حقيقيا بل على العكس ، ان بقاء الصراع دون حل بينهم ، فيه أستثارة لقواهم الداخلية . وكالعادة نجد الطبقة الحاكمة فى كل منها لديها الوعي ، وعدم الوعي - فى امة واحدة - بما هى مندفعة اليه من قتال . حياة تلك الطبقة الحاكمة مكرسة لاتمام هذا الغزو الكامل لكل ارجاء المعمورة . لكن فى داخلهم يترسب ذلك الاحساس الدائم بأن من مصلحتهم أن تستمر الحرب بينهم الى الابد .. دون أن يتحقق نصر نهائى لاى منهم . الى ان يتحقق هذا النصر الذى لن يتم ، فان هناك شبه عرف له قوة تفوق قوة السلاح أن لا يتم غزو شامل داخل أراض أساسية لأى من القوى الثلاث . هذه الحقيقة تجعل بالامكان الوصول الى (نفى الحقيقة) وهى تلك السمة الغالبة بصفة خاصة فى تعاليم (الانجشاك) . وهى سمة (أن تتقبل الحقيقة ، وماينفى الحقيقة فى آن واحد) وهى واضحة بالمثل فى الاساس الفكرى للقوتين الاخريين . فى هذا المقام يحسن ان نعيد ماقيل فى السابق بان استمرارية الحرب قد أدت الى تغير فى طبيعة الحرب ذاتها . لأن مفهوم (الحرب) فى الماضى ، كان يعنى حدثا طارئا غير مادى سيستمر لفترة تطول أو تقصر ، لكنه

حدث طارىء له نهايته ، سواء هزيمة كاملة أو نصر كامل لهذا الطرف أو ذاك . الحرب فى الماضى أيضا كانت أحدى الوسائل التى يقترب فيها الانسان من الحقيقة المادية البارزة ، فكل الحكام فى الماضى عبر العصور المتوالية حاولوا جاهدين فرض وجهات نظرهم ـ وبعضها ضال ومضلل ـ على أتباعهم . لكن أيا منهم لم يحاول ان يخدع نفسه بأن يستبعد القوة العسكرية كوسيلة لها أقصى حد من الكفاءة لفض الرأى المعارض . الحرب فى الماضى كانت تعنى ان تفقد استقلالك أو أن يترتب عليها نتائج لها نفس قسوة ضياع الاستقلال . بالتالى كان الحرص على الا يفقد البلد المحارب فرصة النصر الذى ينهى الحرب ، فالكل يعرف ثمن الهزيمة . الحقائق المادية لايمكن انكارها فى الحرب . من الممكن التحايل على الحقيقة فى مجال الفلسفة ، أو الدين او الاخلاقيات ، أو السياسة ، كأن ندعى مثلا ان حاصل جمع ٢+٢= ٥ مثلا بطريقة أو أخرى . لكن فى الحرب ، عندما تصنع بندقية أو تصنع تصميا لطائرة فان ٢+٢ لابد ان تساوى اربعة . والأمم التى لم تصل الى كفاءة عقلية معينة ، كتبت عليها الهزيمة فى الحرب . هذا الحرص على أحراز اكبر قدر من الكفاءة العقلية ، لايحتمل الارتكان الى أى صورة من صور الخداع النفسى أو الوهم . كما ان الكفاءة تعنى بالضرورة الاستفادة من دروس الماضى ، بمعنى انه يجب ان تكون لديك فكرة سليمة ودقيقة عما حدث فى هذا الماضى . حقيقى ان الصحف وكتب التاريخ لايمكن ضمان عامل الحيدة فيها تماما ، لكن أن يصل التزوير أو التزييف الى الدرجة التى وصل اليها فى عصرنا الحاضر كان مستحيلا فى الماضى . اذ أن الحرب كانت بمثابة الحارس على اتباع الأسلوب العقلانى فى الحياه . لأنه الأسلوب الذى يضمن رد الاخطار المادية . بالنسبة للطبقة الحاكمة . فى الماضى كانت الحرب هى اكثر الوسائل ضمانا لبقائها فى الحكم لان نتيجة الحرب كانت تحدد فى الغالب مصير هذه الطبقة الحاكمة .

لكن ما ان نصل الى مرحلة تتحول فيها الحرب الى عملية مستمرة ، حتى نجد أن الحرب نفسها لم تعد لها نفس الخطورة على الطبقة الحاكمة . لان أستمرارية الحرب تستتبع ألا تكون هناك حاجة ماسة لما يسمى بضرورات عسكرية . التقدم التكنولوجى نفسه من الممكن ان يتوقف ، وأكثر الحقائق وضوحا كشىء ملموس من الممكن انكارها أو تخطيها . وكما أوضحنا من قبل ، فالأبحاث التى يمكن وصفها بأنها أبحاث علمية مازالت تتم لتخدم الحرب ، لكنها فى حقيقتها نوع من أحلام اليقظة . فشل هذه الأبحاث فى الوصول الى قدر معين من النتائج ، ليس له نفس الخطورة التى كانت تترتب عليه فى الماضى . حتى الكفاءة .. الكفاءة القتالية ، لم تعد مطلبا ملحا . الكفاءة ليست مطلوبة كضرورة الا

على مستوى البوليس السياسى . لأنه اذا كانت كل قوة من القوى العظمى الثلاث غير قابلة بالفعل للهزيمة النهائية ، فان معنى هذا عمليا : ان كل قوة عظمى قد تحولت الى عالم قائم بذاته . داخل هذا العالم من الممكن ان تتم كل الأشكال المتصورة لقلب الحقائق والتعدى على الواقع . تبقى الحقائق الواقعية فقط كمطلب ملح فى مجال تلبية الحاجات اليومية الاساسية : كالحاجة للطعام والشراب ، والمأوى والملبس ، فى كيفية التهرب مثلا من ابتلاع السم فى الطعام أو كيفية تفادى من سيقذف بك من نافذة فى آخر دور فى العمارة .. الخ . أى أن حاجاتك الاساسية الغريزية فى الحياة .. تلبية لغريزة شاملة ، هى حب البقاء مسموح لك باحساس واحد شامل وهو ان تفرق بين احساسك بالسرور وأحساسك بالالم ، أو بين احساس الموت .. والاحساس بالحياة ... لكن هذا هو الاحساس الوحيد الحقيقى . فالانسان فى (اوشانيا) وقد قطعت اواصر علاقته مع الماضى ، وبحقائق العالم الخارجى ، أصبح فى وضع شبيه بانسان يسبح فى الفضاء ، ليس بوسعه أن يدرك فى أى اتجاه يسير . حكام مثل هذا الكيان الضخم لابد أن تكون سطوتهم كاملة ، سطوة لم يبلغها الفراعنة فى جبروتهم ، ولا القياصرة فى أوج سلطانهم . لكن مع ذلك فهناك مواقف موضوعية يجب ان يواجهها .. حقيقى ان الحاجة تضطرهم الى عدم السماح بان يصل الامر الى حد المجاعة بين البروليتاريا لان فى هذا خطراً على النظام . وعدم الاخلال بميزان القوى بين (اوشانيا) وجاراتها من القوتين العظميين ضمان لاستمرار الوضع القائم .. لكن ما ان يتحقق ذلك حتى يأخذوا فى ليِّ ذراع الحقيقة بأى شكل يريدون .

ومن ثم كانت الحرب الحالية ، اذا نظرنا اليها بمقاييس الحروب فى الماضى ، هى لون من ألوان الخداع . كقتال بين نوعين من الحيوانات ، قد صممت قرونها بزاوية لاتسمح لأى طرف ان يصيب الاخر فى مقتل . الحرب حاليا بوضعها الحالى ، ليست حربا حقيقية . لكن هذا لايعنى مطلقا .. أنها حرب بلا هدف واقعى . ان أغراضها تتلخص فى أنها تستهلك بالفعل السلع الفائضة عن ناتج الجهد البشرى ، وتساعد على أبقاء الناس فى حالة ذهنية معينة ، يتطلبها المجتمع السيادى أو الطبقات الهرمية ، من أجل بقائه . الحرب كما أتضح الان ، هى حل لوضع داخلى ، وليست اتقاء لخطر خارجى . ففى الماضى كانت الطبقة الحاكمة فى هذه الدولة أو تلك تحارب ضد طبقة حاكمة فى قطر معاد . اما الان فالوضع أختل . الحرب أساسا هى بين الطبقة الحاكمة ورعاياها . ليس الهدف الان ان نقهر عدوا خارجيا ، بل ان نحافظ على تماسك الكيان السياسى .. التسلطى القائم داخليا .. كلمة (حرب) نفسها الان أصبحت تشير الى مفهوم مضلل . الاصح ان نقول

ان القتال ، بسبب كونه قتالا هو دائم ومستمر . لأن الحرب - كحرب - لم يعد لها وجود . ان ماكانت تسببه الحرب من ضغوط على الانسان ما بين العصر النيوليتى وبداية القرن العشرين ، قد أختفت ، حل محلها شيء مخالف تماما . بل أن أثر الحرب لن يتغير بتغير الوضع السياسى العالمى كله ، مع افتراض اتفاق بين القوى العظمى ترتضى كل منهما بمقتضاه ان تعيش فى سلام دائم فيما بينهما . لأنه فى كلتا الحالتين : كل قوة عظمى هى عالم مستقل بذاته ، قد حقق أكتفاء ذاتيا وقد أبتعد نهائيا عن الاحساس بالخطر الخارجى . السلام الدائم اذا قدر له ان يكون دائما فى يوم مافسيفضى الى نفس نتيجة الحرب عندما تكون دائمة . وهذا هو المعنى الخفى (الذى لايدركه معظم اعضاء الحزب الا بمستوى جزئى) الذى يكمن فى شعار الحزب المرفوع :

الحـــــرب هـــي الســـلام

توقف وينستون برهة عن القراءة ، اذ قطع حبل أفكاره صوت قذيفة صاروخية على المدى البعيد . لم يزايله بعد الاحساس الشجِّي بأنه يتمتع بوحدته ، وأنه يقرأ كتابا فى عزلة تامة . هذه العزلة وهذا الاحساس بالامان كانا بمثابة مشاعر حسية بالنسبة له ، تختلط بما يستشعره من أرهاق جسدي ، ومن نعومة ملمس المقعد الذى يحتويه ، وملمس النسمة الرقيقة تداعب وجهه بعد ان تتلاعب بستائر وكره الهادىء .

أخذ الكتاب بلبه . هذا الكتاب رائع . أو بمعنى آخر أكد مضمونه المعانى التى كانت تجول فى خاطره ، وتبحث عن أطارها ، وان كان مضمونه فى الواقع .. لم يضف جديدا الى ما يعرفه هو ، وما جال فى ذهنه من قبل . لكن هذا السبب نفسه هو سر أعجابه بالكتاب . لأنه يقول مثلا ما أراد هو أن يقوله اذا قدر له أن يلملم شتات أفكاره ويبلورها . مضمونه نتاج لعقل مشابه فى طريقه تفكيره لعقله هو لكنه عقل أكثر تعمقا فى نظرته الثاقبة أو أكثر تنظيما فى طريقة عرضه ، ثم أقل خوفا فى التعبير مما يريد أن يقول : ولذلك وجد نفسه يقول وعيناه شاخصتان الى سقف الغرفة : (أن أعظم الكتب ، هى تلك التى تعبر لك عن أشياء تعرفها أنت بالفعل من قبل) .

كان على وشك تقليب صفحات الكتاب للعودة الى الفصل الاول ، حين سمع وقع خطوات جوليا على السلم ، فانتزع نفسه من جلسته المريحة فى كرسيه ليقابلها . فما أن

دخلت حتى القت بحقيبها على الارض وأرتمت بين ذراعيه ، وكان قد مضى أكثر من أسبوعين لم تره خلالها . وقبل أن ينهيا عناقهما قال :

ـ : لقد حصلت على الكتاب

ـ : هل حصلت عليه حقا ؟ حسنا

أجابت دون أن تبدى ذلك الاهتمام الذى توقعه منها ، وما لبثت أن أنحنت على الموقد تشعله لتعد القهوة المعتادة .

لم يتطرقا لموضوع الكتاب ثانية الا بعد نصف ساعة عندما قفزا متجاورين إلى الفراش . كان الجو هذا المساء دافئا الى الحد الذى سمح لهما بالاستغناء عن البطانية والاكتفاء بملاءة السرير . ومن الشارع والمدخل أسفل النافذة كانت تصلهم الاصوات المعتادة من الغناء ووقع الاقدام على الطريق ، وتلك المرأة الضخمة ذات الذراعين قانيى الاحمرار ، التى أصبحت بالنسبة لهما جزءاً لا يتجزأ من الفناء ، كما لو كانت أحد معالمه المميزة . يظهر انها منذ زمن قد اعتادت ان تقطع أرضية الفناء طوال ساعات فترة ما بعد الظهيرة ، مابين اناء الملابس المغسولة وحبل الغسيل المشدود ، تنهمك يوميا بين عملية النشر ، مع نشر نفس الاغانى التى ترددها بصوتها الجهورى مع بعض التبديل ، اذ كانت تغنى أغانى خارجه ، احيانا .

عدلت جوليا من وضعها بجواره ، طوت ذراعها ووضعت رأسها عليه وأخذت وضع الاستعداد للاستغراق فى النوم ، وعندئذ مد وينستون يده وتناول (الكتاب) الموضوع على الارض ، وأسند ظهره الى ظهر السرير ليواصل القراءة ، بعد أن أنتهى من متعة الجنس .

«يجب أن تقرئى هذا الكتاب يا جوليا أنت أيضا .. يجب فعلا أن تعرفى مابه .. كل أعضاء جمعية «الاخوة» يطلعون عليه»

«كل أعضاء (الاخوة) اطلعوا عليه ...

أجابته وعيناها مغمضتان ، وبنفس طريقتها اللذيذة :

ـ أقرأه أنت . أقرأ بصوت عال . هذه أفضل طريقة بالنسبة لى . ثم وأنت تقرأ أشرح لى الكلام الذى لا أفهمه بالتدريج أثناء القراءة .. وعلى مهلك عليَّ .. الدنيا لن تتقوض ..

عقارب الساعة تشير الى السادسة . بقى متاحا لهما ثلاث أو أربع ساعات قبل وقت الانصراف . فأسند الكتاب الى ساقيه بعد أن جذبها اليه وبدأ يقرأ :

الفصـــــــل الاول

فـــي الجهـــــل ... قـــــــوة

خلال حقبة التاريخ المسجل ، وربما منذ نهاية العصر النيوليثى يعيش على وجه البسيطة ثلاثة انواع من البشر . الجنس الراقى .. والمتوسط .. والمنحط . هذه الانـواع الثلاثه تفرعت الى تقسيمات متعددة تحمل اسماء لا حصر لها . أختلفت هذه التقسيمات فى عددها ، وفى أتجاهات هذه الشيعة ضد الاخرى ، باختلاف كل حقبة زمنية ، لكن بقى فيها جميعا .. التركيب الاساسى للمجتمع .. ثابتا دون تغيير . وحتـى بعـد عديـد من الثورات والفورات والتغيرات التى بدت لاول وهلة وكأنها غير قابلة للالغاء ، ظل نفس النمط من التركيبة الاجتماعية واحدا ، كجهاز الجيرو فى الطائرة يعدل من نفسه دوما .. ليرتد الى نفس الاتجاه الاساسى الثابت ..

توقف ليسألها :

- جوليا ... هل أنت يقظة ؟..
- نعم ياحبيبى ، ومنتبهة أيضا ..

ثم أضاف :

- فلنستمر فى القراءة . ان هذا الكتاب رائع ..

عاد ليكمل القراءة :

أهداف هذه الجماعات الثلاث متباينة تماما .. فهدف الجماعة العليا هو أن تبقى فى نفس وضعها المتميز وهدف الجماعة الوسطى ان تقفز الى مكانة الجماعة العليا بينما هدف الجماعة السفلى ، عندما يتضح لها هدف أصلا ، هو القضاء على كل صور التفرقة بهدف خلق مجتمع يتعايش فيه كل الناس فى مساواة كاملة . (وان كانت الطبقة السفلى مشغولة عن ادراك هدفها هذا بهموم العيش فقط ، فهى تحيا كطبقة مطحونة لاتسمح لها ظروف معيشتها بفرصة التفكير باستمرار فى هدف أسمى يتجاوز مشاغل حياتها اليومية الملحة) .

نحن فى الواقع نجد هذا النمط من الصراع ، يتكرر عبر حقب التاريخ المتواليه ، نمط له نفس الخطوط العريضة التى اسلفنا شرحها ، وأن أختلفت فى التفاصيـل . يستمـر المجتمع العلوى أو الجماعة العليا لفترة طويلة مستمتعة وآمنة على مركزها القوى المتميز .

لكن ان عاجلا أو آجلا سيأتى وقت تجد هذه الجماعة نفسها فيه وقد فقدت ، اما أيمانها بقدرتها المسيطرة ، أو كفاءتها كقوة مسيطرة ، أو الاحتمالين مجتمعين . عندئذ يتم ازاحتها عن مكانتها القابضة والمتحكمة لتفسح الطريق لزحف الجماعة الوسطى التى ترفع شعار الدفاع ضمنيا عن مصالح الجماعة الدنيا . زاعمة أنها تقاتل لارساء قواعد العدل والحرية . لكن هذه الجماعة الوسطى ، ما أن يتم لها بلوغ أهدافها بالقفز الى السلطة ، حتى تعيد الجماعة الدنيا الى وضعها السفلى كتابع لها .او ارجاعها الى نفس دورها الاجتماعى السابق وهو القيام على خدمة الطبقة الجديدة التى تتبوأ مكانة الطبقة العليا السابقة ، وتصيح هذه الجماعة الجديدة هى الطبقة العليا فى ثوب جديد . وما تلبث أن تظهر فى ظل هذا الوضع المتطور طبقة وسطى وليدة وجديدة تنسلخ عن الطبقتين العليا والدنيا معا ليبدأ نفس النمط من الصراع مرة أخرى . واضح أنه من بين الجماعات الثلاث ، فان الجماعة الدنيا هى الجماعة الوحيدة فى الثلاث التى تخفق فى تحقيق هدفها البعيد وهو المساواة الكاملة . لكن من المبالغة ان يقال ان هذه الطبقة ـ عبر هذا التاريخ الطويل ـ لم تحرز تقدما ملموسا .. حيث العدل الاجتماعى . فحتى الآن ـ فى هذا العصر الذى نعتبره عصر ردة عن الطريق السليم ـ فالانسان يتمتع الى حد ما بنوع من الحياة المادية تفضل مستواه منذ بضعة أجيال مضت . لكن لا التقدم فى مستوى الدخل المادى ولا الرقى فى السلوك الانسانى ، ولا كل سبل الاصلاح أو الثوره ، قد قربت بالفعل الهدف النهائى ، وهو تحقيق المساواة الكاملة . لم تقربه قيد أنملة من التحقيق . فبالنسبة للجماعة الدنيا كل تلك التغيرات التاريخية وكل هذه الاحداث الهائلة عبر مجرى التاريخ ، لاتعنى بالنسبة لواقعها المرير الا تغيرا فى اسم السيد الجديد . لا اكثر.

وبنهاية القرن التاسع عشر ، كان تكرار هذا النمط من الصراع الطبقى تكرارا واضحا لكثير من المراقبين . برزت فى هذه الحقبة التاريخية مدارس فكرية تذهب فى تفسيرها لمسار التاريخ الى انها عملية دائرية الطابع ، تنتهى من حيث تبدأ لتذهب هذه المدارس فى محصلتها النهائية الى ان الظلم وعدم المساواة هما القانون الثابت للحياة الانسانية . أى أن الانسان قد جبل على ان يظلم أخاه الانسان . هذا المنحى الفكرى وجد دائما أتباعا يؤمنون به ، لكن الوضع كما يتأمله المرء الان ، يجد تطورا هاما قد حدث .. ففى الماضى كانت الحاجة للمجتمع السيادى ذى الطبقات الهرمية هوا لعقيدة الاجتماعية للجماعة الفوقيه بالذات . عقيده كان يروج لها : الملاك ورجال الطبقة

الارستقراطية والقساوسة والمحامون ومن شابههم ممن يعتمدون فى كيانهم ووجودهم كله على هؤلاء الملوك وهذه الطبقة الارستقراطية .. فهم كانوا يدعون الى هذه العقيدة .. وللتخفيف من أثرها كانوا يطمئنون الناس بأن أكبرهم آت فى السماوات وليس على الارض .. هذا العالم المتخيل بعد الموت . بالنسبة للطبقة الوسطى ـ وهدفها فى الصراع الوصول الى السلطة ـ أخذت تستغل ما كان يروج آنذاك من دعاوى الحرية والاخاء والعدل . لكننا نجد الان ، أن مفهوم الاخوة الانسانى أو الاخوه يهاجمه بغرض القضاء على أناس ليسوا فى المركز الممتاز لرجال السلطة بعد . لكنهم يعيشون على امل الوصول اليه فى مستقبل غير بعيد . ففى الماضى حملت الجماعة المتوسطة لواء الثورة تحت شعار المساواة ، لكنها ما لبثت أن ارست قواعد القهر والطغيان بعد أن أكتسحت فى طريقها الطبقة أو الجماعة الفوقية القديمة . ما نجده الان ، أن مبدأ الاخاء أو الاخوة الانسانية قد بدأ يهاجمه أناس لم يتبوأوا مراكز السلطة بعد .. أخذوا مقدما يتبرمون من أسس المساواة بين بنى البشر . ان فكرة الاشتراكية ، تلك النظرية التى تمتد جذورها الى الافكار الاولى التى نبعت من ثورات العبيد فى العهود التاريخية السحيقة وازدهرت كنظرية سياسية فى بدايات القرن التاسع عشر ، هى بلورة لسلسلة من افكار العدل الاجتماعى تمتد عبر التاريخ .. هذه النظرية تلمس فيها أثر الدعوة للوصول الى العالم المثالى ... «اليوتوبيا» .. التى نودى بها منذ العهود الاولى للبشرية . لكن مع كل تنويعه على لحن الاشتراكية الواحد ، مع كل صورة جديدة لها ، ومع كل صيغها المستحدثة منذ بداية القرن العشرين .. كان الواقع المر الملموس يكشف بوضوح أن الهدف النهائى المتخيل لها (ارساء العدالة والحرية للجميع) .. هذا الهدف يبتعد اكثر فأكثر كلما كثرت الدعوة اليه ، وفق هذه التنويعات والصيغ المتباينة . فتجد ان الحركات الجديدة التى ظهرت فى منتصف القرن العشرين (الانجشاك) فى(أوشانيا) و« البلشفيه الجديده فى أوراشيا » ، وعبادة الموت (كما تلقب عاده) فى (ايستاشيا) فيها كلها الاتجاه الواضح نحو (اللاحرية) (واللامساواة) . هذه الدعاوى الجديدة فى الاشتراكية بالطبع نابعة من النظرية الاشتراكية القديمة الاساسية نفسها ، لكنها تتشدق فقط بأفكار الاشتراكية وتتلاعب بألفاظها ، أما المضمون والهدف لكل هذه التنويعات فهو ان توقف التقدم الحقيقى نحو المساواة ، وأن تجمد تيار التاريخ عند فترة بعينها ، ليبدأ نفس النمط من التغير فى التركيبة الاجتماعية ، كحركة بندول

الساعة المتكرر . وكالمعتاد تكتسح الطبقة المتوسطة ، الطبقة العليا وتتحول الى طبقة عليا مسيطرة . وما أن يتم هذا حتى تتخذ هذه الطبقة العليا الجديدة لها استراتيجية تحفظ لها وضعها المتميز والمتسلط .

هذه العقائد السياسية الجديدة المتفرعة عن الاشتراكية ، نشأت جزئيا بسبب تراكم المعرفة التاريخية ، ونمو الوعي التاريخى . وعي لم يكن له وجود حقيقى قبل القرن التاسع عشر . حركة التاريخ الدائرية اصبحت الان واضحة وجلية . أو على الاقل بدت واضحة ظاهريا . وطالما انها قد اتخذت سمة الوضوح ، فهذه الحركة بالتالى اصبحت قابلة للتغير . فالقضية الاساسية ، والهدف المسير للاحداث منذ بداية القرن العشرين ، هو أنه قد أصبح ممكنا من الناحية العملية تحقيق المساواة الانسانية . حقيقى ان الناس لاتتساوى فى قدراتها الطبيعية او العقلية او الجسدية ، وأن وظائفها الاجتماعية لابد وأن تختلف أستنادا لهذا التفاوت الطبيعى ، لكن المهم أنه لم يعد هناك حاجة حقيقية لتلك الفروق الطبقية ، ولا لتلك الفروق الكبيرة فى الدخل والثروة . فى العصور الاولى ، لم تكن الفروق الطبقية حتمية فقط بل كانت مرغوبة أيضا . كان عدم المساواة هو الثمن الذى تدفعه البشرية لتحقيق الحضارة .. لكن مع تطور الانتاج الالى تغيرت القضية . فحتى مع أستمرار حتمية ان يقوم الناس بأعمال تختلف نوعيتها باختلاف قدراتهم ، الا أنه لم يعد حتميا أن يعيش الناس فى طبقات اجتماعية واقتصادية متباينة . فى ضوء هذا الوضع الجديد أصبحت المساواة الانسانية - من وجهة نظر تلك الجماعات الجديدة الساعية للاستيلاء على السلطة - ليست مثلا أعلى تسعى لتحقيقه ، ولكنها خطر يجب تجنبه . لان فكرة المجتمع الانسانى الذى تسود فيه العدالة والسلام ، قديمة قدم فجر الوجود الانسانى فى عصوره الاولى . وهى برغم عدم تحقيقها ظلت محتفظة بقوة الدفع كأمل يراود البشر .

الامل فى تلك الجنة على الارض حيث لايستغل الانسان الانسان ، وحيث يحيا الجميع فى حالة أخوة حقيقية ، دون حاجة لقانون . أمل ظل يداعب خيال الانسان منذ الاف السنين .. هذه الرؤيا كانت تسيطر حتى على خيال تلك الفئات التى استفادت من كل تغير تاريخى .

ورثة الثورات الفرنسية والانجليزية والامريكية آمنوا جزئيا - وفق ما دعوا اليه - بحقوق الانسان ، وبحرية القول ، والمساواة للجميع امام القانون ، وما شابه ذلك من افكار . بل لقد تغير سلوكهم الى حد ما وفق ما كانوا ينادون به من افكار . لكن مع بداية

الاربعينات من هذا القرن تحولت كل تيارات الفكر السياسى الى تيارات فاشية تدعو لسطوة الدولة . وتخلى الفكر السياسى عن تلك الرؤيا القديمة لجنة الانسان على الارض ، فى نفس اللحظة التى قاربت هذه الرؤيا فيها ان تتحول الى حقيقة . واصبحت كل نظرية سياسية جديده ، أيا كان الاسم الذى تتوارى خلفه ، هي فى حقيقتها دعوة لسيطرة الدولة ، وللحكم الشمولى ، ومع التزمت فى هذه الدعوة الذى واكب الفترة من سنة ١٩٣٠ ، عادت الى الوجود تصرفات وانماط سلوك تجاوزتها البشرية منذ قرون عدة ، كالاعتقال دون محاكمة ، واستعباد أسرى الحرب ، والتوسل بالتعذيب البدنى لاستخلاص الاعترافات السياسية ، وأحتجاز الرهائن للضغط على الخصوم ، والتصفية البدنية لمئات الاشخاص . مثل هذه الممارسات البربرية لم تتحول فقط الى ظاهره عادية بل وصل الامر الى حد الدفاع عنها وتبريرها من قبل أناس يعتبرون فى عداد المثقفين ، بل والتقدميين .

فمبادىء (الانجشاك) ، مرت بحوالى عشر سنوات من الحروب الشاملة والحروب الداخلية ، وبثورات وثورات مضاده فى مختلف انحاء العالم ، الى ان استقرت كنظرية سياسية ، هى وسائر النظريات المنافسة لها ، ورسخت على نطاق واسع . لكن ما طغى على هذه النظريات ، هو النظم السياسَية التى سادت داخل كل أقطار القوى الثلاث . وهى نظم يمكن وصفها بصفة عامة بأنها استبدادية وشمولية ، ظهرت الى الوجود ، فى تاريخ سابق فى هذا القرن ، بعد فترة أضطراب وفوضى أدت فى النهاية .. لسيادة هذه النظم ذات السمات الواضحة . وبالمثل كان جليا .. ان نوعية الرجال ممن استطاعوا بلوغ قمة السلطة داخل هذه النظم ، أصبحت هي الطبقة الحاكمة الجديدة ، وفى معظمها مكونة من الطبقة المتحكمة والعلماء والتقنيين ، وأعضاء مجالس ادارة الاتحادات المهنية ، وخبراء الاعلام ، وعلماء الاجتماع ، والمدرسين ، والصحفيين ، والسياسيين المحترفين .. نوعيه من الناس ترجع أصولها الاجتماعية الى الطبقة الوسطى ممن يتعيش افرادها على مرتباتهم .. مع أفراد من الشرائح العليا للتجمعات العمالية ، تناغمت مع بعضها نتيجة لظروف الصناعة الاحتكارية والحكومة المركزية (السلطة) . لو قارنا افراد هذه الطبقة الحاكمة الجديدة بأقرانهم من أرستقراطى الزمان الغابر ، لوجدنا هذه الفئة الجديدة أقل جشعا .. أقل رغبة فى الاستمتاع بالرفاهية والترف ، ولكنها أكثر اندفاعا للاستئثار بالسلطة ، وأولا وأخيرا على وعى كامل بما تقوم به ، وأكثر أصرارا على سحق أى مقاومة تجدها فى طريقها . وهذا الفارق الاخير هو الفارق الاساسى . فى هذه الطبقة . كل الوان البغى والقهر التى كنا نسمع عنها فى الماضى لاتقارن بما بدأ مع بداية ظهور هذه الفئة الجديدة . فى الماضى ، كان

الحكام يعاقبون على الفعل الظاهر، وتسرى فى بعض افرادهم عدوى النزعات التحريرية، متجاوزين عن بعض الوان المعارضة فى حدود. اما مع ظهور الطبقة الحاكمة الجديدة، أصبح المواطن الفرد يحاكم ليس على افعاله فقط بل على افكاره، على نواياه .. فحتى الكنيسة الكاثوليكية، فى القرون الوسطى بكل قسوتها، تعتبر نسبيا متسامحة اذا قورنت بما يجرى فى العصور الحديثة. واحد الاسباب التى ادت الى هذا، هو أن الحكومة فى الماضى لم تكن لديها القدرة على مد الرقابة لتشمل كل المواطنين طول الوقت. لكن باختراع الطباعة، تمكنت الطبقة الحاكمة من التحكم فى فكر الجماهير، ثم باختراع الراديو والتيليفزيون اصبحت العملية أكثر أكتمالا. ومع تطوير التيليفزيون ومع التقدم التكنولوجى الذى أدى الى امكانية الارسال والاستقبال فى آن واحد، أنتهت الى الابد الحياة الخاصة للفرد.

فكل مواطن، أو على الاقل كل مواطن له قدر من الاهمية يستدعى الامر مراقبته، أصبح خاضعا للرقابة طوال الاربع وعشرين ساعة يوميا .. تصرفاته مكشوفة لاعين رجال البوليس، يظل خاضعا لنوعية الدعاية السياسية الملحة التى يروجها الجهاز، بعد أن أغلقت فى وجهه كل سبل الاتصال الاخرى مع الخارج. وأصبحت مسألة أجبار كل المواطنين ليس فقط على الطاعة العمياء لتعاليم الدولة، بل على صهر وصب فكر جميع الرعايا فى قالب واحد .. أصبحت أمرا من الممكن تحقيقه لاول مرة فى التاريخ.

وبعد أن أنقضت فترة الانتفاضات، والثورات فى الخمسينات والستينات، بدأ المجتمع يعيد تنظيم نفسه ـ كالعهد به دائما ـ الى طبقة عليا ووسطى ودنيا. لكن الطبقة العليا الجديدة هذه المرة لم تكن قد جبلت بالطبيعة على ان تكون عليا، وصلت الى السلطة بعد صراع، فأمست على وعى تام بما هو المطلوب منها لحماية وضعها على قمة السلطة. وغنى عن القول الان ان الضمان الاوحد للاوليجاركية(١) .. هو الحكم الشمولى. فالثورة والمكانة يسهل الدفاع عنهما عندما تمتلك طبقة معينة الاثنين معا. والشعار الذى رفع فى منتصف هذا القرن ويدعو الى (القضاء على الملكية الفردية) كان يعنى فى الواقع: تجميع الملكية فى أيد أقل مِمَّا كانت عليه فى الماضى، لكن مع أختلاف شكلى، وهو أن الملاك الجدد جماعة، وليسوا افرادا. فعلى المستوى الفردى الخاص عضو

(١) الأوليجاركية: حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها استغلال الجماعات الأخرى وتحقيق مطامعها الذاتية فقط

التنظيم الداخلى لايمتلك بشخصه الا متعلقاته البسيطة الخاصة به . لكن كممثل لجماعة ، فهو وزملاؤه (كجماعة) يمتلكون كل شيء فى «أوشانيا» . لان الحزب كجماعة يملك ان يتصرف فى أى شيء ، ولان الحزب مالك لنتاج (اوشانيا كله) ، يتصرف فيه بالطريقة التى يراها ملائمة . وفى السنوات التالية على الثورة ، استطاع الحزب ان يتبوأ هذه المكانة المسيطرة ، لان عملية تجميع الاملاك الخاصة والثروات الخاصة كانت تتم فى صورة تمليك المجتمع ككل لمقدراته وثرواته . فلا مكان بعد الثورة للملكية الفردية . الملكية هى للمجتمع او للحزب بمعنى أدق . وكان المفروض بالطبع أنه بعد نزع الملكية عن الطبقة الرأسمالية أن تتبع هذه الخطوه سيادة الاشتراكية . وكما هو واضح وغير قابل للجدال .. انه قد تم بالفعل نزع الملكية عن الطبقة الرأسمالية . فالمصانع والمناجم ، والارض ، والعقارات ، ووسائل المواصلات .. كل شيء قد نزعت ملكيته الخاصة . وطالما ان هذه الاشياء لم تعد ملكا خاصا لاى احد ، فالمفروض انها ستئول بعد ذلك ملكا عاما لكل الناس . و(الانجشاك) الذى نما تحت أجنحة الحركة الاشتراكية الاولى ، ودعم مصطلحات هذه الاشتراكية الاولى ، رفع فى الواقع كواحد من أهدافه الرئيسية ازالة الفوارق غير العادلة بين الطبقات .. الى الابد .

لكن مشاكل تثبيت أى نظام سيادى متسلط ، أكثر « فى الواقع » تعقيدا من مجرد رفع الشعارات . فهناك أربع وسائل يمكن أسقاط اى نظام سيادى وأبعاده عن السلطة بها وهى :

١ ـ الغزو من الخارج
٢ ـ او عن طريق اسقاطه من الداخل : اذا أحست جموع الناس أنه غير كفؤ للحكم
٣ ـ ان تسمح الطبقة الحاكمة لطبقة أخرى متوسطة ان تنمو الى الحد الذى يشكل خطرا عليها أو أخيرا
٤ ـ ان تفقد الفئة الحاكمة الثقة فى نفسها وفى مقدرتها على الحكم .

هذه الاسباب الاربعة لاتعمل منفردة ، لكنها متداخلة تتفاعل كل منها مع الاخر طول الوقت بدرجات متفاوتة . والطبقة الحاكمة التى تستطيع ان تحمى نفسها من هذه العوامل الاربعة مجتمعة ، تستطيع ان تبقى على قمة السلطة الى الابد . وفى النهاية ما يحدد موقف الطبقة الحاكمة هو الاتجاه الفكرى ومدى الاصرار داخل هذه الطبقة نفسها .

وبعد فترة قصيرة من منتصف هذا القرن ، أختفى خطر العامل الاول بالفعل . فكل

قوه عظمى تسود الان على أقطارها هى قوة غير قابلة للغزو الشامل من الخارج . أما أمكانية الغزو باحداث تغييرات ديموغرافية بطيئة ، فهذه بوسع أى قوة عظمى ذات قدرات ضخمة أن تتفاداها بسهولة .

خطر العامل الثانى أيضا ، خطر نظرى أكثر منه عملى . فالجماهير لاتثور أبدا من نفسها ، وهى لاتثور لمجرد وجود القهر المسيطر عليها . ثم ان الوعى بالقهر امر صعب ، لان وسائل الاتصال والمقارنة بين مستوى وطريقة حياتها ، ومستوى وطريقة حياة شعوب أخرى أفضل ، هذه الوسائل ليست متاحة . اما عن تأثير الازمات الاقتصادية التى حدثت فى الماضى والتى لم يكن لها صفة الحسم ، فيمكن حاليا تفاديها .. وبهذا يمكن تفادى احساس المواطن بمعاناته التى قد تولد رغبة فى التمرد . ويمكن التغلب على نقص الوسائل الغذائية فى مناطق معينة بعملية تهجير واسعة لحل هذه المشكلة ، وعمليات التهجير لايمكن أن تخضع لردود فعل سياسية لان وسائل التعبير السياسى اصلا غير متاحة . بقيت مشكلة زيادة الانتاج السلعى بعد التطور الآلي ، وطريقة التغلب عليها ، سيتم شرحها فى الفصل الثالث ، عن طريق استمرارية الحرب لامتصاص أى فائض سلعى (من الفوائد الجانبية للحروب المستمرة حفظ الروح المعنوية للشعب فى حالة اتقاد وحماس) . اذن ، بابطال مفعول العوامل الثلاثه الاولى القادرة على اسقاط الطبقة الحاكمة ، يبقى العامل الرابع ، وهو نمو وازدياد قوة طبقة متوسطة من أفراد لديهم القدرة العقلية على التغيير . والرغبة الملحة نتيجة عدم اشباع الحاجة للتغير ، ونسبة بطالة تعتبر من الاسباب المحركة له ، فاذا توافر الى جانب ذلك تصاعد الشكوك فى الاساس الفكرى الذى تستند اليه الطبقة الحاكمة مع ما قد يتاح من جو فكري ليبرالى ، فأن ذلك يستتبع تكافل عناصر الثورة داخل الطبقة المتوسطة ، فالمشكلة هنا اساسا مشكلة المستوى الثقافى ودرجة الوعي الخطر لدى هذه الطبقة . أى ان هم الطبقة الحاكمة هو فى صب نمط تفكير من يعتقد أنهم على وعي من رجال تستعين بهم الطبقة الحاكمة ، دون ان يشرد منهم منشق عليها . وهى عملية عكس مايتم بالنسبة للطبقة العاملة وهى الفئات التى تشكل وقود العمل والمطلوب منها أساسا ألا تكون على وعي بأى قضايا فكرية أطلاقا بل ان تنشغل بهمومها المعيشية فقط .

فى ضوء هذه الخلفية ، يمكن للمرء أن يستشف بنية المجتمع (الاوشيانى) او التركيبة الاجتماعية السائدة فيه .

على قمة هرم السلطة ، نجد الزعيم الكبير . والزعيم الكبير لايخطىء وهو كُليُّ القدرة . كل نجاح تحرزه الدولة ، كل أنجاز عظيم ، كل نصر ، كل اكتشاف علمى ، كل ضروب المعرفة ، كل الحكمة ، كل السعادة ، كل الفضائل ، كلها نابعة من الهامه ومن حكمة قيادته . الزعيم شخصية مهيبة لايتاح للناس رؤيتها ، هى فقط تطل عليهم عبر الملصقات ... لايستمعون الى صوته الدافىء الرزين الا عبر أجهزة السينما التليفزيونية . عليك ان تثق أنه لن يموت ومازال الشك مثارا عن تاريخ مولده ، وعن عمره . فشخصية الزعيم الكبير هى الاطار الذى يحب الحزب ان يبدو للناس من خلاله وظيفته السياسية والاجتماعية هى ان يمثل نقطة الارتكاز التى تتجمع حولها كل مشاعر الحب والخوف والتقديس .. مشاعر من السهل ان تستثار نحو شخصية لها كيان ، أكثر من استثارتها نحو حزب أيا كان .

يلى الزعيم الكبير فى المرتبة : (التنظيم الداخلى) ... عدد اعضائه يقتصر على الستة ملايين ، أو مايقل عن ٢٪ من عدد السكان ... يلى التنظيم الداخلى ، أعضاء الحزب العاديون او الحزب الخارجى . هذا التنظيم الخارجى يقوم بدور الايدى الظاهرة أو المضيئة ، بينما يقوم التنظيم الداخلى بدور العقل المدبر لكافة الانشطة .. اما فى مؤخرة الترتيب فتقع فئات (البروليتاريا) ، يتجاوز عدد أفرادها الـ ٨٥٪ تقريبا من مجموع السكان الكلى (لاوشانيا) ، أي أن الطبقة العاملة في ضوء تقسيمنا السابق للتجمعات السدة داخل اى مجتمع ، هى التجمع الادنى .

وغنى عن القول ، ان اسرى الحرب من المناطق الاستوائية الذين ينتقلون من أيدى محتل الى ايدى محتل آخر ، ليسوا سوى كم مهمل ، أقرب الى صنف العبيد منهم الى صنف البشر العاديين ، ناهيك بالمواطنين . ومن ثم أغفل دورهم كليا فى البناء الاجتماعى .. لعدم استمرارية وعدم تأثير هذا الدور أصلا .

ومن ناحية المبدأ ، فالعضو فى أى من الطبقات الثلاث : عليا حاكمة ، ووسطى ، ودنيا ، وليست عضوية وراثية لان اولاد اعضاء التنظيم الداخلى وفق تعاليم (الانجشاك) ليسوا بالضرورة اعضاء فى هذا التنظيم . لان الانتساب للتنظيم الداخلى يتم فقط عن طريق عدة اختبارات ، لايسمح بدخولها لمن لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر . كما أنه ليست هناك فروق تستند الى اختلاف الجنس . اوروبى او افريقى او آسيوى ، وليست هناك سيطرة نظريا لاقليم ما فى (اوشانيا) على سائر الاقاليم ايا كانت . وبامكانك ان

تلحظ وجود اليهود وزنوج ومواطنى امريكا الجنوبية من أصل هندى احمر . كأعضاء لهم مكانة ممتازة داخل الحزب . وأختيار المدربين التنفيذيين داخل اقليم معين يتم من بين ابناء الاقليم انفسهم دون فرض عناصر من الخارج . ومن ثم فقد اختفى الاحساس فى اى قطر من اقطار (اوشانيا) لدى اهله بأنهم فى احدى مستعمرات امبراطورية شاسعة يحكمهم اناس فى عاصمة بعيدة . (فأوشانيا) بلا عاصمة وهى قوة عظمى ، مركزها تحكم فرد ـ وليس عاصمة ـ هو الزعيم الكبير الذى لايعلم احد اين مكانه .. على وجه التحديد . وفيما عدا ان الانجليزية هى لغتها الثانية ، واللغة الدولية الجديدة هى لغتها الاولى ، فأنك لاتجد شيئا عاما أو مركزيا داخل (اوشانيا) . حكام (اوشايا) لايربطهم رباط الدم بل رباط العقيدة السياسية .. صحيح ان المجتمع فى بنيته الاساسية مجتمع ضيق ، بل أن تقسيماته الطبيعية تبدو لاول وهلة تقسيمات طبقية موروثة ، الا ان الانتقال من طبقة الى أخرى ليس فى سهولة الانتقال فى المجتمعات الرأسمالية السابقة ، او حتى فى المجتمعات السابقة على العصر الصناعى . صحيح هناك تنقل من وإلى التنظيم الداخلى ، لكنه تنقل محسوس ، للتخلص اساسا من العناصر الضعيفة فى هذا التنظيم الاساسى ، وترقية العناصر الطموحة اليه من التنظيم الخارجى وضمها للداخل اتقاء لطموحها الزائل .. بالترقية . أما أفراد البروليتاريا أنفسهم فلا يحق لهم أصلا اجتياز دراسات الانتساب لعضوية الحزب الخارجية ، أما من يبز منهم كعناصر نشطة فمن الممكن ان تكون خلايا للتمرد ، فيتم القضاء عليها أولا بأول عن طريق البوليس السياسى . اى تتم تصفيته جسديا . لكن هذه الاوضاع ليست دائمة .. وليست فى حكم المبدأ المطلق . فالحزب ليس طبقيا بالمفهوم القديم ، ولايستهدف الحزب توريث سلطاته اللا نهائية لاولاد أعضائه ، بل أن الحزب لديه استعداد لان يعيد تسجيل أفضل العناصر الحزبية فى المجتمع من الالف للياء من أعضاء الجيل الجديد ، حتى لو استدعى الامر الاستعانة بصفوف البروليتاريا انفسهم . وفى السنوات العصيبة كان لهذه الحقيقة (كون عضوية الحزب غير وراثيه) أكبر الاثر فى تحييد كل منتقدى اساليبه ، والتخفيف من حدة المعارضة له . بالنسبة لرجال الحرس القديم من قدامى الاشتراكيين ، كان التصور السائد أن النظام الذى يورث ليس نظاما قويا . فأن حقيقة ان النظام الهيراركى لكى يستمر ، لايجب ان يستمر بالوجود الجسدى لاعضائه أو أبنائهم . ان قوته فى استمرارية خطه الفكرى ... فى نمط الحياة الذى يدعو اليه ، والتركيبة السياسية الاجتماعية التى يعيش من خلالها . الافراد ليست لهم اهمية ،

والا لما دام نظام الكنيسة الكاثولوكية هذه لالاف من السنين .. ان ماضمن استمرارية الكنيسة الكاثولوكية كمؤسسة هو تسلط فكر الموتى على الاحياء .. تسلط فكر الباباوات السابقين على من خلفهم ، بمعنى أن الذى بقى وكتب له الاستمرار هو الخط الفكرى ونمط الحياة وليس الاشخاص بوجودهم الجسدى المحدود . والحزب لاتعنيه استمرارية علاقة الاب بالابن ، علاقة الدم والقربى ، بل استمرارية الهيكل التنظيمى والبنية الاجتماعية او نمط الحياة النابع من خط الحزب الفكرى .. من يمسك فى يده بالسلطة اليوم ويقوم على التنفيذ ليس مهما ، بقدر اهمية النسق العام الذى يضم (جميع) الممسكين بالسلطة ، ولا أهمية لاستمرار النظام الهيراركى نفسه .

فكل المعتقدات والعادات ، والاذواق ، والانفعالات ، والاتجاهات العقلية التى يتسم بها عصرنا ، هى اساسا تستهدف الابقاء على هذا الهيكل الخفى المسيطر على تلك التركيبة غير المعلنة ، لمن بيدهم مقدرات الامور ، مع منع المواطن العادى من ان يدرك ابعاد الهيكل الحقيقى للمجتمع الذى يعيش فيه والاسس القائمة عليها .

الثورة على هذا النظام ، فى هذا العصر ، فى حكم المستحيل عمليا وماديا . بل حتى اية حركات تمهيدية نحو الثورة حاليا لا يمكن تحقيقها . فالسلطة الحاكمة لاتخشى الطبقة العاملة لأن افرادها سيظلون جيلا وراء جيل يعملون .. يشقون .. يتناسلون .. يموتون .. هكذا .. الى مئات السنين القادمة . فهم لا يفتقرون فقط للدافع نحو الثورة ، بل يعوزهم اساسا الوعي ، بأن هناك عالما أفضل من الممكن ان يثوروا املا فيه . الخطورة ستنشأ اذا تطورت الالة اكثر ، وتعقد نمط الانتاج الصناعى إلى الحد الذى يستتبع ضرورة تعليمهم تعليما ارقى . لكن طالما ان التنافس العسكرى والتجارى ليس حيويا الى هذه الدرجة فى الظروف السائدة ، فليست هناك حاجة لرفع مستوى التعليم العام لأفراد البروليتاريا ، بل أنه ينخفض فى جوانب منه فى واقع الامر . أما مايجول فى خواطر البروليتاريا من آراء أو مالا يجول فى رؤوس أفرادها من آراء ، فهو أمر ليست له اهمية حقيقية . ليس هناك من قيد على طريقة تفكيرهم ، لان المفروض بداءة .. أنهم بلا قدرة عقلية ، على بلورة اى نوع من الفكر له قيمة .

الوضع على العكس تماما بالنسبة لاي عضو فى الحزب . اذا خرج ، ليس على الخط الفكرى العام للحزب فحسب ، بل اذاعن له ان يظهر انشقاقا مهما كان طفيفا على العقيدة السياسية ، فالامر عندئذ يؤخذ مأخذ الجد ويعامل المنشق بمنتهى الصرامة .

فعضو الحزب يحيا منذ مولده وحتى مماته ، تحت أعين البوليس السياسى . حتى وهو فى وحدة تامة لا يمكن ان يطمئن الى انه وحده حقيقة فى اى مكان يكون ، مستيقظا أو حتى نائما ، وهو يعمل أو وهو يستمتع بوقت راحته ، فى السرير او فى الحمام ، لابد ان يكون خاضعا لنوع من الرقابة ... عرضة لاى نوع من التفتيش دون سابق علم او انذار . كل سلوك صادر عنه محسوب عليه .. كل كلمة يتكلمها ، قابلة للتحليل والمحاسبة . لا شىء يصدر عنه غير مهم .. صداقاته .. طريقة تمضية وقت فراغه ، سلوكه نحو زوجته وأطفاله تعبيرات وجهه عندما يخلو لنفسه ، مايتفوه به اثناء نومه .. كلها أمور قابلة للفحص والتمعن . من الممكن بعد كل هذا اكتشاف اى انحراف يصدر عنه فى السلوك ، اى شذوذ عن المألوف بل اى لازمات عصابية تدل على وجود صراع عقائدى او فكرى يعتمل فى داخله . العضو فى الحزب لاخيار له فى اى اتجاه تمضى به حياته . حياته قد خططت قبل مولده . ومن ناحية اخرى لا تحدد الاستقامة او عدم الاستقامة فى تصرفاته مقاييس قانونية يمكن الاحتكام اليها . ليس فى (اوشانيا) شىء اسمه قانون ، فالافكار وانماط السلوك التى يتم اكتشاف اصحابها وتفضى بهم للموت ، لايوجد نص رسمى واضح بتجريمها .

كل حركات التطهير والاعتقالات والتعذيب والسجن والتبخير لاتتم بعقوبات على جرائم ارتكبت ، بل تتخذ كنوع من انواع التخلص من اشخاص قد يرتكبون جرائم سياسية فى المستقبل . اى ان اعدامهم عمل (وقائى) فليس مطلوبا من عضو الحزب ان يلتزم بالافكار السياسية السليمة فقط . بل ان يلتزم بالغرائز وردود الفعل السياسية السليمة . فهناك عقائد سياسية كثيرة وافكار سياسية عديدة لايمكن الاعلان عنها صراحة دون فضح التناقضات الفكرية داخل (الانجشاك) . والمطلوب من عضو الحزب ان يكون لديه الحس أو الوعي لان يسلك سلوكا حزبيا منضبطا دون أعلامه بمواجهة كل المطلوب منه . المفروض ان تسيره تعاليم (الانجشاك) بعد هضمها تلقائيا ونكاد نقول غريزيا . وان كانت طريقة التدريب العقائدى التى يمر بها عضو الحزب منذ طفولته وكم الالفاظ المعقدة التى تلقى في وجهه من امثال (اجهاض الجرم السياسى) .. و(الفكر الابيض والاسود) .. و (ازدواجية العقيدة) .. الخ ... كفيلة بان تجعل العضو ينفر من اى فكر أصلا ، ناهيك عن الاستغراق المتأمل او المتعمق فى الفكر السياسى نفسه .

والمفروض فى عضو الحزب الا يتمتع بأى نوع من العواطف الخاصة غير المجدية ، ولا اى نوع من انواع الفتور فى حماسه الحزبى والسياسى . مفترض ضمنيا ان يحيا فى حالة

فوران دائم ، وحقد مستمر ضد الغاصب الاجنبى والخونة فى الداخل . ان يلهج بالثناء لكل نصر تحرزه الامة . وان يستشعر الضآلة والخضوع امام قوة وحكمة الحزب . ولم يعدم الحزب اختراع وسائل يستقطب بها ويمتص كل مشاعر الاحباط فى حياة عضو الحزب ..

هذا الاحباط الناجم عن حياته القاحلة ، الخالية من المعنى الحقيقى ، اخترع لها الحزب وسائل مثل (دقيقتى الحقد) . اما ما قديعن للعضو من تأملات شاردة قد تفضى به الى اى من الشكوك الخطرة ، فأمر يمكن التغلب عليه بقوة الانضباط التى يتشربها هذا العضو منذ الطفولة ، مما يولد لديه دوما احساسا داخليا بقوة هذا الانضباط وحتميته .. واولى مراحل الانضباط التى يتشربها الطفل الصغير هى مايسمى باللغة الدولية الجديدة : (أجهاض الجرم السياسى) ... مصطلح يعنى ان توقف أنت ذاتيا .. اى فكر ينبع من داخلك تشتم منه احتمال عدم الاتساق الكامل مع تعاليم (الانجشاك) . اى ان تفرض انت على نفسك ـ بنفسك ـ نوعا من الغاء الذات الوقائى . فاذا عنت لك فكرة مثلا تشتم منها شيئا من المعقولية والوضوح ، ولكن ، وجدتها متعارضة مع تعاليم الحزب ، او مثلا اذا تهور عقلك الواعى وتلاعب بفكرك بان دفعك الى عقد مقارنات بين اوضاع يؤدى امعان الفكر فيها الى اهتزاز عقيدتك السياسية فما عليك الا أن تلجأ بنفسك الى عملية تطهير فكرى ذاتى .. او مايسمى بـ (أجهاض الجرم السياسى) ، فتوقف فورا مثل هذه التيارات المخربة وتشغل نفسك باى عمل نافع . لكن فرض هذا الغبار المتعمد عملية ليست كافية . لان (الارثوذكسية) ، وهى الالتزام التام بالخط السياسى ، تتطلب أكثر من هذا .

ومن هنا نشأت الحاجة للمصطلح الجديد فى تفكير الحزب ، وهو باللغة الدولية الجديدة (الفكر الابيض/ اسود) وهذا الاصطلاح مثله مثل اصطلاحات كثيرة فى اللغة الدولية الجديدة ، له معنيان متضادان . فعند استخدام هذا المصطلح لوصف تفكير الاعداء : فهو يعنى ، ان الفكر المعادى قد بلغ من تهجمه على الحقيقة انه يقلب الابيض أسود . اما عند تطبيقه على ممارسات الحزب ، وتعاليمه السارية المفعول ، فهو يعنى ان الفرد فى الحزب ينكر على نفسه ، حتى ذكاءه ومنطقة ، بالاستعداد لان يتقبل حتى ان يكون الابيض/اسود ، اذا استدعى نظام الحزب القول بهذه الحقيقة وهى عملية تستدعى بالضرورة احداث التغيير بصورة دائمة فى الماضى ، وذلك كله مجرد مظاهر من نسق فكرى اكبر يضم كل العمليات العقلية ، أسمه (ازدواجية العقيدة) .

فتغيير الماضى باستمرار ضرورى لتحقيق هدفين : احدهما ثانوى ويمكن القول انه وقائى . وهو ان عضو الحزب ، مثله مثل افراد البروليتاريا ، جزء كبير من تقبلهم للاوضاع الحالية ، هو انتفاء وجود وسيلة لمقارنة أوضاعهم هذه بأوضاع اخرى افضل . اذن يجب ان نقيم عازلا مابين عضو الحزب ، وأنماط الحياة فى الماضى ، بنفس الطريقة التى نعزله بها عن أى اتصال او مقارنة بدولة اجنبية . لانه من الضرورى ان يستمر احساس عضو الحزب بأنه افضل معيشيا عما كان عليه من سبقوه فى الماضى ، وان مستوى الحياة فى ارتفاع مستمر . هذا هو السبب الثانوى . السبب الاهم لتغيير الماضى : هو ان يثبت النظام دائما لعضو الحزب ، أن الحزب لايخطىء فى تنبؤاته ، بل ان الحزب غير قابل للخطأ . ومن ثم كان هذا احتعديل والتبديل المستمر فى البيانات والاحاديث والاحصائيات ، ليس فقط لاثبات ان تنبؤات الحزب وتوقعاته كانت سليمة ، بل لتأكيد الخط الفكرى السليم للحزب ، وهو خط فكرى ليس مسموحا بأى حال من الاحوال الخروج على الالتزام الحرفى الكامل به ، سواء فى الماضى أو الحاضر ... لان قبول اى تغيير ولو كان طفيفا فى هذا الخط الفكرى ، يعنى ضمنيا أعترافا ينتج من الضعف وعدم الثقة المطلقة فى هذا الخط . فاعلان ان (اوراشيا) أو (ايستاشيا) هى العدو الغادر ضد البلاد . يعنى ضرورة ان تظل صورة (اوراشيا) (او أيستاشيا) دائما فى صورة العدو الغادر المعادى لخط الحزب الفكرى ، ومن ثم وجب قتاله بشراسة .. يجب ان تظل هذه الفكرة ـ ان اوراشيا مثلا كانت دائما عدوا للبلاد ـ قائمة . فاذا ظهرت حقائق موضوعية تنفى هذه الدعوى وجب تغيير هذه الحقائق ، لكن عملية التغيير هبا لاتسمى تغييرا . أنها تسمى تصحيحا . لان الاصل ان مايدعو اليه الحزب هو الحقيقة . فأن وجد أى شيء معارض له ، فالواجب تعديله ليتماشى مع الحقيقة الاساسية: وهى كلام الحزب ، هذا التعديل منوط بـ (وزارة الحقيقة) المكلفة بتعديل الوقائع التاريخية ، بايتم تغيير كل مالا يتفق مع ما اعلنه الحزب فى الماضى او يعلنه فى الحاضر .

هذا التغيير المستمر للتاريخ ـ او بمعنى ادق هذا التزييف المستمر للتاريخ ـ ضرورى لبقاء نظام الحزب ، نفس ضرورة كل أجراءات القمع والاعتقالات والتعذيب التى تمارسها (وزارة الحب) .

أن نخرس الماضى ، أمر له نفس قوة العقيدة لدى الحزب . صمت الماضى التام احد الاركان الاساسية التى يقوم عليها استمرار بقائه . والحزب ، لتحقيق هذه لوسيلة ، يذهب الى القول بأن احداث الماضى ليس لها وجود موضوعى مستقل . انها توجد فقط فى وثائق

مسجلة .. وفى ذاكرة الابسان . لان مايتعارف عليه الناس على أنه (ماض) هو ماتحويه هذه الوثائق ، وما تتذكره تلك العقول البشرية . وبما ان الحزب مسيطر تماما على كل تلك الوثائق التاريخية ومسيطر ايضا - أو هذا هو المفترض - على عقول أعضائه ، اذن فسيطرة الحزب على الماضى كاملة . انه يمرر للناس ما يقصد هو أن يتصوره عن هذا الماضى ، غض النظر عما حدث بالفعل ، أم لم يحدث ، المهم ألا يتعارض هذا التاريخ مع تعاليمه الاساسية .. وتستمر هذه العملية حتى لو استدعى الامر تغيير معالم حدث تاريى واحد عدة مرات فى السنة الواحدة لان الحزب يمتلك بين يديه الحق المطلق .. واحقيقة المطلقة .

والسيطرة على الماضيتتضمن ايضا ، الى جانب تعديل الوثائق بصفة دائمة ، السيطرة على الذاكرة . لانه اذا كان تغيير الحدث التاريخى ليتطابق مع (الحقيقة الحزبية) ، يقتضى نوعا من تزييف الحدث كما وقع فى الماضى ، فان عملية التزييف هذه يجب ان تسقط فيما يسمى (بالغشاوة) . يجب ان تنسى تماما . يجب على عضو الحزب أن يدرب نفسه ذاتيا على نسيان انه قد قام بأى تغيير أصلا . مثل اليوجا ومثل اى تدريب عقلى أو فنى آخر يمكن تدريب الانسان على عملية النسيان الفكرية هذه . فالذاكرة مثلها مثل أى جهاز ، اذا دربته على عملية معينة لمدة طويله ، من الممكن ان تصل بها لدرجة الاجادة . وفى عملية يتم تدريب معظم اعضاء الحزب عليها لمدد طويلة . وبالتأكيد يتدرب عليها بتركيز كل الاعضاء الاذكياء ، بنفس التركيز الذى يتدرب به عليها الاعضاء الاكثر التزاما عقائديا بخط الحزب الفكرى . فى اللغة القديمة سميت هذه العملية صراحة (السيطرة على الحقيقة) فى اللغة الدولية الجديدة تسمى (ازدواجية العقيدة) . وان كان اصطلاح (ازدواجية العقيدة) الجديد هذا اشمل فى مضمونه من الاصطلاح القديم .

لان ازدواجية العقيدة تتضمن القدرة على الاستسلام عقليا لفكرتين متعارضتين فى آن واحد ، وتقبلهما سويا ، كحقيقة واحدة . فعضو الحزب المثقف يعلم فى أى اتجاه يجب ان يتجه نمط تفكيره .. ونمط (ذكرياته) .

ومن ثم فهو يعلم مدى تلاعبه بالحقيقة . لكنه بعد تدريبه على عملية (ازدواجية العقيدة) يمكن ان يقنع نفسه ان ليس فى نمط تفكيره مايتعارض أساسا مع لب الحقيقة . هذه العملية تتضغن شقين : احدهما واع والآخر غير واع . اذ يجب ان يكون العضو واعيا بهذا التدريب الذهنى والا لما وصل الى الكفاءة المطلوبة فى ازدواجية العقيدة ، وفى نفس الوقت يجب ان يشتمل التدريب على عملية لا شعورية موازية تمنع استثارة احاسيس

خداع النفس داخل العضو . وهى أحاسيس تفضى الى الشعور بالذنب . وازدواجية العقيدة بهذا الشكل لها علاقة بلب تعاليم (الانجشاك) .

أحد الاركان الاساسية لتطبيق تعاليم الحزب .. هو التوسل بالـ (خداع الواعى) وفى نفس الوقت الا نسمح لهذا الخداع الذاتى الواعى بأن يصيب اصرارنا على بلوغ اهداف الحزب ، بأى ضعف . عمليتان تمارسان بأمانة تامة . أى أن تقول أكاذيب وانت واع ، لما تقول ، وفى نفس الوقت ان تصدق ما تقوله . ان تتناسى واقعة معينة تتعارض مع الخط العام لتفكيرك ، ثم ان تستدعيها من ذاكرتك بعد فترة اذا تطلب الموقف هذا الاستدعاء . كلها عمليات ضرورية لايمكن الاستغناء عنها فى (الانجشاك) . وحتى عندما يستخدم العضو اصطلاح (ازدواجية العقيدة) ، يجب ان يمارس بينه وبين نفسه هذا اللون من الخداع العقلى الذاتى ، لان نفس استخدام اللفظ يعنى ضمنا تلاعبا بالحقيقة ، لكن بعملية عقلية مضادة بنفى العضو لنفسه أن هذا الاصطلاح فيه تعد على الحقيقة .. ويتم تطبيق هذه العملية مع أى لون من الوان الحقيقة الى مالا نهاية بأن تتوسل بكذبة لتقفز الى وضع تتجاوز فيه الحقيقة . بهذه العملية (ازدواجية العقيدة) يتمكن الحزب من تغيير مسار التاريخ وربما استطاع ـ فى ضوء مايتم الان ـ تغيير مساره لآلاف السنين القادمة .

والملاحظ ان كل النظم الاوليجاركية السابقة تهاوت لسببين : أنهـا تحجـرت ، أو تحللت . أى أنها : اما قد تحولت الى نظم اصابها الغرور والغباء فرفضت ان توائم مابين نفسها ، وبين الظروف المتغيرة المحيطة بها ومن ثم اسقطت . او تحولت هذه النظم الى نظم غشاها الخوف من غضب المعارضة وتجتاحها رياح التحرر ، لتقدم التنازلات تلو التنازلات لمعارضيها (بدلا من ان تلجأ الى القوة) لتنتهى الى السقوط . اى ان سقوط هذه النظم يتم اما عن وعي واما عن لا وعي . أنجاز الحزب فى (الانجشاك) أنه قد توصل الى نسق فكرى متكامل يمكن ان يتعايش فيه الوعي واللا وعي .. فى آن واحد ، لانه لايمكن للحزب ان يحقق سيطرة كاملة ودائمة الا وفق هذه الاساس الفكرى وحده . فاذا كان على الحزب ان يحكم ، وأن يستمر فى حكمه بصفة دائمة فيجب على المرء ان ينفى الاحساس بالحقيقة . من اسرار الحكم ان تعى أخطاء الماضى .. مع توهم عدم قابليتك لارتكاب نفس الاخطاء .

غنى عن القول بالطبع ، ان اكثر الناس تمرسا بازدواجية العقيدة هم من أخترعوا (ازدواجية العقيدة) ذاتها ، وهم يعلمون انها نظام شامل لخداع العقل . وفى مجتمعنا اولئك

الذين لديهم وعى افضل بما يحدث فعلا ، هم أبعد الناس فى الواقع عن الوعى الحقيقى بما يحدث . اى بصفة عامة ، كلما زاد الوعى ، زادت الخديعة . وكلما ازداد الذكاء كلما قل العقل . وكمثل واضح لما نقول : نسبة هستيريا الحرب ترتفع مع ارتفاع المركز القيادى فى الحزب . اولئك الذين ينظرون الى الحرب نظرة اكثر قربا من العقلانية هم بسطاء الناس من رعايا المناطق المتنازع عليها . بالنسبة لهم ، الحرب ببساطة مصيبة تجتاحهم دائما فى طريقها جيئة وذهابا كوحش لايعرف الرحمة ، يتسلى بالعبث والزحف على اشلائهم . أى الفريقين قد انتصر : أمر لا يعنيهم بالمرة . أدركوا حقيقة ان تغيير اسم السيد الغازى الجديد لايعنى زوال حياة السخرة التى يحيونها . كل التغيير الذى تسفر عنه الحرب هو تغيير اسم السادة الجدد فقط . امامن نطلق عليهم « البروليتاريا » وهم عمال يستغلون ولكن من درجة اعلى ، فوعيهم عن الحرب ليس وعيا ، وانما حتى وأن كان الحزب قادرا على ان يدفعهم لغرض او لاخر الى حافة الرعب او الى قمة الحماس للحرب ، لكن اذا تركوا وشأنهم ، فباستطاعتهم تناسى الحرب لفترات طويلة . اما الحماس الحقيقى . والاهتمام الاقصى بالحرب فتجده بين اعضاء الحزب ، خاصة منهم اعضاء التنظيم الداخلى . الاعجب ان فكرة السيطرة على العالم كله ، تتصاعد درجة الايمان المطلق بها مع تصاعد العضو فى سلم القيادة السياسية التى تعى ـ قبل غيرها ـ ان هذا الهدف مستحيل التحقيق . فأحد السمات الخاصة بالمجتمع (الأوشيانى) هو ذلك المزج بين الوعى ، واللا وعى بين قمة المعرفة وقمة الجهل ، بين الوعى بالاستحالة ، والرغبة اللاهثة لانجاز شىء مستحيل .. وفى المبادىء الرسمية للحزب تبرز مثل هذه المتناقضات وحتى عندما لاتكون هناك حاجة ماسة لها . وبهذا الاسلوب يرفض الحزب ويدين كل تلك المبادىء التى دافعت عنها الاشتراكية فى الماضى ، وتتم هذه الادانة وهذا الرفض ، باسم الاشتراكية ايضا . فهو يكرس نظرة فيها احتقار للطبقة العاملة والبروليتاريا ، احتقار لم يشهد التاريخ مثيلا له من قبل ، وفى نفس الوقت يجبر أعضاءه على ارتداء زى عرف عنه منذ تاريخ طويل أنه زى العمال . وفى نفس الوقت الذى يقوض فيه من دعائم الاسرة كوحدة اجتماعية نجده يرفع كشعار له : صورة الزعيم الكبير فى سمة رب الاسرة . حتى اسماء الوزارات الاربع التى تسيطر على مقدرات امورنا ، فيها اعتداء وقح على الحقيقة ، بتعمد اختيار اسماء تتعارض تماما مع طبيعة عمل هذه الوزارات . فوزارة (السلم) تختص بكل مايتعلق بالحرب ... وزارة الحقيقة تخصصها الاوحد اختلاق الاكاذيب ... وزارة الحب مهمتها التعذيب ... ووزارة الوفرة تخصصها المجاعة ... ليس هذا التناقض محض صدفة ،

ولا هو نتاج نوع من النفاق الرسمى . انها تطبيق متعمد لـ (ازدواجية العقيدة) . لان التوفيق بين التناقضات هو السبيل الوحيد للاحتفاظ بالسلطة ، لان الوضع القائم - وهو بعيد كل البعد عن تحقيق المساواة - بالرغم من ان الدعوة الى المساواة هى لب الـ (انجشاك) ، وضع يحمل تناقض الاساس فى داخله ، وبالتالى يتم تبريره ليس بالمنطق ، بل بمنطق ملتو ... يتم تبريره بلا منطق .. بقى سؤال هام تجاهلناه ، حتى الان . وهو :

لماذا ... يتم هذا الانحراف عن الهدف ، وهو تحقيق المساواة الحقيقية ؟ لانه اذا كان وضعنا سلبيا لهذه العملية الضخمة من التزوير والتزييف ، لوجب اثارة السؤال الاهم : هو الدافع لكل هذا . ما هو الدافع لتجميد مسار التاريخ عند لحظة معينة وعدم تجاوزها للوصول الى مساواة حقيقية ؟

هنا نصل الى السر الذى تتبلور حوله العملية كلها . فكما اوضحنا : قوة الحزب القاهرة او قواه الغيبية - وخاصة فى نطاق التنظيم الداخلى - تكمن فى (ازدواجية العقيدة). لكن هناك ابعاد اعمق من هذه الإزدواجية . فى هذه الابعاد نجد الدافع الحقيقى وهو ذلك الدافع غير القابل للمناقشة الذى قاد الى كل ذلك ، فمن امتلاك لزمام كل الامور فى البلاد .. و (ازدواجية العقيدة) والبوليس السياسى واستمرارية الحرب . هذا الدافع الفكرى القاهر يتمثل بالفعل فى ..

أيقظ وينستون من استغراقه فى القراءة (صوت) الصمت العميق الذى أنتبه اليه فجأة . كان صمتا مطبقا يفرض نفسه عليك الا اذا شغلت نفسك عنه بشىء كالقراءة . بدا له ان جوليا لم تتحرك بجواره منذ مدة طويلة . استلقت بجواره ، والنصف الاعلى من جسمها مجرد عن الملابس لكن دون حراك . ثنت ذراعها كالمعتاد ونامت عليها ، وخصلة من شعرها قد انسدلت لتغطى وجنتها :

- جوليا ..

- لم تجب ..

- جوليا .. هل انت مستيقظة ..؟

لا حياة لمن تنادى ، من الواضح انها مستغرقة فى نوم عميق . ضم دفتى الكتاب ، وبرفق انزل يده الممسكة به ووضعه على ارض الغرفة .. وما لبث ان سحب الغطاء فوق جسديهما . لغ ينم على الفور . بالنسبة له ، لاتوجد كلمة على احفور فى مسألة النوم .. هناك نقطة يجب ان يعرفها : (لماذا ؟)

لقد عرف (كيف) يتم كل هذا ، لكن بقى السر الاعظم : (لماذا ؟) . قال لنفسه ان الفصل الاول ، مثله مثل الفصل الثالث ، لم يقدم له جديدا لايعرفه او يعيه . ان الفصلين مجرد ترتيب لمعلوماته النظرية فى نسق نظرى . الشيء الوحيد الذى عاد عليه بالفائدة من قراءتها انه تأكد : انه ليس مجنونا . لانه اذا اتضح انك لست وحدك ، حتى ولو كان هناك واحد فقط يشاركك اراءك المعارضة ، فإن هذا كفيل بأن يبرهن لك انك لست مجنونا .. دوما هناك الحقيقة ياوينستون ودوما هناك الباطل . فاذا امسكت بتلابيب الحقيقة ذاتها وتشبثت بها حتى ضد العالم كله .. فانت لست مجنونا . عيناه تتبعان فى ذبول ضوء الشمس المكدود وهو ينتشر على الوسادة .. اغلق عينيه ، وقد شاع فى جسده دفء لالتصاقه بجسد الفتاة ، ولا حساسه ببقايا ضوء الشمس الباهت على وجهه . دفء مشوب بذلك الاحساس بالامن .. كل شيء على مايرام . (وقبل ان يسلم نفسه لسلطان النوم همهم لنفسه) لان تكون عاقلا .. لايهم العدد .. واحد مثل الف ..

وأعتبر بينه وبين نفسه انه قد نطق بحكمة غالية .. فنام .

عندما استيقظ ، أحس انه قد مضى وقت طويل وهو نائم ، الا ان نظرة سريعة للساعة العتيقة طمأنته ان الوقت مازال منتصف الحادية عشرة ، اسلم نفسه للخمول مرة اخرى .. لينتزعه من استرخائه الصوت القوى المألوف لتلك المرأة .

قالوا .. الزمن يداوى كل اراحى
قالوا .. سلم نفسك لجنة النسيان
مرت سنين .. هجر .. وحنين
سلا جرحى ينسى .. ولا قلبى يلين ...

وكانت الاغنية على نفس درجة شعبيتها بين اوساط البروليتاريا تطرق سمعك اينما ذهبت بل لقد بقيت عالقة بلهوات العمال بعد ان ازاحت نشيد الحقد ، ايقظ صوت المرأة الجهورى جوليا فتمطت وشدت اسمها عن آخره قبل ان تنهض .

ـ انا جوعانه ياوينستون .. ولكن دعنى اعد لك قهوتك اولا .. اللعنة على هذا الموقد .. مطفأ . والماء بارد .. لابد ان الغاز قد نفد منه

ـ يمكن ان نستعير قليلا منه من مستر تشارنجتون .. على ما اظن

ـ الغريب اننى تأكدت قبل النوم انه ملىء بالغاز .. انا سأرتدى ملابسى .. اولا .. الجو بدأ يبرد .. نهض وينستون هو الاخر . وبينما هو يرتدى ملابسه بالمثل كان صوت المرأة

مايزال يرن فى ارجاء الغرفة : (قالوا .. الزمن يداوى كل جراحى)...

مشى الى النافذة ، بعد أن شد حزامه الى وسطه . لا أثر للشمس .. فقد غربت تماما وتوارت خلف المبانى المجاورة .. الفناء يكاد يكون معتما . ثم أكتشف أن السماء ، كانت تمطر منذ فترة .. مازالت أرض الفناء مبتلة .. السماء نفسها يكسوها الصفاء بعد أن تركت دموعها ثرة على الارض ... الجو لايخلو من وضاءة وأشراق برغم الضوء الذابل .. لكن .. زرقة السماء واضحة بين سرب المداخن المواجه له ..

بنفس الحماس المعهود كانت المرأة تخطو جيئة وذهابا ، وكأنما قد صممت نوعا من (المحبس) لصوتها .. تطلقه آنا وتحجزه حينا آخر ، دون أن يعطلها غناؤها المتقطع عن المضى الدؤوب فى انجاز عملها الهام .. نشرْ الغسيل والسير على ارضية الفناء بخطواتها الزلزالية التى لاتهدأ . وساءل وينستون نفسه وهو ينظر للمرأة باعجاب : هل نذرت هذه المرأة نفسها لغسل الغسيل .. ونشره ؟ أم أنها مستعبدة من قبل قطيع من عشرين أو ثلاثين حفيدا تحتاج ملابسهم الى كل هذا الجهد الغريب . ان المرأة تبدو عليها ـ برغم الجهد ـ سيماء الاستمتاع بما تعمل ... بل والسعادة أيضا .. كانت جوليا قد تسللت بدافع حب الاستطلاع ووقفت الى جواره لتستطلع المشهد الذى استغرقه بذراعيها القويتين ، ونمط سلوكها المعتاد ، وخطواتها شبه المنتظمة .. أحس أن هذه المرأة جميلة .. لم يتطرق الى ذهنه أبدا من قبل أن أمرأة فى الخمسين ، تزوجت وأنجبت عدة مرات ، وكوَّن العمل المتواصل هذه العضلات لذراعيها .. وأمتص الجهد المتواصل منها رحيق النضارة .. من الممكن ان تكون مع ذلك .. جميلة . لكن ا كانت كذلك بالفعل . وتساءل : لم لا ؟ فهى بهذا الجسد الصلد ، المصبوب فى قالب واحد ممتد من اعلى الى اسفل دون انثناءات ولا تعاريج كقالب واحد أو كتمثال من الجرانيت .. وبرغم البشرة الخشنة .. هى بالفعل امرأة ، كما ان جوليا امرأة ايضا .. بنفس علاقة الوردة فى غصنها بالوردة . ثم لماذا يتعالى الناس فى نظرتهم على الفاكهة .. مقارنة بالوردة ؟! كل له نكهته الخاصة .. وجماله المتفرِّد :

ـ : أنها جميلة ياجوليا ..

ـ اسندت رأسها الى كتفه وابتسمت

ـ عرض وسطها لايقل عن متر .. على الاقل

ـ هذا هو أسلوبها الخاص فى الجمال .

أجاب وينستون وهو يلف بسهولة ذراعه حول خصر جوليا الناحل اللين . ازداد التصاق جسديهما ، لكنه يعى تماما . الحقيقة التى يعيشانها دون ان يفصحا عنها ، أنه مهما تداخل جسداهما فى جسد واحد ، فلن يخرج منهما طفل مطلقا ... فهذا هو الشىء المحرم عليهما تحريما قاطعا لايمكن ان يبلغ بهما الطيش هذا الحد .. يتبادلان الفكر نعم .. يجمعهما الحوار المثقف . والذكى نعم ... لكن هذه المرأة التى يرنـوان اليهـا لا فكر لهـا ، كل ماتملكه .. ذراعان قويان .. قلب دافىء .. وجسد خصب . تساءل وينستون متعجبا : ترى كم طفلا أنجبت هذه المرأة ؟ لو قلت خمسة عشر لما بالغت .. لابد أن هذه المرأة قد مرت بسنة أو حوالى السنة تفتحت فيها بشبابها كوردة . لكنها ـ فى طبقة البروليتاريا ـ سرعان ماتذبل .. لابد أنها استسلمت بعدئذ لمسار حياتها الطبيعى .. كشجرة وارفة الظلال والثمار والكل يقطف جناها .. أسلمت نفسها لحياة البيت : و .. غسل الملابس .. بالطبع غسل ملابس أطفالها فى السابق ، ثم أحفادها على مايبدو الان .. لابـد أن هذه الحـال قد استمرت لما لايقل عن ثلاثين عاما متواصلة .. ثلاثون عاما متواصلة .. تنتهى بأغنية ترددها .. كأن الاغنية موصولة هى الاخرى .

أحساس الاحترام الحنون الذى ينظر به نحوها ، أختلط بأحاسيسـه نحـو السماء الصافية ـ المطلة خلف المداخن المواجهة .. والافق البعيد الذى تألق خلفية للمشهد .. ممتدا رحبا موصولا بلا نهاية . داعبت ذهنه فكرة طارئة غريبة وهى أن السماء هى نفس السماء .. سواء فى (اوشانيا) أو (اوراشيا) .. او (ايستاشيا) .. و الناس هم الناس هنا وهناك ، وفى كل مكان . مئات بل الاف الملايين .. نفس الناس . تحت قبـة السماء الواحدة . ناس ربما يجهلون وجود الاخرين فى مكان آخر .. لكن تفصل مابينهم أسوار الكراهية والحقد والاكاذيب .. ومع ذلك فى النهاية هم نفس الناس أو تقريبا نفس الناس . غريب امر الانسان ... حقا .. غريب ... لكنه شعر ان داخل هؤلاء البسطاء طاقة رهيبة .. لو انهم فكروا ـ مجرد تفكير .. فى أمر أنفسهم ؟ ان البروليتاريا لم تتعود أن يخرج التفكير من نفسها لنفسها بعد ـ فى داخل قلوبهم وعضلاتهم وأجسادهم قوة رهيبة ، لو انطلقت لكانت كفيلة بقلب كل موازين القوى فى العالم .. لو ان هناك ثمة امـل .. فهـو فى البروليتاريا .

عاد يردد لنفسه . لم يكن بحاجة لان يكمل (الكتاب) لكى يصل الى هذه النتيجة ، ولابد أن جولد شستين سيصل الى نفس النتيجة حتما فى نهاية كتابه .. ان المستقبل هو

هؤلاء البسطاء من الناس . وهو متأكد بالمثل أنه اذا جاء هذا اليوم .. الذى تحكم فيه الطبقة العاملة وقدر ان يشهده .. فان العالم الذى سيقومون ببنائه لن يكون غريبا عنه .. كغربته هو فى عالم اليوم . على الاقل سيكون عالمهم عالما يسوده العقل ... لانه طالما تحققت المساواة .. فوجودها سيكون دليلا على وجود فكر عاقل .. ولابد ـ ان عاجلا أو آجلا ـ ان يحدث ذلك .. يوما ما ستتحول قوة البروليتاريا الى قوة واعية . ثم ان البروليتاريا ليست قابلة بطبيعتها للفناء ...

اجتاحه احساس بالثقة فى أفكاره ، وفى خلود «الطبقة العاملة» ، وهو ينظر الى المرأة الضخمة فى الفناء .

فى النهاية ستحدث الصحوة من داخلهم . والى أن تحدث هذه الصحوة ، التى ربما تتأخر الى ما بعد ألف عام ، ستصمد «البروليتاريا» لكل العواصف فى طريقها .. كأنطلاقة الطير .. الذى يختزن الحيوية فى صدره أينما ذهب .. حيوية ليس بوسع الحزب أن يشاركه فيها ، ولا أن يقتلها فيه . وعلى ذكر الطير قال لجوليا : «هل تذكرين طائر السمان الذى غنى لنا فى أول أيام لقائنا فى الغابة ؟»

أجابته مبتسمة :

« أنه لم يكن يغنى لنا .. كان يغنى ليطرب نفسه .. ربما ولا حتى ليطرب نفسه .. كان فقط .. يغنى ... »

الطيور تغنى .. الطبقة العاملة تغنى .. الحزب لايغنى .

فى العالم قاطبة . فى لندن ، فى نيويورك ، فى أفريقيا أو فى البرازيل ... وفى تلك البلاد الغامضة عبر الحدود ، فى شوارع باريس وبرلين ، فى قرى السهول الروسية الممتدة الى ما لا نهاية ... فى أسواق الصين واليابان .. فى كل مكان .. يتجه أفراد «البروليتاريا» واقفين فى صمود .. يتحملون عبء العمل ، وعبء انجاب عدد لا حصر له ... بين هذا الجيش من البروليتاريا لابد أن يخرج يوما جيل واع لقضايا الحياة المصيرية . أنتم هم الموتى . الحياة كمستقبل هى ملك لهم . لكن يمكنك ياوينستون أن تشاركهم الحياة لو أحتفظت بحيوية عقلك .. كما يحتفظون هم بحيوية أبدانهم .. وحملت الى المستقبل تعاليم العقل المقدسة .. أن حاصل جمع أثنين الى أثنين = أربعة .

قطع حبل تفكيره ليقول لجوليا :

ـ نحن الموتى ..»

أجابته مطيعة دون رغبة فى أثاره أى نقاش :

ـ نحن الموتى ...»

لكن صوتا قاسيا ثالثا قطع صمت الحجرة كحد السيف :

« بلى .. أنتم الموتى ..»

كان الصوت صادرا من خلفهم .. افترقا بسرعة ، كل منهما قفز فى أتجاه ، ناظرين خلفهما ... شعر وينستون كأن احشاءه قد افرغت ما فيها .. وعندما نظر الى وجه جوليا .. رأى شحوبا رهيبا .. آثار الماكياج باقية على خديها .. لكنه ماكياج بدا لفرط تناقضه مع شحوب البشرة التى يغطيها .. كأن لا علاقة له بهذا الوجه ..

« بل أنتم الموتى ..»

كرر الصوت القاسى النبرات جملته مرة اخرى

أخذت جوليا نفسا عميقا قبل أن تعلق :

« الصوت صادر من خلف الصورة المعلقة ..»

كرر الصوت جملتها :

« نعم .. الصوت صادر من خلف الصورة .. فليبق كل منكما فى مكانه تماما دون حراك ، الى أن تصدر اليكما تعليمات أخرى ..»

بدأ الحدث الذى طالما توقعاه .. بدأ أخيرا . لم يكن بوسعهما ان يفعلا شيئا الا أن ينظر كل منهما فى عينى الاخر مشدوها . فكرة الهروب من الحجرة .. أن يركضا قبل فوات الاوان .. فكرة مستحيله ومن ثم لم تطرق ذهنهما .. فى مثل هذا الموقف لامهرب على الاطلاق .. بل ليس بوسعك الا ان تطيع هذا الصوت الحديدى الصادر من الجدار . طرق سمعهما صوت تشغيل ما ، كما لو كان أحد الأزرار قد ضغط عليه . صوت أسطوانة تدور ثم صوت تحطيم زجاج الصوره المعلقة ، التى سقطت الى الارض .. لتكشف عدسة جهاز السينما التليفزيونية خلفها .

« بامكانهم أن يرونا أيضا الان ..»

كرر نفس الصوت الحديدى :

« بامكاننا أن نراكم أيضا الآن .. على كل منكما أن يقف منتصبا فى منتصف الحجره .. كل منكما ظهره للاخر . ارفعوا أيديكما خلف رؤوسكما .. لايلمس أيكما الاخر ..»

لم يتلامسا .. لكنه شعر كما لو أن جسد جوليا يرتعش .. أو ربما ماكان يحسه هو أرتعاش جسده ، هو لكنه تمكن من السيطرة على اسنانه فلم تعد تصطك بعضها ببعض . وان اخفق فى احتفاظه بنفس القدر من السيطره على ركبتيه اللتين شعر بهما تتخليان عنه فى هذا الموقف الصعب ..

طرق سمعهما صوت أقدام تقتحم المكان أسفل الحجرة .. خارج المنزل .. وداخله .. كما بدا أن الفناء الخارجى قد أصبح غاصا بأقدام كثيرة أقتحمته على وجه السرعة . سمعا صوت شىء مايسحبونه على أرضية الفناء الحجرية . توقف غناء المرأة البدينة فجأة . وعاء الغسيل بدا أن الاقدام العجلى قد أطاحت به فى طريقها .. فأخذ يتدحرج محدثا صوتا واضحا أختلط بصوت أحتجاج المرأة الذى لم يستمر .. سمعا صوت ضربة بشىء ما .. وصرخة الم ..

« لقد حاصروا المنزل ...» قال وينستون .

كرر الصوت الحديدى :ـ «المنزل محاصر .. حذار ان تتحرك ..»

سمع مايشبه الانين الممتد ، صادرا من بين أسنان جوليا المصطكة :

ـ ربما الافضل أن نقول لبعض .. وداعا الان ..»

أجاب نفس الصوت القاسى:

« الافضل بالفعل أن تودعا ـ الى الابد ـ بعضكما البعض الان .. »

ثم أعقبه صوت آخر .. أكثر حدة فى نبرته .. صوت ألوف الى حد ما لوينستون يقول :

وبالمناسبة ، طالما أننا فى موضوع الفراق :

فهاهى الشمعة تنير بها طريقك .

وها هى المطرقة أكسر بها رأسك .

كسر شىء بالفعل خلفه . كان نهاية سلم حطمت النافذة خلفه . شخص ما كان يصعد السلم من الخارج . أعقب ذلك وقع أقدام أخرى مسرعة تصعد سلم الغرفة من الداخل . امتلأت الغرفة بالجنود فى زى أسود .. ينتعلون أحذية عسكرية تنتهى باجزاء حديديه .. والهراوات فى أيديهم .

لم يعد وينستون يرتعش الان . أصبح متماسكا فى وقفته . لم يحرك حتى عينيه . وقف ساكنا تماما . أهم شىء ياوينستون ألا تتحرك .. ألا تتحرك حتى لاتقدم لهم تبريرا

لضربك . وقف قبالته جندى له ملامح بطل ملاكمة من الوزن الثقيل . فمه لايزيد عن شريط رفيع يقسم ملامح متحجره . بلل الرجل مايمكن تسميته تجاوزا بشفتيه ، ومشى متجها الى ركن الغرفة . سمع وينستون دون ان يلتفت صوت ارتطام جديد . لابد ان احد الجنود قد حطم كرته الزجاجية فتناثرت شظاياها .. قلب التحفة الزجاجية الارجوانى أخذ يتدحرج على أرضية الغرفة . تلقى أول ضربة فجائية فى ظهره .. وفى عنف جنونى كاد ان ينكفىء على وجهه ، لكن لم يفقد توازنه ، ولم يطلق أى صرخة .. شعر بالجندى الواقف خلفه يوجه لكمة قوية الى بطن جوليا .. بلغ من قسوتها أن شعرت بأنها قد قصمت عمودها الفقرى ... أنكفأت الفتاه وركعت لتزحف على ركبتيها . لم يجرؤ على النظر خلفه ، لكن بنظرات جانبية من عينيه لمح وجهها المصفر ، وصراعها اليائس لالتقاط انفاسها .. الزفرات التى تطلقها كأنها زفير .. بلا شهيق . فى كل مرة يدير بحرص عينيه الى أى جانب ، كانت زاوية عينيه تلتقط صورة وجهها الشاحب اللاهث . حتى وهو فى قبضة الرعب المطبق عليه الآن شعر كأنما الالم الذى تعانيه قد انتقل اليه هو .. كأن آلامها تعايشه هو . لكن الالم العنيف يتضاءل الى جانب رغبتها العارمة فى أن تلتقط انفاسها . كان يعى بالضبط ما تشعر به ، اذ الأقسى من الالم عدم القدره على التنفس . حاصر جسدها الزاحف جنديان وحملاها من كتفيها وركبتيها كما لو كانت حقيبة .. مجرد شىء محمول . لمح وينستون وجهها مقلوبا فى هذا الوضع القاسى .. وجها متقلصا ازداد شحوبه وصفرته .. عيناها مغمضتان .. ومع ذلك فمازالت آثار المكياج باقية ..

وقف ساكنا سكون الموتى . سيطر حتى على حركة عضلات وجهه . خشى ان يعلو صوت تنفسه عن المعتاد . لم يضربه اى جندى بعد . والافكار رغما عنه تتزاحم فى رأسه . هل ياترى قد قبضوا على مستر تشارنجتون .. وما .. ما مصير المرأة البدينة التى أعتادت أن تغنى فى الفناء . افكار لن تقدم ولن تؤخر .. لكنه غير قادر أن يمنعها من أن تجتاح عقله ... شعر برغبة حادة فى التبول . دهش من أمر نفسه فهو يتذكر أنه قد تبول منذ ساعة او يزيد . لاحظ ان الساعة العتيقة امامه تشير الى التاسعة . لكن الضوء حوله غامر . هل الساعة الان التاسعة مساء ام التاسعة صباحا ؟ هل أخطأ تقدير الوقت الذى ظل هو وجوليا فيه مستسلمين للنوم .. هل ؟!... هل ظلا ، ولاول مرة مستغرقين فى نوم عميق الليل بطوله .. الى أن أدركهما الصباح ..؟

لم يتتبع خيط أفكاره أكثر من هذا . لايهم الآن هذا الكلام ... لانه لن يؤدى الى أى نتيجة .. أخطأ أم لم يخطىء .. سَهُوا أم لم يسْهُوَا . لا أهمية له الان .. الان .. أين المفر ؟ بل منذ البداية .. أين كان المفر ؟ يسمع الان صوت خطوات متأنية وثقيلة .. متجهة اليه .. ثم رأى .. مستر تشارنجتون نفسه داخل الغرفة . سلوك الرجل الان اصبح أهدأ من المعتاد . مظهره أيضا قد تبدل .

نظر الرجل الى شظايا التحفة الزجاجية ليعلق فى اقتضاب :

« فلينظف أحدكم المكان من هذه القطع ..»

تحرك أحد الجنود على الفور لتنفيذ امر مستر تشارنجتون . لهجته العامية الشعبية قد تغيرت هى الاخرى . ادرك وينستون الان .. والان فقط .. صوت من .. ذاك الذى يردد من الجهاز أمامه شطرين من الانشودة القديمة منذ لحظات !! كان مستر تشارنجتون لايزال مرتديا المعطف القطيفة المعتاد . لكن شعره الابيض قد تحول الى شعر أسود . ولم يكن يضع أى نظارة على عينيه . حدج وينستون بنظرة نارية متفحصة .. كأنما ليتأكد أن الانسان الماثل أمامه هو وينستون وليس شخصا آخر .. نظرة بوليسية .. الحيوان قادر على أن يغير جلده !! .. لكن ليس ببراعة الانسان .. كم هو «بارع» هذا الانسان ؟

لم يعره تشارنجتون التفاتا بعد ذلك ..

كانت عينا وينستون تتبعانه . يمكن التعرف فى ملامحه على مستر تشارنجتون ، لكنه لم يعد هو مطلقا . يقف الان منتصب القامة .. فبدا أضخم حجما ، تقاطيع وجهه أيضا لم تسلم من تغيير : حاجباه أقل كثافة .. تجاعيده أقل .. قد بدا أقصر قامة .. ملامحه ككل هى ملامح رجل فى الخامسة والثلاثين .. ذكى .. ونشيط ..

وكانت هذه هى المرة الاولى فى حياته .. التى شاهد فيها وينستون أحد رجال البوليس السياسى .. وهو يعلم أنه بوليس سياسى .

* * *

الجزء الثالث

(١)

لايعلم .. أين هو الان .

الارجح أنه داخل بناية (وزارة الحب) . لكن ليس بوسعه أن يتأكد الى أى مكان نقلوه ..

وجد نفسه وسط زنزانة ذات سقف مرتفع ، صماء الجدران مصمتة بلا نوافذ ، جدرانها من القيشانى الابيض الناصع ، تغمرها اضاءة غير مباشرة ، أضاءة تزيد من احساسك ببرودة الزنزانة التى يسمع وهو جالس فيها هديرا منخفضا مستمرا ، ربما صوت جهاز التهوية الخاص بها . وقد علق الى جدار الزنزانة مقعد طويل أشبه بالرف المستطيل يمتد من اولها الى آخرها . رف لايقطعه الا عرض الباب . وفى مواجهة الباب مرحاض دون مقعد ، ولكى تستخدمه يجب ان تجلس «على قرافيصك» . وفى كل زاوية من زوايا الزنزانة تطاردك بوضوح عدسة جهاز السينما التليفزيونية .

الالم الذى يعاوده فى حالات الارهاق .. عاد يتصاعد الى معدته ببطء . شعر ببوادره منذ لحظة القائه داخل «اللورى المحكم » الذى شحنوه فيه الى هنا بالاضافة الى الم الجوع صارخا من معدة خاوية . ليس جوعا عاديا بل نوع خبيث من هذا الجوع . لم يبتلع لقمة واحدة طوال الاربع وعشرين ساعة الماضية ... أو ربما منذ ست وثلاثين ساعة ، فهو لايعرف حتى الان اذا كان الوقت صباحا ام ظهرا ام منتصف الليل . لكنه متأكد أنه منذ لحظة أعتقاله لم يدخل فمه شىء اطلاقا .

جلس ساكنا بلا حراك قدر استطاعته فوق المقعد المستطيل . يداه فوق ركبتيه ... درب نفسه طوال الفترة الماضية على ان يجلس دون حراك اتقاء للمشاكل ، لانك اذا قمت بأى حركة فجائية بالنسبة لهم ، سيصرخون فى وجهك عبر الجهاز . غير أن ألم الجوع الممض ينهش أحشاءه . مايتمناه الان أكثر من أى شىء آخر هو كسرة خبز .. مجرد أى كسرة خبز . تذكر على ما يعتقد أن هناك بقايا من كسرة خبز صغيرة فى جيب بذلة العمل الزرقاء التى يرتديها . طوال الوقت وهم يتقاذفونه من مكان الى مكان كان يشعر بشىء جامد فى جيبه يحتك بجلده مع الحركة . ربما كان محظوظا فيجد قطعة كاملة من الخبز

الجاف .. بعد تفكير أستغرق دقائق أنتهى الى قرار غلب فيه اغراء الخبز على قسوة أحساسه بالخوف ، فانزلقت يده فى هدوء الى جيبه .

« سميث ... »

صرخ الصوت فجأة .

« أنت ياحيوان رقم ٦٠٧٩ وينستون سميث . أخرج يدك فورا من جيبك .. هل تسمع ؟

عاد مرة أخرى الى جلسته الساكنة .. كل ذراع تعترض الاخرى وكل يد على ركبة من ركبتيه .

قبل أن يشحنوه الى هنا ، دفعوا به الى سجن آخر ، لابد أنه سجن عادى .. أو حجز مؤقت ، تستخدمه دوريات البوليس السياسى الى ان ينقل المعتقل الى مكان آخر . لايعلم المدة التى قضاها فى ذلك الحجز . لكنها لم تزد على ساعات فيما يظن .. اذ حتى السجن العادى لم تكن فيه ساعات ، مما جعل تقديره للوقت أمرا صعبا .. كان مكانا يعج بالضوضاء والرائحة الكريهة . أجلسوه فى زنزانة شبيهة بتلك التى يجلس فيها الان لكنها أشد قذارة وغاصة بما لايقل عن أثنى عشر أو خمسة عشر سجينا . معظمهم كما قدر مجرمون عاديون .. وان كانت زمرتهم لاتخلو من نفر قليل من المعتقلين السياسيين . جلس كعهده داخل تلك الغرفة ساكنا لايتحرك الا للضرورة ، تدفعه أجساد المسجونين المتزاحمة فى مكان لايسعهم جميعا ، ولم يكن يشغله ازدحام المكان بقدر ماشغله الخوف الذى بدأ يعتقل أحساسه كله ، والجوع الذى بدأ يشعر به ساعتها . غير أنه برغم محنته وآلامه لاحظ رغما عنه .. أن المعتقلين السياسيين القلائل منظرهم المتفرد يشى بما يعانونه من رعب وفكر ، حتى وان جلسوا فى صمت مثله ، أما بقية المسجونين العاديين ، فقد بدوا وكأن السجن لايهمهم فى شيء ، يتصايحون ويسبون حرس السجن بل يتعاركون مع البعض منهم اذا انتزعوا منهم شيئا يخصهم .. يكتبون كلمات قذرة على الارض .. ويمضغون فى مايشبه التلذذ أشياء هربوها الى داخل الزنزانة بعد حشرها فى أماكن متفرقة بين طيات ملابسهم ، وبعضهم يرد بتعليقات غاضبه ساخرة على التعليمات الصادرة من مكبرات صوت الحراس تلزمهم بالصمت .. من ناحية أخرى من الواضح أن نفرا منهم من معتادى أرتياد هذه الاماكن ، على علاقة طيبة بحراسهم ، ينادونهم بأسماء «الدلع» وهناك نوع من «تمرير» سجائر وأشياء أخرى فى غفلة متعمدة من هؤلاء الحراس . لاحظ أيضا أن طريقة

معاملة الحراس للمسجون العادى فيها نوع من التغاضى والتدليل المحسوب الا اذا لجأ السجين للعنف .

طرقت سمعه تعليقات متفرقة من الحوار الدائر حوله عن معسكرات العمل الاجبارى التى يتوقع معظم الموجودين بالزنزانة ان يرحلوا اليها .. فى رأى معظمهم ان الامور فى الغالب ستكون (على مايرام) هناك ، طالما أنك تعرف كيف (تدبر امورك مع الحراس) وكيف تصل الى بداية الطرق التقليدية المعروفة لتهريب أحتياجاتك داخل المعسكر ... استشف من جملة الحوار المتفرق حوله ان هناك شبكة للرشوة ، والمحاباة ، والوساطة والابتزاز من كل نوع ... وان هذه المعسكرات تحفل بكل الوان الشذوذ الجنسى بين قدامى المسجونين وصغارهم ، كما يمارس داخلها البغاء مع المسجونات ... بل ان النزلاء قد استطاعوا ان يصنعوا أنواعا معينة من الخمور يتم تقطيرها من عصير البطاطس . وان هناك تقاليد لتسيير هذه الامور يتولى المركز القيادى فيها المجرمون الخطرون ذوو القوة البدنية المتميزة ومنهم القتله .. وهما فئتان تعاملان داخل السجن والمعسكر معاملة خاصة . كما علم وينستون فى جلسته البائسة وسط هذا الخضم ، أن فى تقسيم العمل المتعارف عليه داخل مثل هذه المعسكرات ، يكلف السجين السياسى بأحط المهام وأدناها .

مرت عليه فى جلسته التى طالت لساعات فى هذا الحجز التحفظى أنماط متغيرة من الداخلين والخارجين : مهربى مخدرات ولصوص .. قطاع طرق وتجار سوق سوداء .. سكارى ومومسات .. بعض السكارى المقبوض عليهم بتهمة العربدة بلغ من عنف حركتهم الطائشة أن يضطر عدة مساجين للتكاتف على السكير للحد من هياجه وتلويحه بيده . ضمن من قذفوا الى داخل هذا الحجز أمرأة فى حوالى الستين ، تدلى ثدياها الضخمين ، وعلى جبهتها سقطت خصلات متهدلة من شعرها نتيجة لعراكها مع الجنود المحيطين بها .. كانت تصيح وتضرب بتلويحات من ذراعيها كل من يقترب منها .. لكن أربعة من الحراس سيطروا عليها فى النهاية مضيقين الخناق على حركاتها النافرة فى كل اتجاه . أنتزع أحدهم من يدها فردة الحذاء التى كانت تحاول ان تضربهم بها .. وقذفوا بالمرأة أخيرا فجاءت سقطتها بين ركبتى وينستون .. كادت ان تكسر فصليه بثقل جسمها على جسمه الواهن الهزيل .. أعتدلت امرأة فى جلستها للتو لتستأنف مطاردة اعدائها الذين اغلقوا باب الزنزانة ، فأخذت تطاردهم بسباب مقذع وحركات غاضبة ...

ثم اكتشفت فجأة أنها تجلس فوق جسم غريب فالتفتت الى وينستون . لم تبد أية دهشة ولكنها قالت وهى مازالت متربعة على حجره .

. «لا مؤاخذه ياحبيبى .. لم أقصد أن أجلس فوقك .. أنهم أولاد الكلب .. أولاد العاهرات الذين رمونا هذه الرمية .. أمرأة مثلى .. جمال وكمال .. لم تعلمهم امهاتهم اولاد العاهرة .. كيف يعاملونها ... لا مؤاخذه .. أكاد لا استطيع ان اتمالك نفسى....»

ثم صمتت برهة تلتقط انفاسها . وقد كان من الواضح انها متعبة ، وصحتها ليست على مايرام . ودون ان تلتفت الى وينستون هذه المرة كررت :

«لا مؤاخذة»

ثم أفرغت ما فى جوفها أمامه .. تقيأت وبسرعة . وكان ما تقيأته كثيرا .. غطى جزءا من الحجرة . بعد أن أفاقت مما قاءته على الارض .. التفتت الى وينستون الغارق فى ذهوله وقالت :

ـ أشعر الان انى أحسن حالا بكثير . أفضل شىء عندما تشعر بالغثيان أن تقىء دون تردد .. لتستريح»

وبدا أن هذه العملية قد أعادت اليها بعض الحيوية . بدت الان كما لو كانت منتشية ، فعادت تتمعن ملامح وينستون .. خيل اليها انها تعرفه . فلفت ذراعها فى ود حول كتفه وقربت وجهه قليلا الى وجهها ليستمتع أكثر برائحة ما استفرغته ، من الكمية الهائلة من البيرة التى يبدو أنها ابتلعتها ثم لتسأله فى حب أستطلاع :

ـ ما اسمك .. ياحبيبى ؟

ـ سميث

ـ اسمك سميث .. هايل .. أنا اسمى سميث مثلك ... سميث .. اتدرى .. ربما كنت امك .. او شيئا كهذا ..

المرأة تهزل قطعا .. لكنها بالفعل من الممكن ان تكون امه .

ترى ماذا كان مصيرك يا أمى ؟

هذه المرأة فى نفس حجم امه كما يتذكره ونفس سنها لو كانت على قيد الحياة .. بالنسبة للملامح .. من يدرى ؟ .. فالناس تتغير ملامحها طوال عشرين سنة فى معسكرات العمل الاجبارى .. من ؟ .. من يدرى ؟

باستثناء هذه المرأة المومس .. لم يبادله اى من الموجودين اطراف الحديث . من عادة المسجون العادى ان يتجاهل المسجون السياسى قدر المستطاع . فهو واحد من فريق (السوسة) كما يلقبهم المجرمون العاديون دون أكترات وبنظرة تحمل لونا من الاحتقار . من ناحية أخرى فأن المعتقلين السياسيين بطبيعتهم لايظهرون ادنى رغبة فى الكلام مع غيرهم ، كما يخشون - من فرط الحرص - تبادل الحوار مع بعضهم البعض ، أكثر من خوفهم من الكلام مع الغرباء . وكأنما قد كتب عليهم صقيع الوحده سواء كانوا أحرارا ، أم معتقلين ... بل حتى وهم أحرار ، أحاسيس الوحده قد أعتقلهم منذ زمن بعيد . مرة واحدة سمع نتفا من جمل متناثرة دارت بين اثنتين من المعتقلات دفعهما الزحام للالتصاق به ..كلمات متفرقه .. مهموسة على عجل فيها أشارة الى (الحجرة مائة وواحد) .. (الحجرة مائة وواحد) .. كلمات يكتنفها الوجل والغموض ... بدت له كالالغاز ، لم يفهمها .

لابد أن ساعات ثلاثاً قد انقضت منذ ألقوا به هنا . لم يزايله الاحساس بالالم الممض فى معدته ، وان ظل يتلهى ، عنه بالتمعن فى المشاهد المحيطه به . أحيانا يشتد الالم فينتزعه من أستغراقه فيمن حوله ، وأحيانا يخف قليلا لينقل ناظريه بينهم ، ويسلى نفسه بما يدور فى الغرفة التى لم تتسع فى أى وقت للعدد من الادميين الذى كان يقذف به الى داخلها ثم الى خارجها .. وهو باق ، لم يكلمه أحد ، ولم يطلب منه أى من الحراس عمل أى شىء . مجرد نفر من الموجودين .. فى حالة ترقب وأنتظار . عندما كانت تخف حدة الالم فى معدته ، كان يجتاحه أحساس بالرعب أقوى مما كان . للحظات كان يشرد خياله ليرى كل ما يتوقع أن يصيبه مستقبلا من أهوال .. كان يشاهد نفسه بنفسه .. وبواقعية شديدة جعلت بدنه يقشعر من خياله عن نفسه هو . شعر مقدما بضربات الهراوات التى لن ترحم . اللكمات توجه الى وجهه فى عنف تكاد تكسر فكيه . رأى نفسه يزحف على الارض بركبتين مسلختين ويدين داميتين .. سمع نفسه يطلق صرخات يائسة - لن تجد من يلتفت اليها - تطلب الرحمة .. ثم الرحمة .. وتخيل كيف سيكون صوته الضارع عندما يصدر من فم تهشمت معظم أسنانه . لم يجد فى خيالاته مجالا «لجوليا» ... لان خوفه الشديد مما سيحدث يكاد يطرد كل رؤيا أخرى . لم يستطع مع كل محاولاته أن يستحضر صورتها الى خياله ... يعرف أنه يحبها .. وأنه لن يخونها ... لكن هذه حقيقة وليست ذكرى .. لم يشعر بأى شوق اليها الان ... ولم يفكر فيما قد تكون تعانيه فى نفس هذه اللحظة .. رعبه مازال يطارده .. أنتظار البلاء أوقع فى النفس من معاناته .. طافت بخياله صورة أوبرايان .. مع

أمل ضئيل .. « لابد أن أوبرايان يعلم الان انهم قد قبضوا عليه ».. لكنه عاد يحدث نفسه ..وماذا لو علم ؟ .. فان «الاخوة» لاتسعى لانقاذ أعضائها . لكن اوبرايان قال له انهم يهربون أحيانا شفرة حلاقة لتساعد من يرغب فى الانتحار خلاصا من عذاب سيحيق به حتما . ربما أندفع للزنزانة الان من يحمل له شفرة الحلاقة هذه .. ربما بعد خمس ثوان .. ربما بعد ساعة .. الالم يزداد فى معدته .. شعر برعشة .. الالم يكاد يعتصره .. قاوم رغبته فى ان يصرخ .. ما فائدة الصراخ ؟ قد تكون له نتائج عكسية .. أخذ يصر باسنانه .. يجلس الان منكمشا وقد عقد ذراعيه الى صدره .. آه لو أن تغيير وضعه فى جلسته يخفف ولو قليلا من ألمه الممض .. عاد يفكر فى شفرة الحلاقة .. ليس واثقا انه سيستخدمها حتى لو هربوها له .. ثم أنه لايعرف الكثير عنهم ، فما الداعى للانتحار ...؟ طبيعى ان يحاول الانسان ان يمتد عمره دقيقة فى أثر دقيقة .. حتى لو كانت الدقيقة التالية لن تحمل له الا العذاب .. فليكسب ولو عشر دقائق أخرى تمتد بها حياته برغم مايصاحبها من يقين أكيد انها عشر دقائق تفضى به الى الجحيم نفسه .

حاول أن ينتزع نفسه من أفكاره السوداء المطبقة عليه من كل أتجاه ، بأن يحصى عدد بلاطات القيشانى فى زنزانته الحالية .. خواطره لم تعد متعلقة بما حدث فى الحجز التحفظى الذى كان بمثابة (محطة عبور) له فى رحلة العذاب .. عاد يتأمل جدران زنزانته المكسوة بالقيشانى . حاول ان يحصى بادئا بالبلاطة الاولى من أعلى هابطا الى اسفل ، ثم العكس . الالم بدأ يصعد من معدته الى صدره .. ولم يهبط . أخطأ العدد ، فأعاد الكرة مرة اخرى من اسفل الى أعلى . لم يستطع ان يكمل عد صف واحد ، دائما عندما يصل الى منتصفه يخطىء فى الرقم التالى . لم تسعفه هذه اللعبة فى الهائه عن احساس بدأ يشتد بالجوع القاتل . يشعر الان ان الوقت نهار .. بل ان النهار قد أنتصف .. اللحظة التالية عاد ليحصى عدد ساعات أفترضها منذ أعتقلوه ليصل الى نتيجة عكسية .. أن الوقت الآن لابد وأن يكون .. منتصف الليل فى مثل هذا المكان هو متأكد غريزيا أنهم لن يطفئوا الانوار . النوم فى مثل هذه الاماكن ترف غير مسموح به ابدا . عاد ليحصى بلاطات القيشانى .. ثم توقف .. أرهقته اللعبة .. ولم يفارقه أحساس الالم والجوع .. برقت فى ذهنه فكره : (أذن هذا هو المكان) .

« حيث لن يكون ظلام »

كما ردد أوبرايان عندما أخبره أنه سيلقاه فيه .. لكن بريق الافكار يخبو مع العذاب .. هو يعلم ان مبنى وزارة الحب ـ اذا كانت زنزانته كما يتوقع داخل مبناها ـ بلا نوافذ . ربما كانت الزنزانة التى يسجن فيها هو الآن فى قلب المبنى ، ربما كانت على أطرافه المطلة على الشارع .. من الجائز ان تكون تحت الارض بعمق ثلاثين مترا مثلا .. لكن لماذا لاتتركه أفكاره فى حاله ؟ لماذا يفكر فيما لا جدوى منه ؟ عقله ينتقل به فى خضم الافكار التى تصطرع فى داخله من مكان الى مكان .. وهو يحاول جاهدا ان يتعرف موقعه فوق سطح الارض .. هل زنزانته مدفونة فى قلب الارض أم على ارتفاع شاهق يناطح السماء ؟

سمع صوت أقدام فى الخارج ، تتجه اليه . ثم فتح الباب الصلب الكبير محدثا صوتا كالصرير . تقدم الى داخل الزنزانة ضابط شاب فى زى اسود أنيق .. ثنية البنطلون كحد السيف ، بدلته الرسمية السوداء الانيقة تكاد تتلألأ فهى مصنوعة من الجلد اللامع ، ملامح الضابط الشاب مستقيمة . وجه من تلك الوجوه التى تكاد تكون مرسومة بالقلم والمسطرة ، قسماته شمعية بلا حياء ولا انفعال . دخل وأشار الى الحراس الذين يرافقونه أن يدخلوا السجين الذى كانوا يقودونه ...

كان هذا هو الشاعر أمبلفورث قد قذف به فى الزنزانه ، ثم خرج الجميع وأغلق الباب الضخم بقوة محدثا دويا .. أمبلفورث .. حركاته شاردة غير مستقرة . خطا خطوة أو خطوتين داخل المكان ، ثم دار حول نفسه .. لايبدو أنه يحس بوجود وينستون حتى الان .. مرت اللحظات الاولى التى يحاول فيها المعتقل التعرف على المكان الذى نقلوه اليه . عيناه العليلتان من عدم النوم ومن الاضطراب زائغتان تتنقلان بين جنبات الغرفة الخاوية الصماء .. لكنهما تنظران الى أعلى .. الى مستوى يعلو عن مستوى رأس وينستون بحوالى المتر .. قدماه بلا حذاء وتطل اصابع قدميه من ثقوب جواربه الرثه . ذقنه لم تحلق منذ عدة ايام أو ربما منذ اسبوع .. مظهره كأحد قطاع الطرق .. مظهر بدا متناقضا فى سخريه مع رشاقة جسمه ، والتوتر العصبى الواضح فى حركاته كلها .

انتزع وينستون نفسه من حالة البلادة المسيطرة عليه ، ونهض فى محاولة أن يراه الرجل ، اذ يجب أن يتحدث اليه ، بالرغم من الصرخة المتوقعة من ميكروفون الجهاز . فالحوار بين المعتقلين ممنوع منعا باتا كما تقضى التعليمات . توقع ان يكون أمبلفورث هو حامل شفرة الحلاقة المهربة اليه من (الاخوة) . فابتدره مناديا :

« أمبلفورث .. »

لدهشته لم يصرخ فيه صوت من الجهاز . أما أمبلفورث فقد توقف عن الحركة ، وقد دهش الى حد ما لسماع صوت انسان آخر غيره فى الزنزانة . ثم ركز عينيه على محدثه .

« آه .. سميث . وينستون سميث .. أنت أيضا هنا »

سأله وينستون بعد ان زالت دهشته :

«لماذا قبضوا عليك ؟»

ألقى الرجل بنفسه الى الـ «دكة» المستطيلة بحركات مضطربه غير متناسقة بسبب ما يعانيه من أرهاق ، قبل أن يجيب .

« لكى أصدقك القول .. لقد كنت أ ... لكن أليست هى تهمة واحدة تلك التى يعتقلون الناس بسببها ...؟ أليس كذلك ؟!

« هو كذلك بالفعل وهل ارتكبت أنت هذه التهمة ؟ »

« من الواضح امامك اننى قد ارتكبتها .. »

رفع يده وضغط على جبهته باصبعيه كأنما يحاول ان يتذكر شيئا ماثم ليستطرد :

« الاعتقال أمر عادى ، يحدث كل يوم أيا كان .. أنا فى الحقيقة أحاول أن أتذكر كيف بدأت حكاية أعتقالى .. نعم .. كنا بصدد أصدار طبعة معينة لاعمال راديارد كيبلنج ، فسمحت لنفسى ان ابقى كلمة «الله» فى نهاية الشطرة الثانية من بيت الشعر ... لم يكن بوسعى الا أن أترك الكلمة .. »

توقف للحظة يلتقط فيها أنفاسه المضطربة ، ثم ليضيف ، وقد فشا فى لهجته استنكار واضح ، رافعا عينيه ليحدج فى وجه وينستون :

« كان من المستحيل ان أغير نهاية الشطرة ...»

القافية السائدة فى القصيدة كلها تستلزم ذلك . البيت السابق انتهى بـ «عصاه» . أتدرى انك لن تجد فى اللغة كلها مايزيد على اثنتى عشرة تفعيلة لها نفس الجرس الشعرى الذى لمسته فى هذه القصيدة .. رفع كلمة «الله» كان سيفسد بناء القصيدة كلها .. تصور أنى ظللت أعمل الفكر أياما عديدة جاهدا لاستبدالها ... لكن مستحيل . لايمكن أن تغير الكلمة دون تغيير القافية كلها .. استبدال الكلمة كان مستحيلا شعريا ... »

مالبث الشاعر وهو يتكلم عن القافية أن زايلته تدريجيا نبرة الغضب ، بل لقد بدا كما لو كان مبتهجا الان بما فعل ، ولمع فى عينيه بريق هذا الصنف من المثقفين الذى ينتابه

غرور لاحد له لاكتشافه معلومة ثقافية لا نوع لها فى الحياة العامة ، لكن يبدو له أنها فى غاية الاهمية . وكأنما كانت عيناه جذلتين برغم ما أصابهما من كلال ، وما غطى شعره المنكوش من قذارة .

عاد ليستطرد :

ـ هل تعلم ان فى اللغة الانجليزية كلها ، وعبر التاريخ الطويل للشعر الانجليزى ، هناك حقيقة مسيطرة ، وهى ان القوافى فى اللغة الانجليزية محدودة .. تكاد لا تخدم أغراض الشعر كلها ..

أجابه وينستون بسؤال :

ـ هل تعلم أنت فى أى يوم نحن من فضلك ؟

أخذ أمبلفورث بالسؤال ، فأخذ يتلفت حوله ، كأنما سيجد الاجابة فوق جدران الزنزانة الملساء :

ـ الحقيقة لقد أعتقلونى منذ .. منذ .. انا لم افكر فى الواقع فى أى يوم من ايام الاسبوع نحن الان .. لقد أعتقلونى منذ يومين .. ربما منذ ثلاثة ايام ..

عادت عيناه تمسحان جدران الغرفة بحثا عن نافذة أو أى فتحة :

ـ هذه الزنزانة بلا نوافذ . لا فرق بين الليل والنهار هنا . لا أدرى كيف سأحسب مرور الوقت منذ الان ـ تبادلا بعد ذلك حديثا متقطعا فى مختلف المواضيع . ثم ، فجأة وبلا سبب صاح فيهم صوت عنيف من الجهاز : « ممنوع الكلام ياسجين أنت وهو » .

فألتزم كلاهما الصمت على الفور . عاد وينستون لجلسته البليده وقد عقد ذراعيه الى صدره . أما أمبلفورت الذى لم يساعده طول ساقيه على ان يستقر على أى وضع فوق هذه (الدكة) الضيقة ، فقد أخذ يقلب كافة الاوضاع التى يمكن ان تؤدى به الى وضع ثابت مريح دون جدوى ... فعاد صوت الجهاز ينبح فى وجهه « أمتنع عن الحركة ياسجين .. امتنع عن الحركة .. أثبت » . هو يريد فعلا أن يخلد الى السكون ، وأن يمتنع عن الحركة فعلا لكن كيف ...؟

الوقت يمر .. عشرون دقيقة تقريبا .. يبدو ان كلمة (تقريبا) هى الساكن الجديد الذى سيشاركهم حياتهم منذ لحظة الاعتقال .. لا .. فالوقت الذى مر يزيد بالتأكيد عن ثلث الساعة .. بل لابد ان نصف الساعة .. ربما ثلاثة أرباع الساعة قد مضت .. جلسا دون

ان يتبادلا كلمة واحدة .. كل ينظر الى الاخر بنظرات جانبية على فترات .. والصمت ثالثهم .

ومرة اخرى سمع وينستون دبيب اقدام قادمة من الخارج . ربما قرروا أعدامه دون استجواب .. وقف واجفا .. فتح الباب .. نفس الوجه الصارم نفس الضابط الانيق الشاب .. وباشاره مختصره استدعى امبلفورث قائلا :

« خذوه الى الزنزانة رقم ١٠١ »

سار معهم أمبلفورث بخطوات متثاقله ، ووجه مضطرب ، لكنه لايبدو أنه يفهم شيئا .. أغلق الباب ...

عاد وينستون الى وحدته .. الالم فى معدته لم يزايله .. خواطره الشاردة تدور فى نفس الحلقة المفرغة .. تنتهى الى حيث تبدأ ، وتبدأ من حيث تنتهى .. تلخصت كل خواطره المتواتره حول ست نقاط متفرقة احيانا ومتداخله فى أغلب الاحيان .. قطعة خبز .. الألم الذى أحتل معدته .. جراحة التى ستنفجر من جسده أثناء طقوس التعذيب المترقبة .. أوبرايان .. جوليا .. شفره الحلاقة التى سيهربونها اليه .

عاودته نوبة الم حاد ، بينما دبيب الأحذية الثقيلة فى الخارج يقترب من زنزانته ثانية . عندما فتح الباب .. نفذت الى أنفه مع الهواء الداخل عبر الباب المفتوح .. رائحة عرق نفاذة .. عرق بارد .. ثم دلف الى قلب الزنزانة : بارسونز !!

كان يرتدى بنطلونا كاكى قصير ، وقميص أسبور .

هذه المرة جاء دور وينستون لان تأخذه الدهشة .. دهشة أنسته مؤقتا شدة الالم المعتمل فى معدته فنهض صائحا :

« أنت !! .. هنا ؟»

رد عليه بارسونز بنظرة ـ لاتحمل دهشة ولا أهتماما بوجود انسان يعرفه ـ مجرد نظرة تكشف فقط عما يعانيه من بؤس شديد . ظل يتقدم ويتأخر داخل الزنزانة التى أغلقت عليها . وجد صعوبة فى السيطرة على حركاته متقدما ومتأخرا ، بل وجد صعوبة فى أن يظل واقفا . حاول ان يخفى رعشة ركبتيه اللتين اخفقتا فى تحمل جسده بعد الان ، فجلس . عيناه مشدوهتان تعكسان فى مرارة صدمة أنسان لايصدق أنه قد أعتقل . نظراته غريبة ، شاخصة فى اتجاه واحد ، برغم الفراغ الذى يلف الزنزانة . سأله وينستون .

ـ ماهى التهمة التى قبضوا عليك بسببها ؟

ـ الانحراف الفكرى

قالها بارسونز وهو يدارى خجله ، جفناه يرتعشان .. دون ان يقوى على مواجهة نظرات وينستون المستطلعة فى عدم فهم .. الطريقة التى يتكلم بها تشى باعترافه الكامل بذنبه .. وتعكس رعبا واضحا من نتائج الجريمة التى أرتكبها ، ورعبا أيضا لاكتشافه أن هذه الجريمة أصبحت لصيقة به هو .

توقف أمام وينستون يسأله ضارعا كما لو ان مصيره بين يديه :

ـ هل تعتقد أنهم سيعدموننى ؟ لا أظن انهم سيعدموننى .. ياصديقى ؟ .. هل يعدموننى حقا لما ارتكبت ؟ هم لايطلقون الرصاص على رأسك جزافا . الا اذا كنت قد فعلت شيئا عن قصد وتعمد ، وليس مجرد الانحراف الفكرى ... ان ... ان ..

ان كل ما ارتكبته هو عدة افكار . لم يكن بمقدورى أن أسيطر على نفسى فيها . أنا متأكد ان تاريخى المشرف فى الحزب سيشفع لى . أنا أثق انهم سينظرون بعين العطف إلى تأريخي معهم . أنا واثق أنهم سيمنحوننى فرصة أدافع فيها عن نفسى . انت تعلم أى رجل كنته انا طوال عمرى .. لم أكن منحرفا على أى وجه بأية حال .. أنا لا أتمتع بذكاء حاد أو فطنة فى تصرفاتى .. أنا معترف .. لكننى طوال عمرى مجتهد .. فى خدمة الحزب طوال الوقت .. ألم ابذل كل طاقتى من اجل خدمة الحزب ؟ أليس كذلك ياوينستون ؟ أليس كذلك ؟ ألم أخدم الحزب بكل جهدى ؟ .. أليس كذلك ؟ .. ربما حكموا على بخمس سنوات .. نعم .. لن تزيد المدة على خمس سنوات .. تاريخى يشفع لى .. ربما حكموا حتى بعشر سنوات ، لكن انسانا مثلى يستطيع ان يخلق لنفسه مجالا يقدم فيه النفع للحزب فى أى معسكر أعتقال .. لكن .. لكن .. لكن هل يطلقون عليك الرصاص اذا انحرفت مجرد مرة .. مرة واحدة !! ؟

سأله وينستون باقتضاب :

ـ هل أنت مذنب حقا ؟؟

صاح فيه بارسونز :

بالطبع .. يا أخى .. أنا مذنب .

قالها وعيناه الذليلتان تتطلعان الى احدى العدسات التيليفيزيونية الأربع المثبتة فى المكان . ثم ليستطرد :

ـ وهل تظن ان الحزب . كان سيعتقلنى هكذا دون ذنب ؟ هل يعتقل الحزب الابرياء ؟ هه ؟ وجهه الضفدعى هدأ قليلا فأسند ظهره الى الحائط ، وقد رسم على محياه أحساسا منافقا بالاستنكار أن تكون مجرد هذه الفكرة قد خطرت بذهن محدثه ، وليضيف :

ـ ان الانحراف الفكرى شىء فظيع .. يارفيقى « قالها كأنه جمع فأوعى ، بطريقة من يوجز حكمة غالية فى كلمات قليلة . ثم أستطرد :

ـ هذا الانحراف الفكرى مخادع ، يمكن ان يتملكك دون وعى منك . هل تعرف كيف تملكنى انا هذا الانحراف الفكرى ؟ .. أثناء نومى يارفيق .. اثناء نومى .. نعم .. هذه هى الحقيقة .. وها أنا طوال عمرى كما تعرفنى ، أحاول دائما أن أبذل قصارى جهدى من أجل الحزب . لم يخطر ببالى قط ، أن مثل هذه الافكار الشاذة تشغل بالى .. أبدا .. ابدا ...

ثم فجأة بدأت عادة الكلام اثناء النوم تهاجمنى . هل تتصور ماذا كنت أردد أثناء نومى ؟

صوته الان اصبح متخاذلا .. حزينا .. كأنه يشعر بمنتهى الخزي ، ليكمل .. بنبرة مريض مضطر ان يفصح عن كلمه نابيه امام الطبيب وهو عاجز عن اخفاء حرجه :

ـ كنت اردد وأنا نائم (فليسقط الزعيم !!) نعم .. أنا نفسى كنت اردد شيئا فظيعا كهذا .. بل لقد رحت اكرر الجمله المره تلو المرة اثناء نومى .

بينى وبينك يارفيق .. أنا حقيقة سعيد انهم اكتشفوا هذا القول فى وقت مبكر قبل ان تستفحل فى عقلى هذه الأفكار الشريرة ..

هل تعرف ماذا سأقول لهم ، عندما يقدمونى للمحاكمة ؟ سأقول لهم «شكرا» نعم سأقول لهم : (شكرا لانكم انقذتمونى قبل ان تتوغل هذه الافكار الضاره فى رأسى) .. هذا ما سأقوله ..

لم يعد الان يعلم ان كان الرجل يحدثه هو ، أم يحدث سماعة الجهاز الذى يشاطرهم الزنزانة . عاد وينستون ليسأله :

ـ لكن من الذى ابلغ عنك ؟

ـ ابنتى الصغرى ..

اجاب بارسونز هذه المرة بفخر حزين .

ابنتى استرقت السمع من ثقب الباب ، لتسمعنى اردد اثنـاء نومـى هذه العبـارة الفظيعة . صباح نفس الليلة تسللت الى رجال البوليس السياسى وأبلغتهم بما سمعت .. عمل بارع طبعا من طفلة لم تزل بعد فى السابعة .

توقف برهة قبل ان يكمل . هذه المره نبره صوته الحزين تفضح أحساسه الحقيقى برغم مايقول :

ـ انا لا احمل حقدا او ضغينة ضد الفتاة . فى الحقيقة انا فخور بها . مما يدل على انى قمت بتربيتها على احسن وجه ، برغم اى شيء .. هذا دليل على أنى ربيتها تربية حزبية سليمة ...

أنتصب واقفا وظل يقطع الزنزانة فى خطوات قلقة جيئة وذهابا .. وهو ينظر المرة تلو المرة الى .. المرحاض .

ثم فجأة ، ودون سابق أنذار ، خلع بنطلونه القصير قائلا :

ـ لا مؤاخذة يارفيق .. لا استطيع ان انتظر اكثر من هذا .. أمعائى مضطربة قليلا من الـ »

ولم يكن فى حاجة فعلا إلى الاستئذان ، فقد أفرغ ما فى أحشائه فى المرحاض . لم يقو وينستون ان يمنع نفسه من ان يغطى وجهه بسرعة بيديه .

صرخ الصوت من الجهاز :

ـ سميث . أكشف وجهك فورا .. ممنوع تغطية الوجه باليدين فى الزنزانة ... أسا مع أنت ؟

أطاع وينستون ، بينما استمر بارسونز فى قضاء حاجتـه ، مطلقـا أصواتـا كريهـة مسموعة ، مع كم هائل من البراز . بعد ان انتهى وجد ان ماسورة المياه الموصلة الى المرحاض لاتعمل . وظل المكان يفوح برائحة رهيبة لساعات طويلة تالية ..

ثم قدم من نقل بارسونز الى زنزانة اخرى .

سجناء آخرون أتوا .. ومضوا .. دون ان يعرف سببا لقدومهم ولاسببا لرحيلهم .. منهم .. كانت امرأة ، طلب الضابط الصارم الانيق ترحيلها بعد فترة الى الزنزانة «١٠١» لاحظ وينستون ان المرأة ما ان سمعت هذا الرقم حتى انتفضت مرتعشة وغاض اللون من وجهها المصفر .

ومضى وقت طويل كان لايحيل النهار ليلا . اذا كانوا قد أحضروه نهارا ، أو الليل نهارا اذا كانوا قد أحضروه ليلا . لم تعد مسأله الصباح او الظهر او المساء تهمه بنفس الدرجة الان . انهم الان ستة سجناء داخل الزنزانة .. رجال ونساء جميعهم جلسوا فى صمت وسكون .

أمامه مباشرة جلس على المقعد المستطيل رجل بلا ذقن تقريبا . شكله أقرب الى شكل الفأر .. أصداغه بارزة ووجنتاه السمينتان منتفختان لدرجة تعتقد معها أنه يخبىء كمية من الاكل على كل جانب ... عيناه الرماديتان فى شحوب طفقتا تتنقلان بين الأوجه المحيطة به ولكنها تبتعد عن أى وجه يجد صاحبه يبادله النظرات .

فتح الباب مرة اخرى .. والقوا بسجين جديد داخل الغرفة .. أثار منظره بمجرد دخوله القشعريره بين سائر المعتقلين .. من الواضح أنه رجل عادى بسيط المظهر .. حرفى او مهندس او ماشابه .. لكن شكل وجهه كان مرعبا .. عبارة عن جمجمة يكسوها بعض اللحم . ولشدة هزالة وشحوبه الرهيب ، بدت عيناه كنقطتى ضوء باهت تطلان من حفرة عميقة ، فمه بدا اكثر اتساعا . هيكل الرجل مثل صارخ لمدى مايمكن ان يؤدى اليه تجويع انسان . عيناه المحفورتان .. ماتت عليهما نظرة كراهية ضد شيء ما ، أو انسان ما . جاءت جلسة الرجل على بعد ياردات قليلة من وينستون . لكن الاخير لم يجرؤ على ان ينظر اليه مرة اخرى ، وان ظل يعى وجوده تماما ، كما لو ان جمجمته وهى ماثلة امامه تماما . تعبر عن الانذار بما يمكن ان ينتهى اليه معتقل اجبر على الجوع .. بدا أن الرجل كان رسالة خفية ابلغت تلقائيا الى جميع من بالغرفة ، مفهومها ، دون حاجة الى لغة . وجه الرجل نفسه كان لغة الجوع بالغة التعبير . واحد فقط شذ عن الجميع ووجد الجرأة على التحديق المستمر فى وجه الرجل المرعب . السجين ذو الوجنتين السمينتين .. ظل ينظر الى ملامح الوافد الجديد ، ثم زاغت عيناه الى اتجاه آخر كأنما يستشعر الذنب ، ليعود مرة اخرى فينظر اليه . كأن مغناطيسا يشد ناظريه الى شيء مثير . وما لبث ان تململ فى جلسته ، ثم نهض واقفا ، أدخل يده فى جيب بذلة العمل الزرقاء يبحث عن كسرة من الخبز اخرجها بسرعة ، ليتجه للرجل الشاحب ليناولها اياه ..

منعه صوت كالرعد .. صوت آمر غاضب صادر من الجهاز .. ارتج عليه .. فقفز عائدا الى مكانه السابق . وبرغم هزاله فقد وضع يديه خلف ظهره بسرعة ، كأنه ينفى لعدسة الجهاز انه ـ قد حاول مجرد محاولة ـ ان يأخذ قطعة الخبز .

الصوت الغاضب مازال يطارد الرجل ذا الوجنتين السمينتين :

- بامستيد .. أنت يارقم (٢٧١٣)

الق بقطعة الخبز التى معك فورا ..

ألقى الرجل بقطعة الخبز على الارض فى حسرة . لكن فورا .. وجنتاه ترتعشان . وما لبث باب الزنزانة ان فتح ، وخلف الضابط الشاب دخل أحد الحراس ضخام الأجسام ، رجل قوى البنية كالفحل .. مشى الى ان وقف قبالة بامستيد هذا . ثم ، باشارة من الضابط عاجل الرجل بلكمة أستجمع فيها الحارس كل قوته ، فارتج جسمه .. مرتطما بالجدار ، ثم منكفئا مرة اخرى فى اتجاه الحارس ، الذى أخلى له الطريق ليقع على الارض .

لثوان ظل الرجل ذاهلا لسرعة ما حدث .. ولشريط الدم الذى بدأ يتدفق من فمه ، ومن فتحتى انفه .. فصدر عنه صوت يجمع الالم بالمذلة بالاحتجاج .. فى ضعف شديد أقرب الى مواء القطة . استند الى يديه الاثنتين والى ركبتيه ليستجمع قواه ويحاول بصعوبة أن ينتصب واقفا .

حدث كل ذلك دون ان يطرف جفن لبقية السجناء .. الى أن زحف زميلهم على يديه وركبتيه ، بعد ان أخفق فى الوقوف على قدميه ووصل الى مكانه السابق فجلس وقد تحول وجهه المنتفخ اصلا الى مايشبه الكرة المحمرة اللون داخلها فراغ أسود هو فمه . الضربة الوحشية التى أجتاحت وجهه أفقدته معظم أسنانه الامامية ... ظلت نقاط من الدم .. تتساقط من فمه الى صدره ، لكن عينيه لم تكفا عن الانتقال من وجه الى وجه تدور بين بقية المعتقلين بنظرة أثقلها الاحساس بالذنب المضاعف . كأنه ينوب عنهم فى تحمل كل المذله التى يمكن ان يتحملها أنسان . الا ان نظرته تحمل أيضا خجل من يحاول ان يكتشف الى اى حد بلغ أحتقار المحيطين به لكل ما أبدى من انهيار وتخاذل وضعف .

فتح الباب مرة اخرى ، ليدلف نفس الضابط الصارم الوجه ، وهذه المرة ليستدعى المعتقل الضامر الوجه باشارة من يده ، ليقول له فى حسم .

سترحل الى الزنزانة ١٠١

شهق الرجل بجوار وينستون ، وأرتمى على ركبتيه أمام الضابط وعقد يديه الى صدره علامه التضرع :

- يارفيق .. ياحضرة الضابط

قال مستعطفا فى صوت صارخ يعكس الهلع

ارجوك الا تنقلنى الى هذا المكان ، ألم أعترف لك بالفعل بكل ما أعرف حتى الان ؟ لم يبق شيء لم أعترف به .. لا شيء .. لم يبق شيء أعرفه الا وأعترفت به . اذا كان لديك أى شيء تأمرنى ان أعترف به .. قل لى عليه ، وسأعترف .. على الفور . أكتب أى شيء وأنا أوقع عليه حالا .. أى شيء .. لكن أعتقنى ومن الزنزانة ١٠١ .

أشار الضابط فى أيجاز :

«الزنزانة ١٠١»

الرجل الضامر الوجه ، والشاحب شحوبا لايصدقه عقل منذ البداية ، تحول وجهه الى لون كان وينستون يعتقد ان بشرة الانسان لايمكن ان تكتسى به ابدا ، الى أن رآه بالفعل أمامه . بشرة الرجل تحولت : الى اللون الاخضر ، هذا الهيكل قد تحول الى مرحله مابعد الموت وهو حى يرزق .. ومازال يصرخ :

ـ يا حضرة الضابط أفعل بى ماتريد ، لقد جوعتمونى لاسبوع كامل حتى الان . فقط أرحمونى ، ودعونى أمت . أطلقوا على النار أنتهوا منى وأنهونى . اشنقونى اذا كنتم تستكثرون عليّ الرصاص . أحكموا عليّ بخمس وعشرين سنة أشغال شاقة فى أى معسكر عمل . سأعترف لكم بأى شيء تودون أن أعترف به . لايهمنى ان أعترف على من أو بماذا . لدى زوجة وثلاثة اطفال اكبرهم فى السادسة أحضروهم أمام عينى وقطعوا رقابهم ... ممكن ان أتحمل حتى هذا . كل ذلك الا الزنزانة ١٠١

كرر الضابط جملته السابقة ، ناظرا للحارس :

« الزنزانة ١٠١»

كاد الرجل أن يجن .. نظر فى ذهول حوله . لايدرى بمن يستنجد ، لم يكن حوله الا مجموعة المعتقلين الذين ران عليهم صمت ثقيل . ترى هل كان يتوقع ان يتقدم أحدهم ليأخذ مكانه .. مازالت عينا الرجل تعكسان الهلع ... تركزت أخيرا على الرجل ذى الوجه المتورم . رفع ذراعه الواهن وأشار اليه :

ـ هذا هو المتهم الذى يجب ان تنقلوه .. ليس أنا .. أنتم لم تسمعوا ماقاله .. ماذا كان يقول بعد ان ضرب على وجهه . أعطونى فرصة وسأخبركم بكل كلمة قالها . انه هو المتهم الذى عمل ضد الحزب ليس أنا ..

تقدم منه الحراس بالرغم من صياحه

أستمر الرجل فى أستجدائه اليائس ، بصوت مشروخ :

انكم لم تسمعوا ماقال . سماعة الجهاز كانت لاتعمل عندما هاجم الحزب . سأقول لكم كل شيء تفوه به .

أنه هو .. انه هو .. أنه هو الذى يجب أن تأخذوه .. أتركونى ..

أنحنى حارسان لينتزعاه من مكانه الى حيث يجب ان ينقل ، لكنه ألقى بنفسه بسرعة الى الارض وتشبث بأحد الارجل الحديدية للمقعد المستطيل .. مطلقا صرخة استرحام أقرب الى عواء كلب جريح . قبض الحارسان القويان كل منهما على ذراع لانتزاعه من مكانه المتشبث به . الا انه لدهشتهما قاوم مقاومة عنيفة برغم مايبدو عليه من وهن . أستغرقت مقاومته فترة طويلة نسبيا ، مايزيد على العشرين ثانية ، وهما يجذبانه عبثا . أما سائر المعتقلين ، فكان الصمت والخوف قد عقل السنتهم وأعينهم . كل منهم جلس ينظر امامه دون ان يجرؤ على ان يغير أتجاه نظرة عينيه .. نفذ صبر الحراس . فانطلق صوت كالفحيح من السجين القابع بين أيديهم ، عندما ركل احدهم أصابع يده فى عنف فكسر عدة أصابع ثم جذبوه على الارض وهو لايقوى حتى على الصراخ . رأسه مدلى على صدره . كان مايزال حيا يتنفس .. عندما نهر الضابط الحارسين ، كمن يوبخهم على تكاسلهم :

ـ القوا به بسرعة فى الزنزانة ١٠١

وخرج الموكب الحزين .. حارسان كالجبلين يجران شيئا بينهما كالفأر .. المسلوخ ..

وعاد الصمت يكتنف المكان .. ومضت الساعات متثاقلة .. مرة اخرى يعيد وينستون حساباته الخاسرة . لو ان لحظة اخرجوا الرجل من الزنزانة كانت صباحا ، فلابد أن المساء قد حل الان ، او العكس . الزمن هنا لايتحرك .. أحس به يرتد الى داخله ، تحولت الزنزانة مرة اخرى الى سجن أنفرادى بعد ان نقل كل من كانوا فيها من المعتقلين الواحد ، تلو الاخر .. وبقى هو .. وحده .

ازداد ألمه الناجم عن جلوسه فترة طويلة على الـ (دكة) الضيقة الصلبة . أضطر الى الوقوف عدة مرات ليتمشى فى الزازانة . لم ينهره صوت من جهاز السينما التلفيزيونية . وكسرة الخبز مازالت فى مكانها حيث أسقطها الرجل ذو الوجنتين السمينتين . وجد صعوبة بالغة أول الامر . ألا ينظر اليها . ثم انضم الظمأ الى معسكر الجوع وهاجماه كلاهما بقسوة . أصبح يشعر ان «ريقه» جاف ، وان لعابه قد يبس داخل حلقه لكثرة ابتلاعه ،

ليبدأ طعم المرار يزحف الى لسانه .. مالبث لعابه ان اصبح اكثر لزوجة وسمكا . شعر بحلقه وقد بدأ يجف . الصوت الرتيب الصادر عن جهاز التهوية ، وفيضان الضوء الباهر بقوة أضاءته الثابته ، ولدا داخله أحساسا بالدوار ، وبأن رأسه قد أصبحت مفرغة لا تضم الا الخواء . عاد ليجلس لدقائق ثم ليهب واقفا رغما عنه ، فقسوة الالم السارى فى كل عظام جسمه أصبحت غير محتملة ، ليجبره الارهاق على الجلوس مرة اخرى لان ساقيه لاتقويان على حمل جسمه الان بعد ان بدأ الوهن يزحف اليهما . وفى الفترات الوجيزة التى كان يستعيد فيها قواه البدنية والحسية ، كان الرعب يهاجمه بقسوة ، الخوف من التعذيب القادم لم يزايله . الدوار الان يرحمه من التفكير المنظم ، تحول ضعفه الجسمانى الى نوع من الرحمة . أحيانا كان يعاوده التفكير فى اوبرايان وفى شفرة الحلاقة التى تحولت الان الى سلاح منقذ . خواطره أصبحت تتركز على أمكان ارسال الشفرة داخل الطعام .. اذا كان هناك ثمة طعام . صورة «جوليا» تراجعت الى الظل ، كطيف باهت . لابد أنها بصورة أو بأخرى فى مكان ماتعانى أكثر مما يعانى هو . لاشك انها تصرخ فى هذه اللحظة صرخات الم يائس . عاد يفكر رغما عنه فيها . (لو خيروك بين أنقاذها ، وتحمل عذابين : عذابك وعذابها هل تقبل ياوينستون) .

أجاب لنفسه : (نعم .. أقبل) .. لكن هذا كان مجرد قرار عقلانى .. أتخذته ياوينستون لانك كرجل يجب ان تتخذه . انت لم تشعر بألم التعذيب الحقيقى بعد . فى مثل هذا المكان لايمكن ان تشعر بأى شىء . الا باحساس رهيب بالالم ، وما هو أقسى . هو توقع الالم . هل من المعقول عندما تعانى الالم بالفعل ، أن تطلب المزيد .

سؤال ترك أجابته للمستقبل

صوت أقدام تتجه نحو الزنزانة .. أصاخ السمع بترقب وأنتباه . فتح الباب ودخل .. أوبرايان .

قفز وينستون .. رغما عنه ، وأنتصب واقفا . الصدمة التى ولدتها رؤية أوبرايان أنسته كل شىء . لاول مرة منذ سنوات طويلة نسى وجود عدسة ميكروفون السينما التليفزيونية .

وصاح فى دهشة :

حتى انت .. قبضوا عليك ؟

أجابه أوبرايان بصوت هادىء ينم عن سخرية عميقة :

لقد سقطت فى أيديهم منذ زمن طويل

ثم تنحى جانبا ، ليخلى الطريق للحارس القادم معه . فتقدم منه حارس عريض المنكبين كان يقف خلفه ممسكا فى يده بهراوة سوداء طويلة وغليظة ..

عاد أوبرايان ليقول له :

أنت تعلم أنك ستعذب . فلا تخدع نفسك ياوينستون ... انت بالفعل كنت تعلم ماكنت مقدما عليه .. وكنت على وعى بما ينتظرك طول الوقت .

نعم ، كما يبدو الموقف أمامه واضحا الان ، كان على علم تماما بما أقدم عليه ، وبنتيجته . لكن الحارس لم يمهله لكى يسلم نفسه لتيار أفكاره هذه المره . الهراوة فى يده شدت كل أنتباهه . هذه الهراوة ستسقط على اى جزء من جسمه فى ثوان معدودات . قد تهوي الضربة الأولى على أم رأسه ، أو خلف أذنه . على أحد كتفيه .. أو ربما على كوعه !! لم يدر بنفسه الا راكعا على ركبتيه . كادت الضربة الاولى من قسوتها ان تشله .. وجد نفسه يمسك بذراعه السليمة كوع ذراعه الاخرى الذى تلقى الضربة العنيفة الاولى . الحارس يبتسم ، وهو بالكاد يستطيع ان يحبس دمعة ... غير معقول .. غير معقول أبدا أن تستطيع ضربة واحدة فقط ان تولد كل هذا الالم . بصره الزائغ بدأ يستقر على المنظر الذى أخذ يتضح أمامه . كان الاثنان ينظران اليه فى تمعن . مازال الحارس يضحك على ما أصاب جسده من تقلص نتيجة ضربته الاولى البارعة .

مستحيل .. لأى سبب فى الأرض أو فى السماء .. يمكن للانسان ان يطلب مزيدا من الالم . على الاقل ظفر من الضربة الاولى باجابه شافيه على سؤال كان يشغله منذ لحظات . الاحساس يختلف عن الفكر . فى لحظات الالم لايوجد مجال للفروسية .. لامجال للبطولة .. ماتفكر فيه صراحة هو شيء واحد .. كيف توقف هذا الالم . فى العالم كله ، ليس هناك ما هو أبشع من الالم الجسمانى . عاد الخاطر يلح عليه .. فى مواجهة الالم ليست هناك بطولة أو ابطال .. هناك الالم وزوال الالم ... فقط ..

نحى خواطره جانبا وهو يكافح فى زحفه ان يشد ذراعه المصابة بيده الاخرى ، فلا تحتك بالأرض ...

* * *

(٢)

شعر بجسده وقد تمدد على شيء شبيه بسرير ضيق كأحد أسرة المعسكرات . يختلف فقط فى الارتفاع . فالسرير الذى يرقد عليه الان مرتفع أكثر من اللازم عن سطح الارض . أحس أيضا أنه غير قادر على الحركة . شلت حركته الضوء المبهر ، والذى ازداد قوة عن ذى قبل بتركيزه على وجهه . فوجيء بأوبرايان واقفا الى جواره .. ينظر اليه .. بتركيز شديد .. والى الجانب الاخر من السرير الذى يرقد عليه ، وقف رجل آخر يرتدى معطفا أبيض اللون ، ممسكا فى يده بأدوات طبية شبيهة بمحقنة تحت الجلد .

لم يبلغ مرحلة الوعى الكامل بما حوله ، وحتى بعد ان فتح عينيه بلحظات ، أخذ يدير اثناءها ناظريه فيما حوله وفيمن حوله .. ليبدأ بالتدريج فى تكوين صورة عما هو فيه .. خيالاته مازالت مضطربة ، أحاسيسه فيها نوع من الشفافية ... يشعر انه قد جاء طافيا الى هذه الغرفة .. قادما من عالم بعيد .. عالم غريب يمتد الى مكان ما فى اعماق المحيط .. مازالت خيالاته غير مستقرة ... كم مضى عليه من الوقت وهو فى هذا العالم التحتى .. لايعلم .. فمنذ اللحظة التى القوا القبض فيها عليه .. لم يهنأ بظلام ولم تصافح عيناه ضوء النهار . استرد وعيه الى حد ما . أصبح مدركا برغم ألمه الجسمانى ، ان ذهنه مشتت وان افكاره غير مستقرة .. بداله ان وعيه بالاشياء ، لم يكن وعيا مستمرا . قدرته على التركيز اصبحت كخيط متقطع يحتاج الى مايصله بعضه البعض . فهو حتى فى أحلامه كان يعى مايرى .. اما الان فيبدو كما لو كانوا قد اماتوه ثم أحيوه مرة اخرى .. لا .. لايستطيع ان يحدد بالضبط مايشعر به . هل كانت تلك الفترات التى توقف فيها وعيه بنفسه والعالم من حوله لحظات .. ساعات .. ايام .. أسابيع ... ليس بمقدوره ان يحدد .. تاهت معالم الاشياء .. والازمان .. حتى احساسه تاه منه .

منذ الضربة الاولى التى تلقاها فوق كوعه ، بدأ الكابوس الذى طالما تجنبه طوال حياته .. وتوقعه طوال حياته . الكلام لايغنى الان .. فهو يحيا داخل الكابوس . أدرك فيما بعد ، ان كل ما مر به لم يكن سوى الطقوس التمهيدية المعتادة للاستجواب المبدئى ، يخضع له كل المعتقلين ... اذ هناك قائمة طويلة من الجرائم : تجسس ، تخريب ، وما شابه من نشاط معاد للنظام ، يجب ان يعترف بها المعتقل كاجراء روتينى ، صحيح ان الاعتراف

كان اجراء معتادا ، لكن التعذيب المصاحب لم يكن معتادا .. كان حقيقيا ، ومتنوعا . لم يعد الان قادرا على ان يتذكر عدد المرات التى اوسعوه فيها ضربا .. ولا الزمن الذى استغرقته كل جلسة تعرض فيها للالم . لكنه يذكر انه فى كل مرة كان يحيط به خمسة أو ستة رجال اشداء فى زى اسود لم يتغير .. مرات ينهالون عليه بقبضات ايديهم فى عنف ومرات يستخدمون الهراوات ... أحيانا اخرى يتسلون بقضبان من الصلب ... أو كنوع من التغيير المسلى بالنسبة لهم كانوا يضربونه بأحذيتهم العسكرية الثقيلة . مرت عليه فترات لم يخجل فيها من الزحف على الأرض كالحيوان يتلوى فى محاوله لتفادى ركلاتهم .. لكن حركته اليائسة كانت تغريهم بمزيد من الضرب فى ساقيه .. ركبتيه .. فى بطنه .. فى كوعه .. فى ذقنه .. فى عموده الفقرى .. فى أى مكان تطوله اقدامهم ولاتسعفه سرعته لتفاديها . مرات اخرى كان هذا المشهد يستمر فترة تطول الى الحد الذى يشعر فيه ان العذاب الاكبر ليس فى استمرار الالم الناتج عن استمرار الضربات على قسوتها .. بل عذابه انه ، بعد حد معين ، لم يكن قادر على ان يرغم نفسه على الاغماء ، أو فقدان الوعى ، حتى تتاح له هدنة من الم مبرح ، احتماله فوق طاقته ، والهروب منه ليس فى قدرته . وفى تلك اللحظات التى كان الالم فيها يشتد ، كانت اعصابه تخونه وكبرياؤه يتخلى عنه ، فيصرخ بكل قوته طالبا الرحمة . ومع تكرار الموقف ، ومع توقعه لحدود الالم التى سيتجاوزها ، كان يبدأ فى طلب الرحمة حتى قبل ان يمارسوا هوايتهم فى تعذيبه . عندئذ كانت مجرد حركة من أحد الحراس بالاستعداد لتوجيه لكمة عنيفة الى وجهه ، كفيلة فى حد ذاتها بانتزاع أعتراف يطلبونه لجريمة سياسية حقيقية أو مزعومة . فى مواقف أخرى كان يعقد العزم على الا يعترف لهم بشىء ، الى ان تتساقط من بين شفتيه كلمات لايقوى على الاحتفاظ بها فى فترات الوعى المتفرقة بين اغماءاته المتكررة نتيجة استمرار التعذيب . وفى احيان ثالثة كان يقنع نفسه بما يشبه الحلول التوافقيه . فلا يتخلى عن كبريائه كلها بأن يعترف من البداية ، ولاينوى الصمود الى النهاية دون ان يعترف مطلقا بل ان يصبر نفسه مع كل ركلة أو لكمة أو ضربة .. الى ان يصل الى الحد الذى يصبح فيه التحمل فوق طاقته ، فيبدأ فى الاعتراف ، لكن بالتقسيط ولايستمر فى الاعتراف الا اذا أجبرته بعد ذلك شدة الم فوق كل حد احتمال . فى جلسات تعذيب اخرى كان يحتفظ بصلابته الى ان يفقد الوعى . لكنهم حتى عندئذ لايتركونه .. يحيلونه للطبيب للعلاج ولفترة راحة كافية لأن يسترد وعيه بالكامل ، ثم يبدأون من جديد تعذيبا مختلفا وأشد .

وقد مر أيضا بفترات قصيرة سمحوا له فيها بالعلاج وأسترداد صحته ، لكنها فترات ذكرى ما مر به فيها غائمة فى ذهنه . قضى معظمها فى حالة غيبوبة او نوم . يذكر مثلا زنزانة فيها سرير خشبى وبها نوع من الارفف المثبتة الى الجدار ، ومغسلة صغيرة ... قدموا له فيها وجبات من حساء ساخن وخبز ، واحيانا قهوة . كما يتذكر منظر الحلاق المكلف بتسوية شعره لحوالى مدة بقائه فى هذه الزنزانة ، وكذلك منظر عدد من الناس ذوى المظهر العملى الجاف فى زيهم الابيض يوقعون الكشف الطبى عليه ، يجسون نبضه ويقيسون ردود افعاله العصبية بدق ركبته بعد ثنيها ، والكشف على وجنتيه وعينيه . وتحسس عظامه ومفاصله لاكتشاف اية كسور بها ، ثم حقنه بأبر من الواضح انها كانت مهدئة لانه كان يستسلم للنوم بعدها .

أنتقل بعد ذلك الى مرحلة تالية متقدمة . قل فيها الايذاء البدنى والاعتداء بالضرب عن ذى قبل . لايلجأ اليه المحققون الا اذا استشفوا منه محاولة التخابث أو تقديم اجابات ملتوية او اخفاء أية معلومات . لكنه حتى فى هذه المرحلة بقى عرضة للتحويل الى غرف التعذيب البدائى فى اى وقت يختارونه ، اذا عن لهم ذلك .

تغيرت أيضا نوعية المحققين . ليسوا الان اولئك الرجال الافظاظ الاشداء العتاه بل مجموعة منتقاه من الاطارات الثقافية فى الحزب ، يرتدون زيا اسود مميزا .. رجال على شيء من الرشاقة والاناقة يميلون الى النحافة . نشطون ودائبو الحركة يضعون نظارات طبية على اعينهم . يتولى المحقق منهم امر استجوابه لفترة تستمر من عشر الى اثنتى عشرة ساعة (حسب تقديره هو القائم على مجرد التخمين) ، لكن ثقافة المحققين ورشاقة خطوهم لم تمنعهم من ابقائه دوما فى حالة الم بدنى (حتى وان كان مخففا نسبيا) ولكنه مستمر . لايخلو الامر بطبيعة الحال من مفاجأة أو شد للشعر ، أو ارغامه على الوقوف فترات طويلة على ساق واحدة ، أو منعه من الذهاب لدورة المياه ، أو تسليط اضواء باهرة على عينه مباشرة . اجراءات كان الهدف الحقيقى منها ليس الايذاء البدنى فى حد ذاته ولكن تحطيم اية قدرة على المقاومة لديه تمكنه من ان يجادل أو يناقش أو يماحك فى اية نقطة يبغون الاستفسار عنها . ولكى يتم اذلاله بالكامل لجأوا الى طريقة اخرى ، وهى استمرار التحقيق المتواصل معه دون راحة ، ودون رحمة لساعات تناهر معها قدرته على التحمل ينصبون له فيها شراكا خداعية من الاسئلة المتعارضة يعلمون مسبقا انه سيجيب عليها جميعا بالايجاب تفاديا للتعذيب الذى اصبح فوق طاقته فى حالته الصحية الان . وعلى فترات يوقفون التحقيق

لإعادة اقواله المتناقضة . ودون تعليق منهم يتضح لوينستون مدى الكذب والنفاق فى اجاباته ، ومدى ما تعكس من خوف واضح الى ان ينتهى فى نهاية جلسة الاستجواب الى الانهيار والبكاء خجلا من موقفه واستشعارا لمدى ضعفه بين ايديهم .. تحول الى فأر تجارب معملية يلاعبونه بطريقتهم وبأعصاب باردة . أحيانا كان يبكى فى جلسة واحدة ست أو سبع مرات بكاء حارا نتيجة لاحساسه بالمهانة والارهاق العصبى المستمر . فى معظم الاحيان فى طريقة الاستجواب الجديدة هذه كانوا يوجهون السباب المقذع اليه . وعندما يبدى أى مظهر من مظاهر التردد فى اجاباته كانوا يهددونه بتسليمه للحراس ليعيدوا تعذيبه . لكن فى أحيان اخرى . كانت لهجتهم تتغير تماما ، فيلقبونه بالرفيق ، ويستحلفونه باسم الزعيم ، وبتعاليم (الانجشاك) ان يصدقهم القول فى اجاباته لأنهم لايبغون الا مصلحته وهى ان يكف عن افعاله العدائية السابقة ضد الحزب ، وعن انحرافه الفكرى . ولم تكن لهجتهم هذه تبدأ الا بعد جلسة يوصلونه فيها الى حافة الانهيار ، وبعد ان يحوله الارهاق الى مايشبه الخرقة البالية . وفى حالته هذه التى كان يصل اليها ، حتى هذه بالنصائح المتكررة اللزجة ، كانت تزيد بالفعل من أسباب انهياره . كان وقعها عليه احيانا اشد اثارة للالم من وقع اللكمات القاسية التى طالما تعرض لها فى مرحلة سابقة .

تحول اخيرا الى «مجرد فم» .. يردد مايريدون له ان يقول والى مجرد يد .. تكتب مايملونه عليه . اصبح همه الأول ان يكتشف بسرعة الى أى اتجاه يريدونه ان يجيب .. ان يستشف مبكرا مايرغبون ان يقوله قبل ان يضطرهم تراخيه أو تأخره الى اللجوء الى وسائل التعذيب اللفظى الجديدة .

اعترف باشتراكه فى اغتيال عدد من ابرز اعضاء الحزب

وبتوزيعه لمنشورات تحمل سموما فكرية

وباختلاسه للمال العام ، وافشاء اسرار عسكرية

وبقيامه بنشاط تخريبى متنوع على كل لون

اعترف أنه كان جاسوسا محترفا لقاء اجر شهرى لجيش (ايستاشيا) منذ فترة طويلة ترجع الى بدايات عام ١٩٦٨ .

أعترف أنه يمارس الطقوس الدينية ، بل ويؤمن بالدين .

أعترف باعجابه الشديد بالرأسمالية ، واغواء الناس بها .

أقرانه منحرف فكريا ، وشاذ جنسيا ، وأنه قد قتل زوجته .

(رغم ان المحققين لديهم بيانات كافية بالتأكيد عن مكان اقامتها وعملها الحالى) أعترف أنه منذ سنوات طويله ، على أتصال بجولد شستين وأنه عضو فى جماعة سرية تشمل بين أعضائها كل من عرفهم فى حياته ... (أصبح من السهل عليه الان أن يورط أى انسان) بل انه ليشعر أن ما يقوله صحيح الى حد ما . فصحيح أنه كان عدوا للحزب فكريا على الاقل . وطالما أن الحزب لايفرق بين الافكار والافعال فهو عدو على أى حال .

تطوف بذهنه ذكريات من نوع آخر . ذكريات أحتلت مخيلته كنقاط ضوء على صفحة سوداء . نقاط متفرقة . رأى نفسه كالحالم فى زنزانته لايدرى هل هى مظلمة أم مضيئة . فكل ما يراه فيها هو زوج من الاعين . قريب منه جهاز يصدر صوتا منخفضا رتيبا ، بدأت الاعين تكبر رويدا رويدا ، ويزداد لمعانها ، فجأة وجد نفسه طائرا فى الهواء .. رفعه شىء عن كرسيه فأصبح معلقا فى الفضاء .. ثم جذبته قوة تجاه العينين .. دخل فيهما .. ابتلعته العينان .

ثم وجد نفسه مقيدا الى مقعد يحيط به قرص ضخم مستدير ومرقم .. يجلس تحت ضوء مبهر قوى . رجل يرتدى معطفا ابيض كان يقرأ فى ارقام القرص . فتح عليه باب المكان بقوه . دخل نفس الضابط الشاب الصارم الوجه الشبيه بالتماثيل الشمعية ، يتبعه حارسان . قال الضابط كلمتين أثنتين :
« زنزانة ١٠١»

لم يلتفت الرجل ذو المعطف الابيض . أستمر منهمكا فى عمله . لم ينظر حتى الى وينستون . كان بصره مركزا فقط على ارقام القرص ثم رأى نفسه يجرى فى ممر رهيب عرضه كليومتر تقريبا . يغمره ضوء ذهبى لامع ، يجرى وهو يطلق ضحكات هستيرية عالية ، ويردد اعترافات كاملة لكل ما فكر فيه أو قام به . حتى تلك الاشياء التى نجح فى ان يحجبها عن جلاديه . سمع نفسه يحكى قصة حياته من بدايتها بالكامل لجمهور كان يعرف انه على علم بتفاصيل هذه الحياه . كان يركض معه الحراس والمحققون ، والرجال ذوى المعاطف البيضاء ، وأوبرايان وجوليا ، ومستر تشارنجتون .. جميعهم يرقصون وهم يضجون بالضحك العالى الصاخب . ثم شاهد نفسه وقد وصل الى نهاية الممر .. الى بر الامان .. والسلامة كل شىء على مايرام .. لا ألم بعد اليوم .. يحيا حياة مشرقة الكل متعاطف معه .. استمع اليه .. فهم مشكلته .. وغفر له كل افعاله ..

شعر ان ما أيقظه هو صوت اوبرايان . فى كل الاستجوابات التى مر بها لايعلم لماذا هو متأكد ان أوبرايان كان مشتركا فى توجيهها بشكل أو بآخر .. حتى وان لم يره فى أى منها . يخيل اليه ان اوبرايان يوجه كل شىء بالنسبة له . فهو الذى أطلق عليه الحراس مهاجمين ككلاب الحراسة . هو نفسه الذى منعهم من الاجهاز عليه وهو الذى يحدد لهم متى يجب ان يصرخ وينستون ، متى يمنح فترة راحة لالتقاط الانفاس . متى يأكل ، متى ينام ، نوعية المسكنات التى يحقن بها وتوقيتها وحجم الجرعة فى كل مرة . أنه هو الذى يحدد شكل الاسئلة ، وشكل الاجوبة . هو المعذب وهو المخلص .. وهو المحقق .. شعر أنه الان فى خضم متاهة من أحاسيس متضاربة نحو أوبرايان . مرة خيل اليه (لا يعلم ساعتها هل كان نائما بتأثير المخدر او فى نومه العادى او حتى ربما كان مستيقظا .. فالامور قد اختلطت عليه الان) خيل اليه انه يسمع صوتا حانيا يهمس فى اذنه :

« لا تقلق ياوينستون .. أنت بين أيد أمينة .. انت «عهدة» لدى .. وأنا قمين بالمحافظة عليك .. فلسبع سنوات كنت اراقب خطواتك . الان وصلنا للنقطة الحاسمة فى حياتك . انا سوف أنقذك .. سأبلغ بك حد الكمال المطلق ... » .

ليس متأكدا ، هل كان الصوت صوت اوبرايان ام صوت انسان آخر . لكنه على اية حال صوت مشابه لذلك الصوت الذى اسر فى اذنه منذ سبع سنوات :

« سنتقابل حيث لن تكون هناك ظلمة .. »

ليس بمقدوره ان يتذكر متى انتهوا من التحقيق معه هذه المره . كل مايذكره مساحة فراغ فى عقله الواعى ، ثم الزنزانة أو الغرفة التى ينام فيها . ينام مسطحا على ظهره . مقيد الحركة ـ القيود تشل كل جزء من جسمه . حتى مؤخره رأسه مثبته بالسرير بوسيلة ما . اوبرايان ينظر اليه باهتمام ، وبشىء من الاسى . وجه اوبرايان وهو ينظر اليه من هذا الوضع بدا خشنا قاسيا مجهدا ، وقد تجعدت بشرته تحت عينيه ، وأخاديد من الخطوط العميقة تملأ وجهه فوق انفه حتى اسفل ذقنه . بدا هرما أكثر مما كان وينستون يظن . بصمة الزمن والمجهود باديان عليه . ربما بلغ الخمسين الان . تحت يده نفس القرص المستدير المرقم .. له ما يشبه الذراع لتشغيله ابتدره اوبرايان قائلا :

ـ لقد اخبرتك من قبل .. انه اذا كان لنا ان نلتقى فسيكون هنا .. مكان اللقاء ...

ـ نعـــم

ودون سابق أنذار ، وبحركة بسيطة سريعة من يده على ذراع القرص ، أحس وينستون بفيض من الم حاد يجتاح جسمه ... الم اثار الهلع فى داخله لفرط قسوته .. أحس انه على شفا الموت .. وزاد من رعبه انه لايرى مصدر الالم ولا كيف حل به فجأة هكذا .. لايعلم مصدر مايتعرض له الان . هل هو تيار كهربائى سرى فجأة فى جسده ام من تأثير جهاز آلى معقد آخر يجهله ، لكنه شعر بجسمه يتقلص فجأة ، ثم تنتفض أطرافه فى عنف دفعه لانتزاع كل قيوده التى كانت تشل حركته . وبرغم غزارة العرق المنساب من جبهته ووجهه ، كان خوفه الكبير أن يكون عموده الفقرى قد كسر نتيجة لاندفاع اطرافه فى حركة فجائية . اغلق فمه .. وجذب نفسا عميقا من أنفه محاولا ان يخلد الى السكون التام قدر استطاعته لكى يستجمع شتات نفسه .

كان تعليق أوبرايان المطل عليه .. يتأمله :

ـ انت تشعر بالخوف الشديد الآن من انه ربما قد كسر شىء ما فى جسمك .. أليس كذلك ؟.. خوفك بالتحديد أن عمودك الفقرى هو المعرض للكسر .. الصورة الذهنية التى تمر بمخيلتك الان على وجه الدقة .. أنفصال فقرات عمودك الفقرى .. وأنسياب النخاع الشوكى من بينها .. اليس كذلك ؟

لم يجب وينستون ، فأرجع أوبرايان ذراع القرص .. خف وقع الالم بنفس السرعة التى أجتاحه بها . وعندئذ أضاف أوبرايان :

ـ ما شعرت به ياوينستون كان مجرد درجة (٤٠) فى الجهاز ، وكما ترى القرص أمامك أرقامه تصل الى (١٠٠) . فهل لك ان تتذكر دوما .. من فضلك يعنى ... أن فى مقدورى ان اثير فى داخلك الاحساس بالالم المبرح فى أى لحظة ، والى أى حد اريد . لو عن لك ان تجيب على اسئلتى بأكاذيب أو حتى تحاول ـ مجرد محاولة ـ ان تغير اى اجابة بأى صورة ، أو يخطر لك مثلا أن تتغابى فى أجاباتك بأى شكل . ستجد نفسك دون سابق أنذار تصرخ هلعا .. من الالم ..

هل فهمت كلامي .. أم أعيده عليك مرة أخرى لتزداد فهما .. ؟

أجاب وينستون بسرعة وفى وهن : (فهمت .. فهمت)

تحول أوبرايان بعد ذلك الى انسان أقل عنفا . أعاد تثبيت نظارته على عينيه وهو يفكر فى عمق . ثم مشى خطوة أو خطوتين . وعندما أستأنف حديثه ، كان صوته ودودا

وصبورا ، بنبرة طبيب يعالج حالة مستعصية ، أو مرب فاضل يلقى درسا أو هى نبرة واعظ مهمته الاولى ان يوجه ويوضح .. لا أن يوقع العقاب .

ـ انى أتكبد كل هذا الجهد معك ياوينستون ، لانك تستأهل أن يبذل من أجلك كل هذا الجهد . أنت تعلم تماما مشكلتك ، وما يدور بخلدك . أنت على وعى بهذه النوعية من الافكار منذ سنين برغم جهدك المخلص السابق لاستبعادها من مخيلتك . انت منحل فكريا . فأنت تعانى من حالة مرضية فى قدرتك على التذكر . أصبحت عاجزا الان عن تذكر الوقائع الحقيقية . فأنت تقنع نفسك ـ وهذا من اعراض مرضك ـ أنك تتذكر وقائع اخرى لم تحدث أصلا .

لحسن الحظ حالتك ليست مستعصية على العلاج . وأنت لم تشف من مرضك الذهنى هذا ، لانك لم تحاول علاج نفسك . فهناك مجهود ارادى يجب أن تبذله عن وعي وعن رغبة حتي تشفى . حتي الان ، أنا مدرك تماما ، أنك متشبث بمرضك ، تحت وهم خاطىء وهو أن افكارك هذه هى الفضيلة والحق . وها أنذا أعطيك مثلا يساعدك .

: ـ « الآن . فى وقتنا هذا ، أى قوة من القوى العظمى تحاربها أو شانيا .. ؟ »

أجاب وينستون :

ـ عندما أعتقلت كانت اوشانيا فى حالة حرب مع أيستاشيا

ـ حسنا .. فى حالة حرب مع أيستاشيا . وطبعا أوشانيا كانت دوما فى حالة حرب مع ايستاشيا ؟ أليس كذلك ؟

سحب وينستون نفسا عميقا . فتح فمه ليتكلم . ثم صمت . لم يستطع ان يبعد عينيه عن القرص المرقم .

أستحثه أوبرايان للكلام :

ـ أحبنى بالحقيقة .. ياوينستون .. حقيقتك انت قل لى ماذا تعتقد انت أنك تتذكره .

ـ أنا أتذكر انه منذ أسبوع واحد فقط .. قبل اعتقالى لم نكن فى حالة حرب مع ايستاشيا . كنا فى حلف دفاعى معها . حلف استمر اربع سنوات . وقبل ذلك كان الـ

أوقفه اوبرايان عن الاسترسال بحركة من يده قائلا :

ـ سأضرب لك مثلا آخر : منذ عدة سنوات كان يراودك وهم خطير حقا . أذ كنت تعتقد ان هناك ثلاثة رجال من أعضاء الحزب السابقين ، أسماؤهم : جونز ، وأيرونسون ، وروثرفورد ـ ثلاثة من الأعضاء المنحرفين أعدموا لارتكابهم أعمال خيانة وتخريب ـ كنت

تعتقد أنهم أبرياء من هذه التهمة ، وأنك قد رأيت وثيقة لا يتطرق اليها الشك تثبت أن أعترافاتهم مزورة . وان هناك صورا فوتوغرافية معينة صورتها لك تخيلاتك المريضة تثبت هذا . وأنك امسكت بالفعل مثل هذه الادله فى يدك . صورة مثل هذه الصورة ..

رأى وينستون قطعة مستطيله من الجريدة بين اصابع اوبرايان . أمسكها امام ناظريه لمدة طالت الى خمس ثوان . كانت بالفعل صورة . لا مجال للشك فى أصالتها . وكانت هى نفس الصورة التى رآها من قبل . صورة جونز وروثرفورد وايرونسون فى مهمة حزبية فى نيويورك ، تلك التى استوقفته منذ ١١ سنة والتى اعتقد انها اعدمت . للحظات بقيت امام عينيه . ثم أختفت ثانيه لكنه بالتأكيد قد رآها وتمعن فيها . بلا جدال كان هو قد رآها ثانية الآن . بذل جهدا خارقا يائسا لكى يخلص الجزء الاعلى من جسمه من القيود المحيطة به . لكن قيوده لم تسمح له بالحركة اكثر من سنتيمتر واحد فى أى أتجاه . نسى فى أندفاعه حتى وجود القرص المرقم نفسه . كل ما تاق اليه هو ان يمسك ، بين أصابعه ، مرة أخرى ، تلك الصورة .. او على الاقل يراها .. صرخ فى محاولته الموصومة بالفشل :

ـ الصورة موجودة .. موجودة

ـ لا .. أجابه اوبرايان .

ثم خطا عبر الغرفة . كانت بها أحدى جحور الذاكره فى الاتجاه المقابل . رفع اوبرايان غطاء الجحر . ودون ان يرى وينستون بقية المشهد ، كانت قطعة الورق قد احتضنها تيار من هواء ساخن .. لتختلفى بين اللهب . ابتعد اوبرايان عن جدار الغرفة قائلا :

ـ الآن لا شىء الا الرماد . وهو رماد لاتستطيع ان تتعرف فى ذراته على شىء . تراب . أنها بلا وجود أنها لا توجد أصلا .

لكنها كانت موجودة .. انها موجوده .. ان وجودها فى ذاكرة الانسان .. انا .. اتذكرها .. انت .. تتذكرها .

أجابه أوبرايان :

(انا .. لا أتذكرها)

أصيب وينستون بالانقباض والرعشة . ما قيل امامه للتو صورة من صور ثنائية الفكر . أجتاحه أحساس مميت بالعجز . لو أنه كان متأكدا بالفعل أن اوبرايان يكذب ، لما أهتم بالامر . لكن المصيبة أن اوبرايان يبدو حقيقة قد نسى الصورة تماما . سقطت من تيار وعيه . لم تكن موجوده بالنسبة له . واذا كان ذلك صحيحا كما هو واضح الآن فاوبرايان

قد نسى بالتالى أنكاره أنه قد تذكرها . ثم نسى بعد ذلك .. انه قد نسى . كيف له ان يتأكد ان الامر أمر تلاعب بقدرات العقل فقط ؟ ربما اصبح من الممكن بالفعل ان يتم هذا الخلل فى عقل الانسان . ان تضيع فى داخله العلاقة المنطقية بين الاشياء . هذا الاحتمال .. إن صح .. فيه الهزيمة الحقيقية له . ان ما هو ماثل أمامه لصورة صارخه لثنائية الفكر . ان تؤمن بوجود الشىء وتنفى وجوده فى آن واحد .. مازال اوبرايان ينظر الى ملامحه متفحصا . بدا اكثر من ذى قبل فى صورة المدرس الصبور فى محاولته ردع تلميذ عنيد فى تفكيره ، لكن مازال يرجو له الشفاء .

ـ هل تذكر ياوينستون شعار الحزب المتعلق بالتعامل مع الماضى ؟ هل لك أن تعيده لى .. لو سمحت

كرر وينستون الشعار المعروف ، فى طاعة التلميذ المجد :

ـ من يسيطر على الماضى .. يسيطر على المستقبل .

من يسيطر على الحاضر .. يسيطر على الماضى

أعاد اوبرايان من بعده :

ـ من يسيطر على الحاضر .. يسيطر على الماضى

ثم هز رأسه موافقا . ليضيف :

ـ هل تعتقد ياوينستون ـ من وجهة نظرك ـ أن الماضى كان له وجود حقا ؟

مرة اخرى أعتراه أحساس بالعجز قبل ان يجيب . عيناه تتنقلان بين القرص المرقم ، ووجه اوبرايان . ليس واثقا الآن أى الاجابتين فيها خلاصه من الالم المقبل : (نعم) .. ام .. (لا) . بل انه ليس واثقا بينه وبين نفسه أى الاجابتين بالفعل يعتقد هو أنها سليمة .

أبتسم أوبرايان فى رفق ليشجعه :

لا أفترض انك احد علماء الميتافزيقا . حتى هذه اللحظة ربما لم تتوصل لمعنى كلمة (وجود) . سأسهل عليك المهمة واتكلم بتحديد أكثر . هل للماضى وجود مادى ملموس فى الفضاء مثلا ؟ هل الماضى موجود الآن فى اشياء لها وجود مادى فى عالم المحسوسات ؟

ـ كلا

ـ اذن ، على افتراض ان الماضى موجود . أين يوجد ؟

ـ يوجد فى الوثائق ويوجد فى الـــ

ـ فى العقل أيضا ، حسنا . نحن كحزب نسيطر على كل الوثائق . ونحن نتحكم فى كل الذكريات البشرية . اذن نحن نسيطر على الماضى . سليم هذا الكلام ؟؟

ـ لكن كيف ستتمكنون من منع الناس ان تتذكر وقائع حدثت فى الماضى ؟

تفوه وينستون بهذا السؤال وقد نسى ثانيه القرص المرقم . ليضيف :

ـ ذكريات الانسان خارج نطاق تفكيره الواعى . انها تنساب تلقائيا . كيف بوسعكم ان تسيطروا على الذاكره ؟ أنتم لم تسيطروا على ذاكرتى مثلا ..

تجهم وجه أوبرايان ثانية . ووضع يده على ذراع القرص المرقم .

ـ على العكس ياوينستون . أنت الذى لم تسيطر على ذاكرتك . وهذا ما قادك الى هذا المكان . أنت هنا لان غرورك قد تغلب على ماينبغى لك من تفكير سليم . أنت تفتقر الى الانضباط التلقائى . فلقد أهملت فى اخضاع نزواتك الى تحكم العقل فيها ، لكى تصل الى طور الانسان السوى . أنت فضلت الجنون . تحولت الى أقلية متجمعة فى شخص واحد : هو أنت ، لا يصل الى الحقيقة الا العقل المرتب فى عملياته الذهنية . وأنت تفتقر الى النظام . أنت تعتقد ان الحقيقة مجردة وموضوعية لا علاقة لها بالاشخاص . وان لب الحقيقة يفصح عن نفسه ان الحقيقة الموضوعية ليست فى حاجة الى شرح ، طبيعتها كحقيقة تكشف عنها . أنك عندما ترى شيئا ما ، تعتقد خطأ ان الناس جميعا يرون نفس الشىء . أن للشيء وجودا فى ذاته . لكننى أوصيك الان ياوينستون :

ـ « الحقيقة ليست هى الاشياء الموجودة خارج ذواتنا . الحقيقة موجودة فقط داخل العقل البشرى . نحن نرى الحقيقة من خلالنا . ولكن ليس فى عقل الفرد او العقل الفردى ، المعرض للخطأ ، بل والمعرض للفناء انما فى العقل الجماعى .. عقل الحزب ، عقل الحزب هو لب الحقيقة . هذا العقل ، بطبيعته كعقل جماعى يتسم بالخلود . مايراه الحزب حقيقة .. هو الحقيقة . ومن ثم فمستحيل ان تلمس الحقيقة ، الا بوسيلة واحدة . »

« أن تصل اليها عبر ما يراه الحزب لك . »

« هذه هى طبيعة الاشياء التى يجب ان تتعلمها ، ولكى تصل الى طبيعة الاشياء ، فان الأمر يتطلب نوعا من مقاومة نوازع النفس ... نوعا من انكار الذات .. من تحطيم قوى الشر فى داخلك . يحتاج الأمر الى عزيمة . اذ يجب ان تكبح كل قوى الغرور العقلى داخل نفسك ، لكى تصل الى عقلانية الفكر . »

توقف لعدة دقائق .. كأنما ليتيح الفرصة لوينستون أن يهضم ما قاله له ، ويتفهمه .

ثم أضاف :

- « هل تتذكر ياوينستون ماكتبته فى مذاكرتك مرة ؟ :»

الحرية الحقة هى حرية ان تقول ان حاصل جمع أثنين + أثنين = أربعة

- نعم ..

رفع أوبرايان يده اليسرى أمام وينستون ، بعد ان ضم احد أصابع يده الخمسة ليبقى الأصابع الأربعة أمام ناظريه .

ويسأله :

- كم أصبع ترى الآن ياوينستون ؟

- اربعة

- واذا رأى الحزب انهم خمسة بدلا من اربعة ، فكم أصبعا ترى ؟

- اربعة

ما ان اكمل كلمة (أربعة) حتى أجتاح جسده نفس الالم الفجائى ، فشهق من الصدمة الكهربائية التى سرت فى كل اجزاء جسمه ، وأرتفع مؤشر القرص المرقم الى خمسة وخمسين . أنساب العرق من أعضائه كلها ، وأنساب الانين من فمه حتى بعد ان كز بأسنانه ليخفف من حدته . أحس الهواء يندفع الى رئتيه يكاد يمزقها ، وكأن صدره على وشك الانفجار. أوبرايان يتأمل حركاته فى هدوء ، كعالم يتابع خطوات احدى تجاربه . لكن يده اليسرى بأصابعها الاربعة مازالت مرفوعة ليعيد السؤال ، بعد أن خفض ذراع الجهاز ، ليقل الالم تدريجيا دون ان يختفى

- كم أصبعا ترى ياوينستون ؟

- اربعة

ارتفع مؤشر القرص الى (٦٠) ثم

- كم اصبعا ترى ياوينستون ؟

أربعة .. أربعة ... أربعة ... هل بامكانى ان أرى غير أربعة ؟

لابد ان المؤشر قد تجاوز الـ (٦٠) بكثير بعد هذه الاجابة . لكن وينستون لم ينظر الى المؤشر .. كل تركيزه على الوجه الجامد المطل عليه ، وشبح الأصابع الأربعة التى

ازدادت ضخامة أمام ناظريه . انتصبت تلك الاصابع امامه كأعمده راسخة .. قاسية .. ومنذره .. لكن بالتأكيد .. أربعة .

ـ كم أصبعا ترى ياوينستون ؟

ـ أربعة .. أربعة .. كفى .. كفـى .. كيف تستمر فى هذا .. أربعـة .. أربعـة .. أربعة ...

ـ كم أصبعا ترى ياوينستون ؟

هذه المرة المؤشرة تجاوز الثمانين .. فصرخ وينستون :

ـ خمسة... خمسة .. خمسة

ـ كلا ياوينستون . لا فائدة . من الواضح انك تكذب الان . مازلت تعتقد انها اربعة .. كم أصبعا ترى حقيقة من فضلك ؟

ـ أربعة .. خمسة .. أربعة .. أى شيء تقوله أنت . كفى أرحمنى .. كفى .. أى شيء تراه أنت

وجد نفسه بعد ذلك ، وقد انتصب جالسا ورأسه مسند الى صدر اوبرايان . لابد أنه قد فقد الوعي لعدة ثوان . القيود التى كانـت تشـل حركتـه فكت . احس بالبـرودة الشديده ، تسرى فى اوصاله .. كان يرتعش رغما عنه .. اسنانه تصطك .. والدموع تنهمر من عينيه . ظل لدقيقة متشبثا بأوبرايان تشبث الطفل بأمه ، وقد شعر براحة غريبـة لذراعه الضخم الملتفة حول كتفيه لتهدئته . سرى لديه أحساس ان اوبرايان هو الكيان الحانى والحامى .. اما الالم فمصدره شيء ما فى العالم الخارجى ، وليس صاحب هذا الصدر الرحيم .. ان اوبرايان هو المخلص الذى سينقذه من كل هذا الالم .

قال له اوبرايان فى رفق :

ـ انت تلميذ متعب ياوينستون .

ـ هذا امر ليس لى ارادة فيه . هذا رغما عنى . كيف أرى ما أرى أمامى مختلفا عن حقيقته . اصبعين بجوار أصبعين . ما أراه فعلا : أربعة اصابع ..

ـ « أحيانا ياوينستون .. أحيانا .. هم خمسة بالفعل دون ان تدرى أحيانا هم حقيقة ثلاثة .. أحيانا هم كل هذه الحقائق مجتمعة . يجب ان تبذل جهدا أكبر .. جهدا أصدق .. فى ادراك الحقيقة . حاول مرة اخرى محاولة جادة .. ليس امرا سهلا ان تبلغ غاية العقل .. ليس سهلا » .

أراح جسد وينستون برفق فى سريره .. وأعاد تقييد اطرافه . لكن الالم والرعشة قد زايلتاه . الآن لايشعر الا بقشعريرة البرودة وانهاك الجهد . أشار اوبرايان بأيماءة للطبيب الواقف قبالته ، والذى ظل واقفا كمجرد مراقب طوال هذه الجلسة ، لايتدخل فى الحوار .. انحنى الرجل على وينستون ، ليقيس نبضه .. ويتحسس صدره .. ويفحصه فحصا شاملا ، انتهى منه باشارة من رأسه لاوبرايان فهم منها ان حالته تسمح باعادة التجربة .

وعاد وينستون مرة اخرى يعبر طريق الالام ..

لابد ان المؤشر ارتفع فى التجربة الثانية الى خمس وسبعين .

عيناه مغمضتان لاتريان المؤشر ، وجسده ازداد انتفاضا . لكنه واثق انه بعد زوال الالم سيجد الاصابع الاربعة كأربعة أشباح فى أنتظاره ... مطلة عليه من عليائها كالبوم .. أصبح همه الاول ـ بعد ان جاهد لينتزع وعيه بالاشياء حتى لاتضيع منه ـ همه الأول ان يبقى على قيد الحياة .. أن يمر بهذه المحنة حيا .. لايدرى الان اذا كان يصرخ ام لا .. لم يترك له الالم ترف الوعى بحالته .

حين خف الالم تدريجيا .. استجمع شجاعته وفتح عينيه .. كان اوبرايان قد خفض ذراع القرص المرقم الى الحد الادنى ...

ـ كم أصبعا ترى .. ياوينستون ؟

ـ أربعة .. اعتقد أنها أربعة .. لو كان بامكانى ان اراها خمسة .. لقلت خمسة .. أنا أجاهد حتى أراها خمسة بالفعل ..

ـ الى أى الموقفين انت تجاهد حقا : أن تقنعنى انك تراها خمسة .. أو ان تراها أنت بالفعل خمسة ..؟

ـ ان أراها انا بالفعل خمسة

ـ أذن حاول مرة اخرى

لابد أن المؤشر فى هذه المحاولة قد قفز الى التسعين .. لم يعد وعى وينستون بالالم متصلا الآن .. لكن عندما كان يفيق من اغماءاته .. كان الالم الرهيب .. بحيث تحول فقدان الوعى الى نوع من الخلاص ينشده .. ومن بين التقلصات التى زحفت حتى غزت جفنيه .. كان يرى غابة من الاصابع المتشابكة تتداخل ثم تتفرق .. صاعدة هابطة .. مندفعة نحوه بسرعة رهيبة لتخنقة .. متراجعة ببطء لتتداخل ملامحها فى أشكال لايستطيع ان يميزها أشكال متراقصة .. كانت تطل من ثناياها أصابع أربعة احيانا .. احيانا اخرى

يد كاملة بأصابعها الخمسة واضحة .. ثم غابة من اصابع .. ثم اصابع تجرى كالاطفال .. ثم اليد المكتملة الاصابع مندفعة اليه لتخنقه ... ثم ... ثم ..

أنقذه فقدان الوعي ..

أفاق مرة اخرى على منظر الاصابع .. أحس بنفسه عاجزا عن ان يحصى اى شيء .. اختلطت فى ذهنه كل الأرقام لم يعد قادراً على ان يميز بين الأربعة والخمسة .. هل حاق به الجنون فعلا .. العرق البارد يسيلُ متجمعا عند عموده الفقرى .. رعشة .. ثم صحوة .. ثم أغماءة ..

حاول ان يقنع نفسه انه فى حلم اسود .. لكن الاصابع تطل عليه وبنفس النمط .. متداخلة كأشجار عالية فى غابة كثيفة .. أطمأن أنه لم يجن .. حاول أن يحصى الاصابع أمامه .. دون جدوى الاصابع تجرى .. كأعمدة كهربائية مر عليها قطار سريع .. أغمض عينيه .

الصوت .. نفس الصوت .. يطارده

ـ كم أصبعا ترى ياوينستون ؟

ـ لا اعلم .. لا اعلم .. حقيقة لا أعلم

ـ كم أصبعا ترى ياوينستون ؟

ـ ستقتلوننى اذا استمرت هذه الطريقة .. انا ابذل قصارى جهدى .. ستقتلوننى .. ستقتلوننى .. اربعة .. خمسة .. ستة

ـ الان .. أحســـــن

ثم غرست أبرة فى ذراعه . في نفس اللحظة التى أنسابت الجرعة داخل دمه ، سرى فى داخله أحساس بالهدوء والنشوة امتص كل ألم سابق ، لتغمره راحة من يرشف جرعة ماء بارد بعد ظمأ عدة ايام .. وكأنه قد نسى ألمه السابق . فتح عينيه لتصافح وجهه ملامح اوبرايان المطمئنة وبسمته الحانية . كان لرؤية نفس ملامح اوبرايان الطيبة غير المتناسقة فعل المخدر فى جسده المنهك . ملامح لاتتسم بالوسامة لكن بالذكاء . أحس أنه يحب هذا الرجل ، لو كانت قواه الخائرة تسعفه لمد يد الامتنان لتصافحه . عاودته مشاعره المتضاربه ، لكن لايهم الان اذا كان أوبرايان عدوا أم صديقا يكفيه انه يشعر بالراحة لرؤية وجهه المطل عليه . بوسعه ان يبادله حوارا . اسعده ان يجد انسانا من الممكن ان يقيم تواصلا معه . لايهم حتى حقيقة انه منذ لحظات كاد ان يوصله الى حافة الجنون .

العذاب لايهم .. بل ولا حتى فكرة انه كان معرضا للموت الفعلى منذ دقائق على يد نفس هذا الرجل . ربما حاجة الانسان الاساسية ان يجد من يحاول ان يفهمه ، وليس من يحاول ان يحبه . ليس مهما عندئذ كل ما عاناه على يده . ان محاولة الفهم هذه ، بصورة أو بأخرى هى الأقوى من الصداقة . يكفيه انهما قد تقاربا الى هذا الحد . حتى وان لم تسعفهم الكلمات المناسبة للتعبير عن هذه الحقيقة ، لكن من الواضح أن هناك ارضية مشتركة يقفان عليها سويا . حتى نظرات اوبرايان اليه .. ياللغرابة .. تعكس مايدور هذه اللحظة بخلده هو . وعندما تكلم كانت نبرته مختلفة تماما عن لهجته السابقة طوال الجلسة :

ـ هل تعلم اين انت الان ياوينستون ؟

ـ لا أعلم .. استطيع فقط ان اخمن .. فى وزارة الحب

ـ هل تدرى كم مضى عليك .. داخل هذا المكان ؟

ـ لا أعلم .. أيام ربما .. اسابيع .. شهور .. لا أدرى لكنى أعتقد أننى قد امضيت شهورا .

ـ وفى اعتقادك انت ما هو السبب الذى يدفعنا لاحضار المعتقلين هنا ..

ـ لكى تنتزعوا منهم اعترافات ..

كلا .. ليس هذا هو السبب . أبحث عن سبب آخر

ـ لكى تعاقبوهم مثلا ؟

أجاب أوبرايان فى دهشة ، وقد تغيرت لهجته ، وأومض فى عينيه بريق ولمعت فيهما قسوة مباغته :

ـ كلا بالطبع .. نأتى بالناس هنا لا للعقاب ، ولا لاخذ اعترافات .. هل أخبرك عن سبب حضورك انت مثلا الى هنا ...؟

لكى نعالجك فكريا .. لكى نشفيك ذهنيا .. لكى نردك الى التفكير السوى العاقل .. لكن تتأكد .. أننا لاندع انسانا يخرج من هنا الا بعد تمام شفائه . ليس أهتمامنا الاساسى بتلك الجرائم السخيفة والمآخذ التى ارتكبتها . الحزب ليس شاغله .. التصرفات الخارجية ـ هذه جميعا أمور تافهة مقدور عليها وتحت سيطرتنا ـ انما شاغلنا الاساسى مايدور داخل عقلك . الفكر .. هو ما نهتم به جدا.فنحن لانقضى على أعدائنا .. نحن نغيرهم . أتراك تفهم ما أحاول ان اقول ؟

كان ينظر الى عينى وينستون وقد احنى جسمه ليقترب منه . وجهه بدا أكثر ضخامة بسبب قرب المسافة بينهما .. وأكثر دمامة عن ذى قبل ، لأن وينستون ينظر اليه من زاويته السفلى .. انقبض قلب وينستون لرؤيته هذه الصور .. لو كان بامكانه لضغط بجسمه أكثر داخل فراشه وأختفى فيه . عاودته الرعدة .. اذ بداله أن أوبرايان على وشك أن يضغط على مقبض القرص المرقم ، كنوع من تأكيد كلامه هذه المرة .

واستدار مبتعدا فى هذه اللحظة ، وخطا خطوة أو خطوتين جيئة وذهابا ، ثم واصل كلامه .

- : « حري بك ان تدرك قبل كل شيء انه لا مكان هنا للشهادة أو الشهداء .

لابد انك قرأت شيئا عن اخبار الاضطهاد الدينى فى سالف الزمان ، ارأيت كيف ظهرت محاكم التفتيش فى العصور الخوالى ثم آل امرها الى بوار .. لقد باشرت التصدى للهرطقة محاولة استئصالها من الجذور ، لكن الأمر أدى الى عكس ما هدفت اليه فترسخت الهرطقة وعظم شأنها . الم تر كيف انها كلما القت بمهرطق فى النار تقتله ظهر مكانه الف مهرطق آخر .. فلم كان ذلك ؟.. لأن محاكم التفتيش قتلت اعداءها على رؤوس الاشهاد وهم بعد متشبثون بمعتقداتهم غير نادمين عليها .

كان الواحد منهم يلقى حتفه بسبب رفضه التخلى عما آمن به من معتقدات . فلا غرو والحالة هذه اذا كان المجد من نصيب الضحية ، بينما حاق العار بمحاكم التفتيش التى احرقته . وبعد ذلك وفى القرن العشرين ظهر الشموليون كما كانوا يسمون .. منهم النازيون الالمان ، ومنهم الروس الشيوعيون . ولقد نكل الروس بالهراطقة على نحو اشد مما فعلته محاكم التفتيش ، متصورين خطأ انهم قد وعوا درس الماضى واستفادوا من اخطائه .

لكن بعد عدة سنوات لا أكثر .. تكررت نفس الظاهرة المرضية مرة اخرى ، اذ بدأ الناس ينظرون حتى الى هذه الانماط المنهاره .. نظرتهم الى الشهداء .. ونسى الناس مالحق بهم من اذلال .

مرة اخرى ، نتساءل : لماذا حدث هذا ؟ فى المقام الأول : لأن الاعترافات التى كان يدلى بها هؤلاء المنحرفون فى المحاكمة العلنية ، كان التزييف والالتواء واضحين فيها . نحن الان لا نرتكب مثل هذه الاخطاء . كل الاعترافات التى يدلى بها المتهم هنا .. أعترافات حقيقية .. لكن الاهم .. أننا لاندع فرصة للموتى أبدا أن يطلوا برؤوسهم ...

ليهددونا كشهداء فكر وعقيدة . يجب أن تتخلى عن تلك الفكرة العقيمة التى ربما تراودك الآن وهى : أن الاجيال القادمة ستنصفك !!

الاجيال القادمة .. لن تسمع عنك .. أبدا .

اسمك سيرفع .. سينظف مسار التاريخ من وجودك أصلا . لانك فى النهاية ستتحول ـ فى حالة عدم شفائك ـ الى مجموعة غازات سنطلقها لتأخذ طريقها الى الغلاف الجوي . انت لن تفنى فقط . أنت لن توجد ، ولم توجد من قبل ، ليس لك وجود . ولم يكن لك وجود . لن يبقى من ذكراك اسم فى أى سجل ، حتى ولا ذكرى فى عقل أى انسان حي من الممكن ان يمررها لجيل قادم . فأنت ستفنى فى الماضى .. بمثل فنائك فى المستقبل . نحن نعدم الماضى والمستقبل ، قبل ان نعدم الجسد ياوينستون ...

ماذا بقى لكى تقاتل من أجله .. اذا كانت المحصلة النهائية كما اسلفت : انك لم توجد أصلا ؟

فكر وينستون : (اذن لماذا تهتمون بتعذيبى ؟؟) ولدهشته التقط اوبرايان فكرته الداخلية تلك ليضيف :

ـ انت تفكر الان ، انه طالما اننا قد قررنا افناءك تماما ، بحيث لايكون لما تقول أو تفعل ـ أو ما قلت وما فعلت ـ أى تأثير أيا كان ، فلماذا نجهد أنفسنا فى عناء استجوابك اليس هذا هو ما تفكر فيه ؟

أومأ وينستون بالايجاب . فابتسم اوبرايان ابتسامة خفيفة ، وأستأنف يقول :

ـ لأننا ـ كما قلت لك فى السابق ـ نختلف عن اسلافنا فى الماضى . نحن لنا طريقتنا الحديثة المتفردة فنحن لانقنع (بالطاعة السلبية) . نحن لايرضينا حتى الاستسلام الكامل للمعتقل . ان نصل الى هذا ، أمر سهل جدا .. المهم أن نصل الى ان يكون استسلامه فى النهاية لنا : بمحض ارادته الحرة ، لنعيد تكوينه من جديد . نحن نخرج من فكره وعقله ووجدانه كل وهم .. كل افكار خبيثة ، هو نفسه ، سينحاز بكامل حريته .. الى عقيدتنا السياسية . ليس انحيازا ظاهريا ، بل التزاما عقائديا ، نابعا من القلب ، عميقا فى الوجدان . هذه هى المهمة الصعبة . من أجل هذا نتحمل كل هذه المشاق . نحن نحيل المنحرف الى انسان كامل ، الى صورة منا ، قبل ان يفنى . نحن كنظام ليس بوسعنا ان نتحمل وجود فكرة سريه أو غير سرية .. قادرة .. أو عاجزة .. تحمل سمة الانحراف .

فى العصور الوسطى كانوا يسمحون للمذنبين ان يمشوا الى الموت هاتفين مهللين .. بل مرددين ما يؤمنون به .. حتى روسيا الشيوعية ارتكبت هذا الخطأ اذ كانت تسمح للمنشقين بأن يعدموا دون ان تطهر ما فى داخل عقولهم من فكر محرف .

اختلافنا مع أنماط الماضى هو فى تلك النقطة الهامة .. نحن ننظف الجرح تماما .. قبل أن نبتر .. رأسك الجميل هذه يجب ان تنقى تماما من الشوائب .. قبل أن تفصل .

من يقع بين ايدينا .. نشفيه من أدوائه أولا .. نطهره . ليخرج من هذا المكان وقد بلغ مرحلة النقاء الفكرى هذه كاملة . نتسلمه فى هذا المبنى ، منحرفا ملتوى العقيدة .. ليخرج مشعا .. براقا .. لامع الفكر .. كمثال : هؤلاء الثلاثة الذين تعتقد انت فى براءتهم .. حتى هؤلاء .. جونز وايرونسون ، وروثرفورد .. فى النهاية ، استطعنا النفاذ الى دخيلتهم .. أقتحمناهم من الداخل . غزو الجسد سهل ياوينستون ، ونحن لانسعى للسهل . المهم غزو العقل . أنا بنفسى اشتركت فى استجوابهم . بدأوا بمرحلة الانهيار .. والبكاء .. والتخاذل .. والعذاب . وانتهوا .. لمرحلة الاقتناع .. وطلب الغفران .. والندم على كل ما مر فى رؤوسهم من أفكار ملتوية وشريرة .. انتهوا الى حب حقيقى وتكريس للزعيم الكبير . كان مشهدا مؤثرا أن تلمس فى النهاية . كل هذا العناء ـ الطريقة التى كانوا يعبرون بها عن حبهم للزعيم الكبير .. كانوا يلحون فى الرجاء أن تطلق عليهم النار فى أسرع وقت .. حتى تتاح لهم فرصة الموت .. وعقولهم طاهرة لن تتلوث ثانية .

تحول صوته عندما وصل الى هذا الجزء من شريط الذكريات الى صوت انسان حالم .. كمن وصل الى مرحلة النشوة والصفاء الى نوع من حماس الملهم . كاد أن يكون حماسا مجنونا ، عكسته عيناه ببريقهما الغريب .. ونظراتهما الاغرب .. تأكد وينستون ان هذا الرجل لايدعى .. لايتظاهر بالحماس لما يقول .. من الواضح انه يؤمن بكل حرف يقوله . شعر وينستون بنوع من الانقباض نتيجة الاحساس بالضآلة امام قدرة اوبرايان العقلية المتفوقة وشخصيته المسيطرة . وأخذ يرنو للرجل بقامته المديده ، وحركاته الرشيقة ، وهو يقطع الحجره جيئة وذهابا . يشعر الآن أن الرجل أضخم منه جسدا وفكرا . (لايعقل أن رجلا بهذه المهابة قد ساورته شكوك كشكوك أو افكار كتلك التى أجتاحتك ياونستون ، أفكار الحرية تلك التى أختلجت فى داخلك) .

أحس وينستون ان مثل هذا الرجل قد خلق هكذا بلاشكوك .. وأن فكره راسخ كبنائه الجسدى ، وأن عقله أرحب وأشمل .. ان عقله يحوى عقله هو ويتجاوزه ، وأنه

طوال حياته لم يمر بلحظة تساؤل واحدة .. لم يقع فريسة لحظة تردد واحدة .. السمة البادية عليه هى الثبات ... ثبات الخطوة .. والفكر .. لكن أليس هناك أحتمال أن تكون أفكاره مجنونه ؟ أن يكون الرجل مجنونا ؟ لا .. لابد أنه هو وينستون المجنون . ليست هذه سماء المجانين .

المجانين لايتمتعون بهذا القدر من الثبات .

توقف أوبرايان . والتفت ، ثم أتجه اليه ليكمل حواره فى صوت أرتـد الى جديتـه القاسية :

ـ هل تظن أنك بموقفك هذا ستنقذ نفسك حتى لو استسلمت فى النهاية لنا أستسلاما كاملا ؟ ليس من شيمتنا العفو عن أى عضو فى الحزب انحرف عن الطريق السليم . حتى لو سمحنا لك مستقبلا ـ وهذا مجرد احتمال ـ ان تواصل حياتك العادية . فليس امامك اى مهرب ـ طوال ايامك الباقية ـ من قبضتنا . مايحدث لك من تغير داخلى هنا سيستمر بالنسبة لك الى الابد . يجب ان تعى هذه الحقيقة مقدما . انت ستتحطم على أيدينا ، بحيث لن تقوم لك قائمة بعد ذلك . ماسيصيبك هنا (ليس الاصابة البدنية) لاشفاء لك منه ، حتى ولَو عشت ألف عام . لن تقوى بعد الان على ممارسة الاحساس الانساني الطبيعى . سيكون كل شىء فى داخلك قد مات ، بل وشبع موتا . لن يكون فى مقدورك ـ اذا قدر لك ان تخرج من هنا حيا ـ لن يكون فى مقدورك أن تحب ... أن تعشق .. ولا ان تصادق .. ولا أن تفرح . بل ولا أن تضحك .. لن تشعر بحب استطلاع .. لن تبقى فيك ذرة من الشجاعة .. سينفرط عقد الـ (أنا) فى داخلك .. ستفقد تعـاملك مع نفسـك كأنسان . ستحيا .. أى نعم .. ولكن ككائن أجوف ليس فى تجويفه الا الخواء . نحن سنعتصر دخائلك حتى آخر قطرة منها ثم سنعيد ملأك بما يناسبنا .. بأفكارنا نحن .

صمت أوبرايان قليلا ، قبل أن يشير للرجل ذى المعطف الابيض . شعر وينستون بجسم معدنى بارد من جهاز يدفع خلفه ويثبت الى رأسه . جلس أوبرايان على أحد المقاعد التى قربها الى الفراش بجواره بحيث كاد وينستون أن يحس بأنفاسه لشده قربه ، ولأن وجهه فى مستوى الفراش .. الى أن قال للرجل :

ـ ثلاثة آلاف ..

شعر وينستون بقطعتين من اللباد اللين تضغطان على صدغيه ، وامتدت يد أوبرايان لتمسك برأسه فى حركة مهدئه قائلا : (لن تشعر بقسوة الالم هذه المرة) .

أحس بنوع مختلف من الالم .. صوت أوبرايان مازال يطمئنه . ثبت عينيك على انا . ثم تلا ذلك صوت انفجار أو ما يشبه الانفجار ، مصحوبا ببريق ضوء سطع لبرهة . لم يشعر وينستون بأذى ، برغم نوعية الالم المختلفة فى طبيعتها ، لكنه شعر بانهاك شديد واجتاحه شعور غريب ، فبرغم تأكده من انه كان ممدداً عندما بدأت هذه العملية الجديدة ، الا انه أحس كما لو انه قد القى به الى السرير من ارتفاع شاهق . قذفته ضربة رهيبة ، قوية دون الم ، الى هذا الوضع المسطح الافقى على الفراش . يكاد يشعر بشىء قد تغير داخل رأسه نفسها . وما ان استعادت عيناه قدرتهما على التركيز ، حتى دار بناظريه فى أركان الغرفة ليدرك من جديد اين هو ؟ فبداخله أحساس غريب .. وأحساس بالغربة .. تعرف على الوجه المتفرس فيه . لكنه يحيط به فراغ من كل جانب . شعر أن جزءاً من عقله قد انتزع أو أن رأسه ليست كاملة الاستدارة .

الى أن قال اوبرايان :

ـ لن تستمر هذه الحالة طويلا . ركز عينيك فى عينى .. أى دولة تقاتلها اوشانيا الان ؟

أجهد وينستون ذهنه ليجيب . استطاع ان يعى كلمة (اوشانيا) ويفهمها . تذكر أيضا أنه مواطن من مواطنى (أوشانيا) تذكر ايضا كلمتى (اوراشيا) و (ايستاشيا) . لكن من كان فى حالة حرب مع من ؟ لم يعد يعرف ؟ بل انه لايتذكر ان هناك حربا اصلا .

ـ لا أتذكر

ـ كانت اجابته بعد فترة تفكير طويل

ـ اوشانيا فى حالة حرب مع ايستاشيا . هل تتذكر الآن ؟

ـ نعم

ـ اوشانيا كانت دوما فى حالة حرب مع (ايستاشيا) .. منذ بداية حياتك .. منذ بداية تكوين الحزب ... منذ فجر التاريخ استمرت الحرب دون انقطاع . دائما نفس الحرب . هل تتذكر كل هذا .

ـ نعم ..

ـ منذ احد عشر عاما ، اخترعت اسطورة عن ثلاثة رجال حكم عليهم بالاعدام لارتكابهم جريمة خيانة . تظاهرت انك شاهدت قصاصة ورق تثبت انهم ابرياء . لم توجد أى ورقة بهذه الصفة . أنت قد أخترعت هذه الحكاية التى لا أساس لها من الصحة ، ثم

صدقت أكاذيبك . هل تذكر اللحظة الأولى التى بدأت تختلق فيها هذه الحكاية ؟ هل تتذكر هذا ؟

ـ نعم

ـ منذ لحظات رفعت يدى امامك .. ورأيت انت خمسة اصابع .. هل تذكر ذلك ؟

ـ نعم

ثم رفع اوبرايان يده ، وقد اخفى الأصبع الخامس كالمعتاد

ـ امامك خمسة اصابع . هاهم .. هل تراهم خمسة ؟

ـ نعم

رآها وينستون بالفعل خمسة ، فى منتهى الوضوح .. لكن صورها لمعت أمامه كالبريق دون ان تستمر .

أرخى اوبرايان يده ..

وينستون برغم عدم رؤيته لليد الان ، يتذكر الاصابع الخمسة كذكرى شىء مر به منذ فترة بعيدة الا انها ذكرى حية فى مخيلته .

ـ كما يتضح لك الآن ياوينستون .. كل شىء من الممكن تحقيقه

ـ نعم

انتصب واقفا ، وفى وجهه تعبير عن الرضى . على يساره شاهد وينستون الرجل ذا الرداء الابيض ، يكسر احدى الحقن ويسحب محتوياتها فى الحاقنة . استدار اوبرايان تجاهه وعلى وجهه ابتسامة . وبنفس اللازمة المعتادة تقريبا ، اعاد تثبيت نظارته على ارنبة أنفه .

هل تذكرت انك قد كتبت فى دفتر مذكراتك يوما انه لايهم اذا كنت صديقا لك ام عدوا ، مادمت انسانا يفهمك ويستطيع ان يقيم معك حوارا ؟ فى هذا كنت محقا .. اذ بالفعل استمتع بالحوار معك . عقليتك تشدنى . انها تشبه عقليتى مع فارق واحد . انك مجنون ، وقبل ان ننهى هذه الجلسة . لك ان تسألنى انت بدورك عدة أسئلة ، اذا كان هذا يناسبك .

ـ أى سؤال يعن لى ؟

ـ أى سؤال

لكنْ عينا وينستون كانت تنظران الى القرص المرقم ، فطمأنه اوبرايان :

ـ الجهاز لايعمل الان . ابدأ بأول سؤال يطرأ على ذهنك

فسأله وينستون :

ـ ماذا فعلتم بالنسبة لجوليا ؟

أبتسم أوبرايان وهو يجيب :

ـ لقد خانتك .. ياوينستون .. لقد خانتك .. وبسرعة ، بل ودون تردد .. ودون تحفظ ، انها تعتبر حالة مثالية ، يمكن ان اضمها لأى مرجع أقوم بتأليفه ، للتحول من النقيض الى النقيض .. لم أشاهد حالة مماثلة لحالتها على ما اذكر .. فكل ثوريتها .. حماقتها .. خداعها ، قذارة افكارها .. كله تحول الى النقيض .. لقد تطهرت .. من الصعب عليك ان تتعرف عليها الان .

سأله وينستون فى صوت يعكس مابه من أسى :

هل عذبتموها ؟

تجاهل اوبرايان هذا السؤال وتركه دون اجابه ، ليطلب منه ان ينتقل الى السؤال التالى :

هل للزعيم الكبير وجود ؟؟

بالطبع .. هو موجود .. الحزب له وجود .. والزعيم الكبير تجسيد للحزب

هل له وجود مادى مثل وجودى انا ؟

انت .. انت ليس لك وجود ؟

مرة اخرى أحس وينستون انه انسان مهزوم وأنه مطحون .. يخيل اليه انه يعرف ، أو على الأقل من الممكن ان يتخيل كل المناقشات والمحاولات التى بامكان اوبرايان ان يثبت له بها انه بلا وجود . لكن كلها هراء كلها لعب بالالفاظ خداع منمق ، اليس فى نفس جملته الاخيره . أنت ليس لك وجود نوع من التناقض نوع من السخف غير المنطقى ؟ لكن اية فائدة ترجى من بدء جدال عقيم معه ؟ أحس برأسه يكاد ينفجر .. عندما أخذ يستعيد مناقشاته النزقة ومنطقه المعوج الذى بامكانه ان يفحمه به فى أى نقاش ، فلم يجد ما يرد به على اوبرايان الا ان قال فى نبرة من تعب من كثرة الجدال .

انا موجود يا اوبرايان .. موجود .. وأنا واع بوجودى واع بهويتى . انا ولدت وسوف أموت . لى ذراعان أحسهما وساقان لهما وجود . أشغل حيزا معينا من الفراغ . فلا يمكن ان

يكون الممدد على هذا السرير انسانا آخر غيرى . لايمكن ان يشغل هذا الحيز من الفراغ كائنان فى آن واحد بهذا المعنى المحدد ، أسألك .. هل للزعيم وجود ؟

ـ بالرغم من عدم اهمية وجوده أو عدم وجوده بهذا المعنى لكنى اجيبك .. نعم موجود

ـ هل سيموت يوما ما ؟

ـ بالطبع ، لا . كيف يمكن ان يموت ؟ انتقل الى السؤال التالى :

ـ هل لحركة (الاخوة) وجود ؟

ـ الاجابة على هذا السؤال بالذات لن تعرفها ياوينستون . فحتى لو قدر لك ان تخرج على قدميك طليقا من هنا ، وعشت حتى سن التسعين ، لن يقدر لك ان تصل الى اجابة قاطعة على هذا السؤال . طوال حياتك القصيرة أو المديدة ، سيبقى هذا السؤال لغزا معلقا ..

نظر اليه وينستون فى صمت للحظات .. وصدره يعلو ويهبط بصورة أكثر من المعتاد ، حتى الان لم يسأل السؤال الذى راودته نفسه ان يلقيه منذ البداية . لابد ان يسأله وان كان لسانه لايطاوعه لان ينطق بالسؤال . عندما نظر الى وجه اوبرايان شعر انه مستمتع بالحوار . حتى نظارته بدأت تشاركه سخريته من وينستون . يبدو أنه يعرف عما سيسأل .

أخيرا زال تردد وينستون وسأله :

ماذا هناك ياترى فى الغرفة (١٠١) ؟

لم يزايله تعبيره الساخر ، وهو يجيب :

انت تعلم ماذا يوجد داخل الغرفة (١٠١) . كلنا نعلم ما فى داخل الغرفة ١٠١

وبهذه الاجابة اشار للرجل الاخر . من الواضح ان الجلسة قد انتهت . غرز الرجل ذو المعطف ابرة فى ذراعه . ولم يشعر بشىء ، بعد لحظات .. طواه النوم .

* * *

(٣)

ابتدره اوبرايان فى الجلسة الجديدة قائلا :

ـ لكى تبلغ ما نريده لك من تكامل عقلى سليم . يجب ان تمر بثلاث مراحل : مرحلة التعليم ، ثم مرحلة الفهم ، والمرحلة الثالثة : التقبل . آن لك ان تنتقل للمرحلة الثانية .

وكالمعتاد كان وينستون ممددا على فراشه ، وأن خففوا من قيوده مؤخرا . لكنه مازال مثبت الاطراف بالفراش ، غير أنهم سمحوا له ان يثنى ركبتيه ، وان يدير رأسه يمينا ويسارا ، وأن يرفع ذراعه من الكوع الى اليد .

القرص الدائرى المرقم لم تعد له نفس الرهبة بعد الاعتياد عليه . بل لقد درب وينستون على تخفيف مايحدث له من الم . ولجأ الى اعمال فكره الا يلجأ اوبرايان لاستخدامه . لأنه لم يكن يلجأ اليه الا اذا استشف منه تغابيا . فكف وينستون عن تغابيه . مما ادى الى مرور جلسات كاملة دون ان يلجأ اوبرايان لشد ذراع القرص الدائرى . لم يعد باستطاعته ان يتذكر الآن عدد الجلسات التى مرت به فقد امتدت لايام أو لأسابيع فى مرات متتالية تفصلها فترات شعر بها أياما احيانا ، أحيانا لايفصلها الا ساعات قلائل .. ساعة او ساعتان على الاكثر . عاد اوبرايان لمحاضراته :

ـ وأنت راقد هنا ، لابد انك تسأل نفسك ، كما سألتنى مرة : لماذا تضيع وزارة الحب كل هذا الوقت وكل هذا الجهد . على فرد واحد : هو أنت ؟

وانت قبل ان يقبض عليك ، كنت حائرا فى الاجابة على سؤال معين . فأنت استطعت ان تصل الى الميكانيزم الذى يسير هذا المجتمع ، لكنك اخفقت فى الوصول الى الدوافع الخفية المسيرة لمجتمعنا . هل تذكر ما كتبته فى دفتر ذكرياتك : أنا أفهم (كيف ؟) ، لكنى لا أفهم (لماذا ؟) . فى نفس اللحظة التى تطرق فيها الشك الى نفسك بالنسبة لـ (كيف) ، فقدت فى اللحظة نفسها .. عقلانيتك . تحولت الى انسان يفتقر الى الفكر . كما أنك قد قرأت (الكتاب) .. كتاب جولد شتين ، أو أجزاء منه على الاقل . هل أضاف ما قرأته أى معلومة جديدة لم تكن تعرفها من قبل ؟

ـ سأله وينستون :

ـ وهل قرأت الكتاب كله أنت ؟

ـ أنا كتبته قبل أن أقرأه ، أو على الاصح اشتركت فى كتابته . فلا يوجد كتاب يؤلف لمؤلف واحد كما تعلم وفق القاعدة السائده الان .

ـ وهل ماجاء بالكتاب صحيح ؟

ـ كسرد لما حدث فى الماضى .. ممكن . لكن المنهج الذى يتبعه الكتاب .. كلام فارغ . فالتراكم السرى للمعلومات .. والنشر التدريجى للوعى .. وثورة بروليتاريا صرفة .. وأقصاء الحزب عن السلطة ـ كما ربما قرأت ذلك كله أنت نفسك ـ هذا كل ما يدعو اليه الكتاب ، وكله كلام فارغ . البروليتاريا لن تثور فى يوم من الأيام .. لا بعد ألف سنة ، ولا بعد مليون سنة . ليس فى مقدورهم أن يثوروا . ولا داعى لان اوضح لك السبب ، فأنت تعلم السبب ..

اذا طاف بمخيلتك امكانية قيام عصيان مسلح من أى نوع ، فيستحسن ان تكون واقعيا ولاتشغل نفسك بأمور خيالية . ليس هناك من سبيل على الاطلاق لقلب نظام الحكم أو الحزب . حكم الحزب حكم أبدى . فليكن هذا هو المنطق .. لأى فكرة تناقشها فى ذهنك .

أقترب أكثر من سرير وينستون ، ليكرر

أقول لك حكم أبدى ، أى أبدى . والان دعنا نعد الى السؤال الذى بدأنا به وهو (كيف) و (لماذا) . انت على وعى تام بالنسبة لـ (كيف) . كيف يحتفظ الحزب بمقدرات الأمور فى يده . الان قل لى انت (لماذا ؟) لماذا نستأثر بكل هذه السلطة مع كل مايستلزمه ذلك من عناء ؟ ما هى دوافعنا ؟ بل لماذا ننشد السلطة منذ البداية ؟

ولما لاحظ صمت وينستون ، استحثه :

هيا تكلم .. أشرح

بقى وينستون صامتا لبرهة يفكر ، وقد سيطر عليه أحساس بالارهاق الشديد . فقد لاحظ ان اوبرايان قد عاد اليه طائف من حماس مجنون ، وينستون يعلم مسبقا ما سوف يقوله اوبرايان : ان الحزب لايطلب السلطة من اجل السلطة ـ وان السلطة وسيلة ليست غاية .. وسيلة لتحقيق مصالح الاغلبية . ان الحزب سعى الى السلطة لان بسطاء الناس ضعفاء ومتخاذلون وجبناء ، وكأفراد ليس فى مقدورهم تحمل تبعات الحرية ، أو مواجهة الحقائق الموضوعية وأنه يجب ان يرعاهم أناس مفوضون عنهم ، أناس اقوياء يدافعون عن مصالحهم . وان الانسانية امام اختيار صعب : السعادة أو الحرية وانه بالنسبة لجماهير

الشعب الغفيرة : السعادة أفضل لهم . وان الحزب هو الحارس الابدى على مصالح المطحونين . وأنه بمثابة طائفة مكرسة لتحقيق الخير العام ، حتى وان كانت الوسائل التى يتخذها تبدو شريرة ، طائفة مضحية بسعادتها من أجل الاخرين . كل هذا يحفظه عن ظهر قلب .

أفظع ما يخشاه وينستون ، أن أوبرايان وهو يردد كل هذا سيردده وهو مؤمن به ، ايمانا مطلقا . باستطاعته ان يكشف هذا فى نبرته ونظراته وطريقه كلامه وجدله . الغريب انه على وعى بكل مايحدث .. على وعى يفوق وعيه هو نفسه الاف المرات . لو كان انسانا مخادعا أو منافقا أو مدعيا لهان الامر . المصيبة أنه مؤمن بكل ما يحاول اقناعه به . لكنه من موقعه يعلم مدى الاذلال الذى يحيق بالانسان فى هذا المجتمع ، وبأى وسائل بربرية يكمم الحزب الافواه ، ويضمن الخضوع التام .. من موقعه لابد أن يرى أفضل منه ، ويعرف اكثر منه .. آلاف المرات . لابد أنه وزن كل شيء بميزان منطقى ، قدر آثار ما يرتكب ، وحلل مايحدث .. ليصل بينه وبين نفسه الى تبرؤ قاس .. أنه فى سبيل الهدف الاستراتيجى فى النهاية ، يهون كل شيء . ساءل وينستون نفسه فى يأس : بماذا يمكن ان تجادل .. مع مهووس مثل هذا يملك قدرة على المنطق والجدال تتجاوز قدراتك ؟ ماذا يمكن ان تفعل مع انسان متعصب لفكرة هو مقتنع بها ؟.. حتى لو أتاح لك الفرصة لأن تقول كل ماتريد .. لكى يصر فى النهاية على بلوغ تلك الفكرة التى سيطرت منذ زمن على كيانه كله .. لو أنه كان مدعيا لهان الأمر .

فقال وينستون متعبا على أمل أن تنتهى الجلسة على خير :

- انت محق .. أنتم تحكمون هذا المجتمع من أجل تحقيق الصالح العام . فالانسان ليس قادرا ان يحكم نفسه بنفسه .. هو أضعف من ذلك وبناء عليه فان الـ ....

قاطعه ألم مفاجيء لم يتوقعه . كان اوبرايان قد رفع ذراع القرص المرقم الى (٣٥) قائلا فى صوت عميق :

- لاتتغاب ياوينستون .. لاتتغاب .. ولاتتبع مثل هذه الطريقة معى مرة اخرى . من الواضح انك تحاول ان ترضينى . انت غير مقتنع بما تقول . أنا أطلب رأيك انت . لم أطلب منك ان تردد رأيى .. رأيي ... أنا اعرفه .

أعاد الذراع الى وضعها الطبيعى ، ليزول الالم تدريجيا ، وليفتح وينستون عينيه اللتين اغمضهما الما وخجلا .... استطرد اوبرايان :

سأجيب أنا على سؤالى حتى تفهم .. أو لعلك تفهم .. الحزب يسعى الى الاحتفاظ الكامل بالسلطة .. لا لشىء سوى (السلطة) . نحن لاتهمنا مصالح المطحونين ولا خلافه . همنا الاساسى هو (السلطة) . شاغلنا الاوحد ، ليس الثراء ، ولا الحياة المنعمة ولا الحياة المديدة ، ولا حتى السعادة .. همنا الاساسى ببساطة وحسم ووضوح هو (السلطة) .. مجرد (السلطة) . وأنت غبى لا تدرك سحر السلطة . ونحن نختلف عن كل من مارس حكما فرديا فى الماضى .. فالحزب يعلم تماما مايفعله . كل من سبقونا ، حتى اولئك الاباطرة أو القياصره أو الحكام الفرديون .. الذين قد تجد وجه شبه بيننا وبينهم .. لم يكونوا سوى منافقين وجبناء .. النازيون الألمان والشيوعيون الروس .. اقتربوا كثيرا من الأساليب التى نطبقها ، لكن لم تواتهم الشجاعة ، ان يتعرفوا بينهم وبين انفسهم .. على دوافعهم الحقيقية . لقد ادعوا .. بل لعلهم قد صدقوا أنفسهم فى هذا الادعاء .. بأنهم قد ركزوا السلطة بين ايديهم على غير رغبة منهم للاحتفاظ بها الى الابد .. وأنهم مضطرون لتطبيق اجراءات أمن استثنائية .. ومؤقته .. وأنها لن تدوم .. وأنه فى القريب العاجل سيصلون بالجماهير الى حياة الرخاء والحرية .. والمساواة .

نحن نختلف عنهم .. كلية .

نحن نعلم تماما أنه لايوجد ـ مهما بلغ به الغباء ـ من يمسك بزمام السلطة ، لكى تتراخى اليد التى تمتعت بما قبضت عليه . مرة اخرى انت لاتدرك سحر السلطة . فالسلطة ليست وسيلة لشىء ما . السلطة جمالها نابع من ذاتها ... من أنها سلطة . ومن ثم فهى الهدف . فلا يمكن ان ترسى قواعد السلطة بين يديك .

تسائلنى لعلك : وما الهدف من التعذيب ؟؟

الهدف من التعذيب .. هو التعذيب

الهدف من الاعدام .. هو الاعدام

والهدف من السلطة .. هو السلطة

أخذ وينستون بما يسمع ، أذهلته الجدية البادية على وجه أوبرايان وهو يتكلم . هذا الوجه الممتلىء ، بدا قويا .. قوة وحشية ... بدا وجهها ينم الآن عن ذكاء حاد ، وملامح احكمت السيطرة على تعبيراتها : لكنه وجه .. متعب .. متعب . التجاعيد تحت العينين أكثر بروزاً عن ذى قبل . ذاب رحيق الحيوية من البشرة عند الخدين فتهدلا .

أنحنى اوبرايان وقرب وجهه منه أكثر .. وكأنما قد تعمد أن يقرب وجهه من عينيه .. وجهه المجهد الملامح . ليضيف :

ـ لعلك تفكر .. أن ما تراه أمامك . هو وجه رجل عجوز . وجه يحمل بصمات الزمن .. والتعب . ربما تساءلت : كيف أتكلم عن قوة السلطة .. وأنا غير قادر حتى على منع الضعف ان يزحف الى قسماتي نفسها .

لكن أتراك قادر على ان تفهم .. ياوينستون .. ان الانسان الفرد ، هو مجرد خلية ؟ مايصيب الخلية من الإجهاد ، دليل على ما أضيف من القوة الى الجسم ككل ... للكيان المكون من ملايين الخلايا .

هل تموت ياترى .. عندما تقص أظافرك حين تطول ؟

أنتصب واقفا مرة اخرى .. ليبتعد عدة خطوات ثم ليقطع الغرفة فى مشية رتيبة .. جيئة وذهابا كما اعتاد .. ويده فى جيبه .

ـ نحن كيان السلطة .. ياوينستون . الله هو قوة قاهرة متسلطة . لكن فى زمننا الحالى قوة السلطة هى فى ماتمتلكه أنت . آن لك ان تلم بفكرة عما تعنيه السلطة من قوة . يجب ان تدرك بداءة ان قوة السلطة جماعية بطبيعتها .. الفرد قوى .. طالما استطاع ان يتنازل عن فرديته لتذوب فى قوة أكبر .. وأنت على وعى طبعا بشعار الحزب :

(العبـــودية ... حـــرية)

لكن هل خطر ببالك يوما ، أن العكس صحيح .. أنك يجب ان تخضع نفسك لنوع من العبودية .. لكى تصل الى الحرية .

فالانسان الفرد .. الواحد .. والوحيد .. وهو حر ... معرض بالتأكيد للهزيمة .. معرض لأن تقهره قوة اكبر منه . وهذه هى طبيعة الاشياء ، لأن الانسان الفرد سينتهى الى الموت .. وهو الهزيمة الكبرى . لكن اذا استطاع ان يروض نفسه على نوع من الخضوع التام والكامل .. اذا استطاع ان يتنازل عن هويته وتفرده .. اذا استطاع ان يذوب داخل كيان اكبر كالحزب ، بحيث يكون هو والحزب كيانا واحدا .. أى يكون هو : (الحزب) .. اذن لاكتسب قوة السلطة ، وسلطة القوة . اذن لبلغ نوعا من الجبروت القادر على ان يهزم الموت نفسه .

النقطة الثانية التى يجب ان تعيها : هى ان القـوة .. هى السيطـرة على نزعـات الانسان . ان تقهر نوازع البدن .. وقبل البدن .. ان تقهر نوازع العقل ، فالسيطرة على

المادة ، أو على الحقيقة الخارجية كما سميت انت المادة ، ليس بالشيء المهم . سيطرتنا على اية وسائل أو امكانيات مادية ، سيطرة كاملة الان .

كان لابد أن يتجاهل وينستون القرص المرقم والعذاب ، ليحاول ان يبذل اقصى طاقته فى ان يرفع جسمه عن الفراش ، لكى يتمكن من الجلوس ، لكنه لم ينجح الا فى رفع ظهره بوصات قليلة ، بعد معاناة شديدة ، ليسأل اوبرايان .

ـ لكن كيف تتحكمون فى العالم الخارجى .. عالم المادة . وأنتم أعجز من ان تسيطروا على حالة الطقس ، دع عنك قانون الجاذبية الذى يقف أمامه الحزب عاجزا ؟ ثم هل نسيت المرض .. الالم .. الموت الـــ)

أخرسه اوبرايان بحركة من ذراع الالة ، ليقول :

ـ نحن نسيطر على المادة ، لأننا نسيطر على العقل . فالحقيقة اساسا هى داخل الجمجمة . أنت ستتعلم بالتدريج ياوينستون . لاتتسرع . لايوجد شيء نعجز عن تحقيقه حتى تحويل جسم الانسان الى طيف ، أو إطلاقه ليسبح فى الفضاء ، الخارجى .. أى شيء ممكن . بامكانى ان اطير فى هواء هذه الغرفة كفقاعة صابون لو أردت . وأنا لا اريد ذلك ، لأن الحزب لايريد ذلك . والاجدر بك ان تتخلى عن أفكار القرن التاسع عشر عن قوانين الطبيعة . نحن الذين نصنع قوانين الطبيعة .. الطبيعة فى النهاية .. ستكون من صنعنا .

ـ لكنكم حتى الان لم تصلوا الى شيء من هذا . أنتم حتى لم تسيطروا على كوكب الارض . هل نسيت (اوراشيا) و (أيستاشيا) ؟ انكم لم تهزموهما بعد ..

ـ حتى هذه كلها مسائل مرحلية .. لا اهمية حقيقية لها ، نحن سنهزم هاتين القوتين عندما يطيب لنا أن نفعل . وحتى على فرض اننا لم نقهرهما ، فما أهمية هذا ؟ فى امكاننا ان نلغيها من الوجود . هما لا وجود لهما . (اوشانيا) هى العالم بأسره .

ـ لكن العالم الذى تحكى عنه ، مجرد ذره فى الكون والانسان ليس الا شيئا تافها ، ضيئلا لا حول له ولا قوة . بل ما هو تاريخ وجود هذا الانسان فى الكون منذ بدأ التاريخ ؟ لملايين ملايين السنين ، كانت الأرض هى الأرض .. بلا انسان .

ـ كل ماتقوله .. هراء . الأرض عمرها من عمرنا .. الأرض ليست أقدم منا فى الكون . وكيف يمكن للأرض ان تسبق وجودنا ؟ لا شيء يوجد ، الا من خلال وعى الانسان ..

ـ لكن الصخور مليئة بعظام حفريات لحيوانات انقرضت .. المامـوث والديناصـور والزواحف الضخمة التى عاشت على وجه الارض منذ ازمان بعيده .. بعيده ... قبـل الوجود الانسانى بزمن طويل .

ـ هل رأيت انت قط هذه العظام ياوينستون ؟ .. هل رأيتها ؟ طبعاً : لا . ان علماء الاحياء فى القرن التاسع عشر هم الذين اخترعوها . قبل ان يوجد الانسان : لمَ يوجد كائن حى مطلقا . خارج الوجود الانساني .. لا شيء وجد أو يوجد .

ـ لكن الكون كله كائن خارج وجودنا . انظر إلى النجوم . بعضها يبعـد ملايين السنين الضوئية . انها أبعد من أن نصل اليها إلى الأبد .

ـ لكن قل لى .. ما هى النجوم اولا ؟ انها مجرد شذرات من النار تبعد عنا بضع كيلو مترات بامكاننا ان نصل اليها يوما اذا أردنا ، أو يمكن أن نخفيها من الوجود ان اردنا . الأرض .. الأرض هى مركز الكون والشمس والكواكب والنجوم .. تدور حولها .

عندما هم وينستون بالاعتراض بان ابدى حركة عصبية بجسمه ، تجاهله اوبرايان ، وواصل حديثه :

ـ لبعض الأسباب ، بالطبع ، يبدو هذا غير حقيقى ، فنحن حين نبحر فى المحيط ، أو حين نتنبأ بخسوف كلي ، يحلو لنا أن نتخيل ان الارض تدور حول الشمس ، وان النجوم تبعد عنا بملايين ملايين الكيلومترات لكن ماذا فى هذا القول . هل تتخيل أننا سنعجز عن أن نقيم فلكين حيث تكون النجوم قريبة أو بعيدة كما نريد لها أن تكون فيما يتوصلان اليه من حقائق فى علوم الفلك ؟ النجوم من الممكن أن تكون قريبة أو بعيده وفق ما يراه الحزب من أحتياجات . هل خيل اليك ان علماء الرياضيات ، ليسـوا فى مستوى هذا التحدى العلمى ؟

هل نسيت ـ تراك ـ ثنائية الفكر ؟

انتفض وينستون فى سريره . انتفض قدر أستطاعته ثم انكمش فى الفراش . فأى نقطة سيثيرها عكس منطق أوبرايان ، من الواضح أنه قادر على أن يسحقها سحقا . لكنه على وعى تام .. وينستون على يقين أنه على حق وأن منطق هذا الرجل هو منطق معوج ، حتى وان بدا منطقيا قويا . فهذه العقيدة التى يدعو اليها ـ أنه لاشيء له وجود خارج العقل البشرى ـ لابد أن هناك شواهد تجزم بخطئها . ألم تعرض مثل هذه العقيدة فى الماضى للنقاش وثبت خطؤها ؟ بل انهم قد حددوا اسما لها .. لايذكره .

ابتسامة باهتة تطل عليه الان من وجه أوبرايان ..

ـ لقد نبهتك من قبل ياوينستون . ان الميتافيزيقا ليست سلاحك القوى . أن الاصطلاح الذى تجهد ذهنك فى ان تتذكره الان .. هو السوليبسيزم Solipsism لكنك مخطىء فى تفكيرك مع ذلك ـ أن ما ندعو اليه نحن ليس هو هذه النظرية الفلسفية التى تقول : (لا وجود لشىء غير « الأنا ») ممكن ان تسمى ما ندعو اليه « الأنا » الجماعية أو الشمولية ، اذا راق لك ان تطلق اسماء على فكرنا . أن ما ندعو اليه لهو شىء مختلف . بل لو اعملت الفكر قليلا لوجدته شيئا مناقضا للنظرية التى تفكر فيها . لكن دعنا من متاهات الفلسفة ، دعنا نرتد الى ماكنا نتكلم فيه اساسا . أن السلطة الحقيقية ، القوة التى سعى الحزب لامتلاكها ليل نهار ، ليس السيطرة على الأشياء المادية ، بل السيطرة على الانسان ذاته .

توقف ، وبدأ يأخذ طابع المعلم الذى يشرح درسا صعبا ، لتلميذ بليد ، لكن فيه أمل ، وهو يسأله :

ـ كيف يمكن لانسان ان يسيطر على أنسان آخر ؟

فكر وينستون ، ليجيب :

ـ بأن يجبره على المعاناة مثلا ..

ـ بالضبط . لكن الطاعة الظاهرية ليست كافية . لانه طالما كان الانسان لايعانى من مشاكل مستديمة لايمكن لك ان تتأكد أنه يطيع تعليماتك أنت ، ولا يعمل على هواه . السلطة تتمثل فى القدرة على ايقاع الالم ، والاذلال .. السلطة تتمثل فى تفتيت العقل البشرى الى جزئيات ، ثم إعادة تركيبه فى أنماط جديدة تتلاءم مع أغراضك أنت .

هل بدأت تفهم الان ؟ .. حسنا .. اذن دعنا نتساءل : أى عالم ياترى هو ما نحاول ان نخلقه نحن ؟ أنه بالضبط على النقيض من ذلك العالم المثالى الغبى .. تلك اليوتوبيا الحالمة التى تاق اليها المصلحون القدامى . مانتشده ، هو عالم خوف ، وخيانة وعذاب . عالم اما ان تطأ فيه على غيرك ، أو أن تطأك انت الاقدام القوية فى طريقها .. عالم ستزداد درجة القسوة فيه .. مع ازدياد درجة نقائه من الشوائب العالقة به فى طريقة الى الكمال . التقدم فى العالم الذى نسعى لبلوغه ، سيصاحبه ارتفاع فى كم المعاناة ونوع الالم . ان الحضارات القديمة كانت تدعى انها بنيت على أسس من العدالة والحب . حضارتنا تشيد الان على قوائم الحقد .. فى عالمنا ، لن يبقى من الاحاسيس الانسانية

الا : الخوف ، العدوان ، الانتصار ، واذلال الذات . فى هذه المرحلة ، استطعنا أن نقضى على انماط التفكير التى سادت منذ فترة ترجع الى ما قبل الثورة . قطعنا اواصر القربى والتعاطف بين الاب وابنه ، وبين الانسان والانسان ، وبين الرجل والمرأة ... لايجرؤ مواطن من (اوشانيا) على أن يثق بزوجة أو ابن أو ابنة أو صديق بعد الان . لكن فى مرحلة تالية لن تكون هناك زوجات ولا ابناء أساسا . سينتزع الأطفال من أمهاتهم منذ لحظة الميلاد كما نأخذ البيض بعد أن تضعه الدجاجة . الغريزة الجنسية سنقضى عليها مستقبلا . التناسل سيتم بطريقة روتينية سنويا ، كملء استمارات بطاقات التموين . سنقضى تماما على تلك الهزة المصاحبة للقذف فى الجماع . وعلماء الاعصاب مشغولون حاليا بأبحاث فى هذا الموضوع . ستختفى احاسيس الوفاء والولاء ، الا الولاء للحزب وحده . لن يوجد فى المستقبل (حب) الا حب الزعيم وحده . لن نسمح بالضحك مستقبلا الا لضحكات النصر على عدو مهزوم . سنلغى وجود الفن والادب ، والعلم . اذ بعد ان نبلغ أقصى درجات القوة والسيطرة على الكون ، لن تكون هناك حاجة عندئذ للعلم.لن يكون هناك فرق أيضا بين الجمال والقبح . سنقضى فى مرحلة قادمة على حب الاستطلاع . كل المسابقات وسائر أنواع النشاط الذى يعتمد على المنافسة سيوقف . لكن مع كل ذلك وهذه هى النقطة الاساسية التى يجب ألا تغيب عن ذهنك ـ مصاحبا لكل ذلك ، ستزداد سلطة الحزب وسطوته . مصاحبا لكل ذلك ستدق طبول النصر ، وترتفع راياتنا على عدو مستسلم يجثو على ركبتيه طالبا الرحمة . تطورنا يصاحبه أضطراب فى تضخم القوة . باختصار ، اذا أردت أن توجز شكل المستقبل فى صورة : فلتكن صورة حذاء ضخم يدوس وجها انسانيا .. الى الابد

توقف ليسترد أنفاسه بعد جهد الشرح من ناحية ، ومن ناحية اخرى لانه توقع تعليقا من وينستون . لكن وينستون لم ينطق ، فقط أزداد أنكماشه فى فراشه . قلبه يكاد يشله الخوف . أما أوبرايان فقد واصل حديثه :

ـ وتذكر ان سلطة الحزب : أبديه . دائما سيستمر هذا الوضع ، وجه الانسان تحت الحذاء سيكون امامنا دائما ، ليسحق من جديد الى مالا نهاية . ان تهزم الانسان وتذله .. أحدى سمات السلطة ، أو أهم سمات السلطة . كل ما مر بك منذ سقطت فى أيدينا ، سيستمر بل سيمر بك ما هو أسوأ . كما أن التجسس ، والخيانات ، والاعتقالات وكل الوان التعذيب ، وجميع أحكام الاعدام ، والنفى المؤبد الى المجهول .. كل هذه الممارسات

الضرورية لتأكيد السلطة .. ستستمر سيكون عالم المستقبل كعملة لها وجهان : الرعب على وجه ، والنصر للحزب .. هو الوجه الاخر .

· وكلما ازدادت قوة الحزب ، كلما ازداد جبروته .. وضعفت درجة المقاومة فى وجهه ... بل

وتكرس نطاقه الفردى . من ناحية أخرى سيبقى جولد شستين .. وأتباعه الهراطقة والمنشقين .. ايضا الى الابد . لكن فى كل يوم .. بل فى كل لحظة ... سنلاحقهم .. بالهزيمة والعار .. والذل .. سنطبق عليهم .. غير أنهم سيستمرون فى البقاء . هذه المسرحية التى كان لك دور فيها (فمنذ سبع سنين ونحن نراقبك) .. ستستمر المرة تلو المرة .. ستتكرر الى مالا نهاية ، عبر الاجيال القادمة .. لكن فى صورة أكثر تطورا . ودائما سنجد منشقا يقع فى قبضتنا . يطلب الرحمة ، يصرخ من الالم ، ليتحول آخر الامر الى حطام لايثير الا الاحتقار .. ومع ذلك سيتحول بالمثل فى نهاية الشوط الى أنسان متخاذل يطلب العفو ، ببشاعة الجرم الذى أرتكبه ، ومدى الخلاص والتطهر اللذين مر بهما على أيدينا .. من نفسه ستجده يزحف على الارض عند موطىء قدمينا طالبا الصفح .

هذا هو العالم الذى نعد له .. ياوينستون .

عالم من الانتصارات المتواصلة .. نصر .. فى أثر نصر ... يعقبه نصر ... فى الحاح كامل متواصل لبلوغ اعلى درجات السطوة . أنت ، من ناحيتك ، كما يبدو عليك الان ، قد بدأت تدرك اى نوع من الحياة سيسود فى مثل هذا العالم الذى ننشده . لكنك ، شئت أم أبيت ، ستجد نفسك فى النهاية ، ليس فقط مدركا لابعاد هذا العالم ومتفهما لطبيعته ، بل متقبلا له ، مرحبا به .. جزءاً منه .

استطاع وينستون أن يلملم شتات نفسه بعد كل ما سمع ليحاول الكلام .. إلى أن نطق فى ضعف شديد .

قائـــــلا :

ـ لن تنجح

أكفهر وجه اوبرايان وهو يسأله :

ـ ماذا تعنى بالضبط بهذه الملحوظة التى تفوهت بها ؟

ـ أقصد انك تحلم .. ليس فى مقدوركم خلق مثل هذا العالم . ان ماوصفته ليس

عالما .. انه خرافة .. انت تحلم يا اوبرايان .. تحلم

سأله بعنف :

ـ لماذا ؟

ـ لانه من المستحيل ان تقيم حضارة على اعمدة من الخوف ، ومن الرعب ، ومن الحقد ، ومن الجبروت .

لن يكتب لها البقاء

ـ لم لا ؟

ـ ستنفقد من نفسها ماكانت تتمتع به من حيوية ... لن تستمر قوة الدفع فيها .. ستتحلل ... حضارتكم ستنتحر فى النهاية .

ـ كلام فارغ ... انت ربما تتفوه بهذا الكلام ، لانك مازلت فى حالة نفسية تصور لك ان الكراهية أكثر ارهاقا وتبديدا للطاقة من الحب ؟ كيف للكراهية ان تكون كذلك ؟ وحتى لو كانت هذه هى طبيعتها ، فلن تجد فارقا فى النهاية . فلنفترض ان طاقة عالم الكراهية تتبدد تلقائيا بنسبة اسرع من عالم يقوم على الحب ... ليست مشكلة .. نحن نسرع بالحياة .. حتى يبلغ الانسان سن الشيخوخه فى الثلاثين من عمره .. ومع ذلك ... فما الفرق ؟ الم تدرك بعد ان موت الانسان الفرد ، ليس موتا ، طالما ان الحزب موجود وخالد ولانهائى .

وكالمعتاد .. بحماسه .. بمنطقه الذى أقنع به نفسه أنه غير قابل للهزيمة استمر اوبرايان .. وأحس وينستون باليأس وبالضعف . كما خشى وينستون ايضا . أنه لو استمر فى مجادلته ، سيلجأ فى النهاية الى جذب الذراع ودفع مستوى الالم الى درجات لن يتحملها ، فآثر الصمت . غير أنه يعلم ان الصمت اذا استمر لن يجدى وان الرجل لن يدعه طويلا على صمته ، اذا استمر على اصراره على عدم الكلام ، سيلجأ اوبرايان للتعذيب لا محالة . فعاد يحاوره ، برغم ضعفه ، وبرغم ما أثاره فيه كلام الرجل من رعب حقيقى من صورة العالم الذى يسعى الحزب لتكريسه ، عاد للحوار متخذا موقف الهجوم :

ـ تذكر انت يا أوبرايان أنه ، وان كنت لا أعلم كيف سيحدث هذا .. انه بطريقة أو بأخرى ستحيق بكم الهزيمة يوما . شىء ماسيهزمكم .. الحياة نفسها بطبيعتها ستهزمكم .

ـ الحياة ؟ .. أى حياة ؟ نحن نسيطر على تلك الحياة .. على كافة مستوياتها .. هل مازلت تعيش فى الوهم الذى يقول ان هناك مايسمى بطبيعة انسانية ؟ ، وأن الانسان

سيثور بطبيعته ضد ما نمارس ، وينقلب علينا ؟؟ ياوينستون نحن الذيـن نخلـق هذه الطبيعة الانسانية .. هذه الطبيعة الانسانية من صنعنا .. الانسان ، مهما كان ، طيع لأى قالب تصبه فيه .. طيع الى ما لانهاية .

أم تراك عدت الى فكرتك القديمة : أن البروليتاريا أو العبيد ، ستجمع قواها لتثور ضد قوانا وتسقطنا ؟ لك ان تتأكد تمام التأكد ... أنهم لا حول لهم ولا قوة .. مثلهم مثل الحيوانات . الانسانية لاتخرج عن نطاق الحزب . وما هو خارج عن نطاقه .. لاتضعه فى أعتبارك مطلقا .. ما هو خارجه .. ليس أكثر من كم مهمل .

ـ أنا لا يهمنى ماتدعيه .. لانه على المدى البعيد ستهزمكم قوى الحياة نفسها . البروليتاريا طال الزمان ام قصر .. قمينة باكتشاف حقيقتكم .. عندئذ ستمزقكم أربا ..

ـ هل لديك دليل واحد .. يشير الى أحتمال ذلك . أو حتى سبب مقنع : لماذا ستثور البروليتاريا ؟

ـ كلا لا أملك أى دليل أو سبب .. لكنى أحس ، بل أعلم علم اليقين .. أنه محكوم عليكم بالفشل ... هناك شىء ما فى هذا الكون الرحب .. ليس بمقدورى ان ادرك كنهه ... لا أملك القدرة على التركيز لاوضح أفكارى الان ... لكن فلتكن (روح) ما .. مبدأ ما .. عقيدة ما .. لن يكون بوسعكم التغلب عليها .. سترتد عليكم فى النهاية

ـ هل تؤمن بالله ... ياوينستون

ـ كــــلا

ـ اذن ... ماهى العقيدة .. التى ستهزمنا ؟

ـ ليس هناك أسم محدد لها فى ذهنى الان .. لكن فلنسمها روح الانسان

ـ وهل تعتبر انت نفسك : انسانا ؟

ـ نعم ..

ـ اذن ، اذا كنت بالفعل كما تقول ، فتأكد أنك آخر انسان على وجه الارض . ان أمثالك ، ممن ينتمون الى (فصيلتك) التى تدمن الفكر ، قد انتهوا . نحن ياسيدى قد ورثنا الارض ومن عليها . الم تدرك بعد انك واحد فقط .. ووحيد ؟؟ ووجودك الان خارج نطاق مجرى التاريخ . أنت غير موجود .

تغير طابع كلامه . ليضيف بصوت أشد قسوة وصرامة :

ـ ام تراك تعتبر نفسك اعلى قدرا من الحزب : أخلاقيا بسبب مانمارسه من قسوة أو من أكاذيب ؟؟

ـ بالتأكيد أنا أعتبر نفسى ... من نوعية افضل .

لم يتكلم اوبرايان . وسمع وينستون بدلا منه صوتين لا صوتا واحدا . أنصت . اكتشف ان مايسمع هو شريط تسجيل لحوارهما .. يوم طلب منه الاشتراك هو وجوليا فى حركة (الاخوة) . سمع نفسه يعده بأنه على استعداد لان يكذب، لان يسرق ، لان يزور ، بل ولان يقتل ، وأن ينشر المخدرات والدعارة ، وان يلقى بمواد حارقة على وجوه الاطفال .

طفق أوبرايان ينظر اليه برهة . ثم أتجه الى حيث يدار شريط التسجيل وأوقفه يبدو عليه الان مايشبه نفاد الصبر والضيق ..

فوجىء به وينستون يصيح فى وجهه .

ـ أنهض من على هذا السرير ... أنهض

فكت قيوده . أنزل قدميه الى الأرض لأول مرة منذ زمن طويل . ساقاه لاتقويان على حمله . كاد ان ينكفىء على وجهه مما اصاب جسمه من وهن طوال فترة رقاده . حاول ان يقف منتصبا لكنه وجد نفسه غير قادر على الثبات على قدميه ، يتمايل تاره الى الامام ، ثم لايلبث أن يرتد للخلف . بذل جهدا ليتماسك مداريا عجزه عن منع الاهتزاز فى حركاته .

صوت أوبرايان اصبح أهدأ وأكثر عمقا ، وهو يضيف :

ـ أنت آخرهم .. أنت أيها الحارس الاخير على روح الانسان . سترى صورتك الحقيقية بوضوح . أخلع ملابسك ..

فك وينستون الخيط الذى يلملم ملابسه ، ويشده الى جسمه . الملابس التى البسوه أياها بلا ازرار أو سوسته . لايذكر انه ، منذ أعتقل ، قد خلع ملابسه كلها مرة واحدة ..فى أى وقت . تحت بذلة العمل الزرقاء التى سقطت بعد ان فك وثاقه ، أكتشف ان جسمه مغطى بمجموعة من الخرق الصفراء الكالحة ، تعرف فيها على بقايا ملابس داخلية قديمة .. وهو يخلع عنه هذه الخرق رأى محيطا به من ثلاث زوايا عدة مرايا تعكس صورة جسمه ، مثبته الى الجدران فى آخر الغرفة . أقترب من المرايا .. ثم تسمرت قدماه ، وانطلقت رغما

عنه صرخة هلع ، عند مرأى صورته فيها ... صوت أوبرايان خلفه لايرحم :

ـ أستمر

لم يقدر ان يلملم شتات نفسه ..

والصوت الآمر يرعد الان بالقسوة :

ـ قف بين المرايا الثلاث .. تقدم ياحارس روح الانسان .. تقدم يا آخر الفرسان .. لترى صورتك من كل الزوايا ...

لكنه توقف .. فصورة الشبح الذى يحيط به من كل جانب ... جمدت الدم فى عروقه . ما أحاط به هو صورة هيكل عظمى ، مقوس ، جلده رمادى اللون ، تجسد تماما ما يمكن ان تعنيه كلمة (بشاعة) . ما يراه مرعب فى حد ذاته ، حتى أن لم يكن صورة لبقاياه كحطام انسان ، وأكثر رعبا لانه بقاياه هو كحطام انسان . أقترب اكثر من المرآة المقابلة له . صفعه وجه غارق فى حزن دفين ، كأن حزن العالم قد تجمع فى عينين محفورتين داخل حفرتين .. مجرد تجويفين يعلوان عظمتى خديه البارزتين فى نتوء غريب . تعلوها جبهة منسحبه الى صلعة ويتوسطها أنف معروق . عيناه من فرط الهزال المحيط بها ، أصبحتا تعكسان تعبيرا ذاهلا وحشيا ، متناقضا مع طابع الحطام الذى يضمها كاطار بائس .

غريب أن يدهش الانسان من صورته . فبالتأكيد ما يراه هو صورته هو .. وليس صورة أنسان آخر . لكنه أكتشف ان ما اصابه من تغير فى الملامح كان أقسى مما حل فى أعماقه هو من تغير آخر ، وان مايمكن ان يعكسه هذا الوجه من انفعالات ، مختلف تماما عما يشعر به هو فى داخله كأن تعبيرات وجهه قد انسلخت عن أحاسيسه .. ظن لأول وهلة أن وجهه كله ، وسائر أعضاء جسمه ، قد أصطبغت باللون الرمادى الذى فوجىء به . غير أنه مع زوال أثر الصدمة الاولى وجد ان هذا اللون لايشمل الا جبهته فقط ، وأن الصلع الذى أصابه غير كامل . أما اللون الكالح الذى يغطى جسمه . فمن أثر تراكم القذارة والعرق منذ زمن بعيد على كافة اجزاء جسده ، عدا الوجه واليدين . تخلل هذا اللون الكالح بقع حمراء من الواضح أنها أثار ندوب مما أصابه من جراح التعذيب . عند مرفقيه ازداد أثر التهاب العروق المزمن لديه . فاكتسى هذا الجزء لونا قانيا ، ورقائق ميتة من الجلد تدلت عند مرفقيه دون ان تسقط وتهتز مع حركة ساعديه . الرعب الحقيقى هو فى نحول جسمه الى هذا الحد الرهيب . ركبتاه أصبحتا اكثر سمكا من فخذيه وسائر أجزاء ساقيه . أصبحتا جزأين متكررين كريهى المنظر يتوسطان مايشبه العظام الممتدة من الحوض الى

القدم .. ثم ادرك سبب اصرار اوبرايان على ان يشاهد جسمه من زواياه الجانبية ذلك لان تقوس عموده الفقرى ، كان تقوسا غريبا لرجل فى مثل سنه . حتى عظمتا الكتفين تقوستا الى الامام ، كنصف دائرة تحد صدرا ضامرا ، والفقرات المكونة لرقبته تنوء بحمل جمجمته لما اصابها من ضمور .

فمن يراه على هذا الحال لأول وهلة ، يحكم انه قد جاوز الستين ، ويعانى منذ زمن من مرض خبيث .. افاق من ذهوله على نفس الصوت الذى لايرحم :

ـ لقد اعتقدت عند رؤيتك وجهى عن قرب ، أنك أمام وجه رجل عجوز ومجهد .. حتى وان كان وجه أحد اعضاء التنظيم الداخلى . ما رأيك ياصديقى فى وجهك انت الان ؟

امسك وينستون بعد ان سأله .. وأدار جسمه الناحل ليواجهه ، قبل ان يواصل اوبرايان كلامه :

ـ أنظر الى الحالة التى وصلت اليها .. الى مايكسو جسمك من بقع .. ومايكتنف بدنك من ورم مقزز . الا تشم مايفوح منك من رائحة أكثر نتنا ، من رائحة الحيوانات . ربما ليس بمقدورك ان تشم الان .. انظر الى هزالك .. هل لديك القدرة على أن تعى ما تراه . بامكانى ان احيط وسطك كله بالتفافة من يدى .

بامكانى ان اسقط رقبتك العجفاء هذه كمن ينفض رماد سيجارة طال اشتعالها . هل تعلم ان ما فقده جسمك منذ دخولك المعتقل ، بلغ خمسة وعشرين كيلو جراما . حتى شعرك نفسه يتساقط الان بالجملة . أنظر ..

وأنتزع خصلة جديدة مما بقى من شعر فى رأسه :

ـ أفتح فمك .. تسعة من اسنانك قد طارت . كم بقى فى هذا الجانب ؟ وكم سيتساقط من تلقاء نفسه فيما بعد ؟

ثم أمسك بسن امامية بين اصبعيه وجذبها ليطلق الما مجنونا مع صرخة وينستون .. ألما سرى فى فكيه كليهما .. انتزع أوبرايان السنَّ بجذورها فى يده مخضبة بالدم .. الذى تقاطر على ارض الغرفة .. ثم القى بها جانبا .. مستطردا فى نبرة وحشية :

ـ أنت كيان يتحلل ياوينستون .. هيكل قديم تتساقط بقايا أحجاره . ماذا بقى منك ؟ ركام من عفن ؟ والان .. استدر لتتمتع برؤية الاجزاء الخلفية من هيكلك العظمى .. أنظر فى المرآة جيدا .. هل ترى هذا الشىء الذى تنعكس صورته فى المرآة ..

يا آخر العمالقة ... ان كانت هذه هى صورة الانسان .. فان ما تراه أمامك هو تجسيد للانسانية التى تمثل أنت روحها فعلا ... والان ارتد ملابسك ..

عاد وينستون فى بطء يرتدى ما ألقاه من خرق ، ليكسو بها جسده مرة اخرى فى حركات متصلبة ، أجبر نفسه على القيام بها . قبل الان لم يكن قد وعى تماما حد الضعف الذى وصل اليه . لكنه وهو يلف تلك الخرق حول حطامه .. أنفجر باكيا .. اشفاقا على نفسه من الحالة التى وصل اليها .. غلبه احساس مرير بالقهر ، فلم يقو على منع هذا الدفق المتدافع من دموع جاهد أن يحبسها فى هذا الموقف ، دون جدوى .. وانهار مرتميا على مقعد مستطيل أستند اليه .. بشاعة منظره تحتل وعيه بالكامل دونما اشفاق . عرف الان بالضبط .. ما تعنيه كلمة (ذل) .

شعر بيد اوبرايان تلمس عظام كتفه ، فيما بدا له لمسة لاتخلو من مواساة .

ـ حالتك ليس ميئوسا منها .. ممكن ـ اذا أردت ـ ان ترجع الى حالتك الطبيعية .. الأمر كله متروك لاختيارك انت ..

أجابه وجسده مازال ينتفض .. فى صوت متقطع يخنقه الدمع :

ـ فعلتها يا اوبرايان .. فعلتها .. استطعت بالفعل ان تصل بى الى هذه الحالة .

ـ لا .. انت مخطىء .. انت الذى اوصلت نفسك الى ما انت فيه الان . أنت كنت تعلم ان هذه هى النتيجة الحتمية لمن يقف فى طريق الحزب ، منذ الخطوة الاولى التى قررت ان تخطوها فى هذا الطريق الوعر . كل ما ألم بك بعد ذلك كان نابعا من تلك الخطوة الاولى . لم يصبك شىء لم تتوقعه ياوينستون وانت تعلم ..

ران الصمت عليهما لبرهة . ليضيف :

ـ دخلت معركة مع نفسك .. وهزمت .. نحن هزمناك .. نحن بالفعل كسرنا شوكتك .. منذ لحظات رأيت ما أنتهى اليه جسمك . ستكتشف فيما بعد ان عقلك ليس أحسن حظا من جسمك .. لا أظننى فى حاجة لان أنافقك بان ازعم انه قد بقى لك شىء من كبرياء .. او ظل من كرامة . أنت الان كيان مطحون . لقد عرفت بالتأكيد الان ما معنى ان تضرب بالسياط .. وتصرخ من الالم ، وتستجدى الرحمة .. وأن تلحف فى الرجاء . أنت تعلم ما معنى ان تتدحرج على الارض مخضبا بدماء تدفقت منك ، وقيىء انهمر من فمك .. وانت تعلم بالتأكيد انك قد خنت كل شىء ، وكل انسان . هل لك ان تذكرنى بأى صورة للمهانة لم تلحق بك ؟

توقف وينستون عن البكاء الان .. وان ظلت دموع صامته تنحدر من عينيه .. نظر من مكانه الى اعلى .. الى اوبرايان .. ثم قال فى هدوء مميت :

ـ أنا لم أخن .. جوليا

أجابه الرجل من عليائه : بعد تفكير عميق انعكس على نبرته وهو يجيب :

ـ هذا صحيح .. فى هذا انت محق .. انت لم تخن جوليا

نزلت عليه اجابة الرجل بردا وسلاما . كم كان يود ان ينظر اليه اوبرايان باحترام . بل لقد خيل اليه انه بالفعل يحترمه ـ فلو ان انسانا آخر مكانه لأجاب ببساطة : أنت قد خنتها . لكن هذا الرجل يتمتع بحس ذكى . فهو ، بلا جدال ، قد اعترف لهم فى جلسات التعذيب عن كل صغيرة وكبيرة متعلقة بجوليا . كل ما دار بينهما .. كل ما اشترته من السوق السوداء . حكى لهم بأسهاب عن شخصيتها .. طباعها .. نزواتها .. حتى ادق تفاصيل ممارساتها الجنسية .. كل شىء .. خططهما الساذجة ضد الحزب .. كيفية لقائهما فى السوق .. طريقة الحوار الذى أعتادا أن يتبادلاه دون ان ينظر احدهما الى الاخر .. حكى لهم حتى عن أتفه تفصيلات حياتهما معا .. لكنه برغم كل ما قال ، فهو ـ بالمعنى الدقيق الذى يؤمن به ـ لم يخنها . لأنه لم يتوقف لحظة عن حبها .. لم يخن فيض الحب فى داخله نحوها ..

ذكاء اوبرايان أنه التقط هذا المعنى الضمنى والمستتر ، دون ان يتبادلا كلمة واحدة عنه . كان اوبرايان يتمتع بذكاء الحس . ترى هل يحترمه ، برغم هذا الحاجز من الاهوال الذى يفصل بينهما ..؟

عاد وينستون ليسأله :

متى يطلقون النار على ؟ هل حددتم تاريخ الاعدام ؟

عندما أجاب اوبرايان خيل للسائل ان فى صوته ظلال حزن قديم :

ربما بعد وقت طويل . فأنت حالة خاصة . بل حالة صعبة . لكن لا تفقد الامل .. كل مابك قابل للشفاء وفى النهاية سنطلق عليك الرصاص .

* * *

(٤)

تحسنت صحته الان كثيراً ..

استرد جزءاً كبيرا من وزنه ، وحيويته السابقة . حالته تتحسن مع الايام ، اذا كان من الملائم أن نتكلم عن الايام ...

الا أن الضوء الباهر ، وصوت الهمهمة الصادر عن جهاز التهوية ، بقيا كما هما ، وان تغيرت الزنزانة الى أخرى تفضلها كثيرا ، أو نسبيا فى وسائل الراحة . السرير مغطى بمفرش وتحت رأسه وسادة ـ بل ويوجد مقعد ايضا ليجلس عليه أحيانا اذا مل الرقاد . أعطوه حماما ، وسمحوا له أن يغسل وجهه فى حوض معدنى بالغرفة . كما زودوه بملابس داخلية جديدة . بل لقد زودوه مرة بماء ساخن ليغتسل ، ومنح «بذلة عمل جديدة» ليرتديها ثم عولج التهاب عروق الساق المزمن لديه بأنواع من المراهم . كما تم تغيير التالف من اسنانه بأسنان صناعية . لابد ان اسابيع أو شهورا قد انقضت الان ..

أصبح بامكانه ان يحسب الزمن الان لو أراد ، لولا انه لايشعر بحماس لاى شىء . لم تعد لديه رغبة فى أن يحسب ولا أن يحصى .. مواعيد أكله شبه منتظمة . وكما قدر فهو يمنح ثلاث وجبات كل يوم . أحيانا كان يطوف بذهنه سؤال : هل هذا أفطار أم عشاء ؟ ... لكنه سؤال لم يكن ليتوقف عنده كثيرا . فقد ماتت الرغبة فى حب الاستطلاع بل لقد ماتت رغبته فى اى شىء .. لدهشته اصبح الطعام الان جيدا . ويقدم له اللحم مرتين فى الاسبوع كما يبدو . بل منحوه مرة علبة سجائر كاملة . بحث عن عود ثقاب فلم يجد ، فكان حارسه الصامت يشعل له دوما أول سيجارة .. أحس بالغثيان عندما عاد للتدخين بهذه السيجارة الاولى . الا انه قاوم ، وأحتفظ ببقية السجائر الى ان أتم تدخينها مرتين .. نصف سيجارة بعد كل وجبة ..

كما سمحوا له بلوح اردواز ، علق به خيط ينتهى الى قلم . لم يكتب شيئا فى الأيام الاولى .. أو الليالى الاولى . فحتى فى ساعات يقظته كان يشعر بنوع من التبلد . أحيانا كان يقضى الفترة من وجبة الى وجبة ، دون حركة واحدة . أحيانا أخرى كان يقضى الفترة فى أحلام يقظة ، لايجد فيها رغبة فى ان يفتح عينيه برغم عدم نومه . أعتاد طوال فتره اقامته فى المعتقل ان ينام والضوء مسلط على وجهه . أصبح أغلاقه عينيه أغلاقا فى وجه

كل مايحيط به ، أغلاقا فى وجه العالم كله . فلا يجد فرقا بين احلام النوم ، وأحلام اليقظة ، الا فى ان الاخيرة أكثر ترابطا ووضوحا . أحلام كثيرة مرت عليه طوال هذه الفترة الاخيرة .. كانت كلها احلاما سعيدة وجد نفسه فيها بين ربوع (مدينته الذهبية) ... جالسا فى هدوء بين ربوع آثار وتماثيل رائعة قديمة مع أمه مرة ، ومع جوليا مرة اخرى ، ومع اوبرايان نفسه مرة ثالثة .. حتى فى الحلم كان يجد نفسه لايعمل شيئا على الاطلاق يجلس فى هدوء يستمتع بأشعة الشمس .. يتكلم مع من يجلس معه فى الحلم عن مواضيع يكتنفها السلام الشامل والسكينة والهدوء . معظم الافكار التى تمر به فى يقظته الان أفكار متعلقة بأحلامه التى اسلم نفسه لها . بدا أنه عازف عن القيام بأى مجهود ذهنى او عقلى مرهق . أنتهى الالم .. وانتهى الفكر ايضا . فهو لايشعر بملل الان ، وليست لديه رغبة اطلاقا فى ان يكلم احدا أو ان يكلمه احد . أو حتى ان يقطع عليه انسان خلوته . كل مايريده هو ان يبقى وحده (وفى حاله) .. دون ضرب او استجوابات ، وأن يجد ما يكفيه من طعام . وأن يحتفظ بنظافة جسمه .. هذا كل مايتمناه .

تدريجيا اصبح الوقت الذى يقضيه مستغرقا فى النوم أقل ، لكنه مازال لايجد رغبة فى ان يغادر الفراش أو ان يتحرك .. مازال فى خياله عالم السكون . كل مايهمه ان يستلقى دون ان يقطع عليه وحدته شىء .. محاولا ان يسترد صحته وقواه . حركاته كلها التى يقوم بها محاولات للتأكد من ان ذراعيه قد بدأتا تزداد ان سمكا عن ذى قبل ، أو أن جلده قد بدأ يشتد . أعتاد ان ينظر فى اصابع يديه ويتلمس جسمه ليتأكد أن ما يراه أو مايلمسه ليس نتاج خيال مريض . ثم أخيرا تأكد ان التغير الذى يحدث فى جسمه حقيقى .. أنه أصبح بالفعل أقل نحافة ، وأن جسمه يسترد سمكه شيئا فشيئا ، وان ليس فى الأمر وهم . آخر مرة تحسس فيها فخديه ، تأكد انهما بالفعل اكثر سمكا من ركبتيه .

فى مرحلة تاليه بدأ يجبر نفسه على تمرين عضلاته على الحركة ، برغم ما صادفه من صعوبة فى ذلك منذ البداية ، وبدأ يمشى ايضا فى الغرفة . أصبح يعتقد ان في مقدوره قياساً بطول الغرفة واحصائه لخطواته فيها ، أن يمشى ثلاثة كيلومترات كاملة . كتفاه بدءا يستردان وضعهما الطبيعى ، تزايلهما الانحناءة القديمة تدريجيا . ثم أخذ يجرب نفسه فى التمرينات البدنية التى كان ملزما بأدائها قبل أعتقاله . شعر بالخجل وبالدهشة من أنه غير قادر على ان يؤدى تمرينا واحدا منها . ليس فى مقدوره ان يحرك عضلاته الا فى المشى ، ولا ان يقف على ساق واحدة ، ولا ان يرفع المقعد المستطيل الموجود بالغرفة . لكن هذا لايمنع انه يسترد

قواه تدريجيا . اصبح بامكانه بعد فترة ان ينحنى برغم الالم الشديد ، ثم ينتصب واقفا مرة اخرى دون ان يهتز . ثم حاول ان يستلقى على الارض مع محاولة رفع جسمه كله استنادا الى ذراعيه .. وفشل . لم تقو ذراعاه على حمل جسمه فأنبطح على وجهه . غير انه لم يفقد الامل نهائيا فى نجاح المحاولة بعد عدة ايام أو حتى أسابيع . مازال غير راغب فى ان يحسب الزمن ، مع أن وجباته الثلاث الان تعنى انقضاء يوم كامل . عاود الكرَّة فى التمرين السابق الى ان نجح أخيرا ، ثم كرر المحاولة ونجح ، فشعر بفخر شديد . لاتوجد أية مرآة بالغرفة ، لكن أنامله عندما يتحسس ملامحه تؤكد له ان وجهه قد بدأ يكتسى باللحم . وعظمتا خديه بدأتا تتواريان تحت طبقة تزداد كثافة بمرور الوقت .. أخذ يستمتع ، بتأمل جسمه وهو يعود رويدا رويدا لحالته الطبيعية . لم ينغص عليه استمتاعه الا لحظات تخترق وعيه كالبرق ، يتذكر فيها صورة وجهه عندما صدم به ، عندما نهض من فراشه بأمر أوبرايان لأول مرة .. لحظات تهاجمه بصفة خاصة ، عندما يضع يده على شعر رأسه .. فلا يجده .

ثم بدأت قدراته العقلية أيضا تسترد حالتها الطبيعية . ذهنه الان انشط كثيرا عن ذى قبل ، ودرجة تبلده وسكونه التام قلت تدريجيا . أصبح يجلس الان معظم الوقت مستندا بظهره الى ظهر السرير ، بعد ان يغطى جسمه بملاءته محاولا ان يبدأ مرة اخرى فى عملية تعليمية .. يدرب نفسه فيها تلقائيا على استعادة الوعى بكل ما مر به ، وان يتمعن فى حالته الآن .

أول حقيقة بارزة فرضت نفسها على وعيه : أنه هزم ، فاستسلم .. لم يجد رغبة فى مقاومة الاعتراف بهذه الحقيقة . أصبح الان ينظر الى مواقفه السابقة ، كما لو كان انسانا يشاهد ما جرى من بعيد . أعترف بينه وبين نفسه انه كان على استعداد للاستسلام حتى قبل ان يعى انه قد استسلم . أستعداده للاستسلام .. قديم .. منذ اللحظة التى وطأت فيها قدماه مدخل (وزارة الحب) .. كلا .. بل قبل ذلك .. منذ اللحظة التى وجد نفسه فيها واقفا مع جوليا لا حول لهما ولا قوه بعد ان صرخ فيهما الصوت الحديدى الذى يقطر قسوة من شاشة جهاز السينما التليفزيونية بأن يقف كل فى مكانه الى ان تصدر لهما تعليمات اخرى . فى نفس اللحظة ادرك باحساس مجسد مدى حماقته ، بل مدى ضحالة محاولته اليائسة أن يتصدى لقوة الحزب . أدرك الان فى جو الهدوء المحيط به فى الخارج والداخل ، أنه كان مراقبا طوال سبع سنوات مراقبة حثيثة كجرثومة تحت ميكرسكوب ، من قبل أجهزة

البوليس السياسى . كل حركة ، كل همسة ، كل لفته ، بل حتى ظلال أى فكرة انطلقت من أسار عقله الواعى بعد الرقاد ، سجلوها عليه . لم تسلم من رقابتهم . حتى حبة الرمل التى وضعها بنفسه على غلاف دفتر مذكراته . لابد أنهم رفعوها برفق ، وأعادوها الى مكانها دون ان يلحظ . كل حوار هام سجل عليه . كما أطلعوه فى جلسات التعذيب على صور عديدة التقطت له فى مواقف مختلفة . الميكروسكوب كان مسلطا عليه بعناية طوال سنوات سبع دون ان يدرى . بعض صوره كانت تجمع بينه وبـين جوليـا . نعم .. صور كل المواقف ... حتى عند الـ (...) لا داعى للاسترسال لكى لايعذب نفسه . فالامر قد انقضى ، ليس بوسعه ان يقاتل ضد الحزب او غير الحزب الان . من ناحية اخرى شعر ان الحزب له الحق فيما فعل . لابد أنه على حق ، اذ كيف يمكن لعقل جماعى غير معرض للفناء ان يخطىء ؟؟ ماهى المعايير الخارجية التى ستقيم على اساسها أحكام الحزب ياوينستون ؟؟ ثم ان الجنون والعقل .. مسائل نسبية .. ان تكون عاقلا .. مسألة احصائية بحتة لا أكثر .. انها مجرد ان تتعلم كيف تفكر كما يفكر الجميع . فقط لو ان .

عندما أمسك بالقلم أحس به ثقيلا على اصبعيه .. وحركات يده ليست طيعة ، فيها بطء شديدة . لكنه بدأ يسجل الافكار التى تلح عليه . كتـب اولا بخـط ردىء غير متناسق ، وبحروف غير منسقة :

فى الحـــــريـــة ..... عبـــــوديـــة

ثم واصل الكتابة مسترسلا فى السطر التالى :

أثنان زائـد أثنـان يســـاوي خمســـة

لكنه توقف . كما لو كان عقله قد أصابه خلل او خجل ففقد قدرته على التركيز وبقى ساهما لفترة . ادرك الان مايمكن ان يكتبه بعد ذلك .. لكنه جاهد ليستدعى الى عقله الواعى مايريد ان يكتبه دون جدوى . بقى صامتا وساكنا لبرهـة .. ثم جاهـد عقلـه ليكتب .. هذه المرة شعر أنه لايكتب تلقائيا ، بل يفكر قبل أن يكتب .. أحس بمدى سيطرته على يده اثناء عملية الكتابه . وكتب :

اللـــــه ... هـــو القـــوة

أنه الان متقبل لكى شىء . الماضى قابل للتغيير . الماضى لم يطرأ عليه أى تزوير . (اوشانيا) فى حالة حرب مع (ايستاشيا) . (اوشانيا) كانت دائما فى حالة حرب مع (ايستاشيا) . جونز ، ايرونسون ، وروثر فورد مذنبون وخونة . لم ير اطلاقا اى صور تنفى ادانتهما . لم توجد مثل هذه الصور مطلقا . هو الذى أختلق مثل هذه الروايات فى الماضى . تذكر .. تذكره لاشياء متناقضة ، لكن هذه تخاريف .. نتاج عمليات خداع للنفس مر بها فى حياته يوما ما . كم هو سهل ان تسترسل بهذه الطريقة .

فقط استسلم ياوينستون .. وكل شىء سيتتالى من تلقاء نفسه . كل شىء سيصبح سهلا بعد ذلك مثل محاولتك ان تسبح ضد تيار رهيب .. تقاوم .. ثم تقاوم .. فى شراسة .. ثم فجأة تقرر ان تدور على عقبيك تستدير للاتجاه الاخر .. ترتد . وتسبح فى أتجاه معاكس مع نفس اتجاه التيار الذى كنت تقاومه فى عنف . ما ألذ الاستسلام .. لاشىء قد تغير .. الدنيا لم تتقوض .. فقط موقفك هو الذى تغير . وما جدوى موقفك انت ؟؟ من انت لتغير الكون ؟؟ الحقائق الثابتة فى دنيانا موجودة . الحزب موجود . ثم ما معنى ثورتك منذ البداية ياوينستون ؟؟ صحيح ... لماذا ثرت ؟ الآن كل شىء سهل و ... و .....

ولكن ... لكن الـــ

عقله هذا لايدعه يهنأ فى استرساله ، دائما ينغص عليه . توقف تيار خواطره الدافق المتلاطم .. و عاد الى سابق عهده من الصمت والسكون لفترة طالت ، كأنه طفل مدلل غضب من عقله عندما أنتهره ... فكف عن اللعب بأعواد الثقاب ..

سكونه لم يستمر .. عادت خواطره تتلاعب به .. كل شىء ، جائز ياوينستون .. وأى شىء جائز .. قوانين الطبيعة هذه ربما كانت خدعة .. كلام فارغ .. قانون الجاذبية هذا ايضا .. كلام فارغ . قال لى اوبرايان : (لو رغبت أن أطير فى هواء هذه الغرفة .. كفقاعة صابون .. لطرت) جائز فعلا .. لكن كيف ؟ كيف ياوينستون .. كيف ؟ .. نعم .. ممكن .. لو أعتقد هو أنه يطير .. وأعتقدت انا أنه هو يطير .. اذن طيرانه ممكن .. كل شىء جائز .. لماذا نعقد الأمور ؟؟.. نعم .. ما جدوى تعقيد الأمور ؟؟

وتبا لعقله هذا الذى يقحم نفسه كضيف ثقيل دونما دعوة . سمع صوته هو يقتحم خواطره فجأة تلبية لفكرة شيطانية أحس أنه يعيها .

هذا غير ممكن .. ياوينستون .. فى الحقيقة والواقع .. هذا تخريف .. هلوسة

هذه المرة .. نجح وينستون فى أن يمنع عقله المشاكس هذا ان يقطع عليه طريق

استمتاعه بخواطره .. نفض هذا الصوت عنه بسرعة ... اسقطه عن وعيه تماما ... تجاهله كأن لم يكن . وأرتد الى أحضان خواطره اللذيذة :

عنادك السابق كان نوعا من المغالطة ياوينستون . ما هو هذا العالم (الحقيقى) الذى كنت تؤمن به .. كنت تماحك وتدعى انه خارج العقل البشرى ، هناك مايسمى بعالم (حقيقى) تحدث فيه أحداث واقعية و (حقيقية) كيف يمكن لك ان تدرك شيئا خارجيا الا عبر مايدور داخل عقلك انت ؟ ما هذا العالم (الحقيقى) الذى كنت تتشبث به ؟ ان مايحدث حقيقة هو مايقع داخل العقل البشرى .. لايمكن ان ندرك العالم الخارجى الا من خلال ما نؤمن به من أفكار ..

لم يجد صعوبة فى ان يتخلص من (مغالطاته) السابقة . لم يعد الان اسير افكاره الهدامة التى طاردته طوال تلك السنوات السبع .. ادرك انه ما كان يجب أصلا ان يتبنى مثل هذه الافكار . فالعقل المنظم ـ بالضبط كما يقول الحزب ـ يجب أن ينتبه تماما لأى ضلال يتمثل فى هذا الترف العقلى عندما يهاجمه .. يجب ان يكون تفكيره منذ الان آليا .. بل غريزيا يفكر كما يفكر سائر خلق الله .. لماذا الشذوذ ؟ ثم هل هو من طينة مختلفة عن كل هؤلاء الناس العقلاء ؟؟. وهذا الاصطلاح الفاخر الذى نصحه به اوبرايان مرارا يجب ان يدرب نفسه عليه منذ الان .

وبدأ التدريب على الـ

أخذ يقدم لنفسه افتراضات : (الارض مسطحة .. كما يقول الحزب) .. (الثلج اثقل من الماء كما يقول الحزب) ... مسقطا من منطقه اى فكرة تتعارض مع هذه الافتراضات ، أو أى مناقشات بيزنطية يجد ان نفسه تراوده على ان يبدأ بها الاعتراض على افتراضات الحزب حتى ان كان الأمر صعبا فى البداية . لايهم . ممكن بالتدريب المتواصل . يجب منذ الان ان يتدرب باستمرار ، حتى يكتسب لياقة ذهنية مناسبة . ما عليه الا ان يسقط أو يتجاهل بسرعة وفى حينه أى منطق معارض لما افترضه من افتراضات . صحيح ان الامر يحتاج الى طاقة ضخمة من اعمال الفكر المعاكس لما يهاجمك من افكار مضللة كتلك الفكرة التى تزعم خطأ الجمع الحسابى فى ٢+٢=٥ . بالتدريب العقلى والمرونة العقلية المكتسبة من هذا التدريب ممكن ان تكون ٢+٢ مساوية لـ (٥) . كيف ؟ .. بنفس الطريقة التى حاول اوبرايان ان يقنعك بها دون جدوى . بأن تتوسل بقدراتك المنطقية فى لحظة ، ثم بمرونة فائقة تتحول فى اللحظة التالية الى عكس ما توصلت اليه فى اللحظة الاولى .. بحيث

تسقط فى (اللاوعى) (واللازمن) ، أية تناقضات بين الاثنين . الأمر ليس سهلا ، لان هذه العملية تتطلب قدرا متماثلا من الذكاء والغباء ممتزجين فى عملية عقلية واحدة لاتستغرق الا ثوانى) .

لكنه طوال الوقت . فى جانب من عقله .. كان يلح عليه التساؤل الممض : متى يطلقون النار عليه ؟

« كل شيء يتوقف عليك انت »

هذا ما قاله اوبرايان . لكنه موقن ان ليس بوسعه ان يفعل شيئا ليقرب اليه .. هذا اليوم .. ربما .. ربما .. اعدموه بعد عشر دقائق . ربما رحلوه الى عزل منفرد فى مكان آخر لسنوات طويلة أو ربما بعثوا به الى احد معسكرات الاعتقال . جائز ايضا ان يطلقوا سراحه لفترة من الوقت ، كما يحدث احيانا أن يطلقوا سراح بعض المعتقلين ... ممكن ايضا أن يعاد تمثيل كل تلك المسرحية الرهيبة التى مر بها فى السنوات الماضية قبل ان يطلقوا النار عليه . لكن .. لا ... يساوره احساس اكيد ان فى حالته ، لن يعدم فى لحظة يتوقعها . لن يفاجئوه . كان هناك مايشبه العرف المستقر غير المعلن ، لم يخبرك به احد ، لكنك تعرفه مع ذلك بطريقة او بأخرى ، أنهم يطلقون النار من الخلف فى لحظة الاعدام : دائما فى مؤخرة الرأس ، دون سابق أنذار ، أثناء المرور فى اى ممر يفصل ما بين زنزانة وزنزانة .

(يوما ما ..) ، لكن (يوما ما) هذه ليست تعبيرا مناسبا .. اذ من الجائز ان تكون (ليلة ما) ، فالضوء الباهر لا ينطفىء .. الافضل ان تقول (فى لحظة ما) ... وفى لحظة ما أسلم نفسه لحلم يقظة وردى . رأى فيه نفسه يمشى فى ممر فى انتظار الرصاصة المعهودة . احس فى الحلم انها ستنطلق فى اللحظة التالية . وانتهى كل شيء فى هدوء . توقفت شكوكه ، ومجادلاته ، وآلامه ، ومخاوفه . كله انتهى فى لحظة واحدة ... كم هو رائع ان ينتهى كل هذا فى مجرد لحظة . سار فى الحلم بخفة .. يكاد يطير عن الارض فى خطواته الفرحة ... كمن يمشى مغتسلا بضوء الشمس .. لايشعر الآن انه فى ممرات (وزارة الحب) الضيقة . لقد انطلق ليحتضنه الفضاء الرحب .. هو فى رحاب مدينته الذهبية .. يتبع طريقا يحف به العشب من كل جانب .. بل انه ليلمس ليونة العشب المزهر تحت قدميه .. ودفء الشمس يمسح وجهه فى رفق .. انتهى الممر الى شجر الدردار تتلاعب بأغصانه نسمة خفيفة .. وبالتأكيد .. بالتأكيد .. سيصافح وجهه فيما بعد جدول ماء .. استكان اليه سمك الداس الصغير .. تحت شجر الصفصاف الملتف كالخاتم .. محيطا بهذا الجدول .. فجأة داهمه

الرعب كأقوى ما يكون الرعب وجد نفسه يصرخ بلا وعى :

جوليا .. جوليا ... جوليا ... جوليا .. حبيبتى جوليا

مرت دقيقة ، أسلم وينستون نفسه فيها لوهم كبير .. لوهم انها موجودة فى الزنزانة ... لكنه أفاق على احساس انها ليست معه .. انما فى داخله ، كمن أمتزجت بثنايا بشرته .. اختلطت باعضائه .. ذابت فيه . فى هذه اللحظة بالذات شعر بحبه لها جارفا قويا ، أقوى مما كان فى أى موقف ضمهما من قبل . ادرك غريزيا الان ، أنها بطريقة أو بأخرى مازالت على قيد الحياة ، وأنها فى حاجة ماسة لمساعدته .

مدد جسده على الفراش ، وحاول أن يسيطر على اضطرابه .. ساءل نفسه : ماذا فعلت ياوينستون بنفسك ؟

كم سنة من سنوات العبودية أضفت باستسلامك للحظة ضعف كهذه ؟ الم تعد نفسك للخضوع الكامل . ان هذا الضعف نوع من التمرد على الحزب .. لابد انهم قادمون الى زنزانتك فى لحظات .. هل يعقل ان يتسامحوا مع كل هذا الهياج الذى أطلقته توا .. واضح الان انه لم يحترم التزامه معهم : بعدم العوده لمثل هذه الخواطر الهدامة .. مازلت ياوينستون متأرجحا : تطيع الحزب وتخضع له .. ثم تعصي الحزب وتتمرد عليه بأفكارك الطائشة هذه . فى الماضى كنت تخفى انحرافك الفكرى تحت ستار عضو الحزب الملتزم . الان تقهقرت حتى عن هذا الوضع . عقلك اعلن استسلامه للحزب ، لكنك بخبث حاولت ان تحتفظ باعماق قلبك نقية من افكاره . ادرك الان صعوبه موقفه ، لقد أعلنت توبتك عن كل الافكار المضللة التى عشت فيها فى الماضى .. فلماذا تحن الى الضلال ؟ لماذا انت متشبث بعالم انكرته ؟ أوبرايان بما يمتلكه من ذكاء ، وما يتمتع به من حس ، قادر على ان يفضح دخيلة نفسك .. كل هذا ستجره عليك .. صرخة غبية واحدة ..

يجب عليك ان تبدأ من حيث بدأت . ربما أحتجت لسنوات حتى تقنعهم برغبتك فى التوبة مرة اخرى . مر بيده على وجهه ليتعود على ملامحه الجديدة . تلمس مايشبه الاخاديد باقية فى وجهه ، ومازالت عظمتا الخدين بارزتين وعظمة الانف ممتدة من آثار الضعف السابق . أسنانه التى تبدلت بصناعية لابد ان منظرها مختلف هى الاخرى . لكى تخفى تعبيراتك يجب ان تتعرف اولا على ملامح وجهك . خشى ان تخونه ملامح لايعرفها .. فمنذ رأى وجهه الضامر فى ذلك اليوم الرهيب . لم تقع عيناه على صورته

معكوسة فى مرآة .. على اية حال ، أقنع نفسه انه لكى يخفى شيئا عنهم ، يجب ان يدرب نفسه على اخفائه عن نفسه ايضا . لا مانع ان تعلم ان ما هو مطلوب اخفاؤه موجود فى أعماقك ، لكن الى ان تحين لحظة استدعائه ، يجب أسقاطه فى (لا وعيك) ، وتغطى عليه بغطاء محكم من التمويه الذاتى ، حتى لايطل ما تود ان تخفيه ويقتحم أرض عقلك الواعى ، بأى شكل أو بأية صيغة .

من الآن فصاعدا .. ليس بكاف ان يفكر تفكيرا سليما كما يرغب الحزب .. بل يجب ان ينفعل انفعالا سليما كما يرغب الحزب .. ايضا .. ان يحلم حلما سليما .. محتفظا طول الوقت بقيد صارم على اية كراهية تحاول ان تطل برأسها ، بل يلفها بغطاء محكم ، كجزء منه متكور فى داخله ، لكنه جزء غريب عنه ، لا علاقه له به ، كيس دهنى من الأفكار الشريرة ، معزول فى داخله ومختفٍ تماما ..

فى تاريخ ما ... سيقررون اطلاق النار عليه . ليس بامكانه ان يحدد متى سيحدث هذا ، لكن قبل ان يحدث بلحظات فى مقدوره ان يستشعر أن الحدث وشيك الوقوع . اطلاق النار يتم دوما من الخلف ، اثناء السير فى الممر . عشر ثوان كافية . وفى مثل هذه الهنيهات يمكن ان يقلب تركيبة عالمه الداخلى كله .

ثم فجأة ياوينستون .. دون ان تختلج لك عضله .. دون أن تتفوه بحرف واحد ، دون هزه فى أى من حركاتك .. فجأة تسقط هذا القناع عنك ... و ...طاخ ... طاخ ... طاخ تفجر فيهم .. كل كراهيتك المكبوته ...

تنطلق مرة واحدة ، كنهر هادر اطاح بسد فاقتلعه ... ستغمرك الكراهية . تملأ عليك كيانك كله . تشعل بركانا من الحقد فى داخلك وتقريبا فى نفس اللحظة ستنطلق ... طاخ .

الرصاصة التى ستقضى على حياتك .. ابطأ مما ينبغى ، أو ربما اسرع مما ينبغى . قبل أن يعيدوا سيطرتهم على عقلك ، سيكون عقلك نفسه قد تطاير الى أجزاء متناثرة . انحرافه الفكرى الاخير خلال الثوانى العشره أو اكثر أو اقل ، قبل ان تصله الرصاصة القاتله ، سيكون انحرافه الأول الذى لن يعاقبه عليه الحزب ، وليس بوسعه ان يعاقبه عليه . سيخدعهم جميعا ويموت بفكر مختلف . لن ينالوا منه للمرة الاولى والاخيرة . الرصاصة التى ستخترق جمجمته وتحدث فيها ثقبا ستحدث ثقبا مماثلا فى صورتهم الخادعة

عن أنفسهم : انهم قد بلغوا الكمال ، أحكموا القبضة ، اكملوا السطوة .
أي تموت .. وانت تكرههم .. هذه هى الحرية .

أغمض عينيه . فالموقف الذى تخيله اصعب من مجرد التفكير فيه . أصعب من مجرد تقبل نسق فكرى : ان القضية هى ضرورة اذلال نفسه وتشويهها داخليا . ان يحول جسده الى مجرد نمط يضم كيانا فاسدا . يجب ان ينحدر الى مستويات دنيا فى الانحطاط الفكرى والعقلى . الى اقذر طبقات القذارة . ما هو ـ ياترى ـ اكثر المواضيع اثارة لغثيانه ؟ الزعيم الكبير ؟ اذن فليفكر فى الزعيم الكبير . فى مخليته وجهه العريض الضخم . دائما عندما تراود صورة الزعيم خياله ، تكون على هذه الصورة : وجه عريض ضخم (ربما لانه لم يره الا فى مئات الملصقات لايقل عرض وجهه فيها عن متر) بشاربه الكث الاسود الغزير وبعينيه اللتين تتبعانك اينما ذهبت . ماذا كانت مشاعره الحقيقية تجاه الزعيم ؟

قطعت حبل تفكيره خطوات عسكرية صارمة متجهة الى زنزانته .. فتح الباب الصلب ، محدثا صوتا مدويا لدى فتحه ، وخطا اوبرايان الى الداخل يتلوه نفس الضابط ذى القسمات الشمعية والوجه ذى الخطوط المستقيمة .. وبعدهم جاء الحراس فى زيهم الأسود .

أبتدره اوبرايان قائلا :
انهض .. وتقدم الى هنا
نهض وينستون وخطا الى ان وقف قبالته .
أمسك اوبرايان بكتفيه وتفحص عينيه بامعان ليقول :
لقد كانت تراودك رغبة فيما يبدو .. لخداعى ، وهذا غباء . أنتصب فى وقفتك ، لاتقف متراخيا .

ثبت نظراتك فى وجهى وأنتبه
توقف لحظة ليغير نبرته الى نبرة اهدأ .

انت تحرز تقدما فى محاولاتك على كل حال ياوينستون . على المستوى الفكرى لاتعيبك الا هنات بسيطة . لكن عاطفيا ، أخفقت فى ان تحرز تقدما مماثلا . والان قل لى

ياوينستون ـ وتذكر .. غير مسموح بالكذب .. لانه سهل على ان اكتشف كذبك وانت تتكلم ـ قل لى ما هى مشاعرك الحقيقية تجاه الزعيم ؟

أجاب وينستون فى هدوء :

(انا اكرهه)

(انت تكرهه . حسن . اذن جاء الوقت الذى يجب ان ننتقل بك الى اخر خطوات العلاج . يجب ان تدرب نفسك الان على حب الزعيم . لايكفى ان تطيع تعلياته : يجب ان تحبه .. يجب)

ترك كتفيه مع اشارة خفيفة للحراس قال لهم معها :

(خذوه للغرفة ١٠١)

* * *

(٥)

فى كل مرحلة من مراحل سجنه ، كان يعلم ، أو خيل اليه انه يعلم على وجه التقريب موقع زنزانته من مبنى وزارة الحب الضخم بلا نوافذ . ربما ادرك هذا بالحس ايضا ، نتيجة اختلاف الضغط الجوى ارتفاعا وانخفاضا فى المبنى الضخم . فقد حزر ان الزنزانات التى عذب فيها تعذيبا بدنيا بالضرب وما شابه ، كانت تحت مستوى الارض . والزنزانة التى استجوبه فيها اوبرايان قريبة ـ فى الغالب ـ من سطح المبنى .

هذا المكان الذى يقودونه اليه .. احس به اكثر عمقا من أى زنزانة اخرى اجبر على النزول اليها .. مساحتها اكبر من مساحة سائر الغرف التى صادفته ، لكنه بالكاد يتعرف على مايحيط به . كل ما لاحظه منضدتان صغيرتان امامه بالضبط ، كل منهما مغطاة بقطعة من جوخ اخضر . احدى المنضدتين تبعد عنه بمسافة لاتزيد عن مترين ، والأخرى تبعد عنها بمسافة ليست بسيطة تقع قرب الباب . قيد فور دخوله الى احد المقاعد ، بأحكام لم يسمح له ان يحرك أى جزء من جسمه ، حتى ولا رأسه نفسها . ثبتت رأسه بين لبادتين ، بحيث اجبر على النظر امامه ، دون ان يتمكن من الالتفات يمينا أو يسارا .

بقى فترة وحيدا .. ثم دلف اوبرايان الى الزنزانة قال له :

ـ سألتنى مرة .. ماذا فى الغرفة ١٠١ . قلت لك انت تعرف الاجابة مسبقا على هذا السؤال ، كما يعرفها كل انسان . ما هو موجود فى الغرفة ١٠١ هو اسوأ ما فى الوجود .

فتح الباب مرة اخرى .. دخل احد الحراس يحمل شيئا ما كالأسلاك ، وصندوقا أو سلة من نوع معين . وضعها على المنضدة الأخرى البعيدة . لم يستطع وينستون ان يتعرف على ماجاء به الحارس ، لأن اوبرايان يحجب عنه الرؤية .

استطرد الاخير قائلا .

ـ وان أسوأ ما فى الوجود .. يختلف من انسان لاخر . قد يكون الدفن حيا بالنسبة لشخص ما .

وقد يكون الحرق لشخص ثان ، الاغراق ، أو التجويع ... أو ... أو ... من خمسين طريقة نستخدمها هنا لانهاء الحياة . لكن بقيت طرق مع ذلك ، تعتبر الاسوأ .. نستعين فيها بأشياء تافهة ربما ليست قاتلة .

كان يتحرك الى احدى جانبى الغرفة وهو يتكلم ليتيح لوينستون ان يرى ما هو موضوع على المنضدة الاخرى . كان قفصا مستطيل الشكل ، له مقبض لرفعه أو الامساك به . والقفص مقسم الى قسمين مستطيلين ، كل قسم ينتهى الى فتحة لها ما يشبه البوابة من السلك . كانت البوابات مغلقة ، لمح وينستون فى داخل كل منها ـ برغم بعد هذا القفص حوالى ثلاثة أو اربعة امتار عنه ـ لمح فأرا كبيرا .

واصل اوبرايان كلامه .

ـ بالنسبة لحالتك . اسوأ ما فى الوجود ستكتشف انه .. الفئران .

سرت رعدة فى جسد وينستون ، برغم عدم معرفته ما الذى سيحدث له بواسطة الفئران بالتحديد . لكن بامعانه النظر فى القفص وبواباته السلك ادرك المقصود بالضبط فصرخ .

ـ لا ...لا ...لا يمكنك ان تفعل هذا بى .. مستحيل .. مستحيل

فى هدوء أكمل اوبرايان كلامه .

هل تذكر لحظات الرعب التى اعتادت ان تصيبك فى احلامك ؟ جدار الظلمة المنتصب أمامك ، وهدير صوت مخيف يصم أذنيك . وشىء رهيب على الجانب الاخر من الجدار . وكنت تدرك انك على علم بهذا الشىء الرهيب ، لكنك لم تجرؤ على دفع هذا الادراك الى عقلك الواعى .

على الجانب الاخر من الجدار .. كانت توجد الفئران ياوينستون

لقد درسوا بالتأكيد مدى ما تسببه الفئران من خوف وغثيان . عندما تكلم .. استطاع بالكاد ان يسيطر على نبراته ، حتى يكشف شدة الرجفة التى خالجت جسمه .

ـ اوبرايان ... اوبرايان .. انت تعلم ان هذا الاجراء ليس حتميا .. ماذا تريد منى بالضبط ان افعل بدلا من كل هذا ..؟

لم يجبه اوبرايان مباشرة . وعندما تكلم ، عاد لأسلوب الأستاذ الذى يحاول أن يشرح درساً صعباً .. سارحا ببصره الى مايشبه جمعا من النظارة يقف خلف ظهر وينستون قائلا :

ـ ان الالم .. فى حد ذاته ، ليس دوما كافيا كسلاح . هناك حالات يتحمل فيها الانسان الالم .. حتى الموت . لكن لكل منا نقطة ضعفه . فى داخل كل منا شىء مالا يقوى على تحمله .. شىء لايمكن حتى ان يتصوره . المسألة ليست مسألة شجاعة

أو جبن . ابدا . الامر مختلف فى طبيعته . أى انسان يسقط من ارتفاع عال فجأة ، سيتشبث بأى حبل أو جزء صلب وهو فى طريقه الى الأرض . اذا قدر لك ان تغطس تحت الماء أول شىء تفعله عند بلوغك السطح مرة اخرى ، ان تملأ رئتيك بالهواء قدر استطاعتك . المسألة مسألة غريزة .. شىء لايمكن تغييره .

بالنسبة لك مسألة الفئران .. نفس الشىء . رعبك منها غريزى . انها نوع من الضغط لاقبل لك بمقاومته ، حتى لو حاولت . ستذعن فى النهاية الى مايطلب منك ..

ثم ارتفع صوت وينستون المرتجف يلح :

ـ قل لى فقط . ما هو المطلوب منى ؟ كيف افعل شيئا لا أعرفه ؟ ... فقط قل لى ما هو المطلوب منى ؟ ما هو المطلوب منى .. ارجوك .. ما هو المطلوب منى ؟

بدلا من ان يجيبه اوبرايان ، امسك بالقفص وخطا به خطوات نحوه ، الى ان وصل الى المنضدة القريبة منه وبرفق وضع القفص بما فيه على قطعة الجوخ . عند اقتراب القفص ، سمع وينستون نبض قلبه من شدة خفقاته ، حلقه بدا يجف وسمع هدير الدم فى عروقه يكاد يعصف بطبلة اذنيه ، مع أن هناك فاصلا مسافته لاتقل عن مترين بينه وبين الفئران المحبوسة . الفأران على قدر كبير من الضخامة يختلفان فى اللون والمظهر عن سائر الفئران العادية . يبدو انهما قد بلغا حد التوحش ، لأن لون شعرهما قد تحول من الرمادى الى البنى .

واستمر اوبرايان فى محاضرته التى يلقيها بخيلاء ، وبنفس الطريقة التعليمية .

ـ ان الفأر بالرغم من كونه من القوارض ، من الممكن ان يتحول الى آكل للحوم البشر .. فى حالات معينة وانت أدرى بهذا ياوينستون . لقد سمعت ، على ما اظن ماتفعله الفئران فى احياء لندن البائسة . ففى بعض شوارع هذه الاحياء لاتجرؤ ام على ان تترك طفلها يغيب عن بصرها لدقائق معدودات ، خشية ان تهاجمه الفئران وتنقض عليه . لأنها ان تمكنت من الطفل احالته فى زمن قصير الى كومة عظام . وهذه الفئران الخبيثة كما سمعت . تهاجم فى خسة ، المرضى والمحتضرين . وللفئران حاسة خاصة تدفعها كما تعلم للهجوم الشرس على من تشعر انه لا حول له ولا قوة .. مقيد مثلا .

وكموسيقى تصويرية صاحب كلام اوبرايان صرخات طويلة حادة من الفأرين . كانا يتقاتلان عبر الحاجز الحديدى الذى يفصل بينهما فى القفص . سمع وينستون ايضا صرخة يأس .. هذه المرة صادرة عنه هو ...

التقط اوبرايان القفص ورفعه فى يده ، وأثناء رفعه ضغط على جزء معدنى بسقفه . فتح احد الأبواب الداخلية فى مقدمة القفص .. بقيت حركة واحدة وينطلق فأر منها من اساره . بدون وعى صدرت عن وينستون حركة عصبية عنيفة حاول فيها قدر استطاعته ان يمزق قيوده فرقا . لكن حركته الهلعة لم تغير من الموقف شيئا . قيوده أقوى من ان تتأثر حتى بتوترات جسده العنيفة .

قرب أوبرايان القفص أكثر فأكثر . مايفصل بينهما مسافة تقل عن المتر الواحد . وهو يقول :

ـ أنت تعلم ياوينستون تركيب هذا القفص . صمِّم بحيث يمكن أدخال رأسك فيه .. ساعتها ستجد نفسك فعلا لا قولا وجها لوجه مع أصدقائك الفئران .. وهى فئران جوعى .. لم تأكل منذ فترة طويلة . لحم الانسان بالنسبة لها الان طعام شهى أشهى من الجبن المشهور . عند الجوع تهجم هذه الفئران هجوم الوحوش . أحيانا تبدأ بأكل العينين .. أحيانا تفترس جانبى الوجه وتصل الى لسان المعتقل وتلتهمه فى تلذذ .

كاد أن يغمى على وينستون . فالرعب أكثر مما يحتمل ، لكنه مازال يقاوم حتى لاينهار كلية . ومن قمة اليأس تولد لديه ظل أمل . تجمع عذاب سنين عمره فى لحظه ، أستجمع فيها كل طاقاته الكامنة . قتاله الاول والاوحد الان ، ضد خوفه ... لو قدر له أن يصمد ضد كل هذا الرعب المتجمع فى داخله ، لكانت هناك بارقه امل فى ان يجتاز هذا الموقف الذى لم يمر به من قبل فى حياته .. ويجب أن يفكر .. أن يفكر .. وأن يفكر بسرعة وحسم . لأن عدوه ذكى ، كما هو جبار . فجأة أفتحمت وعيه الرائحة القذرة المميزة لشعر الفئران . فاحت .. أحس بها تملأ كل خياشيمه ، بل تملأ المكان كله . كاد ان يستسلم للغثيان فالقىء ، لكن قوى المقاومة فى داخله لم تتداع بعد .. فصمد . أصبح الان يحارب فى أكثر من جبهة . رعبه ... والغثيان .. وخشيته من أن يغمى عليه .. أحس أنه يقاتل . معركته الاخيره ، فصحت فى داخله كل القوى الاحتياطية . داخل جسم الانسان فى مواقف الحسم . مازال واعيا لما يدور حوله . لم يغم عليه .... أبتلع ريقه .. لو أن فكرة أسعفته .. فكرة ... يستجدى من عقله فكرة قد يجد فيها الخلاص .

لابد أن يوجد جسم أنسان آخر ليقف حائلا بينه وبين الفئران .. أفكاره مازالت مشتته . يملأ وجوده كله الان باب القفص ... وخلفه حيوانان رهيبان ... بدا أن الفأرين

يتوقعان قرب انطلاقهما فاقتربا من سلك القفص ليتفرسا فيه . بدآ يهاجمان الاسلاك التى تقف حائلا بينهما وبين الطعام المرتقب . وأكبرهما وقف على رجليه الخلفيتين وأمسك بجانب القفص بأصابع حمراء اللون ، ثم رفع رأسه يبحث عن مخرج فى السقف . ومن وضعه هذا رأى وينستون بوضوح أسنانه الصفراء الحادة . الرعب الأسود عاد يهاجمه ، خشى أن تضعف مقاومته بعد أن أستجمع كل قواه الان لئلا ينهار ...

وصوت أوبرايان مازال لايرحمه .

- هذا النوع من التعذيب ، كان عرفا سائدا فى الصين أبان العصر الامبراطورى القديم .

ومازال القفص يقترب فى بطء .. مقدمته تكاد تلمس جلد وجهه الان .. ثم لمعت بارقه أمل ... مجرد بارقة أمل .. وسط كل هذا العذاب ... من قلب اليأس .. فجأة التمعت فكرة . أن فى العالم كله مايزال انسان واحد يمكن ان يحول اليه هذا العقاب الذى يكاد يحل به ... جسد واحد فقط من الممكن ان يقف حائلا بينه وبين الفئران ، فصرخ بكل قوته .

ضعوا جوليا مكانى ... هاتوا جوليا .. جوليا وليس انا هى من تستحق هذا العقاب .. أحضروا جوليا أنها جوليا وليس انا .. عاقبوا جوليا .. وليس أنا .

وأحس بنفسه كمن يقع من حالق .. شعر أنه يهوى الى أعماق سحيقه ، مبتعدا عن الفئران .. وهوى الى أعماق سحيقة ، مبتعدا من الفئران .. مازال مقيدا فى مقعده ، لكنه يشعر أنه قد سقط على الأرض ، بل وأخترق الأرض ... أخترق أرضية الزنزانة .. وهوى الى اعماق الاعماق حتى بلغ آخر طبقة من عمق محيط رهيب .. قد أصبح بعيدا ... بعيدا .. بعيدا .. عن الفئران . أبتعد عنها بعد النجوم عن الأرض . لكن اوبرايان ماثل امامه كما هو ، وملمس جدار القفص مازال لصيقا بخده .

سمع صوت جزء معدنى يتحرك .. كان اوبرايان يغلق الباب الداخلى الاخر للقفص ، بدلا من ان يفتح بابه الخارجى .. وكأن اوبرايان قد أغلق عنه .. أبواب الجحيم .

* * *

(٦)

قهوة (شجرة الكستناء) تكاد تخلو من روادها . شعاع الشمس الاصفر ، ينفذ من ثنايا فتحة النافذة العلوية للمقهى ! منسابا الى المناضد التى لم ينظف بعضها ، وبقى يكسوه التراب . الساعة هى الثالثة بعد الظهر .. ساعة لايخرج فيها للمقهى الا من يشعرون بالوحدة .. بداله أن الساعة الثالثة نفسها معزولة عن بقية ساعات النهار . ساعة وحيدة ... تصدر عن جهاز السينما التليفزيونية أصوات موسيقى معتاده ...

جلس وينستون الى نفس مائدته المتباعدة فى نهاية المقهى ... محلقا فى زجاجته الفارغة .. بين الحين والحين كانت عيناه تتسللان الى ذلك الوجه الضخم الشاخص اليه من فوق جدار المقهى المقابل .. هذا الملصق اللحوح بجملته الشهيرة تحت الصورة . عينا الزعيم ترقبانك ...

كان الساقى ، يعيد ملء كأسه بـ (جين النصر) من تلقاء نفسه مضيفا اليه من زجاجة أخرى ، لها سدادة مثقوبه ، بعض نقاط من القرنفل وهى نقاط تتميز بها مشروبات (مقهى الكستناء) .

جلس وينستون يصغى لما يصدر عن الجهاز . من المتوقع ان تتوقف الموسيقى فجأة . ليصدر بيان من (وزارة السلم) ، فالانباء التى ترد حاليا من الجبهة الافريقية ، أنباء مزعجة فى معظمها . فالجيش الاول فى أوراشيا (وللعلم اوشانيا فى حالة حرب الان مع اوراشيا .. وكانت دوما فى حالة حرب مع اوراشيا) يتقدم زاحفا فى اتجاه الجنوب بسرعة مخيفة ، اجتاح فيها معظم مواقع (اوشانيا) . نشرة الظهيرة لم تحدد المناطق التى استولى عليها العدو ، لكن من المحتمل ان اجزاء من الكونغو قد ضاعت ، وهناك أحتمال آخر ان برازافيل وليوبولدفيل مهددتان تهديدا مباشرا من القوات الزاحفة . الامر لايحتاج الى نظرة على الخريطة ليدرك خطورة وضع قوات (اوشانيا) . والامر الآن يتعدى مجرد أحتمال سقوط وسط أفريقيا . الخطر الآن بدأ ، ولأول مرة ، يهدد اراضى اوشانيا نفسها .

فى داخله أحساس قوى ... انفعال ما ... ليس قلقا أو خوفا بالتأكيد ... نوع من الاستثاره أشتعل فى داخله .. ثم خبا . ماله هو و(أوشانيا) أصلا .. تذكر الان . انه مواطن

بلا وطن .. فتوقف عن الانشغال بأخبار الحرب . فهى حرب تهم بلاداً أخرى .. ماله هو والبلد ، ماله هو وأى بلد . حماسه قد فتر بالنسبة لكل شىء ولأى شىء .. لم يبق مايمكن ان يثير فى نفسه رغبة ما .. غاض رحيق النشوة من ايامه ... أصبحت أياما مفرغة من المضمون .. من المعنى .. ليس بمقدوره الان ان يركز ذهنه فى موضوع بعينه أكثر من دقائق معدوده .. لينتقل إلى غيره .. وهكذا .

رفع كأسه إلى فمه ، وأبتلع محتواه فى حركة واحده . أقشعر بدنه كالمعتاد من أثـر الشراب . الجين أيضا كالمعتاد طعمه فظيع . ونقط السكاريـن والقرنفـل تثـير غثيانـه بالاضافة الى سوء الشراب فى حد ذاته ، نقاط لاتضيف الا لزوجة ... (لمنقوع) لزج اصلا . رائحة الشراب أحيانا تكاد تدفعه للقىء . رائحته تختلط برائحة (الفئـ .....)

ليس بمقدوره ان ينطق حتى أسمها .. الاسم نفسه كفيل باثاره الغثيان .. حاول ان يبعد نفسه عن مجرد احتمال ان يتذكر سيرتها .. يخشى من مجرد ذكر الاسم .. بعد ان اقتربا من وجهه ... كادا ان يلتصقا به لولا اسلاك القفص .. رائحتها استقرت الى الابد فى (خياشيمه) .

تأثير الجين بدأ يتصاعد فى جسمه الى ان وصل الى شفتيه .. فأصابها الاحمرار .. احمرار ارجوانى اللون أصبح الان أكثر امتلاء عن ذى قبل .. واستعاد الى حد بعيد لون بشرته القديم .. بل ان صحته الان افضل من صحته قبل دخوله المعتقل ، حتى وان كانت ملامح وجهه اكثر خشونه عن ذى قبل ، وصلعته الجديده بدأت تزحف الى الجزء الخلفى من رأسه . لكن ملامحه كلها مشوبة بحمرة وذلك دليل حالة صحية متقدمة .

حضر الساقى مرة اخرى ، دون ان يستدعيه أيضا ، ووضع الى جانبه نسخة من جريدة (التايمز) وعلى المائده احدى طاولات الشطرنج . جريدة (التايمـز) كما وضعهـا الساقى كانت كالمعتاد مفتوحة على صفحة بها ركن مباراة الشطرنج الفردية ، وهو الركن المخصص لمن يريد ان يلاعب نفسه (دور) شطرنج بمفـرده . لمح الرجـل فراغ كأس وينستون من الجين ، فأحضر كالمعتاد الزجاجة وأعاد ملء الكأس ثم مضى . الامر اوضح من ان ينتظر تلقى تعليمات أو طلبات من احد . عرفوا عاداته فى المقهى ، وهو اعتاد على استجاباتهم . منضدته المعزولة دوما محجوزة له ، حتى فى الايام التى يغص فيها المقهى بالرواد . لايرغب عادة اى من روادها حتى فى مجرد الجلوس فى منضدة قريبة منه . اعتاد الوحدة واعتادته الوحدة . لم يشغل باله باحصاء عدد الكئوس التى يحتسيها ، ليحاسب

عليها فى نهاية الجلسة . فقبل مغادرته المكان يقدمون له قصاصة ورق قذرة ، يسمونها (فاتورة الحساب) ليدفع المبلغ المدون بها . أحس أنهم يحاسبونه اقل بكثير من حساب الزبائن العاديين . وحتى ان لم يخفضوا فاتورة الحساب ، فلا يهتم . لاشىء يهم . كما أنه الان لديه مايكفيه من النقود سواء رفعوا الفاتورة او خفضوها ... انه الان معين فى وظيفة بمرتب أعلى من مرتبه قبل أعتقاله بمراحل .

توقف الجهاز عن بث الموسيقى فجأة ، لينطلق صوت المذيع فى لهجة جادة رصينة تشى بالاهمية.رفع رأسه عن طاولة الشطرنج لينصت لما يقوله المذيع . لم يكن بيانا عسكريا من الجبهة . أتضح انه صادر عن وزارة الوفرة يفيد ان الوزارة قد تجاوزت ارقام الخطة الموضوعة للاربعة شهور الأولى من السنة ، كما حددتها خطة التنمية الخمسية وأن الانجاز الباهر الذى تحقق فى هذه الفترة القصيرة قد تجاوز ما كان متوقعا فى فترة اطول بنسبة ٩٨٪

عاد وينستون دون حماس الى مباراة الشطرنج الفردية التى يلعبها مستعينا بالجريدة . وصل الى السطر الذى يقول (الفرس الأبيض يتحرك حركتين .. خصمك يهزم) . نظر الى صورة الزعيم ، وردد لنفسه (دائما الأبيض ينتصر) لم يسمع فى حياته ان مباراة شطرنج مكتوبة فى أى جريده تنتهى بانتصار الفرس الأسود . دائما النصر حليف اللون الابيض . اليس هذا أبلغ دليل على انتصار الخير الدائم الذى لايهتز .. على الشر ؟!!

الوجه الضخم يبادله نظرة بنظرة . بل ان عينى الزعيم تحملقان فيه وهو يجتر هذه الخواطر .. تحملقان فى هدوء واثق ...

فالابيض دائما .. ينتصر ..

انتهى بيان وزارة الوفرة ، وتغيرت نبرة المذيع الى نفس اللهجة الجادة الخطيرة التى تسبق الاعلانات الهامة : (نلفت انظاركم الى ضرورة تتبع بيان هام فى الساعة الثالثة والنصف . أكرر الساعة الثالثة والنصف . بيان يحمل أنباء فى غاية الخطورة والأهمية يجب الا يفوتكم الاستماع الى بيان الثالثة والنصف . اكرر للمرة الاخيرة موعد البيان الهام هو .. الثالثة والنصف) .

خفق قلب وينستون . فالاخبار الهامة لجبهة القتال تذاع عادة فى مثل هذا الوقت . حب الاستطلاع عاد يغلبه ، ويخالجه أحساس غامض بأن الاخبار التى تحملها نشرة الثالثة والنصف هذه أخبار سيئة بالنسبة لجيش (اوشانيا) . عقله كان يقلب فكرة هزيمة اوشانيا هزيمة ساحقة فى أفريقيا .. فكرة راودته على فترات متقطعة . ترى هل حلت هزيمة

كبرى بالجيش فعلا ؟ بدا شبه متأكد من ان قوات (اوراشيا) قد أجتاحت وسط افريقيا من الشمال كسكين تشق قطعة زبد وأنها تتجه بسرعة مكتسحة كل ما يعترضها الى ان تصل الى قاع القارة الافريقية .. لماذا لم يفكروا فى تطويق هذه القوات كثيرة العدد من الجانبين ؟ . خريطة أفريقيا ، خاصة الساحل الغربى بكل تعرجاته .. واضحة عندما تمثلها فى ذهنه الان . امسك بفرس الشطرنج الابيض وحركه عبر الطاولة . (هناك) فى هذا المكان هو الموقع الملائم . فلو واصلت قوات (اوراشيا) زحفها بالنمط الذى يتخيله واستطاعت ان تسيطر على افريقيا امتدادا من رأس الرجاء الصالح حتى الساحل الشمالى ، لكان فى هذا الموقف قصم لاوشانيا كقوة عظمى الى نصفين . السكين هذه المرة ستكون موجهة بعد ذلك للقلب .. مباشرة . هل تعنى الهزيمة الساحقة أنهيارا لاوشانيا يستدعى تقسيما جديدا لمراكز القوى فى العالم .. وهزيمة مؤكدة للحزب ؟!!

جذب نفسا عميقا عند ترديده للجملة الاخيره .. وعاد يطرد الهواء الفاسد من صدره وقد غمره أحساس بالراحة .

خليط من الانفعالات يضطرم فى داخله .. الأصح انه ليس خليطا بل (طبقات) من الانفعالات تعتمل فى داخله . طبقات متتالية فى الدرجة .. طبقة فوق طبقة .. مالبثت ان اخذت تصطرع مع بعضها البعض ، دون ان تكتب الغلبه لواحدة منها .

هدأت فورة الانفعالات الطارئة .

عاد السكون ليسود مرة اخرى داخل نفسه .. أو لعله الجمود وليس السكون .. أعاد الفرس الى مكانه على رقعة الشطرنج ... لكن ذهنه الان غير قادر على التركيز على مباراة الشطرنج . تاهت منه افكاره مرة اخرى .. ودون وعى وجد أصبعه قد خطت على التراب الذى يغطى جزءا من المنضدة .

٢+٢=٥

ليس بوسعهم ان يتغلغلوا الى اعماقك قالت له جوليا مرة .. أتراهم فعلا لم يتغلغلوا الى اعماقه ...؟ (التغيير الذى سيحيق بك هنا .. تغيير اولى لاعلاج له مطلقا ..) كانت تلك كلمات اوبرايان له فى المعتقل بعد جلسة تعذيب . هل كان اليقين فى داخلنا وهما .. كان وهما ؟ ... كلمات اوبرايان بدت له صحيحة .. صفعته كحقيقة لا مهرب من الاعتراف بها .. هناك اشياء بالفعل .. تصرفات .. كلمات .. جراح نافذة تصيب النفس الانسانية ..

لايمكن الشفاء منها .. شيء ما فى اعماق اعماقك قد مات ياوينستون ... أنتهى .. والى الابد . كان قد قابلها . بل لقد تحدث اليها .. لم تعد هناك خطورة منه أو منها .. كلاهما الان بالنسبة لهم كم مهمل .. ليفعلوا ما يشاءون .. يكاد يدرك غريزيا ان لا احد هناك يهمه تصرفاته .. بل لقد كان فى وسعه ان يرتب ميعادا ثانيا .. ويقابلها فى أى مكان يشاء .. فقط .. لو كانت لديها الرغبة .

كان لقاؤهما بالصدفة تقريبا . فى احد ايام شهر مارس القاسية .. كان الجو مكفهراً ، وهو يسير فى احدى المتنزهات .. والارض تحت قدميه فى قسوة الحديد .. والعشب جاف ومترب وظامىء .. عاصفة باردة كانت قد اجتاحت المكان خلّفت ريحا باردة تهب بين الحين والحين .. كان يسرع الخطى وعيناه دامعتان من أثر الجو ، ويداه داخل جيوبه .. عندما رآها على مسافة لاتزيد عن عشرة امتار امامه ... كان الانطباع الأول عندما رآها .. انها قد تغيرت فى الهيئة والمظهر الى الاسوأ .. كاد ان يتجاوز كل منهما الآخر دون أيماءة أو التفاته ... أو ان تبدى هى رغبة فى التوقف . وبعد أن جاوزته ، استدار .. ولكن بفتور .. وتبعها .. هى تعلم بالتأكيد انه لا خطورة الان من لقائهما .. لايبدو انها تهتم حتى، بخطواته التى تتبعها . لم تبادله الحديث .. تابعت سيرها .. زاهدة حتى فى الالتفات اليه .. نظراتها لم تحد عن الاتجاه الذى تسير فيه .. كأنما تتحمل عن غير ما رغبة سيره بجوارها .. بلغا الان ممرا داخل المتنزه تكتنفه شجيرات جرداء كالحة .. لاتمنع ريحا باردة ولاتستر الواقف خلفها عن الاعين المتلصصة ، اذا كانت هناك اعين متلصصة .. توقفت وتوقف . الجو قارس البرودة . والريح تصفر بين الاغصان العارية فى الشجيرات القريبة منها . مد يده وأحاط خاصرتها .. ليس بالمكان جهاز سينما تليفزيونية .. وان كان احتمال الميكروفون قائم .. كما ان المارين بالمتنزه بامكانهم رؤيتهما .. لايهم .. لاشيء يهم .. لو رغبا لكان بامكانهما ان يمارسا حتى الجنس نفسه ... عندما فكر فى الجنس معها الان .. اقشعر جسمه .. هى ايضا لم تتجاوب مع يده التى تحيط بخصرها .. كانت تنظر اليه بعينين مات فيهما شيء ما ... كأنها تتفرج عليه .. وجهها اصابه الضمور .. هناك أثر جرح فى وجهها برغم محاولتها اخفاءه بخصلة من شعرها .. التغير فى الملامح لم يكن هو المهم . شعر ان خصرها كما لو كان قد تجبس .. يشعر به تحت يده متصلبا ضاع منه أى اثر الليونة السابقة . تذكر الان يوم فاجأته احدى الغارات فوق لندن .. وأضطر الى سحب احدى

الجثث .. كان مالفت نظره يومها ليس ثقل الجثة غير العادى .. بل تصلب اعضائها .. يشعر ان يده الان تحيط بقطعة حجر .. وليس بخصر امرأة ... يخيل اليه ان بشرتها. قد طرأ عليها تغيير ما .. ليست نفس بشرتها السابقة .. ابدا .

لم يحاول ان يقبلها .. وهى من جانبها لم تشعر بأى رغبة فى ذلك .. وكأنما قد طلبا من الصمت أن يلازمهما فران الصمت منتظرا الخطوة التالية .. من اى منهما .. عادا يمشيان فى عكس الاتجاه الذى سارا فيه . حولت رأسها وتفحصت وجهه لاول مره .. نظرتها تنضح بالازدراء .. والكراهية .. لايدرى هل هى كراهية نابعة مما بدر منه ضدها خلال استجوابه .. ام ان كراهيتها مردها منظر وجهه الذى تغير ، وعيناه الذابلتان الان من اثر الدموع تذرف رغما عنه بسبب الجو وقسوة الريح .. لم يكن الموقف يقل قسوة عن الريح .. حاول ـ دون جدوى ـ ان يبعد عن خاطره جملة اوبرايان : (التغيير الذى سيحيق بك هنا تغيير ازلى .. لا علاج له) .. مازال يسير بجوارها ... عادت تنظر امامها كما لو كانت تسير بمفردها .. وجدا احد المقاعد فجلسا .. دون ان يلتصقا .. همت بأن تتكلم .. شخص ببصره منتظرا .. وجدت غصنا صغيرا جافا امامها ... داسته بحذائها فانكسر .. نظر الى قدميها .. من الواضح أنهما أصبحتا اعرض .

اخيرا نطقت .. فقالت دون موارية .. وفى صوت لايحمل تعبيرا عن أى انفعال .. بصوت مسطح قالت .

ـ انا ... خنتك

فأجاب .

ـ وأنا ... خنتك

حدجته بنظرة أخرى ، تحمل نفس القدر من الكراهية التى عبرت عنها من قبل ، لتضيف .

أحيانا يهددونك بشىء .. بشىء لاتستطيع ان تتحمله .. لاتستطيع حتى ان تفكر فى امكانية تحمله .. ثم تجد نفسك بوعى او بدون وعى .. تصيح .. تصرخ بملء فمك : (لاتفعلوا هذا بى .. أفعلوه بفلان .. بأى انسان آخر) فيما بعد قد تتظاهر انك كنت تحت تأثير التعذيب ، وأنك قلت ذلك دون ان تعنيه . قلته لمجرد ان تنجو من الموقف . لكن لا . هذا مجاف للحقيقة . الحقيقة البارده انه اثناء صراخك ، فأنت تعنى بالفعل كل كلمة .. كل حرف .. تنطق به . يعتقد الانسان ان تخليه عن انسان آخر . هو السبيل الوحيد

لنجاته ، وبالتالى يختار الانسان هذا الأسلوب للنجاة . ليس فى الامر تظاهر . المسألة مسألة اختيار . فأنت تريد فعلا ان يحل ما انت معرض له ، بشخص آخر .. بدلا منك . لايهمك فى قليل أو كثير ان يعانى هو كل البشاعة التى يفترض ان تعانيها انت .. مايهمك ساعتها ، هو نفسك ، ونفسك وحدها . وليذهب العالم كله الى الجحيم .

وجد نفسه يردد فى أسى

ـ كل مايهمك .. هو نفسك

ـ بعد ان يحدث هذا ، ليس بمقدورك ان تشعر تجاه الانسان الآخر بنفس ماكنت تشعر به نحوه فى الماضى .

العاطفة نحوه تكون قد ماتت فى هذا الموقف

نعم .. مستحيل ان يشعر الانسان بنفس ماكان يشعر به فى الماضى

ثم لم يعد هناك مايمكن ان يقال .... الريح البارده تعصف بهما دون رحمة .. تدفع فى طريقها اوراقا ساقطة لا حياة فيها .. لفظتها الشجيرات المحيطة بالمكان .

وجد ان الاستمرار فى الموقف .. دون كلام .. وفى جو عاصف .. امر لامعنى له .. فنهض ونهضت .. همهمت بعدة كلمات سريعة غير مفهومة ، عرف منها انها تود ان تلحق بالمترو لانها تأخرت .. تأخرت عن ماذا ..؟

لايهم .

قال بلهجة فاترة ، وكأنه من الواجب ان يقول شيئا .

سنتقابل مرة ثانية ..

(نعم .. سنتقابل ثانية ...)

تركته ومضت . تبعها متثاقلا . خطواتها تسبقه . كان بامكانه بشىء من المجهود أن يصحبها لو اسرع قليلا فى خطاه ، حتى يوصلها لمحطة المترو ، لكنها ضاعت منه فى الزحام . ضاعت منه أو اضاعها هو لايهم . توقف واستدار على عقبيه .. عاد من حيث أتى .. أحس باشتياق لم يعهده فى نفسه فى ان يسرع الى مقهى شجرة الكستناء . وان يجلس فى ركنه الهادىء المعهود بأحد أطرافها ليجد جريدته امامه .. ورقعة الشطرنج على المنضدة .. وجين النصر لا نهاية له .. فالمقهى مهما كان مكان دافىء فى هذا الجو الملعون .. كانت المرة الاولى التى يود فيها ان يسابق خطاه ليصل الى المقهى . وبعد ان خطا عدة خطوات ليلقى عليها نظرة ، كان الزحام قد ابتلعها تماما .. كلماتها ترن فى اذنيه ... (اثناء

صراخك .. فأنت تعنى كل كلمة .. كل حرف تنطق به) وهو بالفعل عندما صرخ كان يعنى مايقول : «كل مايهمك ساعتها هو نفسك .. ونفسك وحدها» . لم يكن مجرد كلام ما نطق به عندما واجهته الفئران ... كان يقصد بالفعل ان يضعوها هى مكانه . ذكرى المنظر تكاد تصيبه بالغثيان وجملة (اوبرايان) الشهيرة مازالت تطارده .

عاد الى جلسته فى ركنه المعتاد فى المقهى . الموسيقى الصادرة عن الجهاز تختلف عما اعتاد سماعه من اللحن المنساب . لحن قديم فيه بقايا شجن ذاب فيه وأختلط . أترى هذا اللحن يصدر من الجهاز ام مجرد ذكرى للحن ينبع من داخله . لكن لماذا يشغل نفسه بالتساؤل عن الفرق بين الواقع والحلم . فأى شىء يهم الان ؟ ... أى شىء يهم ؟ ... سمع صوتا من داخله أو من خارجه يغنى أغنية قديمة فى نبرات واضحة .

تحت شجرة الكستناء .... الوارفة
انا بعتك ... ولم أشتر
وأنت بعتنى ... ولم تشتر
تحت شجرة الكستناء ... الوارفـــة

لم يحاول ان يمنع تدفق نهر الدمع من عينيه . فانسابت وأخذت تنحدر دموعه فى صمت وهدوء . كم هو قاس بكاء الصمت هذا ؟ حتى طعم (الجين) مع الدموع اكثر مرارة عن العهد به .. الم تكن تكفى مرارة الجين وحده ؟ لكنه يشعر بكأس الجـين كالخيط الوحيد الذى يربطه بالحياة الان .. لم يعد المذاق مهما ... أصبح المهم هو الجين نفسه ... فيه تتمثل حياته وموته .. ثم وبعثه ايضا . بواسطته يغفو ليلا . وبه يفيق نهارا . فهو الان لايستقيظ فى الغالب قبل الحادية عشرة . وبعد ان يتأكد من انه قد صحا ، وأن عينيه مفتوحتان ، لايدفعه للنهوض الا كأس (الجين) الفارغ والزجاجة بجوار سريره . لولا هما لبقى ممددا طول النهار .. لايحاسبونه على التأخير فى مكان عمله الان . فهم قوم كرماء ومتحضرون . بعد ان ينتزع نفسه من السرير ، مظهره الذى يكاد يتقصف من الالم ، وعيناه الوارمتان يمد يدا متلهفة على الكأس الذى يحرص على ان يبقيه فى هذا المكان المعتاد كل ليلة ، ليستقبله كل صباح .. ينضح الجين على بشرته ، فى ساعات منتصف النهار ، التى يقضيها محملقا ببلاهة فى شاشة السينما التليفزيونية .. والزجاجة فى يده فى أى

وقت . من الثالثة بعد الظهر وحتى موعد أغلاق مقهى شجرة الكستناء .. هو فى ركنه الثابت كأحد معالم المقهى بعزلته وصمته وشطرنجه .

أصبح يحيا الان خارج اسوار عالم الدهشة . لاينفعل لاي شيء . لايهتم بأمر الناس ، والناس بدورهم لا يهتمون بأمره ، فهم ينظرون اليه على انه شيء لا ضرر منه ولا نفع فيه .. لكنه موجود .

لايخلو الامر من ذهابه الى مكتبه المترب والمهمل بوزارة الحقيقة لكنه لايفعل هذا عادة الا مرتين فى الاسبوع . وعندما يصل مكتبه يكاد لايجد الا وريقات يسلى بها وقته فى العمل ، اذا كان هناك مايمكن ان يسمى (عملا) فقد الحق بأحد الفروع الثانوية للجنة فرعية مختصة بجانب واحد من جوانب المشاكل التى قد تطرأ اثناء اصدار الطبعة الحادية عشرة لقاموس (اللغة الدولية الجديدة) . عمل هذا الفرع الذى يضمه ان يصدر مايمكن تسميته (بالتقرير المؤقت) . تقرير عن ماذا ؟ لايعلم ولم يعنه قط ان يعلم ما هو على وجه الدقة . وان كان الموضوع بصفة عامة متعلقا بـ (هل توضع الفاصلة بين قوسين ، ام لا داعى للقوسين) وقد اختلفت الآراء فى هذا الموضوع الحيوى والهام .

بجانب لجنته الفرعية ، هناك حوالى اربع لجان أخرى كل منها مكون من أشخاص موقفهم السياسى شبيه بموقفه ، يتناولون مواضيع شبيهة بحكاية الفاصلة والقوسين هذه . ففى أيام كثيره كان يذهب الى مكتبه فى الوزارة . ثم يحضر بعض اعضاء اللجنة الفرعية ويجلسون الى منضدة الاجتماع . يحملق كل منهم فى وجه الاخر ، ثم بعد عدة كلمات روتينية يكتشفون انه ليس هناك مايستحق البحث اليوم فينصرفون . أى انهم قد ارتدوا ملابسهم وتوجهوا الى وزارة الحقيقة ليتفقوا على انه (يجب ان ينصرفوا) . لكن فى ايام اخرى كانت تغمرهم (نوبة) حماس غريب فينكبون على العمل ، ويحضرون المراجع اللغوية . وتأخذهم حمية المجادلات اللغوية ، وقضايا المرادفات ، بل لقد كانوا احيانا يبلغون حد التخاصم والتشبث بالرأى ، وتسفيه الرأى الاخر ، والاحتكام الى الطبعات السابقة للقاموس ، وعندما ترتفع درجة حرارة المناقشة والجدال وتبلغ ذروتها ، كانوا يفيقون على حقيقة ان حماسهم لم يكن اكثر من هروب من واقع مر .. وأنه لم يعد قد بقى لهم الان مايمكن ان يختلفوا عليه ، أو حتى مايمكن ان يتفقوا عليه ، وساعتها ، ودون ان ينبس أى منهم بحرف فى هذا الموضوع ، تطل عليهم حقيقة وضعهم القاسية فيتبادلون نظرات ابلغ من اى لغة يتجادلون فى فواصلها ، نظرات قد غاض رحيق الحياة منها .. كمجموعة من

اشباح كانت تعبث تحت جنح الظلام .. وتخشى ان يطلع عليها الفجر ، فيصمتون وقد جمعهم حزن دفين عميق .

استرعى انتباهه وهو جالس فى المقهى .. صمت جهاز السينما التليفزيونية . رفع رأسه ليطل على شاشة الجهاز . هل جاء موعد نشرة الثالثة والنصف ؟ لكن لا . المذيع فقط يغير شريط القطعة الموسيقية ، ليذيع لحنا جديدا . راودته افكار هزيمة جيش اوشانيا ثانية . تمثل خريطة افريقيا وجبهات القتال وخط سيره المحتمل ، وجيش اوراشيا المتجه كسهم اسود نافذ صوب الجنوب . وتمثل فى مخيلته سهما آخر ابيض يتجه غربا ملتفا حول مؤخره الجيش الأول . أدار المعركة امامه على رقعة الشطرنج . وكأنما ليتأكد بنفسه من شىء ما . رفع عينيه ليلقى نظرة على الوجه الراسخ المطل من الملصق المثبت بالحائط وسأله هل يمكن (الزعم) بأن السهم الاخر لا وجود له بالفعل ؟

لكن مالبث ان فقد اهتمامه بالموضوع برمته .. وعاد يرفع كأسه ، وابتلعه دفعة واحدة . التقط الفرس الابيض وواصل مباراته التى اعتاد ان يلاعب فيها نفسه مستعينا بالجريدة . حرك الفرس حركة معينة وقال . كش . غير انه اكتشف ان حركة الحصان كانت خطأ ... و ...

دون ان يستدعى اية ذكريات هذه المرة ، وجد الذكريات تنساب ذاتيا فى مخيلته .. رأى منها حجرة حالمة تضيئها انوار الشموع ... يحتل نصفها سرير عريض ، وهو نفسه قد ارتد صبيا فى التاسعة أو العاشرة ، وقد أفترش أرض الغرفة ، يلعب بصندوق به اثنان من (زهر الطاولة) وهو يضج بالضحك فى مرح .. امامه كانت تجلس امه على السرير .. تضحك هى الأخرى ..

لابد أن هذا قد حدث قبل ان تختفى بشهر او نحو الشهر . كانت لحظات جلوسه الى امه وهو يضحك ، هى اللحظات التى ينسى فيها جوعه ، حيث تلهى عنه باللعب وبمداعباتها له ، التى كان يشعر عندئذ ان حبها القديم فى قلبه ـ الذى كان يحجبه الجوع احيانا ـ يصحو فى قلبه الصغير ، فيقرر ان يحبها عندما تلاعبه . يذكر الان هذا اليوم جيدا .

كان يوما رطبا ممطراً .. لم يتوقف فيه المطر عن السقوط ، متسللا من فتحات النافذة الى داخل الغرفة . الضوء داخلها اصبح خابيا لايسمح بالقراءة . وملل الطفلين من (حبسة) الغرفة الضيقة ، والظلام الزاحف عليها ، تحول الى ضيق خانق .

يذكر وينستون انه أخذ (يزن) باستمرار ، ويلح فى طلب الطعام عابثا بأى شىء تصل اليه يداه ، مبعثرا محتويات الغرفة التى تقع تحت يده هنا وهناك ، قاذفا بها بقوة على جدار الغرفة ، حتى ضج الجيران بالشكوى ، بينما لم تكف اخته الصغرى عن البكاء من اثر الجوع بصوت (مشروخ) يحطم الاعصاب .

وأمه ـ طول الوقت ـ تنهره فى لهجة غير قاسية حيث تردد (اعقل ياوينستـون .. وتأدب .. كف عما تفعله) . ولما لم يردعه الوعيد ، حاولت استرضاءه وهى تقول (فلتكن ولدا مطيعا ياوينستون .. حتى لا أغضب منك .. اذا سكت فسأشترى لك لعبة جميلة .. ستحبها قطعا . ثم خرجت برغم البرد والمطر واتجهت الى حانوت وحيد كان يفتح ابوابه برغم الطقس المكفهر ، واشترت له صندوقا مستطيلا كان غطاؤه على شكل لوحة لعب ، بها سلالم وثعابين .. وهو يستطيع فى هذه اللحظات ان يتذكر حتى رائحة الصندوق الجديد عندما وضعته امه فى (حجره) وهى تبتسم .. كان من الواضح ان اللعبة رخيصة الثمن رديئة الصنع ، اذ كان غطاء الصندوق متقصفاً غير مستو لايرتكن الى أى جانب ولا يستقر عليه مكعَّب الزهر .. وقد نظر وينستون الى الصندوق بقرف ودون حماس . لكن امـه وضعت كفها على كتفه مبتسمة ومشجعة ، ثم أخرجت من جيبها شمعة وأشعلتها ، ثم دعته للعب معها . فاستثارته الشمعة ، ثم مالبث ان اندمج فى اللعبة وانطلق يضحك فى مرح كلما وصل فى اللعبة الى الثعبان ، حيث يجب ان ينزل بالزهر ويبدأ ثانية من جديد .

لعبا ثمانية (اشواط) كسب هو اربعة منها وهى اربعة . حتى اخته الصغرى ، برغم عدم فهمها لما يدور امامها من لعب ، كفت عن (الزن) ، واستغرقتها المشاهدة فكانت تضحك بصوت عال عندما تجد امها وأخاها يضحكان ، يذكر انها كانت امسية سعيدة .. كسعادته قبل ان يبدأ الجوع .

أزاح عن ذاكرته صورة هذه الامسية .. لابد ان هذه الامسية .. أو هذه السعادة .. أو الاثنين كانا وهما .. ازدادت حدة احساسه الان بأن الحقيقة تختلط بالوهم فى كل مايتذكر .. واحيانا فيما يسمع .. هذه الذكريات المضطربة لابد ان تتبعها فى ذهنه حقيقة انها محض خيال .. لكن لا داعى للتدقيق فيما هو حقيقى .. وفيما هو وهم .. يجب ان يعتاد المرء على ان يتقبل هذه الذكريات على علاتها .. بعض احداثها قد وقع بالفعل .. بينما البعض الاخر لم يحدث قط .. ولن .. (تخرب) الدنيا .. اذا اختلطت هذه بتلك .

عاد ينظر مرة اخرى الى رقعة الشطرنج امامه .. مد يده الى الفرس الأبيض وأمسك به . تقريبا فى نفس اللحظة سقط الفرس من يده محدثا صوتا عند ارتطامه برقعة الشطرنج . انتفض مذهولا كما لو كانت ابرة حادة قد نفذت داخل جسمه .

انطلق بالفعل صوت حاد نافذ من الجهاز . موعد نشرة الاخبار . هذه المرة سبقها صوت نفير صارخ متصل . (النصر) ؟!! مادام صوت النفير قد انطلق فهذا بالتأكيد ايذان باعلان بيان النصر ، وما كاد حتى سرى بين رواد المقهى ما يشبه الصدمة الكهربائية . حتى الخدم توقفوا مترقبين الانباء الهامة . ذلك ان صوت النفير قد احدث دويا هائلا بحيث استطاع بالفعل ان يجذب كل الانتباه لكنه دوى مالبث ان ذاب فى خضم زئير الجماهير التى تجاوبت معه بالصياح والتهليل وجاءت الانباء كما توقعها . قالت انه قد تم تجميع حملة ضخمة نقلت عبر البحر فوق سفن الأسطول الضخم لتهاجم العدو من مؤخرته فى حركة التفاف .... وانطلق السهم الأبيض ليقسم الصفوف الخلفية للسهم الابيض . وسرت انباء النصر سريان النار فى الهشيم .. تلقفتها الافواه .. لتنتقل من مقهى ، الى شارع الى مقهى، وفورة الحماس قد تملكت الجميع ، مختلطة بكلمات المذيع مثل .

(خطة استراتيجية رهيبة .. تعاون تام بين كافة الأسلحة ـ نصف مليون اسير ـ اكتساح كامل ـ السيطرة التامة والشاملة على كامل التراب الافريقى ـ انتصار سيعجل بانهاء الحرب ـ أعظم نصر عسكرى فى تاريخ العالم) .

وترددت كثيرا كلمة (النصر ـ النصر ـ النصر ...)

لم يتمالك وينستون نفسه ... قدماه تصدر منهما ، رغما عنه ، حركات عصبية . ودلو انطلق فرحا يركض فى شوارع المدينة . مازال جالسا الى مائدته ، هذا صحيح .. لكنه يحس انه يود لو يطير حماسا وانفعالا .. لو ينطلق مع الجماهير المهللة فى الخارج لو يصيح معهم بأعلى صوته .

نظر مرة اخرى الى صورة الزعيم الكبير .. أى مهابة ؟ ياله من عملاق يخطو بقدمين ثابتتين فوق كل ارجاء الدنيا . ياله من صخرة عاتية ... جثث تحت قدميه ... جحافل جيوش آسيا انفرط عقدها وطواها التيه .. دهش من امر نفسه ، عندما تذكر انه منذ عشر دقائق فقط ... صحيح منذ مالايزيد عن عشر دقائق لا اكثر .. كانت تراوده تلك الشكوك التى لامعنى لها ، عما يتوقع سماعه (نصر ام هزيمة ؟!)

هزيمة ؟ إن جيش أوشانيا لم يكتسح فقط جيش اوراشيا .. انه قد اكتسح المخاوف والشكوك فى داخله ... حقيقى لقد تغيرت افكار كثيرة له منذ وطئت قدماه ارض (وزارة الحب) ، لكن التطهر الكامل .. الشفاء الكامل من كل ما كان يدور فى رأسه من خواطر .. لم يحدث الا الان .. فى هذه اللحظة بالذات .

صوت المذيع مازال يقذف فى آذان مستمعيه بأخبار الانجازات الضخمة فى ميدان القتال .. عدد الاسرى .. وعدد القتلى .. والمواقع التى تم الاستيلاء عليها بكل ما فيها من غنائم .. وان كانت حدة اصوات التهليل فى الخارج قد بدأت تهدأ قليلا . عاد الخدم إلى عملهم المعتاد .

أقترب احدهم حاملا نفس زجاجة الجين لوينستون . لم يعر كأسه المملوءة اهتماما هذه المرة .

كان ينظر امامه كمن يتعايش مع حلم جميل ، حتى بعد ان هدأ فوران عواطفه الجياشه التى اضطرمت فى داخله .. خياله لايتجه لساحة الوغى الان ، بل عاد يتذكر مبنى (وزارة الحب) مع أختلاف ، انها ذكرى من يستعيد ليغفر .. ويعفو .. ويصفو .. شعر بقلبه ناصعا .. لاتشوبه طَرْفَة حقد واحدة .. تخيل نفسه منتصبا فى قفص الاتهام .. يعترف للناس بكل شيء .. مورطا كل من اشترك معه فى مثل تلك الافكار الخبيثة التى كان يؤمن بها .. ان المشهد امام عينيه الصافيتين .. يسير فى الممر المكسو بالمطاط كمن يمضى ليعانق ضوء الشمس .. خلفه سيسير الحارس المسلح .. انتظارا لتلك الطلقة التى شعر الآن انه يتوق اليها ..

عاد ينظر مرة اخرى الى الوجه الكبير .. فى ملامحه .. وفى كل شيء .

ياالله .. اربعون سنة ياوينستون مضت عليك دون ان تدرك حقيقة سر تلك البسمة التى يحوطها هذا الشارب الكث .. يالغبائك وقسوة قلبك ياوينستون .. كل هذا الزمن قد مر هباء من عمرك قبل ان تعى سر هذه البسمة وعظمة صاحبها .. يالك من طفل عاق وعنيد حرم نفسه من حب هذا الصدر الحنون ....

أربعون سنة .. قضيتها فى التيه .. منفيا .. بعيدا عن كل هذا ...

انسابت رغما عنه دمعتان حارتان آسيتان .. امتزجتا بطعم (الجين) المر .. انهمرتا عبر وجنتيه الى قطعة الشطرنج ، حيث الفرس الابيض مايزال شامخا فى مكانه ...

لكن ما عليك ياوينستون .. لقد استعدت صوابك الان .. عاد اليك عقلك .. تداركت الأمز ... لم تفلت منك الفرصة ... انتهت المكابرة .. وانتهى الصراع .

أفرح ياوينستون .. لقد كتب لك أخيرا الانتصار على نفسك ....

انت الان تحب ... الزعيـــــم الكبيـــــر .. !!

❊ ❊ ❊

إصدارات: تهامة للنشر والمكتبات

سلسلة: **الكتاب العربي السعودي**

صَدر منها:

• الجبل الذي صار سهلا (نفد)	الأستاذ أحمد قنديل
• من ذكريات مسافر	الأستاذ محمد عمر توفيق
• عهد الصبا في البادية (قصة مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنمية قضية (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا (نفد)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• الظمأ (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• الدوامة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• غداً أنسى (قصة طويلة) (نفد)	الدكتورة أمل محمد شطا
• موضوعات اقتصادية معاصرة	الدكتور علي بن طلال الجهني
• أزمة الطاقة إلى أين؟	الدكتور عبدالعزيز حسين الصويغ
• نحو تربية إسلامية	الأستاذ أحمد محمد جمال
• إلى ابنتي شيرين	الأستاذ حمزة شحاتة
• رفات عقل	الأستاذ حمزة شحاتة
• شرح قصيدة البردة	الدكتور محمود حسن زيني
• عواطف إنسانية (ديوان شعر) (نفد)	الدكتورة مريم البغدادي
• تاريخ عمارة المسجد الحرام (نفد)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• وقفة	الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (نفد)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار بلا زمن	الأستاذ عبدالله الحصين
• كتاب في علم إدارة الأفراد (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• الإبحار في ليل الشجن (ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
• طه حسين والشيخان	الأستاذ محمد عمر توفيق
• التنمية وجها لوجه	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• الحضارة تحد (نفد)	الدكتور محمود محمد سفر
• عبير الذكريات (ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
• لحظة ضعف (قصة طويلة)	الأستاذ فؤاد صادق مفتي
• الرجولة عماد الخلق الفاضل	الأستاذ حمزة شحاتة
• ثمرات قلم	الأستاذ محمد حسين زيدان
• بائع التبغ (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ حمزة بوقري
• أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة (تراجم)	الأستاذ محمد علي مغربي
• النجم الفريد (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• مكانك تحمدي	الأستاذ أحمد محمد جمال
• قال وقلت	الأستاذ أحمد السباعي
• نبض	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• نبت الأرض	الدكتورة فاتنة أمين شاكر

• السعد وعد (مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
• قصص من سومرست موم (مجموعة قصصية مترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• عن هذا وذاك (الطبعة الثالثة)	الدكتور غازي عبدالوحمن القصيبي
• الأصداف (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• الأمثال الشعبية في مدن الحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ أحمد السباعي
• أفكار تربوية	الدكتور ابراهيم عباس نتو
• فلسفة المجانين	الأستاذ سعد البواردي
• خدعتني بحبها (مجموعة قصصية)	الأستاذ عبدالله بوقس
• نقر العصافير (ديوان شعر)	الأستاذ أحمد قنديل
• التاريخ العربي وبدايته (الطبعة الثالثة)	الأستاذ أمين مدني
• المجاز بين اليمامة والحجاز (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بن خميس
• تاريخ الكعبة المعظمة (الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• خواطر جريئة	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• السنيورة (قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر)	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• جسور إلى القمة (تراجم)	الأستاذ عزيز ضياء
• تأملات في دروب الحق والباطل	الشيخ عبدالله عبدالغني خياط
• الحمى (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• قضايا ومشكلات لغوية	الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار
• ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة	الأستاذ محمد علي مغربي
• زيد الخير	الأستاذ عبدالعزيز الرفاعي
• الشوق إليك (مسرحية شعرية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• كلمة ونصف	الأستاذ محمد حسين زيدان
• شيء من الحصاد	الأستاذ حامد حسن مطاوع
• أصداء قلم	الأستاذ محمود عارف
• قضايا سياسية معاصرة	الدكتور فؤاد عبدالسلام الفارسي
• نشأة وتطور الإذاعة في المجتمع السعودي	الأستاذ بدر أحمد كريم
• الإعلام موقف	الدكتور محمود محمد سفر
• الجنس الناعم في ظل الإسلام	الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ألحان مغترب (ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ طاهر زمخشري
• غرام ولاّدة (مسرحية شعرية) (الطبعة الثانية)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• سير وتراجم (الطبعة الثالثة)	الأستاذ عمر عبدالجبار
• الموزون والمخزون	الشيخ أبوتراب الظاهري
• لجام الأقلام	الشيخ أبوتراب الظاهري
• نقاد من الغرب	الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• حوار.. في الحزن الدافيء	الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• صحة الأسرة	الدكتور زهير أحمد السباعي
• سباعيات (الجزء الثاني)	الأستاذ أحمد السباعي
• خلافة أبي بكر الصديق	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• البترول والمستقبل العربي (الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالعزيز مؤمنة
• إليها .. (ديوان شعر)	الأستاذ حسين عبدالله سراج
• من حديث الكتب (ثلاثة أجزاء) (الطبعة الثانية)	الأستاذ محمد سعيد العامودي

• أيامي		الأستاذ أحمد السباعي
• التعليم في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالوهاب عبدالواسع
• أحاديث وقضايا إنسانية		الدكتور عبدالرحمن بن حسن النفيسة
• البعث	(مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي مغربي
• شمعة ظمأى	(ديوان شعر)	الدكتور أسامة عبدالرحمن
• الإسلام في نظر أعلام الغرب	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة
• حتى لا نفقد الذاكرة		الأستاذ سعد البواردي
• مدارسنا والتربية	(الطبعة الثالثة)	الأستاذ عبدالواهاب عبدالواسع
• وحي الصحراء	(الطبعة الثانية)	الأستاذ عبدالله بلخير الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود خوجه
• طيور الأبابيل	(ديوان شعر) (الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• قصص من تاغور	(ترجمة)	الأستاذ عزيز ضياء
• التنظيم القضائي في المملكة العربية السعودية	(الطبعة الثانية)	الأستاذ حسن بن عبدالله آل الشيخ
• زوجتي وأنا	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
• معجم اللهجة المحلية في منطقة جازان		الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
• لن تلحد		الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• عمر بن أبي ربيعة	(الطبعة الثانية)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• رجالات الحجاز	(تراجم)	الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• حكاية جيلين		الدكتور عبدالله حسين باسلامة
• من أوراقي		الأستاذ محمد سعيد العامودي
• الإسلام في معترك الفكر		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• في رأيي المتواضع		الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي
• العالم إلى أين والعرب إلى أين ؟		الدكتور بهاء بن حسين عزي
• البرق والبريد والهاتف وصلتها بالحب والأشواق والعواطف		الأستاذ عبدالرحمن المعمر
• محمد سعيد عبدالمقصود خوجة	(حياته وآثاره)	الدكتور محمد بن سعيد بن حسين

تحت الطبع :

• إليكم شباب الأمة		الشيخ سعيد عبدالعزيز الجندول
• ديوان حسين عرب		الأستاذ حسين عرب
• خواطر مجنحة		الأستاذ محمد حسين زيدان
• ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
• وجيز النقد عند العرب		الأستاذ عبدالله عبدالوهاب العباسي
• هكذا علمني ورد زورث		الشيخ أبوعبدالرحمن بن عقيل الظاهري
• الطاقة نظرة شاملة		الدكتور عبدالهادي طاهر
• لا رق في القرآن		الأستاذ ابراهيم هاشم فلالي
• من مقالات عبدالله عبدالجبار		الأستاذ عبدالله عبدالجبار
• جزء من حلم		الأستاذ عبدالله عبدالرحمن جفري
• التنمية قضية	(الطبعة الثانية)	الدكتور محمود محمد سفر
• قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا التوسعية	(الطبعة الثانية)	الدكتور سليمان بن محمد الغنام
• غداً أنسى	(قصة طويلة) (الطبعة الثانية)	الدكتورة أمل محمد شطا
• تاريخ عمارة المسجد الحرام	(الطبعة الثانية)	الشيخ حسين عبدالله باسلامة

- الحضارة تحد (الطبعة الثانية) الدكتور محمود محمد سفر
- الجبل الذي صار سهلا (الطبعة الثانية) الأستاذ أحمد قنديل
- خالتي كدرجان (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) الأستاذ أحمد السباعي

سلسلة: الكتاب الجامعي

صَدرمنها:

- الإدارة: دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية — الدكتور مدني عبدالقادر علاقي
- الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الإنجليزية) — الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد
- النمو من الطفولة إلى المراهقة (الطبعة الثالثة) — الدكتور محمد جميل منصور، الدكتور فاروق سيد عبدالسلام
- الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا — الدكتور عبدالمنعم رسلان
- النفط العربي وصناعة تكريره — الدكتور أحمد رمضان شقلية
- الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبدالمجيد بكر
- علاقة الآباء بالأبناء (دراسة فقهية) (الطبعة الثانية) — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- مباديء القانون لرجال الأعمال (الطبعة الثانية) — الدكتور محمد ابراهيم أبوالعينين
- الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
- قراءات في مشكلات الطفولة (الطبعة الثانية) — الدكتور محمد جميل منصور
- شعراء التروبادور (ترجمة) — الدكتورة مريم البغدادي
- الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- النظرية النسبية — الدكتور عبدالرحمن فكري، الدكتور محمد عبدالهادي كامل
- أمراض الأذن والأنف والحنجرة (باللغة الإنجليزية) — الدكتور أمين عبدالله سراج، الدكتور سراج مصطفى زقزوق
- المدخل في دراسة الأدب — الدكتورة مريم البغدادي
- الرعاية التربوية للمكفوفين — الدكتور لطفي بركات أحمد
- أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
- الوحدات النقدية المملوكية — الدكتور سامح عبدالرحمن فهمي
- الأدب المقارن (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — الدكتور عبدالوهاب علي الحكمي
- هندسة النظام الكوني في القرآن الكريم — الدكتور عبدالعليم عبدالرحمن خضر
- التجربة الأكاديمية لجامعة البترول والمعادن — الدكتور خضير سعود الخضير
- مبادىء الطرق الإحصائية — الدكتور جلال الصياد، الدكتور عبدالحميد محمد ربيع
- مبادىء الإحصاء — الدكتور جلال الصياد، الأستاذ عادل سمرة
- المنظمات الاقتصادية الدولية — الدكتور حسين عمر

• التعلم الصفى	الدكتور محمد زياد حمدان

تحت الطبع :

• الاقتصاد الاداري	الدكتور فرج عزت
• الاقتصاد الصناعي	الدكتور سليم كامل درويش
• دراسات في الإعراب	الدكتور عبدالهادي الفضلي
• أحكام تصرفات السفيه في الشريعة الإسلامية	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• أحكام تصرفات الصغير في الشريعة الإسلامية	الدكتورة سعاد ابراهيم صالح
• العلاقات الدولية	الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي

سلسلة :

رسائل جامعية

صدر منها :

• صناعة النقل البحري والتنمية في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور بهاء حسين عزي
• الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول	الأستاذة ثريا حافظ عرفة
• الملك عبدالعزيز ومؤتمر الكويت	الأستاذة موضي بنت منصور بن عبدالعزيز آل سعود
• العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن (الطبعة الثانية)	الأستاذة أميرة علي المداح
• القصة في أدب الجاحظ	الأستاذ عبدالله باقازي
• تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف	الأستاذة فوزية حسين مطر
• النظرية التربوية الإسلامية	الأستاذة آمال حمزة المرزوقي
• نظام الحسبة في العراق.. حتى عصر المأمون	الأستاذ رشاد عباس معتوق
• المقصد العلي في زوائد أبي يعلي الموصلي (تحقيق ودراسة)	الدكتور نايف بن هاشم الدعيس
• الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية	الأستاذة ليلى عبدالرشيد عطار
• الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية	الأستاذ نبيل عبدالحي رضوان
• دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام	الأستاذة فتحية عمر حلواني
• الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام	الأستاذة نورة بنت عبدالملك آل الشيخ
• دراسة اثنوغرافية لمنطقة الاحساء (باللغة الانجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• عادات وتقاليد الزواج بالمنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية (دراسة ميدانية انثروبولوجية حديثة)	الأستاذ أحمد عبدالاله عبدالجبار
• افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي	الأستاذ عبدالكريم علي باز
• دور المياه الجوفية في مشروعات الري والصرف بمنطقة الإحساء بالمملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية)	الدكتور فايز عبدالحميد طيب
• تقويم النمو الجسماني والنشوء	الدكتورة ظلال محمود رضا
• العقوبات التفويضية وأهدافها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي
• العقوبات المقدرة وحكمة تشريعها في ضوء الكتاب والسنة	الدكتور مطيع الله دخيل الله اللهيبي

تحت الطبع :

● تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر	الأستاذ محمد فهد عبدالله الفعر
● التصنيع والتحضر في مدينة جدة	الأستاذة عواطف فيصل بياري
● الطلب على الإسكان من حيث الاستهلاك والاستثمار	الدكتور فاروق صالح الخطيب
● تعليم اللغة الإنجليزية (باللغة الإنجليزية)	الأستاذ مأمون يوسف بنجر
● التحريف والتناقض في الأناجيل الأربعة	الأستاذة سارة حامد محمد العبادي



صَدرمنها :

● حارس الفندق القديم (مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم
● دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية)	الدكتور محمود الشهابي
● التخلف الإملائي	الأستاذة نوال عبدالمنعم قاضي
● ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودية	إعداد إدارة النشر بتهامة
● ملخص خطة التنمية الثالثة للمملكة العربية السعودي (باللغة الانجليزية)	إعداد إدارة النشر بتهامة
● تسالي (من الشعر الشعبي) (الطبعة الثانية)	الدكتور حسن يوسف نصيف
● كتاب مجلة الأحكام الشرعية على مذهب الإمام أحمد بن حنبل الشيباني	الشيخ أحمد بن عبدالله القاري
(دراسة وتحقيق)	الدكتور عبدالوهاب إبراهيم أبوسليمان الدكتور محمد إبراهيم أحمد علي
● النفس الإنسانية في القرآن الكريم	الأستاذ إبراهيم سرسيق
● واقع التعليم في المملكة العربية السعودية (باللغة الإنجليزية) (الطبعة الثانية)	الدكتور عبدالله محمد الزيد
● صحة العائلة في بلد عربي متطور (باللغة الإنجليزية)	الدكتور زهير أحمد السباعي
● مساء يوم في آذار (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد منصور الشقحاء
● النبش في جرح قديم (مجموعة قصصية)	الأستاذ السيد عبدالرؤوف
● الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام	الدكتور محمد أمين ساعاتي
● الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك	الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
● الدليل الأبجدي في شرح نظام العمل السعودي	الدكتور عاطف فخري
● رعب على ضفاف بحيرة جنيف	الأستاذ شكيب الأموي
● العقل لا يكفي (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي الشيخ
● أيام مبعثرة (مجموعة قصصية)	الأستاذ فؤاد عنقاوي
● مواسم الشمس المقبلة (مجموعة قصصية)	الأستاذ محمد علي قدس
● ماذا تعرف عن الأمراض ؟	الدكتور اسماعيل الهلباوي
● جهاز الكلية الصناعية	الدكتور عبدالوهاب عبدالرحمن مظهر
● القرآن وبناء الإنسان	الأستاذ صلاح البكري
● اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية	الأستاذ علي عبده بركات
● الطب النفسي معناه وأبعاده	الدكتور محمد محمد خليل
● الزمن الذي مضى (مجموعة قصصية)	الأستاذ صالح ابراهيم

- مجموعة الخضراء (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ علي الخرجي
- ديوان السلطانين — الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي
- الامكانات النووية للعرب وإسرائيل — الدكتور صدقة يحيى مستعجل
- رحلة الربيع — الأستاذ فؤاد شاكر
- وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — أحمد شريف الرفاعي
- البحث عن بداية (مجموعة قصصية) — الأستاذ جواد صيداوي
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — الدكتور حسن محمد باجودة
- المجنونة اسمها زهرة عباد الشمس (ديوان شعر) (الطبعة الثانية) — الأستاذة منى غزال
- من فكرة لفكرة (الجزء الأول) — الأستاذ مصطفى أمين
- رحلات وذكريات — الأستاذ عبدالله حمد الحقيل
- ذكريات لا تنسى — الأستاذ محمد المجذوب
- تاريخ طب الأطفال عند العرب — الدكتور محمود الحاج قاسم
- مشكلات بنات — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- دراسة في نظام التخطيط في المملكة العربية السعودية — الأستاذ يوسف ابراهيم سلوم
- نفحات من طيبة (ديوان شعر) — الأستاذ علي حافظ
- الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبدالله عباس بن صديق
- الماء ومسيرة التنمية (في المملكة العربية السعودية — الأستاذ مصطفى نوري عثمان
- الدليل لكتابة البحوث الجامعية — الدكتور عبدالوهاب ابراهيم أبوسليمان
- القطار والحبل (مجموعة قصصية) (الطبعة الثانية) — الأستاذ السيد عبدالرؤوف
- المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية — الدكتور علي علي مصطفى صبح
- مسائل شخصية — الأستاذ مصطفى أمين
- مجموعة النيل (دواوين شعر) — الأستاذ طاهر زمخشري
- عام ١٩٨٤ لجورج أورويل (قصة مترجمة) — الأستاذ عزيز ضياء

تحت الطبع :

- سرايا الإسلام — الشيخ أبو تراب الظاهري
- قراءات في التربية وعلم النفس — الأستاذ فخري حسين عزّي، الدكتور لطفي بركات أحمد
- الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — الدكتور جميل حرب محمود حسين
- ملامح وأفكار — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
- النظرية الخلقية عند ابن تيمية — الدكتور محمد عبدالله عفيفي
- الكشاف الجامع لمجلة المنهل — الأستاذ عبدالله سالم القحطاني
- ديوان حمام : (ديوان شعر) — الأستاذ محمد مصطفى حمام
- رحلة الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس
- قريش والاسلام — الدكتور حسين مؤنس
- الدفاع عن الثقافة — الدكتور عبدالعزيز شرف
- الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث — الأستاذ علي مصطفى عبداللطيف السحرتي
- مشكلات لغوية — الدكتور شوقي النجار
- دليل مكة السياحي — اعداد تهامة للنشر والمكتبات

- في بيتك طبيب — الدكتور محمد عبدالله القصيمي
- مجموعة فاروق جويدة (دواوين شعر) — الأستاذ فاروق جويدة
- البسمات — الدكتور حسن نصيف
- نسيب الشريف الرضي: الحجازيات وقصائد أخر — الدكتور عاتكة الخزرجي
- الزكاة في الميزان — الدكتور محمد السعيد وهبة، الأستاذ عبدالعزيز محمد رشيد جمجوم
- السبئيون وسد مأرب — الأستاذ محمود جلال
- من فكرة لفكرة (الجزء الثاني) — الأستاذ مصطفى أمين

سلسلة: الكتاب العربي اليمني

تحت الطبع:

- من كوبنهاجن إلى صنعاء (ترجمة) — الأستاذ محمد أحمد الرعدي



صدر منها :

مجموعة : حكايات للأطفال — ينقلها إلى العربية الأستاذ عزيز ضياء

- سعاد لا تعرف الساعة
- الحصان الذي فقد ذيله
- تورتة الفراولة
- ضيوف نار الزينة
- الضفدع العجوز والعنكبوت
- الكؤوس الفضية الاثنتا عشر
- سرحانة وعلبة الكبريت
- الجنيات تخرج من علب الهدايا
- السيارة السحرية
- كيف يستخدم الملح في صيد الطيور

تحت الطبع

- الأرنب الطائر
- معظم النار من مستصغر الشرر
- لبنى والفراشة
- ساطور حمدان
- وأدوا الأمانات إلى أهلها
- سوسن وظلها
- الهدية التي قدمها سمير
- أبو الحسن الصغير الذي كان جائعا
- الأم ياسمينة واللص

مجموعة : لكل حيوان قصة — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- القرد
- الكلب
- السلحفاة
- الأسد
- الحمار الأهلي
- الفرس
- الغزال
- الوعل
- الضب
- الغراب
- الجمل
- البغل
- الفراشة
- الدجاج
- الحمار الوحشي
- الجاموس
- الثعلب
- الأرنب
- الذئب
- الفأر
- الخروف
- البط
- الببغاء
- الحمامة
- البوم
- البجع
- الهدهد
- الكنغر
- الخفاش
- النعام
- فرس النهر
- التمساح
- الضفدع
- الدب
- الخرتيت

مجموعة : حكايات كليلة ودمنة — إعداد : الأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- عندما أصبح القرد نجارا
- الغراب يهزم الثعبان
- أسد غررت به أرنب
- المكاء التي خدعت السمكات

تحت الطبع

- لقد صدق الجمل
- الكلمة التي قتلت صاحبتها
- سمكة ضيعها الكسل
- قاض يحرق شجرة كاذبة

مجموعة : التربية الإسلامية — للأستاذ يعقوب محمد اسحاق

- الله أكبر
- قد قامت الصلاة
- الصـــوم
- الصـــلاة
- الاستخارة
- صلاة الجنازة
- صلاة المسبوق
- صلاة الجمعة
- صلاة الكسوف والخسوف
- الشهادتان
- أركان الإسلام
- التيمم
- الوضـــوء
- الصدقات
- المسح على الخفين
- المسح على الجبيرة والعُصابة
- سجود التلاوة
- الزكاة
- زكاة الفطر
- زكاة النقدين
- زكاة بهيمة الأنعام
- زكاة العروض

قصص متنوعة :

الصرصور والنملة	الأستاذ عمار بلغيث
السمكات الثلاث	الأستاذ عمار بلغيث
النخلة الطيبة	الأستاذ اسماعيل دياب
الكتكوت المتشرد	الأستاذ عمار بلغيث
المظهر الخادع	الأستاذ عمار بلغيث
بطوط وكتكت	الأستاذ اسماعيل دياب

كتاب الناشئين

صدر منها :

مجموعة:وطني الحبيب

جدة القديمة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق
جدة الحديثة	الأستاذ يعقوب محمد اسحق

مجموعة:حكايات ألف ليلة وليلة

السندباد والبحر	الأستاذ يعقوب محمد اسحق

الديك المغرور والفلاح وحماره	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
الطاقية العجيبة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
الزهرة والفراشة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
سلمان وسليمان	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
زهور البابونج	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
سنبلة القمح وشجرة الزيتون	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
نظيمة وغنيمة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
جزيرة السعادة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
الحديقة المهجورة	الأستاذة فريدة محمد علي فارسي
اليد السفلى	الدكتور محمد عبده يماني
	إعداد الأستاذ يعقوب محمد اسحق
عقبة بن نافع	الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي الدكتور سعد اسماعيل شلبي

كتب صدرت باللغة الانجليزية

Books Published in English by *TIHAMA*

- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.
  By: F.M. Zahran / A.M.R. Jamjoom / M.D.EED
- Zaki Mubarak: ACritical Study.
  By Dr. Mahmud Al Shihabi
- Summary of Saudi Arabian Third Five Year Development Plan.
- Education in Saudi Arabia, A Model With Difference Second Edition.
  By: Dr. Abdulla Mohamed A Zaid
- The Health of the Family in A Changing Arabia. (*Third Edition*)
  By Dr. Zohair A. Sebai
- Diseases of Ear, Nose and Throat.
  By: Dr. Amin A. Siraj / Dr. Siraj A. Zakzouk
- Shipping and Development in Saudi Arabia.
  By: Dr. Baha Bin Hussein 'Azzee
- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Who's Who in Saudi Arabia.
- An Ethnographic Study of Al-Hasa Region of Eastern Saudi Arabia.
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib.
- The Role Of Groundwater In The Irrigation And Drainage Of The Al- Hasa Of Eastern Saudi Arabia.
  By: Dr. Faiz Abdelhameed Taib
- An Analysis Of The Effect Of Capitalizing Exploration And Development Costs In The Petroleum Industry-With Emphasis On Possible Economic Consequences In Saudi Arabia.
  By: Muhiadin R. Tarabzune
- An Evolving Typology Of Constructs Of Critical Thinking, Curriculum Planning And Decision Making In Teacher Education Programs Based On The Islamic Ideology.
  The Case Of Saudi Arabia
  By: Ahmad Issam Al-Safadi